جميلة قوجيل

كتاب أحمد

مسارات النور

رواية



جميلة قوجيل

كتاب أحمد

مسارات النور

رواية

ردمك: 978-9969-557-10-7
الإيداع القانوني السداسي الثاني 2024
منشورات دار لومي
74 شارع حسيبة بن بو العيد – الجزائر
الهاتف: 0770 88 14 50

9 789969 557107

ليتني أستطيع أن أؤازره...

ليتني أكون حينها جَذَعـا

تأمّل العبارة، ثمّ دسّ اللّفائف وإنجيل برنابا المحرّم تحت ثوبه الكهنوتيّ الفضفاض، يخفي ابتسامته كمن عثر على كنز. تسلّل من المكتبة وأقفل البـاب مغـادرا حتّى لا يشعــر به أحد.

كلمة المترجم

نضع بين أيدي قرّاء العربيّة والمشتغلين بالتّاريخ والسّير هذا المخطوط الذي يعود إلى فجر الوحي بل إلى زمن يسبقه ويمهّد له، هنا تكمن الضّرورة التي دعت إليه. كتاب أحمد مخطوط لم ينل حظّه من الاهتمام رافق مخطوطا آخر شاع صيته في الأوساط الإيطاليّة والأوروبيّة عامّة هو إنجيل برنابا المحرّم، وحان الأوان لأن يجد مكانته اللاّئقة به في الثّقافة العربيّة لما له من اشتغال على البدايات التي تهمّنا.

فمنذ أن ترجم The Gospel of Bernabas الذي يروي تاريخ يسوع المسيح من الإيطالية القديمة حسب أقدم نسخة متوفرة إلى العربيّة على يد الدكتور خليل سعادة سنة 1908م، والأمل يحدو كثيرا من المترجمين إلى نقل ما رافقه من مخطوط Il Libro di Ahmad إلى العربيّة، وهو ما وُجد معه في حقيبة كتانيّة واحدة محفوظا في المكتبة الوطنيّة بفيينا، أثبتت دراسات الخبراء للورق والحبر وفق التّحليل الكيميائيّ النّوويّ للتعرّف على عمرها أنّها تعود إلى القرن السّادس الميلاديّ. فنحن أولى بقراءة هذا الكتاب الذي يتعلّق بنبيّ هذه الأمّة قبل بعثته، محمّد الإنسان صلوات ربي عليه وسلامه.

المخطوط مجلد ضخم مكوّن من نسختين (A) و(B) في المكتبة الوطنيّة النّمساوية بفيينا. النّسخة اللاّتينية التي تحمل صفة (A) هي النّسخة الأصليّة التي كتبت على لفائف البرديّ المصريّ ويبدو أنّها

حفظت في جرّة كبيرة إلى أن وصلت إلى مكتبة البابا حسب تحليل الخبراء، لكنّ بعض أوراقها أصابه التّلف ممّا استدعى لترميم الثّغرات اعتماد فريق التّحقيق على نسخة أحدث هي النّسخة الإيطاليّة (B) التي كتبت بيد الرّاهب فرامينو وتعود إلى القرن السّادس عشر الميلاديّ. وهذا ما تبيّنه نوعيّة الورق الذي يمكن تعيين أصله من الآثار المائيّة التي تظهر عليه، وهي نسخة مجلّدة بصحيفتين مزيّنتين بنقوش ذهبيّة.

من أعوص ما يصادفه المترجم حمولة النصّ وما يكتنز به من أوجه تتعدّد ما ظهر منها وما بَطُن، ممّا استدعى ضرورة معرفة بالبيئة وبالسّياق الاجتماعيّ والثّقافيّ، بل الإحاطة التي سعينا قدر المستطاع لأن تكون واعيّة بالأرضيّة الزّلقة والحساسة التي يتمّ الاشتغال عليها من خلال الكتب المتخصّصة في هذا المجال. ناهيك عن مؤلفات التّاريخ التي تنقل الحدث في حدّ ذاته ومؤلفات السّيرة ودلائل النّبوّة والشّمائل المحمّديّة، وحتّى المعاجم العربيّة التي مثّلت مادّة خاما لما غاب في الكتب المتخصّصة وفرضته خصوصيّة كتاب أحمد التي لم نجدها في مصدر آخر وكانت شحيحة. وكان ذلك أمرا شاقّا لطول العهد وبعد الشُقّة ولاتّساع المدوّنة وتشعّبها لولا الاستنجاد بفريق عمل كامل ذلّل تلك الصّعوبات، وإلاّ لما رأت هذه التّرجمة النّور...

عمدت إلى شرح كلمات معدودات كانت بحاجة إلى توضيح وهي في معظمها كلمات قديمة لم تعد مستعملة أو في حكم المهمل، وتركت بعض التّعابير التي تدلّ في لغتها الأمّ أكثر من غيرها وأثبتّها في الهامش

بالعربيّة وهي قليلة في متن المخطوط لارتباط أكثر الأحداث بشبه الجزيرة العربيّة، مستنجدة بمتخصّصين يجمعون بين معرفتهم باللاّتينيّة والإيطاليّة القديمة التي تمثّل اللّغة المحليّة لشعب توسكانا في تلك الحقبة.

وخصّصت اللّون الغامق ببنط عريض للكلام المنقول غير المتصرّف فيه، وهو في معظمه متعلّق بشخصيّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو من عاصره، بعد العودة إلى كتب السّيرة، وفي مواضع أخرى اضطررت إلى تغيير بعض العبارات بما يتواءم وسيرة المصطفى وأحاديثه عليه أفضل الصلاّة وأزكى التّسليم.

أمّا تقسيم الكتاب ووضع عناوين لمساراته ومقاماته فقد احترمت فيه إرادة صاحب المخطوط، وحاولت قدر المستطاع المحافظة على الرّوح العربيّة التي نطق بها القسّ الضّرير، وإن تنازعتها روح أخرى فلورنسيّة هي روح كاتب هذا النصّ.

نشير إلى أنّ واضع هذا المخطوط الذي يعود إلى أصول إيطاليّة لم نقف له على ترجمة ولا أيّ معلومات تخصّه، عدا ما ورد فيما كتبه عن نفسه في بوحه وهو في الصّحراء قبل أن يختفي أثره ويسكت صوته، مع المنحوتة الصّغيرة التي رافقته في الحقيبة الكتّانيّة، وهي أيقونة للعذراء وهي تحمل صغيرها المسيح في طفولته، والتي كشفت هيئة الآثار أنّ حَجرها يعود إلى مروة بيضاء تنتمي إلى شبه الجزيرة العربيّة في غابر الزمان، وهي في جودة نقوشها وتفاصيلها لا يمكن أن تنسب لعربيّ من شبه الجزيرة، وقد أثبت المختصون شبهها بنسخة

كانت في جوف الكعبة بحجم كبير اختُلف إن كانت بها قبلا ممّا جلبه عمرو بن لُحي من أصنام بعد سفره إلى الشّام، وفي روايات بعد مرضه الشّديد الذي شُفي منه معتقدا أنّ لها الفضل فيه، أم أنّها من بقايا حطام السّفينة الرّومانيّة التي وُجدت بساحل جدّة، والتي تعود إلى فترة إعادة بناء الكعبة المشرّفة التي كان للنّبي الأميّ صلّى الله عليه وسلّم اليد الطّولى فيها، يد الحكيم الثّاقب النّظر التي يعرفها الجميع. إلى جانب أيقونة العذراء قطعة صغيرة لا تتجاوز كفّ اليد هي منحوتة لرجل منهك يحمل حجرا على ظهره الذي يكاد يميل إلى درجة أن يفترش الأرض، أثبت فريق الآثار أنّ الحامل حجر مصريّ قديم والمحمول من رخام مناجم كرارا. إلى جانبهما محبرة نحاسيّة تعود نقوشها إلى الفترة الرّومانيّة، يَظهر حبرها الأسود راسبا وجافا في قعرها في صور أرفقت بالنّسخة الأصليّة بمكتبة فيينا في بطاقة تعريف بالمخطوط.

نقَل الكتاب حضارة الشّرق إلى الغرب بأيد إيطاليّة... كما قال الكاتب الفلورنسيّ في متن مؤلّفه: "هو ثمرة الصّحراء التي ستقطف في مدينة فلورنسا"، واليوم بعد مئات السنين بضاعتنا رُدّت إلينا.

شكرٌ عميقٌ على التّعاون اللاّمشروط معنا لكلّ الهيئات التي أسهمت في تحقيق هذا العمل ومراجعته، أخصّ بالذّكر مكتب الدّراسات الاستشراقيّة بنابولي ورابطة العالم الإسلاميّ بمكّة المكرّمة، وفرعها بالجزائر، ومركز السّيرة النّبويّة للدّراسات والبحوث بإسطنبول، وإلى كلّ من مدّ يد العون لإنجاز هذا العمل من طور

الفكرة إلى طور التخلّق والولادة، وأسهم في مدّ الأواصر وتقريب المسافات بين الماضي والحاضر، لعلّ في الغد ما هو أجمل.

خولة سمرة

الجزائر- فيينا - نابولي - مكّة - إسطنبول

2020 -2024

اللّيلة الأولى بنزل التّيبر

ما كنت أتصوّر أنّي سأجده...

مشى مئات الأمتار دون أن يلتفت وهو لا يعرف وجهته، وبعد أن قطع كلّ تلك المسافة لاهثا وبدأت أنفاسه تتقطّع أدرك أنّه يجب أن يخفّف من سرعته ويهدأ قليلا، أو هذا ما يجب أن يبديه على الأقلّ للمارّة والفضوليّين الذين قد يكشفون من علامات وجهه ما لا يحبّ أن يُطلع عليه أحدا. كان الوقت عند أوّل انعطاف مناسباً لأن ينظر وراءه، ملأ صدره بهواء بارد فخرجت من منخريه وفمه دوائر من الهواء المتصاعد، وفي لمح البصر أدار رأسه بعد أن استطلع ما حوله مواصلا سيره.

كلّ شيء عاديّ، الحياة أكثر من عاديّة في هذا الشّارع. الجميع منشغل بقضاء مصالحه، الباعة المتجوّلون يعرضون بضائعهم للمتنزّهين أمام النّهر، والأطفال يجمعون الحصى ويتبارون لرميها في الماء أبعد نقطة فتشكّل دوائر فيه قبل أن تنتهي في قاعه، ويحاكون دورانها إلى أن يفقدوا السيطرة ويصيبهم الدوّار، فيسقطون على الأرض ويضحك من استطاع أن يقاوم على أوّل من فشل، وبعد أن يعود إليهم توازنهم يجرون ويقفزون ويتشاجرون كشأنهم كلّ يوم.

السيّدات من المجتمع المخملي النّبيل يمشين بدلال مبالغ فيه، يضعن قبعاتهنّ بعناية حتّى لا يُفسدن تسريحة الشّعر، ويتأبطن حقائبهنّ وهنّ يتنسمن هواء النّهر ويتمتعن بمشاهدة الطّيور. كان الجنود منهمكين في دوراتهم الاستطلاعيّة العاديّة ... تنفّس بعمق وقد

عاد إليه اطمئنانه واستشعر مجدّدا الفرحة التي انتابته وهو يجد المخطوط الذي بحث عنه طويلا.

إنّ الكتب الثلاثة التي جلبَتْها له مع اقتراب الظّلام تلك السيّدة التي لم تَذْكر اسمها، وطلبت منه أن يبقي الأمر سرّا، شغلته بما يكفي ليبحث عن الحقيقة، أهي كتب هرطوقيّة بغيضة كما يشيع في الكنيسة؟ لماذا اختارته هو بالذات لتضعها بين يديه؟ أتراها دسيسة من الدّسائس الكثيرة ممّن يحسدونه على ما هو فيه من منصب كنسيّ مرموق، قريب من حضرة البابا سيكتوس الخامس Sixtus V؟

تُرى ماذا تخفي له الأيام؟

قرّر أن يغضّ الطّرف عنها، ولن يقرأها وسيعيدها لها... لكن كيف يصل إلى طريقها وهو لا يعرف حتّى اسمها أو عنوانها. في الحقيقة لم يملك نفسه في تلك اللّيلة تجاهها، عندما تاه بين صفحاتها موصدا بالمفتاح غرفته ملك عليه حواسه سؤالٌ كبير اِلتهمه ونسف كلّ معرفته ومسبقاته:

لم لا يكون ما بين أيدينا هو الهرطوقيّ، والأصل ما أُخفي لأسباب يجهلها؟

-Ora, miocarofratello, immaginatustesso il desiderio ardente cheavevo di trovarequestovangelo*

* - "ولك أن تتخيّل الآن عن نفسك يا أخي العزيز الرغبة المتوهّجة التي كانت لديّ لكي أجد هذا الإنجيل"

همس في أذن صديقه الوحيد الذي يكتم أسراره في الصّباح الباكر عند صلاة الفرض بعد تراتيل القدّاس... في حضرته وحضرة الربّ لا غير...

في ذلك الإنجيل الذي ذكرَتْه رسائلُ إريانوس إجابات لحيرته حتما، ولكن أين يجده؟

أمسك جيّدا بالحقيبة الكتانيّة التي تحوي الكتابين عندما وضع حزامها في عنقه، هي في مأمن. خرج من جحيم قلقه ودقّات قلبه ترتفع بعد أن دسّ في ثوبه الكهنوتيّ الإنجيل الذي شغله أمره منذ ليلة قدوم المرأة ومخطوطا آخر وجده معه يربطهما حزام فضيّ تآكلت أطرافه. أحسّ أنّ في قعر الحقيبة شيئا بل أشياء صلبة تحسّسها بأنامله.

لا وقت لذلك الآن، نزعها وقسّمها على جيبيه حتّى لا يبدو منتفخا ومثيرا للشّبهة. ما هذا؟ أيقونة للعذراء وحجر صغير رخامي بحجم الكفّ. لحسن حظّه أنّ ثوبه الكهنوتيّ فضفاض بما يكفي ليخفي الكثير.

ترك خلفه البابا يستفيق تدريجيّا من غفوته بعد أن استأذنه فحنى رأسه وأبدى كلّ احترامه:

- ليحفظك الربّ أيّها المخلص فرامينو.

ورحل بهذا الكنز الذي طالما طرد النّوم من جفنيه، وراح بين الحين والآخر يتحسّسه تحت ثوبه كأنّما يخشى أن يأخذه منه أحد.

أكبر مكتبة رآها في حياته كلّها طيلة فترة تعلّمه ورهبنته، ها قد تمكّن أخيرا من الدّخول إلى غرفتها السّريّة، واجتمع له لحسن حظّه

في يوم واحد أن غفا البابا أيضا. نومه الثّقيل مكّنه من البحث بين الرّفوف الكثيرة والطّويلة بشيء من الأريحيّة. مئات المخطوطات، نسخ أصليّة بخط اليد لأعمال نادرة باللاّتينية واليونانيّة والسّريانيّة والعربيّة أيضا. عدد كبير من الكتب النّفيسة التي ضمتها مكتبة القسطنطينية والأندلس نقلت هنا، مخطوطات للرّازي وابن سينا وابن رشد والغزالي وابن الهيثم والفارابي، كتب السّحر واللاّهوت تملأ الرّفوف.

لكنّي لم أتوقّع أن أجدها بعد هذا البحث هناك في الجرّة القديمة. القدر وحده هو الذي وضع الجرّة أمامه، وهو من دفعه لفتح غطائها، ولم يخطر بباله أنّ المخطوط يرقد هنا بسلام منذ زمن لا يدري مدّته، حمل الجراب ووضعه بما فيه في حقيبته الكتّانية.. أخيرا عثر على المخطوط الذي سيخرجه من حيرته، لم يتوقّع أبدا أن يجده في هذا المكان، كيف نسي أنّ الأوائل من أجداده كانوا يخفون هذه النّفائس في مثل هذه الأواني!؟

يا للأسرار التي تخفيها هذه المكتبة؟! ترى ما قيمة المكافأة التي منحها البابا للسيّد دومينيكو فونتانا على إنجازه لهذا المبنى الذي لا يملك أحد أمام فخامته إلاّ أن يصاب بالدّهشة، وينزع قبّعته وينحني مقرّا بعبقرية مصمّمه حتّى يضمّ كلّ هذا العدد المتزايد للكتب سنة بعد سنة؟

حزم أمتعته وهو يغادر غرفته في آخر النّهار. لا لا لن أثير الشّبهة لن آخذ شيئا، سأخرج خالي الوفاض، فقط المال والكثير منه. أراد أن

يودّع صديقه لكنّه لم يجده، تذكّر أنّه ذهب لخدمات خيريّة في المدينة لتفقد الأرامل واليتامى ضمن عمل دوريّ، سيغيب عن الكنيسة لبعض الوقت. غادر وصورة المشنقة وقطع الرّؤوس التي تقام بين يوم وآخر على جسر سانت أنجلو تلحّ عليه، شعر كأنّ دلو دمٍ قانٍ وفائر دُلق على كامل جسده، سترمى جثّته بالنّهر، بلع ريقه بصعوبة وكلام أحد الباعة يدخل أذنيه ويحلّ عليه كالصاعقة:

- Ci sonopiù teste mozzateappese a Ponte Sant'Angelo chemeloni sui banchi del mercato*

إنّ مجرّد التّفكير في الاطّلاع على هذا الكتاب يعدّ تهمة، تلمّس رقبته وسط الزّحام، ارتعشت يده وهي تنزل إلى الحقيبة الكتانيّة التي تحت الثّوب ثمّ أعاد خفضها في لمح البصر ونظر يمنة ويسرة. بحقّ الربّ أنا أثير الشّبهة بهذا الوجه المرتبك وهذه التّصرّفات، عليّ أن أستحضر شيئا من رباطة الجأش ووقار الرّهبان. بلع ريقه مرّة أخرى واختفى في الظّلام.

لن يبيت اللّيلة في الكنيسة ولا في بيته، لمن سيلجأ؟ لا يريد أن يحرج أحدا من معارفه، قداسة البابا سيكتوس لن يمرّر الأمر بسلام، أم تراه لا يعاقب على سرقة الكتب؟ ولكنّه ليس كتابا عاديّا. حتما سيكون العقاب شنيعا، وأيّة سرقة؟ سرقة كتاب محرّم، سيصلبه ثمّ

---

* - تتجاوز عدد الرؤوس المقطوعة المعلّقة على جسر سانت أنجلو بكثير عدد ثمار الشّمام في أكشاك السّوق.

يشنقه ثمّ يرمي لحمه إلى الكلاب الضالّة. من يسرق مخطوطا يصاب بلعنته ويعيش ما تبقى من حياته مطرودا، فما بالك بمخطوطين.

أتراه ينتبه لغيابهما من مكتبة تعجّ بملايين الكتب؟ ليس سوى حافظ المكتبة الذي يمكنه أن يكتشف السّرقة. قرّر بعد أن تأكّد من عدم استيقاظ البابا أن يستبدلهما بكتابين آخرَين ويدسّهما في الجرّة التي لن يتفقّدها أحد حتما إلاّ بعد فترة طويلة.

إن سلم من الشّنق على الجسر فلن يسلم حتما من محرقة محاكم التّفتيش التي يبدو أنّها قليلا ما تنطفئ، حتّى وإن انطفأت فنارها لا تزال خامدة.

حتما ستكون عقوبة سرقة الكتب المحرّمة أشنع. تحسّس رقبته وهو يضع قدمه اليمنى على عتبة بيت قديم.

كم يخشى من عيني البابا، له نظرة نافذة إلى الأعماق، يشعر دوما كأنّما يقرأ أفكاره، حاجباه الغليظان ورأسه الكبير يربكانه. لا يدري كيف غفا اليوم؟ لعلّه يعاني من أرق باللّيل، فليس من عادته النّوم في مثل هذه السّاعة. اختلس النّظر بعد أن واتته الفرصة، باحثا عن الكتاب الذي صار يشغله في المدّة الأخيرة ولطالما تمنّى لو يقع بين يديه، حتّى حافظ المكتبة في حضرة البابا لن يتجرّأ بالدّخول ليراقب ما يفعل، لن يضيّع هذه الفرصة التي جاءت إليه على طبق من ذهب.

كان يقرأ عناوين المؤلفات يمينا وشمالا بقلق كبير وبعينين تسرّب إليهما اليأس، رفع رأسه وقد غشيه شيء من الدوار. خطا بضع خطوات فلمس كتفه منحوتة لشخص يبدو مهمّا، بأبعاده الطّبيعيّة،

يحمل كتابا كأنّما هو حقيقيّ أفقدته توازنه والهدوء الذي حاول أن يُظهره حتّى لا يكشف أمره إذا ما فتح البابا عينيه فجأة. تعثّر وكاد يسقط، بدا وجه المنحوتة كأنّما سيشي به، وفي حركة رشيقة منه أمسك بجرّة كبيرة كاد يسقطها، لم تكن تبعد عن منحوتة الرّجل. حمدا للربّ، إنّه يستشعر مدى رعايته له وإلاّ لكسرت الجرّة وأحدثت جلبة كبيرة سيستفيق إثرها البابا حتما. فتحها على سبيل الفضول ولم يتوقّع أن يجده في هذا المكان.

سمع من أستاذه أنّ كتباً كثيرة كانت تحفظ في جرار طويلة الأعناق، لكنّه لم يتوقّع أنّ هذه الجرّة تخفي ما بحث عنه طويلا. وضع الجراب القديم على الطاولة وفتحه، لم يكن الإنجيل بمفرده بل مربوطا بحزام فضيّ مع برديّات. فتح ربطة الحزام، انكشف له عنوان لفائف البرديّ:

"كتاب أحمد"

قلّب صفحاته بسرعة، شدّته هذه الكلمات التي توقّف عندها قبل أن يقرّر ما سيفعله. قرأ باللاّتينية ما معناه:

ليتني أستطيع أن أؤازره...

ليتني أكون حينها جذعا.

أعاد ربط الحزام، عليه أن يحسم قراره بسرعة لا وقت للتردّد. البابا يتحرّك، يمدّ يده إلى أنفه ويحكّه مغمض العينين، تسارعت دقّات قلبه، أتراه سيستيقظ ويضبطه بجرمه؟ تجمّد في مكانه إلى أن عاد البابا إلى غفوته.

وضع بسرعة كلّ ما وجده في حقيبته الكتانيّة وأدار معلاقها على رقبته، ثمّ غطّاه بثوبه، وسوّى الصّليب المتدلّي على صدره كتمويه، نظر إلى البابا الذي عاد إلى وضعيته الأولى مسترخيّا بجسمه الثّقيل. حمدا للربّ لايزال يغطّ في النّوم، ولاتزال الفرصة سانحة أمامه لينفذ بجلده ويسرق المخطوطين. لا لا لن أفعل سأنتظر بعض الوقت ليستفيق نيافته ثمّ أستأذنه للمغادرة حتّى لا يشعر بشيء.

صعد درج البيت القديم بسرعة وهو يتلفّت خلفه وصورة البابا غاضبا ماثلة أمامه وهو يأمر جنده أن ينتشروا في المدينة ليأتوه به مكبّلا حيّا أو ميّتا. يبدو بيتا متواضعا يستأجره مالكه للنّزلاء الذين يأتون لمثل هذا المكان طلبا للعزلة والهدوء والإطلالة على نهر التيبر.

ذكّره صوت تدفّق الماء بالذئبة لوبا التي أنقذت التوأم رومولوس وروموس وأرضعتهما بعد أن رمتهما زوجة أبيهما الملك في النهر وجرفهما التيار، وخطرت بباله منحوتة لوبا كابيتولينا Lupa Capitolina.

وصل إلى عتبة الغرفة بعد أن دفع أجرة اللّيلة مسبقا لمالكه. لا يدري عدد اللّيالي التي سيقضيها فيه، كاد يقول بكلّ افتخار:

-فرامينو الرّاهب من كنيسة البابا سيكتوس الخامس، لكنّه أحجم في الوقت المناسب، لا يريد أن يكشف هويّته.

فور دخوله الغرفة نزع حقيبته الكتّانيّة من رقبته بعد أن أقفل الباب بالمفتاح، أغلق باب الشّرفة وأسدل السّتائر، وجلس على السّرير وقلبه يعلو خفقانه حتى يكاد يخرج من ثوبه. أخرج الكتابين وهو لا يصدّق أنّ إنجيلا محرّما منعه القانون المسيحيّ بحوزته الآن.

شرع في القراءة ومشهد حرق الأناجيل الذي حدّثه عنه أستاذه ماثل أمام ناظريه.

وصلته أصوات تدفّق ماء نهر التيبر واضحة من شرفة الغرفة، وأصوات طيور تصطاد ليلا في الجوار.

الجوّ بارد ورطب، أشعل المدفأة، ثمّ فتح إنجيل برنابا. ورّقه بعناية، مخطوطة قديمة يبدو أنّها تعود لمئات السّنين، إلى القرون الأولى للميلاد، لم يستطع أن يغفو ولو للحظة قبل أن يتمّها ويقارن بين المتاح وهذه النّسخة. سجّل أولى ملاحظاته على هامشها، كانت ليلته كاشفة بيضاء.

فتح فجرا المخطوط الثّاني، لن يفهم لاتينيّته إلاّ الخاصّة، سجّل عنوانه كما تعوّد في مذكّراته عندما يقرأ كتابا:

Il Libro di Ahmad

كتاب أحمد، وهو يسمع صوت القوارب والمجاديف التي تقلع لتصل إلى الضفّة الأخرى من النّهر وتضع حمولتها في هدوء الصّباح. أطلّ برأسه لفترة وجيزة قبل أن يستأنف القراءة، فغمرت وجهه النّسمات الأولى الطّازجة برائحة النّهر، ولولا البرد الذي احمرّت له أرنبة أنفه لخرج بكلّه وبقي في الشّرفة مدّة أطول.

فتح الصّفحة الثّانية من المخطوط " هذا ما أعدّته له السّماء منذ أزيد من واحد وأربعين حولا... " غاص في هذه الكلمات وسؤال واحد يلحّ عليه أتراه أحمد هو محمّد الذي ذكره هذا الإنجيل؟

عدّل من جلسته، نظر إلى النّهر الذي كان هادرا يدخل الأعماق، شعر لوهلة أنّه تحرّر، ولم يعد يعبأ بما قد يفعله البابا عندما يكتشف غياب المخطوطين، فهما يستحقّان أن يخاطر بحياته لأجلهما.

مقام الدّهشة

هذا ما أعدّته له السّماء منذ أزيد من واحد وأربعين حَوْلا... بل إنّا لا نعرف البدايات التي انتهت إلى هذا المآل، لعلّها تمتدّ إلى زمن لا نستطيع أن نحيط بحدوده. لعلّ البدايات موغلة في القدم، منذ أن ملأ هذا الوادي القفر صراخ طفل انفجر لأجله باطن الصّحراء، ثمّ عُمّر وجهها بنسله، بل علّل البدايات نُسجت وآدم بين الرّوح والجسد، طريح طينته.

البدايات تكون دوما ضبابيّة وغير مرتقبة لمثلنا نحن البسطاء وغير العارفين، لكن أكيد أنّها حُفّت بعناية الربّ تقدّست أسماؤه.

- ما أجمل أن يشهد المرء البدايات الأولى التي دفعت إلى هذه النّهاية، ليمتلئ باليقين.

توكّأت سنواته التي تجاوزت المئة على عصاه وهو يهمّ بالوقوف، وبخطى متّئدة اقترب منها، وعيناه ما تزالان مصوّبتين إلى السّماء، وارتعاشة تغطّي على صوته الذي لا يكاد يُفهم:

- اذهبي إليه وقولي له فليَثبتْ.

عاد إلى زاوية من غرفته بعد أن انصرفت، جلس ثمّ جذب إليه أوراقه يتلمّسها بأطراف أصابعه، ويشمّ رائحة ورق البرديّ القديم. فتح اللّفافة وتحسّس العبارات الآراميّة بسمعه وقلبه، وانفلتت من عينيه دمعة وهو يتذكّر مصرع رفيق دربه في الصّحراء على يد قطّاع الطّرق بعد أن ترك أهله وعشيرته بحثا عن نجاة من حيرته. لم يكن يعلم أنّ منجاته، وما قطع لأجله كلّ تلك المسافة أقرب إليه من أنفه، في الدّيار

التي يسكنها. ليته أدركه... كان يخفي له الكثير من الأسئلة والحنين بعدما لقيه من أقرب الأقربين له...

- كم تمنّى لو أدركه...

لم يستطع النّوم أو الاستلقاء على سريره كعادته كلّ صباح، أو حتّى الانصراف إلى أشغال يومه، فشعور غريب كان يملؤه منذ أن جاءت المرأة إليه وحكت له ما حدث. ذهابا وإيابا في الغرفة بعصاه التي تترك أثرا وصوتا كلّما تحرّك يطوي سنوات عمره، وصليبه الذي على صدره يتأرجح يمنة ويسرة، ثمّ يرفع رأسه إلى السّماء ولا تُسمع منه إلاّ همهمة. كاد يُغشى عليه ورغب في أن يصرخ فرحا لهذه الأخبار التي حملتها إليه، لولا أنّه تحكّم في أعصابه وهدأ أمام توتّرها.

انقضى قرابة العقدين في الانتظار ومضى معها العمر منهكا، خسر من خسر وانطفأ نور عينيه، ولم يعد في مقدروه بعدها سوى أن يلزم بيته ويترقّب، وهو يمسك بأيقونة المسيح حيث استقرّت روحه، يستحضر في ملكوتها بأصابعه تعرّجات ما مرّ به ابن العذراء على عمود الصّلب ومسمارِ الدقّ في نتوءات الخزف الذي صُنع منه.

سمعتُ همهمته من خلف السّور المشترك بين غرفتي وغرفته التي أدخل إليها من الجزء الخلفي من البيت حيث الرّدهة التي تؤدّي إلى مكان مبيت بقية الغلمان والعبيد الذين يشتغلون في الرّعي والتّجارة والقيام بمختلف شؤون السيّد. منذ أن انطفأت عيناه أدناني منه وأسكنني غرفة بقربه، أقرأ له، أو يملي عليّ إذا ما أراد إرسال رسالة أو كتابة شيء ما، بل قد نقضي جُلّ اللّيل معا إذا ما شغله أمر من

أمور ما يقرؤه في الكتب ويطلّع عليه في مختلف العلوم التي لا يزال يتبّحر فيها رغم وضعه.

- هل أستطيع أن أدخل سيّدي؟

- تفضّل يا خانوم.

استغربت حالته التي نبّأني بها صوت عصاه، والجلبة التي كانت منذ أوّل اليوم عند قدوم تلك المرأة الملتفة في ثيابها، ثمّ خروجها مسرعة تتلفّت كأنّما تخفي شيئا لا تريد أن يعلمه أحد غيرهما.

منذ أن رأيتها تغادر وأنا أشعر بالرّيبة، ولم أستطع أن أعود إلى النّوم. أمر سيّدي غريب اليوم... فهذا ليس ما يفعله في مثل هذا الوقت، أعرفه ككفّ يدي، فمن عادته في مثل هذه السّاعة أن يكون هادئا كالحمل الوديع يتلو ما يحفظه عن ظهر قلب من الإنجيل.

ما إن دخلتُ عليه حتّى رأيت في فرح عينيه المنطفئتين كلاما كثيرا كما يُظهره حاجباه عندما يرفعهما إلى سماء هو فقط من يراها. لم أتجرّأ أن أسأله، فقط تفرّستُ في ملامحه لعلّها تشي بشيء عمّا يحدث له، إلى أن خرج القسّ عن صمته وقال بامتنان شديد:

- شكرا للربّ أنّي عشت إلى هذا اليوم.

ثمّ سالت من عينيه دمعة انحدرت على وجنتيه، وغاصت في جانبي لحيته البيضاء الكثّة التي تكاد تلامس صدره... ارتيابي إذن في محلّه، هل للأمر علاقة بالسّيّدة الملتفّة في ثيابها، التي لم أعرف من تكون؟!

بادرته بالسّؤال:

- أتبكي يا سيّدي؟!

- فرحِ انتظرته منذ أمد، مذ كنت شابّا... اكتم الأمر، فهذا أمر جلَلٌ تخشاه قريش ويهود...

حدّثني بصوت خفيض يكاد يبلع فيه لسانه:

- هنا كانت البدايات على هذه الأرض قبل ما يزيد عن إحدى وأربعين سنة...

أغمض عينيه واستسلم لذاكرته، بينما أخبية الطّين التي ترقد هنا وهناك ساعات الصّباح الأولى توشك أن تنزع عنها ظلمتها.

ذلك النور...

المسار الأوّل

المنديل المخلَّق والجِراب

-1-

مكّة على وقع الأهازيج تنام ثلاثة أيام بلياليها، وعلى الفرحة تصحو بعد أن ضاق بسيّدها الخناق لنذْرٍ نذره، الآلهة شبعى حتّى التّخمة منذ يوم نحر الإبل المئة، وما ذبح في وليمة البناء، بناء عبد الله بآمنة، وأماكن السّمر عاد إليها الأنس والبهجة، مُترعةٌ اليوم بأخبار الفتى المفدّى وزواجه بجميلة بني زُهرة وشريفتهم.

البيت العتيق يستقبل هذا المساء أنغام العرس، ويصل إلى سمع الآلهة دعوات المهنّئين وهي على أكمل الرّضا، في ليلة قمراء يُستبشر بها، كأنّما السّماء تحتفل هي الأخرى بهذه الزيجة، وتضيء لهما، وهما يخطوان نحو الحياة خطوتهما الأولى، بكلّ ما أوتيتْ من قمر استدار واكتمل، ونجوم انتثرت ولمعت، وصحن ليلة صافية كقطرة ماء.

- على اليُمن والبركة، ليلة اكتمال القمر ساحرة من هذا الفناء.

ما إن سمعت الفتيات كلام بُرّة التي ما فتئت تمسح ما انفرط من دمعها منذ فجر هذا اليوم حتّى تحلّقن حول الكوّة الصغيرة المطلّة على الخارج يرقبن ضياءه بعد أن دعكن شفاههنّ والخدود بصبغ أحمر من نبات.

- انظرن إلى بهاء طلعة آمنة وكأنّها تستمدّ نضارتها منه.

- الزُّهريون مشرقو الوجوه كنوّار الرّبيع الذي يتفتّح في الفلاة.

- لكن لآمنة إشراقة مختلفة، من يقول غير ذلك؟! أمّا هدوؤها بين نظيراتها فذاك أمر لا يسعه كلام.

ضحكن ضحكات عالية امتزج فيها شيء من الثّقة وآخر من الغبطة، وتسلّل إلى قلوب بعضهنّ شعور بالغيرة وهنّ يرقصن على أغاني النّسوة اللّواتي كنّ يجلسن في حلقة كبيرة في غرفة المَضافة الواسعة التي لم تكن تبعد عنهنّ سوى أمتار، ثمّ شدّهنّ صوت عذب ينساب إلى القلوب فيتمكّن منها لمغنية بني زُهرة التي لا تقام الأعراس إلاّ بحضورها.

وفي زاوية من البيت تنفتح على المضافة لاتزال تبذل الماشطة كلّ ما في وسعها لتبرز زينة العروس رغم ثرثرتها التي لا تطاق أحيانا. قضت بُرّة الأسبوع الأخير حسب ما أشارت عليها مزيّنة الحيّ التي تمشّطها الآن في تحضير ابنتها لهذه اللّيلة، جمعت لها خليط الخطميّ والطّين الحرّ والأشنان، وها هو الآن ورق الآس جاهز بعد أن خلطته ليلة أمس بأفاويه من الطيب لتُصيّره على ما هو عليه من الطّراوة وتستخرج طيّب رائحته، تدلّك به لقَطع العرق.

- أُخفيه لهذا اليوم بعد أن جلبه وهب من رحلته الأخيرة، مشاق الطّريق الجنوبيّ وعواصف الرّمال لا تزال عالقة به.

وما إن ناولتها إيّاه فخلطته بعود رقيق حتى اِلتفتِ الصّبايا جميعا بضحكاتهنّ حولها لما تضوّع منه بعد أن كنّ يرقبن البدر وينتقلن بينه وبين آمنة الهادئة بين يديها وحناجر النّساء المغنيّات ورؤوسهنّ المتمايلة. ورق الآس والعبير آسر لا يمكن أن يملك أحد صوابه أمام إغرائه...

- هذه هي الرّائحة التي أريدها.

قالت في افتخار قمر المزيّنة والماشطة التي لم تكن لا قمرا ولا بدرا، ثمّ شرعت منتهزة استراحة المغنيّة في مقارنة بين عروس اليوم وآخر عروس جهّزتها، وهي تفشي دمامتها للحاضرات:

- كانت تقترب من السّادسة والعشرين... حتّى شعرها لم يكن حقيقيّا، فقد وصلته بيديّ هاتين، ورغم كلّ ما فعلته لأجل تجهيزها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها: الشّعر والحواجب وترطيب الجلد، وتطييب رائحة الفمّ، والحناء حتّى تبدو مقبولة، لكن هيهات... هزّت حواجبها ومطّت شفتها السفلى، إلاّ أنّ أمّ العروس كانت بخيلة معي رغم أنّي بذلت كلّ ما بوسعي. لم يكن خطئي، هذه هي ابنتهم لا يفيد في دمامتها شيء، أمّا عروسنا اليوم... بنت وهب فبيت العزّ والكرم، أنظرن إلى وجهها يستحي البدر أن يطلّ في حضرته.

تغامزت الصّبايا وتبادلن الهمس وقمر تتحدّث وتطيل في حديثها عن تحضيراتها لكلّ عروس، وأنّ لا بيت من بيوت قريش يستطيع الاستغناء عنها.

هي تملك أسرار معظم عائلات البلدة، وتعرف الكثير من خفايا بناتهنّ ونسائهنّ، وعدم إرضائها بالأجر والهديّة وحده كاف لتحقّر هذه أو تلك، وتتّهمها بالدّمامة بوصل أو ما شابه، أو تصطنع لها عيبا خفيّا لم يكن أصلا، تعرف تفاصيل ما تخفيه النّساء من الشيب وأمور أخرى.

- أمسكي لسانك يا امرأة، واشتغلي بما بين يديك.

نهرتها الجدّة وهي تشير إليها من مكانها بعصاها، وباليد الأخرى طلبت من المغنية أن تعود إلى إطرابهنّ، ولولا مكانتها من قريش وكبر سنّها لما سلمت هي الأخرى من لسانها.. عادة ما تتباهى نساء سادة قريش في هذا المجلس وبهذه المناسبة بما جلب لهنّ الرّجال من طريق الحرير وطريق البخور من أثواب وحليّ وعطور نادرة وتوابل.

أخذ جمع آخر منهنّ في حديث عن الأزواج وليلة اللّقاء الأولى... بينما انتهزت برّة فرصة انتهاء الماشطة من عملها لتجلس في المقصورة المزيّنة إلى ابنتها المقدمة على حياة جديدة، توصيها في حديث طويل قبل أن تطأ عتبة بيت زوجها...

- لا تهوّلي الأمر عليها!

صاحت كبيرة الزّهريين بطبعها الحادّ مشفقة على الصّغيرة... لكنّ بنت عبد العزّى واصلت تعداد وصاياها غير ملتفتة إلى أحد بعد أن أمسكت بيدها تصرف نظرها عن العجوز:

- أي بنيّة، اسمعيني... اصحبيه بالقناعة وعاشريه بحسن السّمع والطّاعة.

وصايا النّساء قبل الزّفة تزيد من حرج العروس، وهدوء الفتاة بدأ ينتابه بعض التّغيّر، وها هما عيناها تحمرّان، وتجتمع في محجرهما الدّموع عند سماعها لصوت يقترب.

- صوت دفوف الهاشميّين...

- أجل هذه دفوفهم أعرفها.

- لقد وصل الموكب.

- وعروسنا في أكمل زينتها. علا صوت الماشطة في تباه لا حدّ له.

أنهت برّة كلامها على استعجال، وبدأ يخالجها هي الأخرى شعور غريب أشدّ حدّة وتسارعا ممّا كانت عليه صباحا، خليط من المشاعر، وكأنّها لا تريد أن تهب ابنتها، ولكنّه ابن عبد المطّلب سيّد شباب قريش.

قبّلتْ رأس الفتاة التي لم ترفعه، ولم تستطع أن تحبس دموعها قبل أن تغادر عتبة الدّار، فالعروسان بعد أن لبثا أيّاما ثلاثا في دار بني وهب حسب عادة القوم، سيزفّان هذه اللّيلة إلى بيتهما في موكب لم تشهد مثله مكّة من قبل.

اقتربت كبيرة الزّهريين من آمنة قبل أن تقوم من مقامها لمّا رأت حزنها ووجومها، وانتهزت فرصة انشغال برّة بالتأكّد من وضع كلّ اللّوازم في قفّة الخوص، ترقب حركة يديها وهي تضع قوارير العطر والكحل والمِرود وأشياء أخرى، لتهمس بحنوٍ في أذنها:

-... لا عليك يا صغيرتي، اذهبي واملئي حياته بالحبّ والبنين... هذا فقط ما عليك!

ابتسمت آمنة واحمرّ وجهها، ولم تلبث أن خفّ عنها حزن فراق العشّ الذي ألفته عندما تعالت حناجر الهاشميّات بالغناء:

أتيناكم أتيناكم... فحيانا وحياكم

ولولا الذّهب الأحمر... ما حلت بواديكم

ولولا الحنطة السّمراء... ما سمنت عذاريكم

أتيناكم أتيناكم...

وسط ضجيج الاحتفال ألقى إليها وهب أيضا بكلمات، وهو ممسك بيدها ليساعدها على ركوب النّاقة المزيّنة، كلمات جعلتها تسمع ضجيج أطفالها، وترى دارها الواسعة الهنيئة، ومكانها من عبد الله والهاشميّين أيضا، فابتسمت وعاد إليها بعض من هدوئها. سارا معا خطوات مبتعدين عن سقيفة الدّار التي لعبت تحت ظلّها منذ صباها، وكلماته كأنّما أنبتت لها جناحين بسعة السّماء تحت وقع صوته الجهوريّ:

- أيسرت وأذكرت ولا أنّثت، جعل الله منك عددا وعزّا وخلدا.

رجال ونساء على الإبل المزيّنة في موكب يتقدّم العروس تضيئه النّيران، ناقة العروس عليها هودج لا قبّة له، مزين ببُسُط حمر وصفر من حرير، والزّعفران لون سرورهم صبغوا به الأيدي واللّحى، وعيونهم المكحولة لا تسعها الفرحة، التّصفيق وأصوات الدّفوف وأهازيج الفرح تملأ الأسماع، وفاطمة لا تريد أن تبعد عينيها عن عروس ابنها وهي تبتسم:

- كم هي بهيّة يا عبد المطلب!

وآمنة بين عاطفتين: حزن على فراق ما درجت عليه، وفرحة بحياة جديدة ستبدأ الآن مع عبد الله، والقرشيّون صبايا وصبيانا يردّدون:

أتيناكم أتيناكم... فحيانا وحياكم
ولولا الذهب الأحمر... ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السّمراء... ما سمنت عذاريكم
أتيناكم أتيناكم...

تبارى الفتيان بالرّماح والسّيوف، وتسابقوا على متن الخيل طربين بهذه اللّيلة بعد أيّام قضوها في التّرقّب، الغناء وضرب الدّفوف يصحب الموكب إلى دار عبد الله، وفاطمة لا تسعها فرحتها بعد أن نجا ابنها الوسيم من النّحر، وهو اليوم مع عروسه، وهي على عتبة أن ترى أحفادها منه. عبارات التّهنئة تثلج صدرها الذي أضنته تلك المحنة، وهي ترى وفود القرشيين على الوليمة الكبرى التي تليق بسيّد قريش القائم على وفادة وسقاية الحجيج.

آمنة الآن قد استقرّت في مقصورتها وسط الأهازيج وغناء الصّبايا، ذات غديرتين سوداوين مخضّبة كفيها وقدميها بالخِطر اليمني، محلّقة بالعبير الشذيّ، والحليّ المطعّمة باللّؤلؤ تزيدها فتنة ونضارة.

- تبدو ساحرة... زهريّة العينين، مكيّة المحيا. ما أهنأ عبد الله بها، وما أهنأها بعبد الله الفتى الوسيم!

طأطأت رأسها ولكن حياءها لم يمنعها من سماع تهامس بعض النّسوة اللاّتي تحسدنها على ما حظيت به.

- ستأخذ الزهريّة الغرّة التي على ناصيته، لطالما شدّتني في عبد الله!

وكزت الخثعمية جاريتها هامسة:

- ألم تلحظيها ؟!

- أيّ غرّة يا مولاتي؟! ثمّ أعقبت بصوت يسمعه الجميع:

- آن لبني هاشم أن يهنؤوا بعد أن قبلت الآلهة الفداء.. وها هي قريش اليوم تنعم بمأدبة أخرى يصنعها سيّدها فرحا بابنه الأصغر،

وبمصاهرته لسيّد بني زهرة نسبا وشرفا. هنيئا للبيتين، فالمناكح الكريمة مدرجة للشّرف.

عضت بعض النّسوة على أصابعهن ولوين أعناقهن، وتمنين لو كنّ مكانها...

- على الطّائر الميمون.

- بالرّفاه والبنين.

انصرفت وفود المهنّئين وهم يلهجون بالتّهاني ودعاء الآلهة أن تبارك هذا القران، وآن لعبد المطلب وفاطمة أن يطمئنّا بعد ما لقياه، وأخيرا انتهت ساعات اللّيل إلى بعض الهدوء بعد غناء وشراب وسمر دام أيّاما وليالِيَ، وظلّت تتردّد على أسماعهما في اطمئنانهما رغم التّعب أصوات الدّفوف وغناء النّسوة لذيذة منعشة.

-2-

- متى ستسير القافلة؟

سألته آمنة وعيناها إلى قنديل الزّيت مثبتتان.

- غدا قبل الفجر بساعتين.

- لا أدري لم يطلب منك والدك الخروج ولم يمض على عرسنا سوى أيّام؟!

- عشرة أيّام مرّت سريعا بعيدا عن أشغال مكّة وصخبها، هذا موعد ارتحال القافلة من كلّ عام.

- ألا بدّ من الخروج، أما من مناص من هذه الرّحلة؟ ألست الابن الأصغر والعزيز المفدّى الذي لا زالت قريش تتحدّث عن قصّة فدائه، تخرج لغياهب الصّحراء وأنت ابن ثريّ قريش؟

- لا يريد والدي أن ينشئني على الدّعة، أم تريدينني أن أكون معيرة العرب فيقولون مدلّل أبيه وملازم زوجه؟

هذا شأن فتيان قريش وشبابها كما تعلمين، فالقرشيّون يعيشون من هذه القوافل وما يدرّ عليهم موسم الحجيج... ولا تدرك الرّاحة إلاّ بالتّعب.

- للعزيز المفدّى مئة من الإبل، لم يفد بها حتى جدّنا إسماعيل، نُحرت وتركت بالعراء لا يمنع عنها إنس ولا سبع، واليوم تدفع بك عادة قريش في التّجارة لأهوال الصّحراء.

- هذا ديدن فتيان قريش يغيبون عن أهلهم أغلب أشهر السّنة، فلم الجزع؟

غادر البيت وتركها لأسئلتها، ولما تحضّره له من لوازم السّفر قاصدا أباه ليتأكّد من موعد القافلة فيتجهّز ويتزوّد، وفي طريقه رأته فاطمة الخثعميّة، فاغتاظت أنّ وجه آمنة الزّهري صرفه عنها وهي من أجمل نساء الحيّ وأكثرهنّ ثراء. قالت لجاريتها:

- أُنظري قد ذهبت الزّهريّة بالغرّة التي كانت على وجهه.

- أجل ليس هذا وجه عبد الله مساء أمس.

كانت ترقبه في غدوه ورواحه، أمّا بعد اليوم ومنذ السّاعة فلا حاجة لها به. انصرفت إلى شؤونها آسفة، تصحبها جاريتها تهوّن الأمر عليها، وتمنّيها بزوج يليق بجمالها وحسبها ونسبها، نهرتها وطلبت منها أن تصمت.

- أنت لا تدرين من الأمر شيئا... أيّ خير في الرّجال بعد عبد الله.

مجلس عبد المطلب أمام البيت العتيق بالقرب من بئره التي بعثها فيسّرت له سقاية الحجيج، ومن حوله أبناؤه وأثرياء قريش ممّن سيدفعون بأموالهم ليتجروا بها في القافلة الرّاحلة إلى الشّمال. اتّجه الفتى إلى المجلس حيث سيفضي إليه والده بوصاياه، ويضع بين يديه أموال إخوته وباقي القرشيّين.

- هذه صناعة أهلنا في هذه البلاد القاحلة منذ أن مهّدها لنا أبي هاشم طيّب الله ثراه، بعد أن كان الرّجل من فقراء قريش يضرب على عياله خباء، يأكل من ورق الشّجر ولحائه ولا يسأل أحدا حتّى يموتوا جوعا. أمّا الآن فنحن ننقل بضائعنا إلى أرض الشّام، ونبتاع من

أسواقها ما نحتاج إليه، ونسافر به إلى اليمن شتاء لنتجر، ويكون لنا المال الكثير.

تجهّز يا ولدي للرّحلة التي سيصحبك فيها كبراء قريش تتمّ ما بدأته من أخذك لفنون التّجارة، وهؤلاء إخوتك يضعون بين يديك أموالهم، فكنْ للأمانة أهلا.

أشار برأسه مجيبا، ونظراته وإن لم تبرح مجلس أبيه إلاّ أنّ عينيه كانتا ساهمتين. حدّثه حديثا مغريا عن السّفر إلى البلاد البعيدة بعد أن ترك مجلسه ووقفا جنبا إلى جنب وأعينهما صوب الطّريق الشّمالي حينا والجنوبي حينا آخر، كأنّما يتفرّسان فيما يمكن أن تخفيه لهما الرّحلة.

- بلاد فارس والرّوم وعبور البحر إلى الحبشة، عالم آخر ساحر يا ولدي... لا تنسى في رحلتك بضاعة اليمن من ذلك الخضاب الذي يعيد للشّيبة شبابهم تطلبها بإلحاح أسواق الشّام.

أقبل عليهما وهب سيّد بني زهرة، وما كاد يفرغ من تحيّة عبد المطلب وعبد الله ومن بالمجلس حتّى أخرج من جيبه صُرَرا من الدّراهم أودعها إيّاه قومُه فناولها صهره:

- هذه أموال الزّهريين نضعها بين يديك.

كلّ هذه الأموال... أمسك بها عبد الله وهو يشعر بثقل ما أُلقي على عاتقه. ماذا لو لم نربح، أو أغار علينا اللّصوص... حدّثته نفسه للحظات شعر فيها بثقل الحمل، وودّ لو لم توضع كلّها بين يديه...

في ليلة الرّحيل ومجلس أنسه الأخير مع آمنة قبل سفره، سألها عمّا يحضره لها من رحلة الشّام، وطلب منها أن تعتني بنفسها وتنتظر عودته التي لن تطول.

- عد سالما...

- ما هي إلاّ أسابيع وسأعود فلم هذه الدّموع؟

مسحها ببطن كفه، ورسم على جبينها قبلة:

- سأعود سالما، ولكن لمْ تخبرني جميلة بني زهرة ما الذي أجلبه لها.

-...

قالت لمّا أعاد عليها السؤال:

- لُبان ظِفار... مذ شممت بخوره السّاحر وأنا أحبّ أن يكون لي منه نصيب، وتوابل الهند... نَفَسها في الطّعام مذهل بعد أن تذوّقتها فيما تطهوه والدتك. أخبرتني أنّ سرّه التّوابلُ التي يحضرها العمّ شيبة من رحلة الصّيف إلى الشّمال.

- هذا فقط لجميلة بني زهرة؟

أجابت وهي تحلّ منتهى ضفيرتها ثمّ تعيد تجديله مرّة أخرى، وقد تحسّن مزاجها بعد حديثه، وعادت إليها ابتسامتها الدّافئة:

- وقطعة من قماش ساسان بألوانه الباهيّة. أريد أن أصنع بها وشاحا.

- لجميلة بني زهرة وشاحان بدل واحد على أن ترضى...

انسلّ من بين يديها قبل الفجر ولم يستطع الفكاك من خوفها عليه إلاّ بدمع انسكب على خد عروس تركت لأجله أهلها منذ أيام فقط،

وها هو يسافر ويتركها وحيدة. قصد بيت أهله، وقبل أن يطرق بابه كانت فاطمة تنتظره عند عتبة الدّار توصيه أن يعتني بنفسه وأن لا يفرّط في أكله ونومه، ويحذر الطّريق.

- لا تخشي يا أمّي فكثير من الرّجال الأقوياء يؤمّنون لنا السير، من عساه يتعرّض لقافلة قريش التي يحسب لنا ألف حساب. لا تجزعي، واطردي هذه الأوهام من رأسك، ثمّ لستُ وحيدا، فكثير من أشراف قريش وأبنائها يصحبون الرّحلة.

اجتمعت أخواته كلّهن يودعنه ويسألنه عن حوائجهنّ من قنينات عطر وأقمشة وأدوات زينة، وهو يعدهنّ بإجابة طلباتهنّ ممازحا أروى أخته الصّغرى التي كانت تتدلّل عليه كثيرا وتعرف مكانتها منه.

طاف رؤساء القافلة التي قاربت الألف بعير بالكعبة، يسألون الآلهة السّلامة في السّفر، وحماية أموالهم، والعودة بالرّبح الوفير بعد أن قدّموا لها القرابين. تحرّكت بعدها نجائب الإبل من ساحة دار النّدوة على مرأى من أهالي المرتحلين وأصحاب الأموال، ومعها تحرّكت القلوب تموج وتضطرب فيها الآمال والمخاوف. عبد المطلب كبقية أهالي المرتحلين يودّع ولده وإلى جانبه الحارث أكبر أبنائه يلوّح بيده إلى أخيه الأصغر من أبيه، ووالدته وأخواته كلّهنّ خرجن يودّعنه بين بكاء وفرح بعد أن نجا من النّحر واستأنف حياته، وستكون له تجارة تبلغ الآفاق حتما كما بلغت تجارة جدّه وأعمامه.

صار البيت كئيبا فور خروجه لولا ما تفتعله بركة من بهجة حتّى لا تشعر آمنة بالوحدة وهي لا تزال عروسا.

- لا تجزعي يا سيّدتي، كلّها أسابيع وسيعود إليك على أحسن ما يرام محمّلا بالهدايا.

عودي إلى فراشك لتستريحي فلا زال الوقت مبكرا.

رافقتها الجارية الحبشيّة إلى مقصورتها تؤنسها، وتزيل ما بها من وحشة بعد أن خلا البيت من سيّده.

-3-

كلّما غاصت أظلاف الإبل في الرّمال بعُدت مكّة، ولم يعد يُرى لا الحرم ولا مستقرّ أهله، ولا جبل أبي قُبيس الذي اعتاد كلّما صحا منذ أن أدرك أن يراه، وهو يطلّ على البيت العتيق كمن يطمئنّ عليه ويحرسه من الغرباء، حتّى أعالي الجبال الجرداء، تركها خلفه إلى الشّمال، لا تبدو إلا كشامات متناثرة في خدّ حسناء، تزداد صغرا كلّما ابتعد.

تأكّد عبد الله من مزوده بعد أن ارتشف رشفة من سِقائه الممتلئ بماء زمزم، آخر ما يحمله من حلو مائها، مائها المقدّس الذي أخبره والده أنّه الماء الذي وهب الحياة لجدّهم إسماعيل وكلّ سلالتهم، ولايزال يهبهم شرف السّقاية، ولن يعود إليها إلاّ بعد فترة تزيد على شهر رواحا وآخر غدوّا. منزل الصّبا والهواء الذي امتلأ به صدره حتّى صار شابّا يافعا، وتعوّد عليه رغم حرارته اللاّهبة يبتعد عن ناظريه حتّى لم يعد يرى منه شيئا.

تهادت الإبل محمّلة بالبضائع من جيّد الأصواف والجلود، والأُهُب الطّائفيّة المعروكة مدبوغةً وليّنة، والبُرد اليمانيّة الفاخرة بخطوطها يُجمّلها الوشي، كلّها منضّدة على أكتافها ومحكمة الصرّ، وأجربة القَرْظ للدّبغ، وعِكك السّمن، وشوالات التّمر المكبوس في ظروف الخُوص بعد قضاء أيّام متعبة في نزع نواته، وبضاعة يمنية ملأت الدّنيا الورسُ والكِندر والخِطر والعقيق يُتلهّف إليها في أسواق الشّمال.

أخذت العير تسلك الدّروب المعبّدة بأخفاف الإبل في الصّحراء، وبين الجبال، وإلى جوار الوديان والغدران، وهي لا تغيب عن أعين الخفراء، في المقدمة والوسط والمؤخرة، وعلى الميمنة والميسرة، تحرسها من سطوة اللّصوص وقطّاع الطّرق، تكفّل سهم بتوزيعهم، وإيكال المهام لهم.

تُدْبر أرض وتقبل أخرى، معالم جديدة تقبل عليهم وتختفي أصوات البشر إلاّ من المرتحلين المتعبين الذين يقلّ كلامهم ويكبر التّوق في أفئدتهم إلى الوصول، وتفصح عنه أعينهم، ولا تُسمع إلا جعجعة الإبل أو صوت حدائها وصوت الرّمال وهي تغوص فيها، ولا يرى على امتداد البصر إلاّ أرض رمليّة أو كثبان منها متعرّجة، أو تلال وبقايا جذور نبت تتطاير. صحب البدوُ من الأدلاّء والحرّاس المسلّحين الرّحلة لتصل بسلام وتعود محمّلة، وإلاّ فلن ينالوا راتبهم من الجُعل الذي خُصّص لهم من الأرباح مقابل خدمتهم، يتقاضونه عند أوبتهم من أثرياء قريش وسادتها، يقتسمه عليهم سهم سائس الرّحلة وسيّد الخفراء.

تفقّد عروة السَّقّاء حاجتهم إلى الماء في المقدمة حيث مجاله، هو محظوظ لأنّه يخدم سادات قريش فيجزلون له العطاء.

- ماذا لو خيّرنا بين هذه الشّربة ونصف مالنا أو حتّى مالنا كلّه؟

- حتما سنختار ما يروي عطشنا في هذه الرّمضاء.

استشعر الكهل القرشي عذوبة ليس هناك أفضل منها في الوجود كلّه سوى الوصول سالمين، واستطعم رشفة تساوي كنوز الدّنيا كلّها.

ابتعلها في حلقه الجافّ على مهل بعد أن نفد منه الماء دون أن ينبس ببنت شفة إلى أن ارتوى، وخطر بباله لوهلة ما يمكن أن يحدث له دون ماء في الظهيرة عندما تتحوّل الصّحراء إلى قطعة جمر على رؤوسهم، سيصير كأرض متشقّقة وسيشتعل فؤاده ثمّ سيذوي.

- لم تجبني كم تساوي شربة ماء في هذا الخلاء عند ثريّ مثلك؟

- الثروة كلّها بلا ريب.

تمنّى عروة السّقاء وهو يسمع حديثهم ويعلم حاجتهم إلى خدمته لو رُفع في قيمة الجُعل والأرباح هذه السّنة. سقى آخرهم بوعاء من الماء البارد بعد نفاد أسقيتهم من قربه جيّدة الأدم حتى تحفظه باردا. كانت معطّرة بمسحوق القرظ وقشور الرّمان تُذهب رائحة الجلد وتُنكّه الماء برائحة طيّبة ومذاق حلو. هكذا كان اتّفاقه مع العجوز سلمى الدّباغة، حيث ألحّ عليها أن تعتني بتعطيرها على أكمل وجه فستقدّم إلى أسياد مكّة، وسيتّفقان ولن يختلفا على السّعر.

يبدو أنّ حلاوة الماء غلبت أيّ رائحة، تصبّرت نوقه على حمل القرب مسافات طويلة، وتخفّفت منها شيئا فشيئا عند فراغ أسقية القوم كلّما بعدوا عن موارد الماء، هي الآن رشيقة تقضم ورق الرّمث، وتلوكه مستمتعة به بعد أن بلعت الشّمس الحارقة وطول الطّريق في المفاوز كلّ مؤونتهم من الماء.

- سنتوقّف للاستراحة، مكان صالح لنجع الدّواب والتزوّد بالمؤونة.

تهلّلت وجوه أشراف قريش، وهم ينعطفون عن المسار بعد كلام سهم لينيخوا إبلهم في جوار النّبع. لوّح بيده القويّة السّمراء سمرة

داكنة لأتباعه من الخفراء الذين توزّعوا على امتداد القافلة حتّى يتوقّفوا بعد أن عاين المكان، ثم كان أوّل من نزع سقاءه من على كتفه ليملأه.

-سنخيّم هنا اللّيلة، وننطلق قبيل الفجر، حطّوا المتاع عن الدّواب حتّى ترتاح وتشرب لتستأنف غدا رحلتها الطّويلة.

اقترب عروة من ضفاف النّبع ليبحث عن أعشاب تنمو حوله بعد أن اغترف بيديه غَرفة أنعشته ثمّ الثانية ثمّ الثالثة إلى أن اكتفى. راح بعيني صقر يتخيّر بعض النّبات الذي لا ينمو إلاّ بين الصّخور والحجارة. وضعه في جرابه إلى جانب أصناف كثيرة، تتوزّع في تجاويف وأبطنة أعدّها لهذه الغاية: السّماق والضرو والمقل المكّي والدّوم والسّدر وقشر الرّمان اليمني... بعضها بثمار أو زهر، وبعضها الآخر أوراق يابسة مدقوقة أو تنتظر الدقّ بعد أن تجفّ حتّى تصير مسحوقا سهلا للاستعمال.

لا تنقصني سوى أعشاب الطّريق الشّمالي، وبعض نباتات الرّمل، وستكتمل التّوليفة، يحاول الآن أن يتمّها كلّما توقّفوا عند واد أو غدير، ولو كلّفه ذلك المخاطرة. أبطأ في اللّحاق بالرّكب عند جبل يتصيّد عشبة نادرة أو زهرة، يعرضها للبيع في سوق بيزنطة.. ينادونه عروة السّقّاء إذا ما احتاجوا ماء، وإذا ما أصابتهم علّة نادوه عروة الحكيم.

- يا لحظك! السّقاؤون كُثر في القافلة، أمّا الحكماء فلا أحد غيرك ممّن خبر التّداوي بما تجود به الأرض، شغف ودراية ورثته عن والدك العطّار.

- أهذا حقّا ما تراه يا مطرود؟

- أترى غير ذلك، ألست مصيبا؟

زادته شهادته اعتدادا بنفسه، مدّ كتفيه وابتسم ثمّ أغلق فم سِقائه وصرّه بعناية:

- سأترك ملء قِرب الماء للصّباح الباكر حتّى تظلّ باردة. وفي عينيه فرح من حاز الحياة بأكملها يتلألأ في بؤبئهما الأسودين الغائري المحجر في وجه نبيهٍ أميل إلى الطّول والنّحافة، ثمّ عاد إلى موضع الاستراحة، وراح يراقب صنع الخيام، وهو يربت على ظهري ناقتيه ويهيّئهما لأن تبركا.

تكفّل رجلان بإشعال النّار، أخرجا زنادا من شوال الوقود وبعض العشب اليابس، وبحَثا عن صوان من الحجارة الصّلبة، وما إن قدحت وبدا لهيبها حتّى قسّماها إلى نارين في حلقتين كبيرتين اجتمع المرتحلون حولهما، اختلط فيها شريفهم وثريّهم بعامّتهم من التّجار الذين ليسوا بفاحشي الثّراء، وإنّما يملكون المال القليل الذي يخاطرون به في هذه الرّحلة، فإمّا أن يرفعهم فيصيروا من الميسورين، أو يخفضهم ويضيّع ما جمعوه من رحلتهم الشّتوية، خوفهم يشغلهم ويملأ قلوبهم بالتّرقّب.

-مئتا رجل بين خفير ودليل وسقّاء، بالقرب من بضائع الأدم والصّوف والبُرد والتّمر. تعال نستطلع الأمر ونطمئنّ إلى أن بضاعتنا بين أيد أمينة.

-من أيّ قبيلة أنت؟

-من بني أسد.

-وأنت؟

- من أزد، والذين ينامون في تلك النّاحية أعراب من بطون شتّى.

كانوا كلّهم على قدر من القوّة والفطنة واليقظة مع رباطة الجأش والبسّالة حين يستدعي الأمر، وأهمّ من ذلك الطّاعة والولاء، وإلاّ فمصيرهم الطّرد أو القتل إذا لزم الأمر، وذلك أمر يحدّده سهم رأس الأدلاّء، والطّرد في هذه القفار يعني الموت عطشا وجوعا والتعرّض لقطّاع الطّرق. لا داعي للقلق فرجال سهم يقومون بالمهمّة على أكمل وجه، هيّا لنرتاح.

تهلّل وجه عبد الله بما تسرّب إلى أنفه وهو منهمك في فكّ حقوه ونزع سقائه منه ووضعه جانبا ليستريح، ثمّ فتح صدره بحركة وسّع فيها بين كتفيه رافعا رأسه ليستقبل أكبر قدر من الرّائحة:

- يا لطيب رائحة هذه النّار تذكّرني بطيب هواء مكّة ومراعيها.

- بل كأنّنا في وادي مرخ.

- صدقت.

التفّ كثير من المرتحلين بالرّائحة التي تنبعث من أغصان المرخ والعفار، يشاركونهم الحنين، وبعد أن نصبوا الخيام وأوقدوا النّار

جلس عبد الله ليستريح ويقيم أوده من المزود الذي حضّرته له آمنة. استخرج حبّات من التّمر وكرة من حليب مجفّف يسمونه في مكّة الأَقِط، أعدّته من طيب حليب الإبل بعد غليه.

- تفضّل، خذ ولا تتردّد... أطيب حليب ترعاه الإبل من شجر الآراك.

تربّع مطرود بقربه بعد أن وضع الرّبابة عن كتفه، أخذ ربعا من الأقط وبعض الزبيب الطائفيّ، ثمّ ناوله هو الآخر ما أعدّته له زوجه، سُفّة من سَويق الشّعير بَسَّهُ بسمن. ترى ما أخبار مكّة بعد رحيلنا؟ مكّة تغتني في الأشهر الحرم.

طاف بهما الحديث مع أشراف قريش وأغنيائها حول البضائع التي تدرّ على تجارتهم الكثير من الثّروة في سوق بيزنطة، والمواسم التي يكثر فيها بيعهم وتروج بها صناعتهم ودربي البخور والحرير والخير الكثير الذي يتدفّق منهما.

-ألا تُسمعنا شيئا على الرّبابة.

زاد تلاحمهم حول النّار، وهم يستمعون إلى شعر مطرود وهو يعزف على الرّبابة، ويلقي بما أودعه شيطانه مغمضا عينيه حتى تأتيه القوافي سهلة وتنهال عليه:

ألا أيّها الرّجل المُحوِّل رحله هلاّ نزلت بآل عبد مناف

الآخذون العهد من آفاقهم والرّاحلون برحلة الإيلاف

للرّبابة لحن يفهمه الجميع، دون أن تنطق تغزو الأفئدة، وتصل المرتحلين بأهاليهم ومجالسهم في مكّة، وتزيدهم وصلا بخيامهم، تسكتهم راضين تحت وقعها ليسمعوا لحكيها الشّجيّ.

عند منتصف اللّيل بعد أن بلغ من الجميع التّعب وذهبوا إلى أماكنهم ليناموا ويتأهّبوا للغد، تذكّر عبد الله جدّه هاشم ورحلته إلى قيصر الروم فيما يحكيه عنه والده شيبة وجميع أهل مكّة، وقصعة الثّريد بمرق اللّحم التي كان يهشّم عليها الخبز للفقراء ويسقيه بالمرق.

- هذه نوبتك في الحراسة هذه اللّيلة أنت وجماعتك.

تنحّى عبد الله إلى الجانب الآخر من حلقة القوم كأنّما ينظر إلى الجنوب حيث مقدمهم، ويدني من أنفه منديلا يشمّ منه الذّرور الهنديّ الذي صبّته فيه آمنة، وأضافت له عطرا نجرانيّا ممّا تبيعه أمّ مروان في قنينات صغيرة بثلاثة دراهم، فغاصت كلّ مشاعره في وجهها الهادئ في وضاءة رغم حزنه، وهي منكبّة على تحضير مزوده قبل الرّحلة... لها طريقتها الخاصّة في تشكيل طيبها ورثتها عن الوهبيّات.

استلقى سهم على ظهره يرقب النّجوم بعد أن قسّم أقساط الحراسة اللّيليّة على خفراء من بني مخزوم. يبدو أنّه انتقى فريقه الذي يصاحبه في الصّحراء فردا فردا، يأمرهم فيمتثلون، وسكن إلى جانبه عروة بعد أن أعاد ترتيب ما جمعه من أعشاب قبل ساعات، ووضعها إلى جانب المروات الثلاث التي انتقاها من حجارة مكّة وجعل أحسنها إلهه ووضع عليه علامة ليميّزه. وفي قمة سكونه تذكّر نبتة الحرملة وأعشابا أخرى للأمراض الجلديّة التي لم يجمع منها إلاّ قدرا يسيرا، تشكيلة ممتازة نادرة لمرض جلديّ أوصاه بها وجيه من وجهاء قريش لابنته التي أفسدت وجهها بثور وتقرّحات لم يدر سببها، عليه أن يجمعها من المرتفعات والمناطق الصّخرية.

- لعلي أعثر عليها فيما بقي من طريق.

قال والدي يؤخذ لبن هذه النّبتة في صوفة، ويحكّ بها البدن الجربُ.

-أتسمعني؟... يبدو أنّي أحدّث نفسي.

فكّر مطرود في عياله بينما كان عروة يحدّثه عن تشكيلته، وما عساه يربحه من بعض الأدم والجبن وما يقايضهما به من الحبوب والزّيت الشّاميّ النّقيّ والطيّب. أدعو الآلهة أن لا تعود أيّام المجاعة التي لم تكن والدتي تطبخ لنا سوى العِلْهِز. العلهز؟ ألا تعرفه؟ لا عرّفك الزمن به، تأتي بالوبر وتخلطه بالدّم ثمّ تشويه على النّار ونحن نجتمع حولها صبية هزالى يشتدّ بكاؤنا إذا ما جعنا، تقرّبه إلينا وتقول كلوا إنّه طيّب على كلّ حال، أيّام لا أحبّ أن أتذكّرها.

تفقّد بضاعته القليلة من الأدم، ليست كشوالات الأغنياء، ولكنّها لا بأس بها... تكفيني لأقيم أود أولادي شتاء، وأرتحل مع المرتحلين إلى الجنوب لأعيش بما أقايض به إلى بقيّة السنة،مع ما أبيعه من أغصان العفار والمرخ اليابسة للوقود في كلّ رحلة مع روث الدّواب المجفف، وعلف الإبل من العشب اليابس حين تقل مراعي الرِّمث والعَوسج التي تعشقها الإبل وتقبل عليها، كلّ هذا، يضمن لي ربحا أكبر. قال وهو يربت على البضاعة.

- نَمْ يا رجل الرّبابة، سنستفيق باكرا قبل الطّير.

بين شخير وتثاؤب يسبقه، وبضع كلمات متقطّعة يرمي بها الواحد للآخر قبل أن ينال منه سلطان ساحر بعد كلّ ذلك التّعب كان حال المرتحلين. تهامس عبد الله ومطرود الرّأس إلى جانب الرّأس، إلى أن نفد

منهما الكلام وانعقد لساناهما، كلّ في عالمه ومجلسه الذي يحنّ إليه في تلك المنطقة ما بين الصّحو والنّوم، وقد تجاوزا منتصف اللّيل إلى زمن لا يعلمانه حتّى هما، حيث ينكمشان على ذكرياتهما وآمالهما، يفصل بينهما الظّلام بعد أن ألقيا بعض الرّمل في النّار، وإن سمع أحدهما نفس الآخر، السّفر يذكي الحنين، ويجلي قيمة الأهل والقرار بينهم.

ولمّا أشعّت الشّمس كانت العير قد ابتعدت بعد أن أعيدت البضائع إلى أكتاف الإبل، ومُلئت قرب الماء والأفئدة بمرآه واستعادوا بعض راحتهم ليستأنفوا ما بدؤوه.

-4-

مشارف الشّام بدأت تظهر في الأفق، بعد أن تركوا خلفهم وادي القرى ومنازل عُذرة، يتهادون مع الإبل التي في عيونها شيء يراه من يحدّق بها، لعلّه الصّبر والتّطلّع إلى الوصول تماما مثلهم كلّ ليلة وهي تضع أحمالها وتعود تلبسها قبيل الفجر.

- ها هي البوابة يا سيّدي، بوابة بُصرى...

أيقظهم صوت لهفة خفير شابّ من البدو في صمت انشغالهم بالشّمس الحارقة، صارفا سهما وكثيرا سواه عمّا كان يُطرق فيه، وهو يسلم نفسه لخطّ سير الإبل تأخذه في دربها حيث تشاء.

كان سهم قبل سماع الصّوت يقاوم رغبة شديدة في النّوم بعد سهر اللّيلة الماضيّة، حين سمعوا أصواتا اعتقدوها لقطّاع طرق يتعيّشون في مثل هذا الوقت من السّنة من الإغارة والسّطو على القوافل المارّة، غير أنّها لم تكن سوى مناوشات وكرّ وفرّ بين جربوع وبومة. الصّحراء لا تنام، يقظى تبحث عن قُوتها قبل أن تلسعها حرارة النّهار، ضحكوا لها جميعا وتسامروا إلى وقت متأخّر من اللّيل.

- فعلا، ها هي البوابة على مدّ البصر.

ردّ عليه بصوت لا يسمعه سواهما وهو يرفع رأسه ويفرك عينيه ثمّ يغطّيهما بيديه من الشّمس، وإذا بالنّشاط يدبّ فيه وتعلو عقيرته كمن شُحن بنار:

- قد تجاوزنا أخيرا متاعب الصّحراء، هذا مبلغ تجارة قريش. يا سادة قريش شدّوا الهمّة! لا تبعدون عن مشارف الرّاحة والثّروة.

-الرّاحة والثّروة قاب قوسين.

- مرحى مرحى الغنى والسّؤدد.

وكز بقدميه بطن راحلته لتسرع، وفتح سقاءه ليبلّل وجهه ويشرب شربة تذهب عنه حرّ الصّحراء الأخير في طريق الذّهاب، بينما علا التّصفيق بينهم، وتداخلت أصواتهم حتّى لم يعد يُفهم منها سوى ذكر هبل واللاّت والعزّى ومناة من أسماء الآلهة، يشكرونها على إجابة دعائهم وتوفيقهم إلى الوصول إلى أكبر سوق تدرّ عليهم المال، وتفتح لهم باب الغنى، وتعالت نذورهم:

- لهبل عشرة من الإبل إذا ما غنمتُ وعادت تجارتي سالمة إلى أراضي مكّة.

- ولنا مثلها في وليمة تشهد بها قريش.

- نشهد على نذرك، وغداؤنا عندك يومها.

ضحكوا حتى نسوا تعبهم، وأضاء الفرح الوجوه تحت لهيب الشّمس التي كانت قبل قليل تزعجهم، ذهب الخور وحلّت البهجة بينهم، وأملٌ لا حدّ له في الرّبح وهم يحثّون سيرهم إلى أن وطئت مناسم الدّواب عتبة البوابة، فوقفوا في الطّابور ينتظرون إذن العبور.

سورٌ وثيق يعلو كثيرا أعناق الجمال التي لم تعتد أن ترى أطول منها في سمائها غير بيتهم العتيق. فُتحت البوابة وأعين الرّومان تحدّق في كلّ من يدخلها رغم كثرتهم.

صاح سهم بأعلى صوته ثانيا لجام فرسه بعد جولة سريعة على المصطفّين أمام البوابة:

- تفقّدوا قلائدكم.

بحركة سريعة تفقّد عبد الله هو الآخر قلادته التي وضعها منذ بدأت الرّحلة. مازالت في عنقه، ومال على عنق دابّته بشيء من الاعتزاز يتلمّسها ليظهرها، وما إن رأى الجنديّ الغسّانيّ الذي يُستعان به لفهم لغة العرب العابرين الوجوهَ والهيئةَ وسمع اللّهجة القرشيّة حتّى أوعز للرّومي بتركهم يمرّون دون تفتيش.

- هؤلاء العرب بعمائمهم الزعفرانيّة، وأولئك من آل عبد مناف بأزرهم الحمر وأرديتهم الصّفر.

قال لرفيق له جديد في المهنة، فهزّ الرّومي رأسه ثمّ أشار لسهم وعروة السقّاء وبعض أشراف قريش ممّن في المقدّمة بالمرور متتبّعا بعينيه الزّرقاوين الشّوالات والعكك وأظرفة الخوص وخطّاً طويلا ظنّه لن ينتهي من الإبل المحمّلة ليمرّ، فلا زالت قلائد لحاء شجر الحرم، تدفع عنهم اللّصوص وقطّاع الطّرق وتضمن لهم المرور من الحامية، ثمّ أمر بإغلاق البوابة.

تبادلت الأعين نظرات ظفر واعتزاز بعد الرحلة الشّاقّة. كان المزلاج حديديّا وكبيرا، يحرّكه رجلان ضخمان يضعان خوذتين من معدن ثقيل تزيدهما طولا ورهبة تنتهي بصلبان، ويحملان ترسين مدرّعين وحربتين حادّتين، وفي غمدهما سيفان مشرفيّان حسب ما يظهر من حجمهما والوسم الذي عليهما ممّا تشتهر به البلاد.

- أترى أعلى السّور. به جنود رومان أغلظ من هذين وأقوى، لا يُرى منهم إلاّ خوذاتهم العسكريّة يحرسون المدينة ممّا قد تأتي به الصّحراء.

همس مطرود لعبد الله وهو يشير بعينيه إلى أعلى البوابة.

تركوا خلفهم الرّمال والحجارة والحصى، وبدأت الأرض غير الأرض، تغيّر النّبت والبشر والسّماء والهواء. بدأت الخضرة فيما حولهم تتزيّن بها الأشياء وتظهر على الوجوه، تبدّل لون العشب، صار أبهى بعد أن كان أغبر، وتراصّت البيوت وكثُرت بعد أن كانت متناثرة هنا وهناك.

مضوا بعد أن عبروا البوابة يطردون دوابهم المثقلة في دروب حوران بين منازلها ومزارعها إلى أن أدركهم اللّيل، فسكنوا بعد أن حطّوا رحالهم، غير أنّ مطرود لم يستطع النّوم بعد أن تفرّقوا عن ربابته حين نفد منه الشّعر فسكت، فمدّ بصره ناحية عبد الله ليبحث عن أنيس يتحدّث إليه ويجلب معه النّعاس. وجده بين صحو ونوم، مستلقيّا على ظهره في بهمة اللّيل. اقترب منه حتّى حاذاه، وراحا يتحدّثان كعادتهما كلّما جفا أحدهما النّوم أو كليهما.

- لا زالت بصرى حسب تقدير الأدلّاء تبعد خمسة فراسخ سيرا.

- أمامنا مسيرة يوم، لعلنا نصل مع المغيب.

- أترى حوران... بيوت تنام وسط البساتين، وعصافير تعود في آخر النّهار بطانا إلى حضن أعشاشها، فمتى نعود نحن أيضا إلى الدّيار؟

- ديارنا بعيدة هناك في مكّة يا مطرود ليست كأعشاش الطّير، ولنا إبل محمّلة لا جناحان مثلها، وتجارة ومال أُمِّنَّا عليه لا مجرّد بطن عصفور يُملأ.

ضحكا رغم تعبهما...

- عندما نصل سأستبدل كلّ الجبن والسّمن والصّوف التي أحمل بقمح حوران، يقولون ولا أطيب منه. ماذا ستشتري بدراهم صهرك وهب؟

- ليس هذا أوان كلامك، دعنا ننام، فمنتصف اللّيل يوشك أن ينقضي، وأنا متعب.

- ها قد سكتتُ، فلتنم...

اِلتحفا باللّيل وناما نوما عميقا يحلمان بناس بصرى وتجّارها وخيراتها التي تملأ الأسواق، وما سيشتريه لصهره وهب من بضاعة أوصاه بها بتلك الصّرر من النّقود، وباتا بين سهول حوران التي تلد القمح الطيّب.

وفي الصّباح واصلوا طريقهم، مرّ على نواظرهم من فوق دوابهم تغيّر الأرض التي تطؤها الدّواب، وما حولهم والهواء، ما عادوا يرون الدغل ولا مراعي الإبل الجرداء إلاّ من بعض عشب، بل أزهرت البساتين وأشجار الفاكهة. هواء غير الهواء الذي اعتادوه طيلة رحلتهم، بساتين وألوان تقتحم حياتهم وهم في أتمّ الرضا بعد أيام جدب، اخضرار وخرير ماء ينعش الرّوح الظمآى، وبنايات أنيقة ليست كأخبيتهم الطّينيّة ولا بيوت الشَّعر، يجذبهم إليها إتقان صنعتها، وعوض بيتهم

العتيق الذي يتوسط بطحاء مكّة كنائس كثيرة تتفرّق هنا وهناك تحيطها الأسوار العالية، على أبوابها نقوش وتماثيل وصلبان لا تشبه نُصبهم ولا أوثانهم المطموسة الوجوه والمعالم، لا في جوف الكعبة ولا فيما حولها، ولا في أيّ مكان آخر. وإذ بالرّكب يسير التفتوا كلّهم إلى صلبان ضخم من حجر عند مدخل قصر يبدو لأحد وجهاء الروم.

- أهذه آلهتهم؟ آلهتهم جميلة ومزيّنة، ولكنّ ربّهم يسوع مربوط اليدين والرجلين والمسامير تدق يديه وصليبه يحمله، أم تراه هو من يحمل الصليب؟

- ولكنّي سمعت أنّهم يعبدون ربّا واحدا ونعبد آلهة شتى.

- هذه دُور آلهتهم.

أخرج عروة الحكيم من جراب الأعشاب أحجاره الأربعة، وهو يتذكّر كيف انتقاها قبل مغادرة مكّة من أمام الحرم وتأمّل الحجر الذي جعله إلهه وهو أجمل الأربع وتماثيل بصرى على كنائسهم.

قطعوا المدينة عبر شارعها الكبير الممتدّ في استقامة، لافتين الأنظار بعددهم وعدّتهم وهيآتهم المختلفة، فوقف على حافة الطّريق أطفال يسألون آباءهم. قال أحدهم مبدّدا حيرة ولده برطانة روميّة ما معناه:

-هؤلاء الأعراب ساكنو الصّحراء، ألا ترى ما يضعونه فوق رؤوسهم؟ تلك هي العمائم، وتلك دوابهم الإبل الصّبورة.

ولمّا بلغوا زقاقا ضيّقا عطفوا بعده إلى خانين فسيحين تعوّدوا على المبيت فيهما في هذا الوقت من السّنة، شوارع رحبة وقصور بديعة وهياكل وكنائس ممّا لم تره عين. تمنى عبد الله للحظة لو يكون للعرب

هذا السّلطان والقوّة، وهو يلتفت يمنة ويسرة قبل أن يدخل الخان، يريد أن يعرف المدينة أكثر لولا الظّلام الذي سينسدل بعد حين، ويكتشفها ويملأ عينيه بجمالها وأناقة تصميم قصور وجهاء الرّومان.

كان أمر الوصول إلى نُزُل بعددهم الكبير يصرفهم عن النّظر إلا لماما إلى المدينة التي ينهمك أهلها في الاستعداد لما بعد الغروب، نظرات مستعجلة، وأسئلة مؤجّلة قبل نزول الظّلام.

- من حسن حظّنا أنّ مبيتنا لا يبعد عن هذا الشّارع إلاّ قليلا.

فطن عبد الله من انبهاره وأمانيه على كلام مطرود.

- لم يبق الكثير.

نُزُلان ضخمان يسعان كلّ المرتحلين من الأشراف والموسرين وأصحاب الأموال الذين يتجاوز عددهم المئة، وسيقيم معظم الأدلاّء والخفراء ومن في مقامهم أمام الإبل والبضاعة يحرسونها طيلة اللّيل في ساحات الخانين، وعند عتبتهما التي تستطيع أن تسرح فيها الخيل وتمرح، أمّا الباقي فيبيتون في السّوق منذ عرض البضاعة إلى أن يرحلوا.

- علينا أن نرتاح ففي الصّباح موعد سوق بُصرى، السّوق التي ارتحلت العير لأجلها إلى الشّمال لنبيع مختلف صنوف بضاعتنا وشقاء عامنا، ونشتري ما لا نجده في مكّة ولا في سوق اليمن.

- سأذهب لتفقّد راحلتي.

لم يطل بحث عبد الله عن ناقته بين النّوق والدّواب، مكانها جيّد يستطيع أن يرقبها من نافذة الغرفة، وأمامها علف كافٍ. مسّد على

رقبتها ثمّ فتح مزوده وأطعمها قدر تمرتين من المكبوس الذي يحمله وهو يكلّمها:

- أرهقك المسير يا عجولي، لا عليك سوف ترتاحين ونرتاح جميعا هنا أيّاما قبل أن نشدّ الرّحال مرّة أخرى.

صعد الدّرج إلى أن انتهى إلى غرفة على اليمين حيث سرير شاغر، توسّد يده كما اعتاد طيلة رحلته رغم وجود الوسادة، وغطّ في نوم عميق في فراش وثير لم يكن ليحلم به منذ ترك بيته.

شمس بُصرى مختلفة، دافئة وناعمة في أوّل النّهار، أيقظتهم بلطف وهي تمتصّ تعب رحلتهم من نوافذ الخان الذي لا يبعد كثيرا عن السّوق، بصرى كبرى مدن حوران بل قصبة حوران ونبضها...

- حوران في كلامنا الكهف والملجأ وحوريم في آرامية عيسى بلد الكهوف.

كلّمهم أبو موسى كما يدعونه، الرّجل الغسانيّ صاحب الخان وهو يعدّ نقود المبيت التي دفعها التّجار بعد أخذ وردّ على السّعر، ثمّ نادى النّادل يستعجله لتقديم إفطار الصّباح للزّبائن كنوع من التّرحاب الحارّ بتجار مكّة بضحكة ارتعدت لها كرشه التي تتقدّمه وبدت أسنانه السّاقطة:

- حوران كهف بيزنطة وقلعة الرومان في وجه الصّحراء، أهلا بتجّار الحرم في مدينتكم، أراق لكم المبيت ليلة البارحة بعد تعب السّفر؟

- نزل مريح، أسِرّة واسعة وضيافة كريمة، وفوق هذا نستطيع أن نطلّ فنطمئنّ على بضاعتنا من أعلاه، وفوق هذا وذاك سوق بصرى قريبة، نذهب إليها مشيا.

شرد مطرود في المكان بعينين تبرقان وشفتين مفتوحتين ثمّ دنا من عبد الله الذي يكاد يفرغ من وجبته:

- مدينة عظيمة وأنيقة وصافية، كأنّما يستحم أهلها وطيرها وبساتينها كلّ يوم، صافية كينبوع ماء لم يعكّر، بُصرى المدينة الجميلة المحاط بها كامرأة فاتنة مرفّهة حولها الحماة.

- صدقت هي كذلك.

نهض عبد الله من مقعده بعد أن ترك الصّحن فارغا ودبّ فيه النّشاط، وربت على كتف صاحبه وهم يبتسم:

- هيّا يا مطرود... ينتظرنا اليوم عمل كثير، ولندع هذا الغزل لوقت آخر، موعده مع الرّبابة ليالي الخان.

- سيكون لنا معها شأن هذه اللّيلة، مع شراب بصرى الشّهيّ الذي حتما سيذهب تعبنا، هيّا لنعجّل بالخروج ونعرض بضاعتنا.

- أتعلم أنّي أخشى أن لا نوفق في هذه التّجارة، أشعر بضيق في صدري، وجوه عمّال الروم قاسيّة، ألم تر نظراتهم على البوابة؟ أشعر أنّهم لا يرغبون في مجيئنا، ينتابني إحساس أنّي سأخسر.

- دعك من هذا الكلام السّابق لأوانه، أعتقد أنّه ليس إلاّ شعورا مرهفا لشاعر لا غير، أمّا عدم رغبتهم في زيارتنا فلو تعلم كم يغتنون من المكوس التي يدفعها أصحاب القوافل، أموال طائلة!

-أهذا حقّا ما تراه !

***

السّوق في أرض مستوية ممتدة يحرسها جنود يشبهون جنود البوابة، يحملون دماء غير الدّماء التي تجري في عروقهم، سحنة بيضاء وشعر أسبط، وعيون ملّونة. يتوزّعون على ثلاثة أبواب مقوّسة على أطرافها نقوش، تصبّ كلّها في ساحتها الفسيحة، يحرصون على جباية المكوس من التّجار الوافدين، وإحصائها عنهم.

السّحنة الشّاميّة تظهر غربتهم بوجوهم الشّديدة السّمرة دكّنتها ألسنة الشّمس في هذه الرّحلة أكثر ممّا كانت عليه قبل فترة. مختلف الألوان من البشر، رطانات اللّغة تجتمع في هذه السّوق من شتّى البقاع، واللّهجة القرشيّة كلّما اتجهت إلى الشّمال فقدت بدويّتها إلى أن تختفي فلا تسمع إلاّ من التّجار المرتحلين، وتلبس الألسنة ثوبا حضريّا، وتتناهى إلى الأسماع رطانة روميّة في كلّ جانب من جوانبها، هذا لسان روميّ صارخ يزيد وذاك يُنقص. رائحة الرّوث كلّما اقترب من سوق الماشية والخيل تؤذي أنفه وتديره إلى وجهة أخرى، سوق النّخاسة في آخر السّاحة حيث تُعرض ألوان مختلفة من الروم والفرس وأهل صقليّة، وجواري الشّام ورقيق الحبشة، يبذل المالك كلّ ما في وسعه ليعرض بضاعته، فيكشف عن شعرهنّ وقوامهن، ويعلي صوته بكلام طويل عمّا يُجدن حتّى يعلو ثمنهنّ، يطلب من هذه أن تغني، ومن تلك أن تعزف أو ترقص حتّى يلتفت المارّة إلى قيانه.

علا بلكنة أعجميّة حلوة صوت فتاة روميّة أمسكت بآلة لم يعرفها، فاجتمع حولها أصناف من التّجار المكيّين، وتبارى في الجانب الآخر الشّعراء في الإنشاد تحت قبّة حمراء من أدم.

- عشرون دينارا بيزنطيا.

- بل ثلاثون.

- ليس هذا ثمنها، لن أرضى إلاّ بالنّصف!

- زن لي أربعين أوقية شعيرا...

-هذا زيت بصرى صافيا ترى صفحة وجهك عليه، وطيّبا أيضا، كم أصبّ لك يا سيّدي؟

صخب السّماسرة والباعة والمساومين بعد كلّ يوم يقضيه في السّوق من صباحه إلى مسائه يملأ أذني عبد الله بعد أن باع نصف الأدم الذي معه وبرود اليمن الموشّاة وخضابه... ويكاد ينهي شراء ما طلب منه صهره وهب من بضاعة، بقيت الهدايا، عليه أن يتخيّرها جيّدا من السّلع المعروضة قبل أن تنتهي مدّة إقامتهم وإلاّ غضبت آمنة وأخواته، ولم ينل رضا أمّه.

انصرف عروة إلى سوق العطّارين يحمل في جرابه أعشاب الجنوب وطريق الشّمال، وعرّج على بياطرة يفحصون الدّواب فباعهم أعشابه وتشكيلاته التي اعتنى بتوليفها، واشترى أخرى ممّا لا يجده في مكّة، وترك في الخان جرابين لمرضاه ممّن يشكون من علل شتى. تذكّر وهو يطوف بالباعة للمرّة الثّانية بكاء ابنة وجيه قريش التي تشكو من بثور أفسدت وجهها وبعض جسدها يوم كشفت له بحضرة والدها عن

ساقها، فطلب لها عند العطّارين تشكيلة نصحه بها حكيم نصرانيّ طاعن في السنّ، وطلب منه أن يفحص غذاءها وأكثر طعام المكيّين، وحتّى ملبسها، ويسألها عن أيّ طارئ عليها في الفترة التي ظهرت فيها البثور، يشكّ في الجرب أو البُهاق.

دخلت مختلف روائح الطّيوب والتّوابل أنف عبد الله وهو يجوب السّوق ليقتني لأهله الهدايا في يومه الأخير بعد أن باع البضاعة كلّها، واشترى أخرى ممّا لا يجده في مكّة، وأنهى بعض المسائل العالقة بينه وبين التّجار، لبان ظفار في سعف الخوص معروضة للمتجوّلين من عامة النّاس في السّوق والتّجار ذكّرته بآمنة وطلبها.

- زن لي مقدار دراهمي من هذا اللّبان.

فتح مزوده وأخفاه في حرز إلى أن يرى آمنة، ثم التفت باحثا في جناح الأقمشة عن طلبها وما يليق بأمّه، وبعض أدوات الزّينة لأخواته، وتوقّف عند حرير الهند والصين. ترى ما سرّ هذا الحرير الذي يساوي رطل منه رطلا من الذّهب؟ كأنّ يد الآلهة تحوكه لا أيدي البشر؟ لم يُعلم بعد أن دودة القزّ هي من تصنعه، تسرب هذا السرّ فيما بعد بسنوات من درب الحرير.

لا زالت الهياكل والكنائس في طريق عودته من السّوق تدهشه منذ أن نزل ببصرى، حتّى في ليلته الأخيرة قضى كثيرا من الوقت أمام نافذته المطلّة على الكنيسة يرقب المدينة ويجول بفكره بعد أن تسامر مع فتيان قريش ومع مطرود الذي يميل إليه ويأنس بوجوده

رغم فارق السنّ بينهما، والأنس كبير والشّعور مختلف وهو يحكي له عن جدّه الذي لم يره.

ليلتهم الخامسة والعشرون في هذا الخان، اللّيلة الأخيرة وغدا سيشدّون الرّحال إلى غزّة يعرضون بضاعتهم في سوقها أيّاما ثم يعودون من حيث أتوا.

لم يكن ذلك يَعنيه إلاّ قليلا، لم يكن يعبأ كثيرا للرّبح وإن كان يخشى الخسارة، وماذا سيقول لوالده ولصهره.

- لا تسعني الفرحة بهذا الربح الذي لم أتوقعه، ستسرّ زوجتي وأولادي، سأشتري لهم هدايا حين أوبتي.

- ألم أخبرك يا مطرود أنّ حدسك كان خاطئا؟!

كم مرّة أعاد عدّ النقود التي ظفرها، سيبتاع بضاعة أخرى وسيربح أضعافها. استلقى على السّرير ساهما فيما يمكن أن يجازي به زوجته على صبرها على حاله.

لكنّ عبد الله لم يُجبل على ما أراده له والده شيبة الذي يجوب الصّحاري والحواضر من اليمن إلى الشّام على مدار السّنة صيفا وشتاء، بل يحنّ إلى هدوء مكّة، وحديث إخوته وأخواته، ومجلس أبيه الآمن عند البئر المضنونة. لم يستطع أن يمحو من ذاكرته صورة والدته فاطمة ودموعها يوم النّحر يوم استسلم لإرادة والده واقتاده إلى ضرب القداح عند الآلهة، وصورة آمنة لا تفارقه بثوبها المشجّر الزّعفرانيّ وهي تجدّل شعرها كلّ صباح وتفكّه قبل النّوم. حتّى أروى أصغر أخواته البنات تقترب منه، عيناها مبتلّتان طول الوقت، كأنّه

ليس لديها غير الدّمع لتعبر عن فرحها أو حزنها، لسانها العذب ورهافتها أهمّ ما يجعلها مختلفة عن بقية أخواته، ولا يستطيع أن ينسى حنّاءها التي لا تغادر كفّيها. لا يزال قلبها معلّقا باللّعب في ساحات الحرم.

صمته الجميل في مكة ذات الهدوء الرّتيب فلا تنتفض إلاّ في الموسم ثم تعود إلى رتابتها التي يحبّ، صحراؤه المترامية حتّى بلهيبها تحنو عليه، وقبضة المدينة تكبس على أنفاسه بين جدران الخان، ولا يدري لها سببا، أتراهم جنود الرومان الذين يراهم في كلّ ركن من المدينة، أم صخب السّوق الذي لم يستطع أن يعتاده وهو التّاجر سليل التّجار، أم هو البدويّ رجل الصّحراء الذي لم يألف بوابة ولا مزلاجا حديديّا ولا حرسا، يهيم بصحرائه التي كلّما أراد أن ينطلق فيها بناقته ليلا أو نهارا فعل دون رقيب، أم تراه الشّوق، شوقه لآمنة. شعور عميق بما يكابده أبناء مكّة كلّ موسم من عناء الارتحال وفراق الأحبّة والعشيرة يستحوذ عليه كأنّما اجتمع كلّ ذلك في قلبه، وهو لم يجتمع بعروسه إلاّ أيّاما وغادرها وخضاب عرسها على كفّيها.

على الكرسيّ الحجريّ القريب من غرفته بقي عبد الله بمفرده تجول في نفسه الخواطر بعد أن انفضّ مجلس القوم باكرا ليستعدّوا لرحلة الغد، حتّى مطرود لجأ إلى فراشه بعد أن تحدّثا طويلا عن أحوال السّوق والتّجارة، وعمّا ينتظرهما في غزّة.

قطع صوتُ الأجراس وهي تقرع غناءَ الهاشميّات الذي تردّد في رأسه حتّى الصّباح بعد أن آوى إلى فراشه:

أتيناكم أتيناكم... فحيانا وحياكم

ولولا الذّهب الأحمر... ما حلت بواديكم

ولولا الحنطة السّمراء...

الزفّة والوليمة ودعاء المهنّئين لم تغادر مسمعه بعد، هدوء مكّة، إيقاعها الرّتيب، صمت صحرائه التي شبّ فيها تسكنه، مجلس أبيه عند البئر، ابتسامة آمنة الفاتنة وهي تخفض عينها كلّما نظر إليها.

***

تسرّبت إليه من نافذة الخان ترانيم قدّاس الفجر أيّام الآحاد، قد تعوّد عليها في أسبوعهم الثّالث، وعلى عتبات تلك البيوت العاليّة الأسوار لاحظ رجالا يدعون الأساقفة بأثواب الكهنوت وهم يحملون الصّلبان يدخلون ويخرجون منها بحرّاس. أترى يا مطرود هؤلاء، منذ وقفت هنا وأنا أرقبهم، إنّهم يطرقون أبواب تلك البيوت ولا يدخلونها، يقفون عليها منتظرين. انظر من أعلى الخان من نافذة الغرفة، يظهرون بوضوح. يظهر عليهم قلّة الحال يحملون لهم الطّعام والهدايا ويطلبون منهم الدّعاء لأبنائهم المرضى ويسألونهم الرّزق. نحن في مكّة كذلك نذبح لآلهتنا القرابين، ولكنّنا نكلّم حجارتنا دون أسقف أو كاهن نضطر لأن نجزل له العطاء، ونقصد الحرم وربّه ليستجيب لنا.

اختلطت ترانيم القدّاس بمساومة الباعة ورنين السّبائك التي امتلأ بها جوفه من الصّباح إلى غاية آخر المساء، حيث كان عليه أن ينتهي

من أمر الهدايا. كان صخب السّوق وهدر السّماسرة يعاوده كلّما تقلّب في فراشه في الخان الرّوميّ.

رغم حنينه الشّديد إلى مكّة بعد أن انقضت هذه اللّيالي وهو في بصرى، وشعوره بأنّه لم يُخلق لصخب السّوق إلاّ أنّ كثيرا من الرّضا ينتابه ويسعد به، لأنّ الحظّ حالفه بأن أثرى ممّا حمله من تجّار قريش ممّا سيسعد له والده وإخوته وصهره وهب، واشترى ما خفّ وزنه وغلا ثمنه، ولبّى طلب آمنة وأخواته، قماش ساسانيّ موشّى، وصرّة من توابل الهند وأخرى من لبان ظفار كلّفته غير قليل من المال.

قايض البدو سمنهم وجبنهم بحبوب الشّام وزيتها وسكّرها وخمورها، وبعض أدوات الصّيد التي لا يصنعونها ولا يملكونها في الصّحراء، واشترى سهم بضع تروس وخناجر وسيوف ورؤوس حراب ممّا ينقص جماعته المرتحلة في مواسم التّجارة.

- هذه مواسم الأشهر الحرم لا يسمع فيها صوت السّلاح إلاّ أنّ الاحتياط واجب، والخفارة ضرورة.

اقتنى أشراف قريش وسادتها سيوفا مشرفيّة ودنانا كثيرة من جلدٍ، ملأى بخمور بصرى المعتّقة التي يغلو ثمنها في المواسم، ويبيعونها بأغلى الأسعار لأصحاب الحانات، وتصلح للاحتفال عند العودة.

بعد أن أفرغت عن الجمال التّمور والسّمن والأدم ملئت ثانيّة بما خفّ وزنه وغلا ثمنه، الطّيوب والبخور واللّبان أغلاها وتوابل الهند وحرير الصّين ودنان الخمر، وسيوف بصرى تحملها إلى أسواق مكّة.

انطلقت العير يحدوها الاشتياق إلى صفاء الصّحراء بعد أن اجتازت الحاميّة والأعين ترقبها. شعر عبد الله كأنّ أمرا قد تغيّر، وشيئا قد انفتق زمامه، كأنّ البوابة تقسم السّماء إلى سماءين، وسيختار حتما سماء صحرائه، وسماء مكّة التي يتوق إلى العودة إليها، سماء آمنة ومجلس أبيه عند البئر المضنونة، ولا طاقة له بسماء يحرسها هؤلاء الجنود.

-5-

قرص الشّمس ينام ككلّ ليلة خلف جبال مكّة، وآمنة من كوّة فناء الدّار التي تطلّ على الطّريق ترقب الظّلام وهو ينتشر بين البيوت حتّى يصير حالكا، وتعدّ على أصابع يديها ليالي الغياب وما تبقّى، وتُمنّي نفسها بأنّ بعد مشقّة الوحدة التي تجدها سيعود، وسيجتمعان من جديد، وستحمل هذه الرّحلة لحياتهما معا خيرا كثيرا. ستكون دارها أوسع وأجمل كدار عمّها شيبة وخالتها فاطمة وكلّ أثرياء قريش، ويكثر جواريها وخدمها، والجِمال الخمس الأوارك ستصير أزيد، وقطعة الغنم الصغيرة ستملأ المراعي، بينها صباياهما وصبيانهما يجرون ويلعبون. ابتسمت لهذا الخاطر وهي تدخل مقصورتها بعد أن ألحّت عليها جاريتها الحبشيّة وهي تحمل إليها الطّعام.

- أوصاني سيّدي بك، فلا تغضبيه منّي عندما يعود ويجدك واهنة سقيمة.

- ناوليني الصّحن يا بركة... على أن تأكلي معي.

- لا يصحّ يا مولاتي.

- ألم تقولي إنّ مولاك أوصاك بي، فلا تغضبيني وامتثلي لأوامري. ليس في البيت إلاّ أنا وأنت، فلِم يأكل كلّ واحد منّا منفردا، لم الصّحنان؟

جلست بركة على الأرض تمدّ يدها إلى الصّحن ثمّ تحجم وتعضّ على شفتيها الغليظتين، وسيّدتها تدني منها الطّعام وتشجّعها إلى أن فرغتا، فقصدت آمنة مخدعها وراحت تستحضر الأيّام التي جمعتها بعبد

الله، تملأ بها اللّيلة ثمّ تسقطها من الحساب كعادتها كلّما غابت شمس من الشّموس وحلّ الظلام.

لم تكن كثيرة أيّامي معه، أقبض عليها أطيلها وأعيشها ثانيّة، ولا أجده يدخل حياتي إلاّ يوم قدومه للخطبة مع عمي شيبة. يتناهى إلى سمعي من مجلس الرّجال صوته ثمّ خروج أبي وحديثه الهامس إلى أمّي التي أسرعت بوجه تكاد الفرحة تنطّ منه لتزفّ لي الخبر، وتنتظر بدهاء أموميّ وقعه على وجهي، ثم تحتضنني لمّا ترى إطراقي والبسمة في عينيّ تفضحني.

الفتى الذي قاده والده إلى النّحر وفداه بمئة من الإبل في بيتنا يطلبني للزّواج، الفتى الذي امتلأت مجالس مكّة بذكره، الصّغار والكبار، الرّجال والنّساء ليس لهم سوى سيرته، ها هم أخواله قدموا ليمنعوا نحره، وها هو الاقتراح الذي ينزل بردا وسلاما على قلبي بالتّريّث وأخذ رأي عرافة الحجاز. فؤادي ككلّ قرشيّ وقرشيّة يخفق في انتظار ما يجيء به المرتحلون إليها، قالت:

- قرّبوا عشرا من الإبل ثمّ اضربوا عليها وعليه القداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتّى يرضى ربّكم، وإن خرجت على الإبل فانحروا عنه فقد رضي ربّكم ونجا صاحبكم.

وجيب قلبي يرتفع وينخفض وهم يضربون الأسهم، ولا تقع إلاّ عليه إلى أن بلغ الفداء مئة من الإبل، وخرج البشير يفرح لخبره كلّ بيت بعد أن تقطّعت قلوب الأمّهات، ولكنّي عدت إلى قلق الانتظار مرّة أخرى لمّا

أراد عبد المطلب أن يعيد ضرب القداح ثلاثا ليتأكّد من رضا الآلهة بهذا الفداء.

يا لَإصرار عبد المطلب على الوفاء بنذره وصدقه مع الآلهة؟

ويا لهذه الآلهة يا بركة التي تفرح للقرابين وللنّذر وللدّماء تراق على المذابح؟

هذا الفتى الذي صار حديث كلّ مجلس نجا من الموت، وهو الآن في بيتنا لخطبتي. لم تسعني الفرحة يومها ولا أمّي، راحت تذهب يمينا وشمالا تمسك بهذه الآنية وتضع فيها قطع اللّحم وتضع في الأخرى المرق. شاركتْ يومها بنفسها في إعداد أكثر من صنف من الطّعام، وهرعت أكثر من المعتاد إلى إكرام ضيوفها الذين صاروا أنسباءها، رأيتُ ذلك في عينيها وفي اضطرابها... أهكذا تفرح الأمّهات لفرح بناتهنّ، أهذه أمّي التي كانت تقسو عليّ في بعض المواقف والمهام؟ أتراها كانت تقسو لأجل مثل هذا اليوم؟!

ثمّ تهلّ الأيّام اليتيمة التي جمعتنا، أيّام ثلاث أولى في بيتنا يوم مُلّكني، أيّام كانت فيها أمّي وحتّى أبي يدلّلاني ويفرغان عليّ من حبّهما وعطفهما حتّى ظننت أنّ هذا حدّ الدّلال، قبل أن أصير لرجل آخر وأفارق دارنا التي نشأت فيها. في الحقيقة كانا يدلّلاني مرّتين مرّة لأنّي ابنتهما وهذا آخر عهد لي ببيتنا، ومرّة لأنّ ابن سيّد قريش في ديارنا وصار صهرا لهما. ثمّ زفّتي إليه وأنا على ناقة لم أر مثلها جمالا وانسيابا، رشاقة في رفعة، اختارها والدي من بين كلّ نوقه فوق هودج تزيّنه شرائط الحرير الملوّنة، وقلبي في شرائط الحرير مذ كنت أشهد مع الأطفال مواكب

العرس، والتّصفيق وغناء من صحب الموكب من أهله يحقّني ثم غناء الزّهريّات بعد أن استلمن الدّفوف، وداري يوم خطوت خطوتي الأولى فيها تحت وقع المزامير والأهازيج، وجلوسي في المقصورة التي ستصير مأوانا بعد أن حضّرها لي عبد الله وزيّنها.

مقصورة وسط قبّة ولجت إليها، من خشب الحرم عملها نجّار روميّ أبدع فيها لتكون عالمنا الذي يضمّنا، عالمنا وحدنا.

هذه كلّها أيّامي اليتيمة معه إلى ليلة سفره، قليلة وناعمة وبهيّة كشذا زهر الرّبيع الذي يفاجئ الصّحراء، انسدلت على حياتي فجأة فغيّرتها.

بل لي في الطفولة بعض صور أراه فيها، صور غير واضحة لا أذكر كلّ تفاصيلها قبل أن أحجب في البيت، في ساحات الحرم ونحن نلعب، وأيّام المواسم من كلّ سنة ونحن نرقب الطّائفين بنين وبنات، وسوق مكّة تعرض تجارتها وهيامي بالقماش الذي تتحدّث عنه كلّ نساء قريش ولا تستطيع مقاومته ومنظر الحليّ في أيدي الصّائغين تتهافت عليه كلّ امرأة ونحن الصّغار لا نتجاوز الرُّكَب أو الخصور نستمتع بالمنظر من الأسفل، وعندما كان يأخذني أبي إلى مجلس عبد المطّلب حيث البئر، أراه مع إخوته العشر. هذه كلّها لا غير أيّامي معه، أهرب إليها، فلا أجد منها الكثير، لا تتعدّى أصابع يديّ، ولكنّها حبلى به...

اذهبي إلى النّوم يا بركة، فكلامي لا ينتهي وكذلك هواجسي، أراك متعبة، انظري إليّ.

وجذبتْها نحوها تقرّب وجهها الفاحم السّواد وتتفرّس فيه:

- بل يكاد النّعاس ينفلق من عينيك.

- وأنت يا سيّدتي، يجب أن تنامي أيضا؟

- سأنصرف الآن إلى مخدعي، لا تخشي عليّ.

وفي الصّباح استفاقت على طرق ثمّ جلبة انتهت إلى صوت يقترب الآن من غرفتها، يبدو مألوفا من ديار أبيها...

-ما كلّ هذا الدّلال يا ابنة العمّ؟

-هالة أهلا بك، مضى زمن لم أرك فيه. هل ألفت البيت الذي درجت إليه؟

- شيبة فيض سمح يُؤلف...

- ولكنّي أرى على وجهك شيئا، اقتربي منّي واجلسي قربي، لأيامنا معا اشتياق، كأنّي أراك متعبة؟

تأمّلت باستغراب عينيها الباهتتين، والبياضَ في شفتيها، ووجهها الأميل إلى الذّبول، كأنّ به وَهَنا، وهو أقرب الآن إلى الطّول منه إلى الامتلاء والاستدارة والنّضارة كما عهدتها قبل أشهر فقط.

- تعالي لأخبرك الخبر الذي جئتك لأجله...

- خبر... أيّ خبر جئت هذا الصّباح لتحمليه إليّ؟!

خلتْ هالة بآمنة، بينما انشغلت بركة بإعداد الغداء، تحدّثها عن حياتها الجديدة مع عبد المطلب فقد خُطبتا في مجلس واحد، ثمّ أخبرتها بما تجده من تعب وثقل وشعور أقرب إلى الملل، وتسألها عن حالها بعد أن صارت وحيدة.

- لم أنم ليلة البارحة حتّى بداية السّحر...

-تفكّرين في عبد الله ومشاق الطّريق؟

- أجل شعرت بالوحشة، ثمّ غفوت فسمعت هاتفا يقول لي: إنّك قد حملت بسيّد هذه الأمّة. استفقت على فرح وسكينة ما أحسست بهما منذ فارقني، حينها انتبهت إلى رفع حيضتي. فكّرت في الأمر فسعدت له، وسعدت أكثر لمّا تصوّرتني أزفّ الخبر إلى عبد الله حين عودته. إنّ الهاتف يعاودني كلّما نمت، لا يمكن أن أنسى صوته المهيب:

-... سيّد هذه الأمّة، سيّد هذه الأمّة.

وتصوّرته يحصّل ما لأبناء عبد مناف مجتمعين من شرف خدمة البيت العتيق... ثمّ غطّطت في نوم عميق إلى أن سمعت طرقك يا ابنة العمّ وصوت بركة وهي تقول تفضّلي يا سيّدتي سأخبر مولاتي.

أتراه يسرّ بالخبر كما أسرّ به؟

- لكنّي لم يأتني هاتف ممّا أتاك رغم أنّي حامل بولد شيبة شيخ قريش وسيّدها؟

- حقا يا ابنة العمّ؟!

- وما أدراك لعلّها فتاةُ شيبة؟

-لعلّها... وأجد ثقل الوحم وأأنف من روائح الطّعام وتغثّ عليّ نفسي حتّى كثيرا ما أستفرغ... وأحبّ أن أبقى في فناء الدّار ليلا ونهارا، أتجيدين ما أجد يا آمنة؟

مطّت شفتيها متعجبة:

- لا أجد شيئا ممّا ذكرتِ، ولولا ذلك الهاتف لما أدركت حملي.

- أُعرس بنا معا لآل المطلب، وها نحن كلانا ننتظر مولودا.

- هل قبضت على التّراب الذي وطئته قدما زوجك قبل الارتحال واحتفظت به حتّى يسرع بالعودة إليك؟ رأيت أمّي تفعل ذلك كلّما خرج أبي للتّجارة، هل فعلت ذلك يا آمنة؟

- لم أفعل شيئا من ذلك، أتعتقدين بهذه الأشياء يا هالة؟ افعليها عندما يخرج شيبة إلى اليمن...

تعالت ضحكاتهما حتّى وصلت بركة في فناء الدّار، فاطمأنت على سيّدتها وانصرفت إلى جلب الماء حاملة جرّة كبيرة، فعند آمنة هذا اليوم ما يشغلها. تجاذبتا الحديث إلى المساء وهما تتبادلان القصص، فمنذ فترة لم تضحك آمنة بهذا القدر. تذكّرتا صباهما وديار بني زهرة وما لا تجدانه في ديار بني هاشم، ولمّا همّت هالة بالمغادرة سألتها آمنة أن تكثر من زياراتها لتؤنس وحدتها، والتقت عند الباب عبد المطلب فعادت أدراجها ليصحبها بعد قليل إلى الدّار بعد أن ينهي زيارته السريعة لزوج ولده التي صارت في كنفه الآن إلى أن يعود عبد الله، يتفقّد أحوالها كلّ مساء، ويسألها عمّا ينقصها من السّوق أو يوصي غلمانه بجلب الماء لها أو الحطب.

- ما أخبار القافلة ياعمّ؟

- خرجت عيرنا من غزّة وكلّه شهر واحد وسيكونون في الدّيار، تبعث إلينا الرّسل الأخبار أوّلا بأوّل.

- ما أثقل الشّهر على قلبي، شهر بكامله كيف ينقضي. حدّثت نفسها، وهي توصل عبد المطلب وهالة إلى عتبة الدّار، وما إن انصرفا حتّى قالت لجاريتها:

- عنك يا بركة سأساعدك من اليوم في التّنظيف وجلي الصّحون والخبز، فالوقت يعاند ولا ينقضي اليوم إلاّ بتنكيدي كأنّه يومان!

وفي أمسية من الأمسيات من باب تمضية الوقت أخذت بوصيّة الخالة فاطمة عندما قدمت لزيارتها بعد أن علمت بحملها:

-عليك بالصّوف، انشغلي بغزلها فنعم لهو الحرّة المغزل.

سأصنع غطاء لصغيري. غسلت الصّوف التي أرسلتها لها الخالة فاطمة من صوف شياهها التي جُزّت هذا الرّبيع ثمّ نشرتها في فناء الدّار، وبعد أن جفّت أخذت مغزل والدتها بعد أن أحضره لها والدها وهب. أدارت الصّوف على المغزل بعد أن غرزت الخيط في صنّاره، وبَرَمتْهُ تماما كما كانت ترى جدّتها قيلة تفعل.

- رأيت جدّتي قيلة تفعل ذلك، إنّها تجيد الغزل. ثمّ ماذا يا جدّتي؟

ثمّ اتركي خيوطا بيضاء وأخرى اصبغيها بقشور الرّمان والحنّة وورق الكتم، بعدها اشرعي في النّسج. لم تلبث أن نكثت نسجها وتمنّت لو أنّ أمّها أو جدّتها بقيتا بقربها لتعلّماها... كيف لغزل الصّوف أن ينسيني فراغ البيت من عبد الله، ثمّ أخذتها سنة من نوم، وإذا بالصّوت يعاودها سائلا كمن يهمس في أذنيها:

- هل شعرت أنّك حملتِ؟

- لا أدري...

- إنّك قد حملت بسيّد هذه الأمّة.

رنّت في أذني هذه الكلمة يا بركة " سيّد هذه الأمّة" كم أسعدتني في وحدتي كلّما أفقت، أتراه يقصد مكّة؟ مكّة ستدين له كما دانت

لأجداده. تصوّرته مكان جدّه عبد المطلب حيث البئر وشرف السّقاية والرفادة، الذي سينتقل إليه بعد طول عمر عمّي، سيكون سليل جدّه هاشم وكلّ أبناء عبد مناف الذين بلغت تجارتهم اليمن وبلاد الروم وفارس... راقتني الفكرة فنمت بعدها نوما عميقا إلى الصّباح.

- أتراها العفاريت يا مولاتي.. ؟

- لعلّها... ولكنّ شيئا في قلبي يقول لي شيئا آخر!

- شيئا آخر، ما هو يا سيّدتي؟! رفعت حاجبيها

- لا أدري.. قلت لك لا أدري! كلّ ما أعرفه أنّي فرحة، فرحة يا بركة...

حملت بركة مكنسة سعف النّخيل بعد أن فرغت سيّدتها من حكي ما رأته في منامها، وهمّت بتنظيف البيت وهي تغنّي بلسان حبشيّ يحنّ إلى موطنها الأوّل.

-6-

طريق العودة إلى الديّار كلّه لهفة تمسح تعب ما انقضى من أيّام بحرّها وعطشها وحرمانها، وصورٌ عذبة تنفرط من ذاكرة المرتحلين تملأ عليهم صحراءهم، وتدفعهم للمسير وتُعدّ للآتي الجميل. بدأ الهلال الثّالث في الاكتناز منذ أن غابوا، سيصير بدرا بعد يوم أو يومين، وعبد الله مسند ظهره إلى الحجارة المُجمّعة فوق بعضها البعض حتّى شكّلت منارا للطّريق، يَعُدّ ما تبقّى من أماكن الاستراحة قبل الوقوف على الدّيار، ويتساءل عن تلك الحجارة خلفه وأمامه منذ متى وضعها السّابقون من تجّار القوافل حتّى لا يتيه من جاء بعدهم في الصّحراء، وحتّى يطمئنّوا ويعلموا أنّهم على أثرهم سائرون.

اتّكأ مفترشا الرّمل... ونظر حوله إلى الإبل المنيخة التي تستريح الآن ظهورها، تبدو له وديعة هانئة بنومها، من حسن حظّها أنّها استُبدلت في البتراء بأخرى نشطة من الإبل الحمراء الأصبر على الهاجرة. تزحزح قليلا بأسفل جذعه على الرّمل وهو يستند على باطن كفّيه حتّى صارت الأرض فراشه ووسادته، وغفا هنيهة ورائحة بحر غزّة لا تفارقه، تعاوده قويّة كما تلقّاها أوّل مرّة، فيها شيء مختلف لا يدريه عن بحر جدّة.

لم يبق من تلك المدينة المنعشة سوى شوالات من كتّان مصر وقمحها غير بعيد عنه داخل الزّاوية التي تجتمع فيها الحجارة مع بقيّة حمولة بصرى، وصورة شجر الجُميز التي استظلّ تحتها بعد أن تعب من وضعيّة الرّكوب، وذكرى جدّه تملأ خاطره، وتشغل وقته وتختصر

عليه مسافة الطّريق، وتنسيه تلك الوعكة التي تعصره بين اللّحظة والأخرى ثمّ تختفي كأنّ شيئا لم يكن.

تركوا غزّة خلفهم بشجر جُميزها المصطفّ على الطّريق بجذوعه الملتفّة والكثيرة، ونسيمِ بحرها ذي الرّائحة القويّة، والميناءِ المكتظّ بالسّفن التي تفرغ حمولتها على الرّمال الذهبيّة. بضاعةٌ كثيرة، عبّوا منها شوالات بقدر ما تسعه ظهور الإبل، وقوما تركهم خلفه راعَوْا انتباهه، يجرّون دوابهم محمّلة بالمحاصيل ليبيعوها في السّوق، ويحمّلوا عليها أخرى ممّا تنزله السّفن. وقبر جدّه هاشم غريبا في تلك الدّيّار... تركه كذلك خلفه ومضى بناقته.

نسيم السّاحل يُذهب أيّ غصّة في الصّدر، والبحر يضفي سحره على الأرض التي يتّصل بها، حضوره طاغٍ على لون السّماء والهواء وأمزجة البشر وأذواق الطّعام. ختم رحلته إلى غزّة بعد أن تنسّم هواءها السّاحليّ وباع واشترى بزيارةٍ للمقبرة حيث يرقد جدّه هاشم. كان عليه أن يمتثل لكلام عبد المطّلب الّذي أوصاه أن يعرّج على قبره، فقد أخذ منه وعدا وطمأنه بأنّه سيفعل، ولن ينسيه رنين النّقود، ولا صخب المساومة، ولا هواء السّاحل، ولا منظر السّفن الرّاسيّة، ولا شجر الجمّيز الذي يخطف الأنظار والعقول. لن يتوه في تعرّجات كلّ هذه المعمعة وينسى جدّه.

- لم أكن بحاجة إلى رجاء أو وصية من والدي، فهو يملأ عليّ غفوتي ونومي وطالما رأيته في منامي...

كلّما نزلتُ مدينة رغبت في أن أتبع أثر جدّي الرّاحل فيها، أين سار وأين جلس، وبمن التقى وما الأماكن التي وطئتها قدماه؟ وكم من خطوة مشى على رمل هذا الميناء؟ وددت لو أخبروني كيف كان، وكيف مات؟ وهل اشتكى؟ أحبّ أن أسمع عنه وعن الذين ذهبوا في غفلة وسط لهاث الحياة. كلّما تذكّرته شعرت بفتور وتعجّبت من هذه الرّحلات والمشاق.

أصرّ مطرود يومها على مصاحبته، فهو يحمل له دَيْنا وحبّا من أيّام الجدب، وفي المقبرة اعتمل في صدره هذا البيت:

وهاشم في ضريح عند بلقعة... تسفي الرّياح عليه وسط غزات

وعند فحمة اللّيل، وتحت أغصان شجرة الجميّز وفروعها الكثيرة، سأل مطرود أن يحكي له عنه، عن أيّ شيء يتعلّق به ممّا يعرفه أو يتذكّره أو يسمع به. استرسل في الحديث وهو يتفحّص قوائم بعيره ويتحسّس صدره وينظر في عينيه:

- أذكر بعيري الأعجف صابر يوم قدته للفصد بعد أن لم يبق لنا ما نأكله ونحن خارج مكة أيّام القحط. ربطت قائمته الأماميّة وأنا أخفي الدّمع في عينيّ عن زوجي وولدي.

البعير الذي قلت لولدي هو لك عندما تكبر، أنختة في يوم لم يبق لنا ما نأكله وفصدت من قائمته الأماميّة دما. صرخ الولد يومها وبكى وبكيت معه وعبثا حاولت أمّه أن تخفي عنه الأمر، ظنّ أنّنا سننحر البعير وسيموت لا محالة. نزل الدّم فائرا في القربة والولد يصرخ ثمّ أفهمته أنّي أعالجه، لم يطمئن حتّى رآه يجري ويلعب ويرتع في صباح

الغد. خلطنا الدّم بالوبر، وأوقدت أمّه نارا وشوته، ثمّ دعته لتذوقه فأبى.

- كيف أشرب دم بعيري وما هذا العلهز التي تطلب منّي أن أضعه في فمي؟

- أيُأكل هذا العلهز؟

- أجل.

ولكنّه في المساء لما استبدّ به الجوع وخارت قواه ولم يستطع أن يلعب مع إخوته وأصابه الدّوار، سأل أمّه هل بقي شيء من هذا الذي تسمّونه العلهز، وتلعثم في نطقه، فضحكتْ حتّى بانت أضراسها ولم أكن قد رأيتها تضحك هكذا منذ أن بنينا تلك الخيمة في العراء وأغلقنا بابنا لا نسأل أحدا حتى نموت جوعا وأولادي زغب الحواصل. قال جدّك هاشم يومها لكلّ من رآه خرج عن مكّة معتزلا حتّى لا يسأل أحدا:

- هذا ليس حلاًّ، ستموتون ويحيا النّاس، وتقلّون ويكثر النّاس وتذلّون ويعزّ النّاس....

ثم قصد قيصر الرّوم وكثيرا من القبائل وكان ما كان من العهد، عهد الأمان.

وأحسن إيوائي إلى أن مات، فأردت الخروج فأعطاني جدّك عبد المطلب راحلة فارهة بدل بعيري الهزيل ورحلا فاخرا وآواني إلى رحله وكساني كسوة حسنة، ومن يومها كما ترى وأنا أخرج مع القوافل.

- لم ير جدي هاشم ولده من سلمى وهو يشبّ ويصير فتى، رحل وهو غلام.

- أجل هذا ما حدث، ثمّ أحضره عمّ أبيك ثمّ وُلدتَ أنت من نسله.

ذهب عبد الله بعيدا بتفكيره وصمت...

غناء القافلة ليلا يطرد التّعب وينفّس عن الفؤاد، والرّبابة بوترها الوحيد تشعل شيئا في القلب خمد طيلة هذه الفترة. مضارب الصّبا وهواء مكّة وأخبيتها وسعف النّخيل ممّا لم يجد هنا، وضربة من أصابع مطرود وما تهيّجه في نفوس المرتحلين. أطلق العنان لصوته الشّذيّ بالغناء على الرّبابة حيث يجتمع سادات قريش حول ألسنة اللّهب:

يا ليلة هيّجت ليلاتي... إحدى لياليّ القسيّات

هيّجت لي أحزان ما قد مضى... لمّا تذكّرت المنيّات

ميّتٌ بردمان وميّت بسلمان وميّت عند غزّات

وميّت أوجعني فقده... مات بشرقيّ البنيّات

كان اللّحن حزينا وشجيّا هيّج القلوب.

تقلّب في أيّامه الماضية، وبين منابع الصّبا رتع، رأى إخوته وأخواته الشّقيقات وغير الشّقيقات من بقيّة زوجات شيبة، الحرم وما يحتفظ به من ذكريات الموسم كلّ سنة، حين يفيض البيت العتيق بزوّاره، ويجني والده وأثرياء مكّة وحتّى تجّارها الصّغار الخير الكثير منه، والهدوء الذي يتركونه بعد رحيلهم، يتركون الآلهة لترتاح بعد أن

قادت تجارتهم، ودرّت عليهم الأرباح، يتركونها لخمولها بعد أن شربت من دم القرابين حتّى فاضت كأسها.

التحف إزارا بعد أن انتابته قشعريرة ودنا من عروة السّقاء ليسأله عن موعد الارتحال.

- قبيل الفجر بعد ملء قرب الماء كالعادة، فلم السّؤال؟

- أشعر بالوهن، ويعاودني بين السّاعة والأخرى شيء من الوجع، أتراه طعام السّاحل؟ أم طعام الخان؟ أم تعب الطّريق؟

- لعلّه كلّ ذلك مجتمعا.

لم يعد يطيق صبرا والوعكة تراوده بين الفينة والأخرى. قلّب عروة بين ثنايا جرابه وأخرج عشبة يابسة نقعها في الماء ثمّ سقاه:

- اشرب هذا منقوع الضّرو مهدّئ للمعدة.

استلقى أمامه بعد أن شرب المنقوع، وحاول أن ينام غير بعيد عن جماعة من الخفر الأحابيش الذين كانوا لا يزالون يتسامرون وهم يحرسون المكان، فيشغلونه كلّما راوده الألم وإذا ما تركه غفا. وبعد أن فعل منقوع الضّرو فعلته شعر ببعض التّحسّن، فاستدار عنهم وتأهّب للنّوم، وقبل الإغفاءة الأولى رأى مجلس أبيه عند بئره، وهو لم يولد بعد، وحال أمّه فاطمة بنت مخزوم بعد أن عزم والده على أن يكثر من الزّوج والولد حين لم يجد يوم حفر البئر من يدفع عنه أذى قريش ونذره المشؤوم للآلهة، وحزن الخالة صفيّة بعد أن صار لها خمس شريكات في شيبة: هالة، ونتيلة، ولبنى، وممنّعة، وأمّه.

تذكر ضرب الأقداح، والقرابين التي قدّمت للآلهة، ثمّ فرحة أمّه ودموعها عندما دخل عليها ثانية الدّار بعد أن اعتقدت أنّها لن تراه مرّة أخرى، وكيف انهال عليه إخوته وأخواته يقبلون رأسه ويعانقونه... الزّبير، وأبو طالب، وأم حكيم، وعاتكة، وبرّة، وأميمة وأروى، ثم تراءى له موكب عرسه مع آمنة وغناء الهاشميّات وتباري الشّباب ورقص الخيول، ووجه آمنة سافرا لأوّل مرّة له وحده...

كالحلم الوديع والنّسيم العليل بين أيّام القيظ مرّت أيّامه معها، كانت قصيرة كطرفة عين، تأمّل حياته منذ ميلاده، وبعد أن شبّ عن الطّوق، وقصّة النّذر ثم زواجه والآن سفره.

وفي بداية السَّحر لمّا أحسّ بنوبة برد، استلّ بساطين من صوف، فرش أحدهما وثنى جزءا منه ليتوسّده بعد أن جمع تحته كتلة من الرّمل، وبالآخر اِلتحف بعد أن لم يعد بساط شعر الإبل كافيّا. غير أنّ ساعة السّحر لم تنقض حتّى حزموا أمتعتهم، وتحرّكت القافلة وهو لم ينل نصيبه من الرّاحة والنّوم بعد هذه الوعكة، وما إن بدأت الشّمس تطلّ فاركة عينيها من غفوتها حتّى كانوا على مقربة من يثرب.

أخرج آخر قرص من الأقط الذي زوّدته به آمنة، وآخر حبات التّمر والزّبيب الطائفيّ، وماهي إلا قضمة وقضمتين حتّى شعر بوجع لا يدري سببه، فبلعهما على مضض، أتراها مشقّة الطّريق؟ لم يبق على الديار الكثير، كلّها أيّام.

ما إن تصحو الشّمس حتّى تلفح بحرّها، وتزيد حاجتهم إلى ما يحمله السّقّاؤون على نوق الماء، وفي ظهيرةٍ لفحهم هواؤها النّاريّ كانوا يجوبون طرق يثرب ديار أخواله ويتزوّدون.

***

حين أوان عودة القافلة خرج القرشيّون جميعا هاشميّون وزهريّون، ولم يبق بطن من بطون مكّة وفروعها إلاّ وخرج، ممّن استودعوا أموالهم وأبناءهم وذويهم القافلة وأعينهم إلى طريق الشّمال تترقّب. الأفق خال، والأفئدة عامرة بالاشتياق والقلق ودعاء الآلهة خشية أن يتعرّض لهم ذؤبان العرب وصعاليكها، يغيرون على تعب سنوات لا مجرّد أشهر، وإن علموا أنّ للحرم مهابته.
- تنقص مسيرة ساعات ويصلون إلى شعاب مكّة. هكذا قال حمزة الأعرابيّ الذي لم ينقطع بفرسه برق لا هو ولا رجاله عن القافلة رائحا وغاديّا.

أخذهم النّعاس وقت الظّهيرة حالمين بالرّبح، سيدفعون المهور لأصهارهم وسيكثرون من الزّوج والولد، ويوسّعون دورهم. الأبناء ينتظرون الآباء وما يحْضرونه لهم، والزّوجات ينتظرن هدايا الأزواج وبها يختبرن شوقهم، وعبد المطلب في مجلسه عند البئر وعيناه على طريق الشّمال لا يخفضهما يترقّب العزيز المفدّى وأخبار ماله ومال صهره، يشاركه انتظاره كلّ أبناء وأحفاد عبد مناف، وسادات قريش وعامّتهم.

وإذ بقرع الطّبل وصوت الدفّ ينهض له كلّ من أخذته غفوة للحظات:

- مرحى مرحى أهلنا وتجارتنا على مشارف مكّة.

نزل الشّباب والفتيان من أعالي الجبال حيث كانوا يرقبون القافلة، واجتمعوا ينتظرون لقاء العائدين.

الأعين على البضائع المحمّلة من الشّام، وسهم يُرى على رأس القافلة وهو يلوّح برأس حربته. علا ضرب الدّفوف وازداد عدد المصفّقين وهتافهم، ستقام الأفراح وسيرقص الغلمان والقيان والخيول ويتبارى الفرسان وتقام الولائم بدنان الخمر التي جلبوها سبع ليال. انفض مجلس شيبة عند البئر، كلّ إلى من غاب عنه أو أودعه ماله.

أجراس العير أخيرا تملأ أسماعهم المتعطّشة للأحباب وللرّبح بعد انتظار يوم وليلة لخبر عنها. أناخ الأشراف مطاياهم بساحة النّدوة مرّة أخرى منها البداية وإليها المآل، ووصل مسامع آمنة وهي تحرق البخور لتعطّر البيت ضجيج العائدين وفرحة الأهالي.

- يا بركة لقد وصل الرّكب، اتركي ما في يديك

- العجين يا سيّدتي يحبّه سيّدي عبد الله.

- اتركيه إلى حين...

غسلت بركة يديها، ومن شدّة ابتهاج سيّدتها أمسكت بيدها وعانقتها طويلا تستحضر وقوفها إلى جانبها أيّام غياب عبد الله.

قرع طبول وعزف مزامير وتصفيق رجاليّ حارّ من أيد قويّة ملأت عليها حواسها. البيت العتيق يطاف حوله شكرا للآلهة، ووجوه العائدين فرحة رغم إنهاكها وعلامات الإعياء لا تخفى، تحملها العيون والوجنات التي ضمرت والشّفاه التي تشقّقت في الرّمضاء. وجوه لوّحت بها شمس الصّحراء وحرّ الهواجر، فظهرت أشدّ دكنة ممّا كانت عليه، ولكنّها دكنة تغسلها الابتسامات التي تفرّق يمينا وشمالا على الأهل بغير حساب، وسيرتاحون وتعود للوجوه نضارتها، وهذا أوان القطف قد حان بعد الوصول.

بعد عناق الآباء والأبناء والأهل والأصحاب والأحباب، بدأت مكّة في ضجيج المحاسبة، لا يُسمع إلاّ رنين النّقود ولا يُرى إلاّ الأيدي تتبادل البضائع وأصحاب الأموال تُؤدّى لهم أماناتهم. تحلّق حول أشراف قريش كلّ من قدّم لهم ولو القليل من المال الذي جمعه لأجل هذه التّجارة من السّنة، فرصة الحول كلّه للربح، بل فرصة العمر، حتّى سدّت حِلقُهم الطّريق لمن تأخّر لحاجة شغلته. مكّة مُوسرها ومعسرها، رجالها ونساؤها، كبيرها وصغيرها غارقة في ضجيج السّؤال والجواب في حِلَقٍ تجمع بين المسافرين والمموّلين وأصحاب البضاعة.

الجموع من المنتظرين والعائدين ما زالوا يسدّون الطّرق الضيّقة التي تصبّ في دار النّدوة حيث مجلس شيوخ مكّة، والحمّالون من الأحباش في شغل لم يُنهوا بعد تفريغ الحمولة وترتيبها بعد أمر من التّجّار والسّادة، وسهم بعد أن نال نصيبه من الأرباح راح يقتسم جُعل الحماية والسّقاية على رجاله ويدخل هو الآخر في أخذ وردّ. يزداد

الضّجيج ويعلو الهتاف، وشيء من خصام بين الخفراء والسّقائين حول حصة كلّ منهم، سرعان ما أنهاه أحد السّادة بصُرّة نقود مكتنزة هتفوا لها، اقتسمها عليهم سيّدهم:

- هم يستحقون فهُم من أوصل القافلة بسلام.

- أترى حاسي الذّهب يا أبي – قال الحارث-وفرحتَه بجواري وجميلات الشّام، أحقّا أنّ الكأس الذهبيّة التي يترع خمره فيها ممّا أكسبته تجارة قين الشّام ورقيق حُباشة.

- أتركنا من ابن جدعان وابحث معي عن عبد الله، لم أره بين أوائل القادمين، لعلّه مع الرّكب المتأخّر، أو لعلّ ناقته أبطأت لبعض الحاجة.

وسط انشغالهم وفي ضجيج المحاسبة نادى منادٍ في النّاس:

- يا قوم إلى دار ابن جدعان بعد أن تحطّوا رحالكم... هلّموا إلى جفنة عبد الله بن جدعان.

ساروا أفواجا أفواجا المرتحلون وغير المرتحلين يقصدون الدّار وابن جدعان بنفسه يشرف على مأدبة تليق بمقامه بعد أن أثرى من تجارته ثراء فاحشا. انكبوا على جفنة كبيرة لم يشاهدوا أكبر منها ولا أملأ بقطع اللّحم والمرق اللّذيذ، والتّحلية بحلوى الفالوذج بالعسل.

- لقد تأخّر عبد الله.

قالت آمنة وهي ترقب الطّريق بعد أن صار ضجيج العائدين مقلقا.

- لعلّه الآن مع سيّدي عبد المطّلب يسأله عن رحلته، أو لعلّه يقصّ أحاديثه على السّيدة فاطمة وأخواته.

- اذهبي يا بركة واستطلعي الأمر وطمئنيني ما عدتُ قادرة على الصّبر.

ما إن خرجت الجاريّة الحبشيّة حتى صادفت سيّديْها وهب وعبد المطّلب على مقربة من البيت، فعادت تسير خلفهما مطرقة الرّأس، لشيء على وجهيهما أربكها وأخافها.

- وعكة أقعدت عبد الله عند أخواله، وسيستأنف المسير إلينا بعد أيّام.

اقترب منها وهب حتّى جلس إلى جانبها بعد أن صفعها الخبر الذي جاء به عبد المطلب:

- لم الجزع يا ابنتي، لو رأيت كيف حماه الله يوم فدائه لعلمت كيف أنّ الحياة كتبت له، وأنّه كتب للحياة.

مسحت عينيها المغرورقتين، وبلعت خوفها وهي تردّ على والدها مطأطئة الرّأس ثمّ تصمتُ ولا تزيد حرفا:

- أجل يا أبي كلّها أيّام وسيستأنف المسير إلينا...

-7-

الصّباح لايزال بعيدا، والسّراج الذي ينير الغرفة أوشك أن ينفد زيته، والوهج الذي في الفتيلة يكاد ينطفئ، خافت لم يعد يتجاوز حتّى محيط القنديل. لقد انطفأت الفتيلة الآن تماما، وآمنة لم تستطع أن تُغمض لها جفنا حتّى في اللّيلة الثّانية من عودة القافلة وتخلّف عبد الله. لم ترد أن تنادي بركة حتّى لا توقظها لتعبّئ لها السّراج، فقد قضت يومها في أعمال البيت من كنس وتنظيف وخبز ومع كثرة أشغالها راحت تفضي بدعاباتها إليها لمآنستها، رغم أنّها لم تنم هي الأخرى في تلك اللّيلة وبقيت عند قدميها قرب السّرير.

الظّلام المطبق على الغرفة يشعرها بالوحشة، لابدّ أن أنهض لجلب زيت السّراج من غرفة المؤونة. نهضت في الظّلام فارتطم ساقها بشيء لم تعرفه لأوّل وهلة، كان صندوق الثّياب الخشبيّ الذي تضعه غير بعيد عن مدخل المقصورة فكادت تقع... نهضت الجارية الحبشيّة فزعة وهي تسمع أنينا خافتا ما لبث أن توقّف ولا ترى شيئا.

- أنت بخير يا مولاتي؟ ما الذي أيقظك في هذا الظّلام الأظلم؟

- لا شيء يا بركة... لم يغمض لي جفن طيلة اللّيل، والآن انطفأ النّور فنهضت لأجلب الزّيت...

- ما بك يا سيّدتي سمعتك تئنّين؟

- قلت لك لا شيء، يبدو أنّه صندوق الثّياب، لقد مشيت في الاتّجاه الخطأ فارتطمت به ساقي، أنا بخير الآن.

- لِمَ لَمْ تناديني؟ سأذهب حالا لإحضار الزّيت وسأشعل السّراج. ابقي مكانك يا مولاتي أو عودي إلى السّرير، لن يسامحني سيّدي لو أصابك مكروه أنت أو ما في بطنك.

سقطت لآمنة دمعة:

- أين هو سيّدك؟

عادت بسرعة من غرفة المؤونة تتلمّس مكان السّراج وهي تحمل قنينة الزّيت لتصبّ منه في القنديل:

- الآن أراك يا مولاتي... يبدو لي وجهك متعبا، لمَ لم تنامي؟ وعيناك دامعتان، مولاي عبد الله سيكون بخير في يثرب عند أخواله، ماهي إلاّ وعكة سيبرأ منها قريبا، وكلّها أيّام ويطرق الباب.

- أشعر بانقباض لا أدري سببه، كلّما حاولت أن أنام عاودتني الهواجس.

- لا تقلقي يا مولاتي، عودي إلى فراشك.

- لا أعتقد أنّه سيغمض لي جفن.

ظلّت بركة تؤنسها حتّى الصّباح نهضت إلى أشغالها، وبعد أن أنهت التّنظيف راحت تنتظر اختمار العجين، وآمنة تغزل الصّوف في فناء الدّار بعد أن علّمتها الجدّة قيلة أوليّاته في آخر زيّارة لها مع أمّها بُرّة، صامتة وعيناها إلى الباب، تنتظر أن يطرقه أحد يأتيها بخبر المريض الذي في يثرب. ملأت الحبشيّة صمت سيّدتها بأحاديثها عن التّحضيرات لعودة سيّد البيت:

- عليه أن يرتاح حتّى يستعيد صحّته، وليترك رحلة اليمن شتاء، فعُود سيّدي لا زال طريّا ليس كسيّدي شيبة. احرصي يا مولاتي على أن لا يغادر إلى تلك الرّحلة، فمشاق الطّريق تهدّ الجبال، وتضعف حتّى الأقويّاء وحرّ الهواجر يشقّ الرّؤوس.

أتت على كلّ دعاباتها وآمنة لاتزال صامتة لا تتعدّى استجابتُها ابتسامة أو إيماءة بالانبساط والرّضا بما تأتيه جاريّتها، تغزل وتمشّط الصّوف، ثمّ تطيله وتبرمه حتّى يصير خيطا تديره على العود. قلّبت بركة عمّا يمكن أن يملأ ذلك الصّمت الذي طال والوجوم، سردتْ حكايةَ رِقّها كيف انتقلت من الحبشة موطنها إلى اليمن، ثمّ بيعت في سوق حباشة في سوق الرّقيق إلى أن وصلت إلى مكّة، وإخوتها الذين بيعوا أيضا في سوق النّخاسة ولم تعرف عنهم شيئا منذ تلك اللّحظة.

لم تكترث آمنة كثيرا لقصصها عن حياتها السّابقة، فالأمر لم يكن يعنيها، ولكنّها لم تكن تحبّ إسكاتها، أو لم تشأ كسر خاطرها فهي تملأ عليها البيت، ومع الوقت تآلفت معها وتعاطفت مع قصّة رقّها. هي تشغل الفراغ الذي تشعر بوطأته منذ أن غاب عبد الله، وتملأ خوفها وهواجسها بالحديث، دعابات بركة وادّعاؤها للسّذاجة يضحكها ويسري عنها.

ملأت أحاديثُها عليها غيابه، عمّن علّمها الطبخ والعجن والخبز بعد أن انتقلت إلى دار عبد المطّلب، ثمّ التّرتيب وخياطة الثّياب رغم صغر سنّها، وعن حزم سيّدتها الأولى فاطمة راحت تقصّ عليها قصصا شتّى،

بعضها حقيقيّ والبعض الآخر نسجه حسّ الدّعابة عندها ورغبتها في إبهاج سيّدتها، وسَرّ آمنة أن تعلم أنّها تزيد وتبالغ لأجلها...

- منذ أن أدركت وأنا في خدمة سيّدي عبد الله وسيّدتي فاطمة.

-... حدّثيني عن عبد الله.

ملأت الحبشيّة ظلام اللّيالي بحديثها عن سيّدها عبد الله وحبّها له... سألتها آمنة عن طفولته وما يحبّ وما يكره، والمواقف التي حدثت لها مع سيّدها الصّغير. كان حديثها عنه يملأ على آمنة الدّنيا، تشرق سحنتها وتهطل عليها بهجة غامرة تسبح في سحرها ساعات قبل أن تتذكّر مرضه، يشعرها كلامها أنّه بقربها، تضحك وتستفسر ويعجبها حديث بركة ولسانها الأعسر:

- ردّتْ الآلهة ثيّدي وشفته، كم كان طفلا جميلا... ولا زال فتى وثيما.

- يا لبركة هذا غذائي وشرابي طيلة أيّام الانتظار... حدّثيني عنه أكثر، أريد أن أعرف عنه كلّ شيء، عاداته، ما يغضبه وما يسعده، فكما تعلمين لم نبق معا إلاّ أيّاما ورحل.

- معكما العمر كلّه يا مولاتي، فلا تبتئثي... البنين والبنات ثيملؤون فناء الدّار.

- أضحكتني يا بركة، لن أبتئث أبدا...

غرقتا معا في الضّحك فقد أحسنت آمنة محاكاة طريقة كلامها وعسر لسانها في نطق السين، وشعرت بركة بحاجة سيّدتها إليها وحزنها وبدت كأيّ صديقة تحادث صديقتها.

وفجأة وهي في فورة الحديث والحماس قاطعتها آمنة:

- أريد أن تصحبيني إلى البئر.

- أيّ بئر يا مولاتي؟

- البئر القديمة المظلمة البعيدة الغور التي تنادي فيها النّساء على أزواجهنّ أو أبنائهنّ أو أيّ من أحبتهنّ إذا ما غابوا في السّفر...

- حاضر يا مولاتي.

خرجتا باكرا قبل طيور الحرم، ولمّا وصلتا اقتربت آمنة من البئر ونادت:

- يا عبد الله...

-.......

امتقع لونها، ثمّ استجمعت قوّتها ونادت مرّة أخرى:

- يا عبد الله...

-......

نادت للمرّة الثالثة كما يستدعي عرف أهل مكّة، وهي ترتجف:

- يا عبد الله...

-......

شدّتها بركةَ من يدها وسحبتها دون أن تنبس ببنت شفة، وانصرفتا مسرعتين إلى البيت قبل أن يشتدّ الحرّ، وتمتلئ الطّرقات بالنّاس.

- ارتعش فؤادي يا بركة عندما لم أسمع شيئا، أتراه أصابه مكروه؟

- لا يا سيّدتي، ماذا تراها تعرف هذه البئر؟ هي بئر خرساء.

افتعلت الحبشيّة ابتسامة ساخرة وهي تخاطب سيّدتها:

- أتريدينها أن تتكلّم إليك يا مولاتي؟

- ولماذا يقولون هي تردّ على المنادي وتجيب إذا ما كان الغائب بخير، وتصمت إذا ما أصابه مكروه؟

جزعت بركة من سكوت البئر وانقبض صدرها وهما تقفلان راجعتين، ولكنّها أخفت ذلك عن سيّدتها.

ملأت الحبشيّة صمت أيّام الانتظار الطّويلة بدعاباتها وما بقي عالقا في ذهنها عن سوق العبيد، وأحيانا كانت تغنّي. لم يكن صوتها رخيما، ولكنّه مقبول، يسلّيها ويضفي بهجة على البيت، به بحّة جعلته ناعما، ولكنةٌ من كلام الحبشة في نطق بعض الأصوات.

وفي يثرب لزم عبد الله بيت أخواله بعد أن استأنفت القافلة المسير، وبقي إلى جانبه مطرود وعروة الحكيم. أخرج من جراب الأمراض الدّاخليّة بعض الأعشاب، طبخ ورق الضّرو فإذا نضج صفّاه وردّ ماءه إلى النّار حتى يعقد ليتداوى به مرّة في الصّباح وأخرى في المساء. وأعدّ من الطُّبّاق شرابا نافعا للسّموم والمغص واليرقان، فلعلّ ما به من ماء آسنِ شَرِبَهُ.

وأتاه خاله المغيرة بالتّلبينة تريح فؤاد العليل وتنظّف المعدة نصحه بها أهل بيته عن تجربة، وباركها عروة الحكيم، وهي حساء من نخالة ولبن يُشرب حارّا، ويضاف لها العسل، ولكنّ الوعكة التي دخل بها يثرب لم تفارقه بل كان ألمها يزداد عليه يوما بعد يوم، حتّى لم يعد قادرا على أن يغادر فراشه.

اشتدّت عليه الحمّى حتّى آلمته مفاصله، كأنّما به كسور في عظامه، نصحه الحكيم بالإكثار من شرب الماء وغسل أطرافه بين الحين

والآخر. كان العرق ينزّ من بدنه نزّا، فيناوله مطرود الكوب بعد الكوب ليشرب ويبلّل أطرافه، حتّى إذا ما همدت الحمّى وسكن فورانها أصابته قشعريرة فطلب الغطاء. لم ينفع كلّ ما عند أخواله في تهدئتها، وبعد أن يمرّ بعض الوقت يتعرّق، فيطرح عنه تلك الأكوام من الأغطية التي لم يعد يُرى وجهه منها، وإذا ما دبّ في جسمه الدّفء غفا أو كأنّما غشيته غفوة أقرب إلى الغياب.

كثر شربه للماء وقلّ طعامه حتّى نحل جسمه، وكاد أن لا يعرفه أخوه الحارث لمّا رآه لأوّل وهلة عند مقدمه من مكّة ليطمئن عليه، وأنكر ما كان عليه من جمال ووسامة وطلاقة وجه.

- نهض من نومه مفزوعا والحمّى تلهب جسده، اصفرار الوجه وذبول النّظرات وقلّة الأكل غيّر ملامح وجهه. أهذا عبد الله الذي عقد قرانه منذ أشهر فقط وترك عروسه والخضاب على يديها على أن يعود إليها مع القافلة؟

أبدى الحارث قلقه لمطرود الذي كان جالسا إلى جانبه متغضّن الوجه، ولما سمع الحكيم كلامه اقترب منه هامسا:

- أخشى أن لن يتحمّل مشاق الطّريق لتعود به إلى أبيك.

لمّا وجدوا حالته تزداد سوء طلبوا له حكيم يثرب وأرسلوا في طلب آخر من خيبر، لكنّهما لم يزيدا على كلام عروة شيئا، وأتوا بكاهنةٍ تفرّسته وقلّبت منخريه، ثمّ أومأت لخاله المغيرة أن يتبعها، فأسرّت له بعبارة واحدة لم تزد عليها أظلم وجهه على إثرها، ولم يقل للحارث شيئا وهو يومئ له بيده يستعلم عمّا قالته، وإن نابت عنه سحنتُه.

اقترب الحارث من عبد الله حتّى لامس وجهه وهمس له تماما كما كان صغيرا عندما يريد أن يخصّه بشيء:

- تتنظر مولودا..

هشّ حتّى بدت نواجذه في ابتسامة ذابلة لم يقدر على سواها، ثمّ أخذه شيء أشبه بالغياب...

انزلقتُ في غيبوبة، مرّت أمامي حوادث بعينها في حياتي، النّحر الذي نجوت منه ولم يبق منه سوى هذا الخدش على وجهي وذكريات تملأ خاطري، أحلاها صوت الدّفوف وغناء الهاشميّات:

أتيناكم أتيناكم... فحيانا وحياكم

ولولا الذهب الأحمر... ما حلت بواديكم

ولولا الحنطة السّمراء... ما سمنت عذاريكم

أتيناكم أتيناكم...

وذكرى آمنة التي لم أجتمع بها سوى أيّام، لم أشعر إلاّ وأنا أسير في القافلة مع السّائرين. هذا جدّي هاشم، الحلم الذي طالما رأيته، مع السّائرين على بعيره ومزوده، ثمّ يذوي حتى لا يُرى ويتركهما لي. كان عليّ - رغبت أو لم أرغب- أن أركب القافلة وأتمّ حكاية جدّي.

هل أراد لي والدي أن أكون في القافلة كما كان جدّي هاشم وبقيّة إخوانه من بني عبد مناف؟ ذهب هاشم ومن معه وبقيتْ القافلة، كأنّما أودعوا أرواحهم فينا وكلّفونا مسؤوليّة إتمام قصّتهم، ثمّ هذه الوعكة التي أقعدتني في ديار بني عديّ.

كان يهمس للحارث عندما تكفّ عنه الحمى، ومطرود إلى جانبه يكتم أنفاسه بكفّيه حتّى لا يظهر بكاءه وعدم تصديقه لما يحدث لعبد الله، ولمّا تشدّ قبضتها عليه يعود إلى ما يشبه الغياب...

رأى رجلا أحمر الإزار، أصفر الرّداء سائرا وسط الحجيج وأصواتهم وتلبياتهم ودعاؤهم لا يسمع معها صوت آخر.

لبّيك اللّهم لبّيك لبّيك لا شريك لك
لا شريك لك إلاّ شريك هو لك
تملكه وما ملك

يطوفون بالبيت، ويمسحون الحجر الأسود، ويسعون بين الصّفا والمروة. وأمام العزّى وقف آخرون يهتفون:

لبيك اللهم لبيك لبيك وسعديك
ما أحبّنا إليك

وأمام جهار تضرّعوا:

لبيك اللهم لبيك لبيك اجعل ذنوبنا جُبار
واهدنا لأوضح المنار ومتّعنا وملّنا بجهار

وجماعة أخرى ابتهلت أمام سواع لبّيك... كانت التّلبيات تعلو ولا تتوقّف وتملأ مسامعي. كانوا ينادون الرّجل الأحمر الإزار هاشما بعد أن فرغوا من تلبياتهم، انتفض عبد الله من دهشته وسرّه أن رأى جدّه الذي لا يعرف وجهه. كان يسقيهم نبيذ التّمر والزّبيب في أوعية من أدم، ويهشّم الثّريد وينادي على الفقراء. ناداه... جدّي، جدّي، لكنّه لم يلتفت ثم سار مبتعدا إلى أن لم يعد يراه، ثمّ رأى آمنة بثوبها المشجّر

وجديلتيها الفاحمتين باسمة تنظر إليه ونور يخرج منها تضيء له قصور بصرى التي رآها في رحلته إلى أرض الشّام.

ولمّا كانت الحمّى تنخر جسده، ووجد نفسه بمفرده والغرفة مظلمة والصّباح لم يحن موعده، تصوّر أنّ ما رآه مجرّد خيال أو حلم أو من آثار الحمّى التي كانت تلهب مفاصله. استدار إلى الجهة الأخرى يتحسّس بكفّه المنديل المخلّق بعبير آمنة ويتلمّس مكان الخدش الذي على وجهه، وجرابُ الهدايا غير بعيد عنه...

تخفت الأشياء وتظلم الغرفة، ويسكن الضّجيج وأصوات اللاّهثين تبدو بعيدة إلى أن تنطفئ. لم يعد يشعر بالوعكة، ولم يعد يسمع أصوات السّائلين عنه ولا ما يشير عليه مداويه، ولا المغيرة ولا أخاه الحارث، عدا النّور الذي تراءى له أكثر من ليلة يملأ المعمورة...

-8-

صرخة صباحيّة في ديار أخوال أبيه بني عديّ بن النّجار تبكي فتى قريش، الشّاب الذي لم يتجاوز العقد الثّاني إلا بخمس سنين، يرثيه الأخوال والخالات، يبكون شبابه ووسامته. ماذا سيقول الحارث لأبيه بعد أن قدم ليصطحبه على فرسه لاهثا لم يرتح من وعثاء سفره إلاّ قليلا حتّى فارق أخوه الحياة، لم يبق منه سوى جثوة تراب يرقد تحتها في دار النّابغة حيث دفن، وصورٍ في ذاكرته أشدّها قسوة وعلوقا يومُ النّحر وقريشُ كلّها قائمة لم تقعد حتّى تطمئنّ عليه، وتعرف ماذا سيحلّ بنذر عبد المطّلب بعد أن وقع القدح عليه دون إخوته.

لم يكن أخي الأصغر الأحبّ إلى أبي فحسب بل الأحبّ إلى قلوبنا نحن إخوته جميعا، ولم أستطع أن أقف دون حراك وهو يهمّ بذبحه وأصوات القرشيّين تزداد ارتفاعا وصخبا ومعارضة. تسلّلتُ بين الجمع وبكلّ ما أوتيت من قوّة وعزم خالفت إرادته التّي لم أستطع طيلة حياتي أن أقف ضدّها، هيبة أبي كبيرة وشديدة. انحنيت وجذبته من تحت رجليه وأفلتته من قبضته حتّى خدش وجهه خدشا أخذه معه إلى القبر... وإذا بوجه أبي المهيب مغتاظا يستدير نحوي ويهمّ بي... لولا صوت انطلق من بين المجتمعين:

- والله لا تذبحه أبدا ونحن أحياء حتى نرى ما نفعل.

وعلا آخر:

- لئن فعلت هذا لا يزال الرّجل يأتي بابنه حتّى يذبحه، فما بقاء النّاس على ذلك.

لا يمكن أن أنسى عيني عبد الله يومها وهما تنظران إليّ، ذعر يخفيه خَبِرْته منذ أيّام صباه عندما كان يختبئ خلفي من الصبيان الأكبر منه إذا ما همّوا بإلحاق الأذى به، وحنوٌ وامتنانٌ يعلنه اختصر السّنوات التي لعبنا فيها معا في ساحة الحرم وأمام الحِجر رغم أنّي كنت أكبره بسنوات كثيرة، وأيّامَ لهونا في المراعي نجري خلف الإبل والشّياه ونحمل مزودا مشتركا نقتسم تمره اليثربيّ اللّذيذ إذا ما جعنا، ونشرب من سقاء واحد... العينان ذاتهما اللّتان كانتا تلجآن إليّ رغم السّنين لم تتغيّرا، حانيّتان وممتنّتان تنحدران إلى ابتسامة تزيد من وسامته.

أنا بكر أبي، الأوّل من اثني عشر رجلا وستّ نسوة نتاج زيجات ستّ كلّها تعود لأبي، أنا فرحته الأولى... وعبد الله فرحته التي تأخّرت، الصّغير المدلّل.

هو الأقرب إلى نفسي وإن كنّا من أمّين مختلفتين، أمي صفيّة وأنا وحيدها، وأمّه فاطمة المخزوميّة وهو أصغر أبنائها، وفرحتي كانت لا تقدّر بدرهم ولا دينار عندما كثر إخوتي وكثرت بيوت أبي التي كنت أراها كلّها بيتي، ستّة بيوت كلّها تحت كنفه، رغم أنّ أمّي حزنت لذلك وكسر خاطرها ولم تعد كسابق عهدي بها... أنجبن له اثني عشر رجلا وستّ بنات. وما أزال أذكر ميلاد عبد الله وفرحة فاطمة به... هنئتُ بهذا السّند وبالعائلة تكبر أمام عينيّ، وإذا بأبي ذاك اليوم المشهود يريد أن يجازي الآلهة على عطائها بأن يذبح أصغرنا، وأنا الذي لم أصدّق أنّه صار لي كلّ هؤلاء الإخوة والأخوات، ولا أريد أن ينقص منهم أحد، فما بالك بعبد الله صغير العائلة؟

بكى الحارث لمّا تذكّر نظرة أخيه يومها وإلى أين صار، وانفطر قلبه وهو يجمع أشياءه، ناقته التي رافقته في سفره وبعض أغراضه، وتهيّأ للرّحيل يصحبه عروة ومطرود ويواسيانه. ودّع قبر أخيه والدّمع في المآقي والقلب محزون، وشَكر المغيرة على كلّ ما قدّم.

- لا تقل ذلك... دار أخوال أبيك مفتوحة دوما.

غادر وأمرٌ واحد يشغله، كيف ينعى إلى والديه وزوجه الخبر، وهم ينتظرون أوبتهما معا؟ كيف واراه التّراب وقد طلبوا منه أن يصطحبه، وأن يعودا إلى الدّيار مترافقين في الطّريق؟

ما أصعب أن يطوي هذه المسافة ليخبرهم أنّه فارق الحياة وهم ينتظرون أن يطلّ عليهم في أيّ حين. إن استطاع عبد المطلب أن يفديه في المرّة الأولى فهو لم يتمكّن في الثّانية من صدّ رمح الموت عنه، وقد خاتله بعيدا عنه وأجهز عليه. ما أطول الطّريق عندما يحمل المرء خبرا حزينا، لأوّل مرّة يودّ لو يبقى ممتطيا جواده ولا يصل أبدا. الوصول من السّفر الطّويل لا يحمل دائما الفرح وأخبارا سارّة، كما لا يشرق الصّباح بالضرورة عن شمس تزيّن الأفق.

بلحن حزين أنشد مطرود على الرّبابة في ليلة طالت حتّى اعتقدوا أنّها لن تنتهي:

يا ليلة هيّجت ليلاتي... إحدى لياليّ القسيّات
هيّجت لي أحزان ما قد مضى... لمّا تذكّرت المنيّات
ميّتٌ بردمان وميّت بسلمان وميّت عند غزّات
وميّت أوجعني فقده... مات بشرقي البنيّات

كفَتَ حفنتين من الرّمال على النّار وركبا مطيّتهما بعد أن ارتاحا قليلا وملآ الماء وواصلا السير.

في جوف اللّيل، وعبد المطّلب لا يزال في الخارج بعد أن انفضّ الجميع من مجلسه، لا تغادر عيناه مشارف طريق يثرب بعد أن استبطأ الحارث، لاذت فاطمة إلى خلوتها تدعو بعد أن تمسّحت معظم اليوم بثوب البيت العتيق تسأل الآلهة الشّفاء لولدها.

ما تزال يجافيها النّوم حتّى بعد أن استلقت على السّرير لتستريح بعد يوم قلق، وإذا بها تسمع خطوات حذرة تعرفها تقترب من غرفتها.

- لست نائمة يا شيبة، أقبل لقد تأخّرت... قلبي منقبض لم يعد الحارث حتّى الآن.

- كنت أرقب طريق يثرب، لا تجزعي، إن لم يعد في الصّباح فسأرسل من يأتي بخبره.

وما إن بدأ الضّياء يكشف وجه مكّة وأهلها حتّى أعاد الحارث إلى الدّيار ناقة مسرجة عليها بعض الأغراض، وما لبث أن دخل البلدة ووصل إلى الحرم حتّى ازداد الموقف صعوبة، فقد رأى الخالة فاطمة دون أن تراه تعود اليوم أيضا لتمسك بثوب الكعبة تدعو أن يعيد إليها ولدها معافى كما أنقذه يوم النّحر، وسمع صلاتها الخاشعة دون أن تنتبه له. لم تقلع عن توسّلاتها منذ أن عادت قافلة الشّام دون ولدها.

ولمّا استدارت إلى ضوضاء أهل مكّة الذين اجتمعوا حوله يسألونه عن أخيه المريض، ما إن رأت ناقة عبد الله دون فارسها حتّى أغمي

عليها وسقطت أرضا. أسرع ليحملها ويعيدها إلى البيت وقلبه يرتجف، وضعها على الفراش وهي غائبة عن الوعي.

- ما بها يا حارث؟ ماذا حدث؟ ألم تكن في يثرب؟ أين عبد الله؟!

- لا وقت للحديث يا أميمة أحضري لها بعض الماء لعلّها تستفيق، أروى أسرعي بجرّة الماء.

- بحقّ الآلهة عليك يا حارث أخبرني أين عبد الله؟ لماذا لم يحضر معك؟

قال دون مقدمات:

- لقد مات عبد الله يا عاتكة، مات يا أميمة، مات يا أروى.

صرخن صرخة واحدة اجتمعت كلّ بيوت مكّة عليها.

بدت لفاطمة صور غير واضحة فوق رأسها.

- لقد فتحت أمّي عينيها...

وجوه أبنائها وبناتها صارت أوضح الآن، وما إن عادت إلى وعيها حتّى سألت الحارث الذي كان ممتقع الوجه عن أخيه.

- أين أخوك يا حارث؟

لا يدري ماذا سيفعل بهذا السّؤال اليوم، ومتى يتوقّف الآخرون عن طرحه عليه، ألم يكن مخطئا عندما وافق أباه ولم يترك المهمّة لغيره ليعيد عبد الله ويطمئنّ عليه.

-.... مات بيثرب وقُبر بدار النّابغة.

غارت عيناها وابيضّ وجهها وشحبت شفتاها، وعادت إلى الإغماء ثانية.

- أمّي...

صاحت أروى بكلّ قوّتها وهي تسقط على يديها، أسرعت عاتكة فأبعدتها عنها ثمّ بللت وجه أمّهنّ بقليل من الماء، وأخذت أروى سعف النّخيل لتتنفّس عنها ببعض الهواء.

لم تدر فاطمة بالدّنيا إلاّ وقد حلّ الظّلام وهي في فراشها والنّساء المعزيّات حولها غاديات رائحات. ودّت لو تنهض وتطلب من النّائحات أن يتوقّفن، ولكنّها لم تقدر على أن تحرّك ساكنا.

وما إن عرفتْ آمنةَ التي كانت ملتفّة في ثوبها بالقرب من سريرها في قرفصة تخفي رأسها بين ركبتيها حتّى أشارت إليها بحركة من رأسها ويدها أن تدنو:

- أحقّا يا آمنة غادر عبد الله الحياة، وقُبِر بعيدا عنّي وعنك وعن كلّ أهله، ولن نراه بعد اليوم؟

- أجل يا خالة، ذهاب بلا أوبة. أفلت يوم النّحر وها هو يفتك به المرض.

حضنت بُرّة ابنتها وهي تبكي:

- يا لحظّ ابنتي... وخضاب العرس لم يزل في يديها.

ناحت النّائحات وولولن، ولطمت اللاّطمات يثرن الأحزان ويعمّقن الفقد والألم في حِلقٍ اجتمعن فيها. لطّخن وجوههنّ بالطّين وذررن الرّماد على رؤوسهنّ ليالي يجتمعن في دار عبد المطّلب يندبن الفقيد، ووفود المعزّين لم تنقطع شهرا كاملا وهم يتوافدون عليهم ثمّ يتقاطرون من قبائل كثيرة.

أعاد الحارث الأموال والأمانات لأصحابها كما أوصاه عبد الله قبل وفاته، وبعد أن خفت المعزّون الذين يطرقون دار عبد المطلب ودار ولده أعطى لأمّه ما احتفظ به من أشيائه، المزود والسّقاء وجراب الهدايا.

قدّمتْها ذات مساء لآمنة بعد أن رأت منها بعض العافية والجَلد، ثوباه اللّذان يعبقان برائحته، وعرقه كما شُقّ من على جسده لا يزال مثني الجوانب وأحد كمّيه إلى الدّاخل. يا لعبد الله ويا لهذه الرّائحة التي لن أشفى منها ما حييت...، وسقاؤه حيث كان يضع فمه ليذهب عطش الصّحراء...

تأمّلتِ الجراب وهي تمسك به بين يديها المرتجفتين المشتاقتين لأيّ شيء منه، القماش السّاساني الذي انتقاه بيديه خصّيصا لها لمن ستخيطه ولمن تلبسه، وتوابل الهند ولبان ظفار لمن ستطبخها ولمن ستتعطّر به؟ وزيت شاميّ لتدهن جديلتيها الفاحمتين... لمن ستتزيّن بعد الآن؟ والمزود فارغ إلا من حبّتي زبيب أو ثلاث في قعره يغطّيها منديلها المخلّق بالعبير.

- هذا الوداع الذي ليس بعده رجوع يا خالة... أذكر ليلة حضّرت له مزوده ولم يمض على عرسنا سوى أيّام، وملأته بكلّ ما يمكن أن يحتاجه في سفره حبّات الأقط والتّمر وزبيب الطائف الحلو، وعمدت إلى منديل لي ضمّخته بعطري الذي يحبّ.

- قال الحارث لقد سكن ومنديلك على صدره. وأوصى أن تبعث لك هداياك تماما كما طلبت وكما وعدك.

قالت فاطمة لآمنة ودمعها سيّال. شهقت آمنة... لم تكن ترى هذه الهدايا بقدر ما كانت تريده هو أن يعود إليها سالما كما وعدها ذات فجر...

***

عادت فاطمة من زيارتها لآمنة تحمل ثقلا هدّها كلّما رأت زوجة ابنها حزينة وحيدة وجنينها الذي يُتِّم قبل أن يرى النّور.

- أهذه الآلهة التي بذلت لأجلها القرابين لتحمي ولدك من الطّريق؟ لم الفداء والموت يقف له بالمرصاد؟

- لن تخيّبني الآلهة يا فاطمة...

- على كلّ حال موت أحسن من موت، هذا أفضل من ذاك، على الأقلّ له قبر يحويه، نزوره إليه خير من أن تذبحه قربانا للآلهة، فتتّسخ يداك بدمه وتتركه في العراء تتوزّعه بطون السّبع وحواصل الطّير.

تذكر عبد المطلب والده هاشم الذي مات غريبا في غزة، وأعمامه الذين لم يعودوا من أسفار تجارتهم، والآن ولده عبد الله الذي يفتقده فقدا شديدا.

- أكان يجب أن ترسله إلى تلك التّجارة في البلاد البعيدة؟

-...

صمت شيبة ولم يجبها ودموعه تملأ لحيته...

ترى آمنة الزّوجات يهنأن بالأزواج، هالة ابنة عمها التي خطبت معها في مجلس واحد ها هي تنتظر أيضا مولودها برفقة زوجها، وبين الحين والآخر تسمع عن زيجات جديدة وهي وحيدة لم تهنأ بزواجها.

وفي غمرة حزنها وهي تتساءل عن جدوى الحياة بعد عبد الله دبّت في بطنها حياة أخرى كدبيب النّملة أشعرتها بأنّ عليها أن تستعيد رغبتها في الاستمرار لأجله، عليها أن ترعى وديعته....

لا تدري اللّحظة الفارقة التي قلبت حياتها رأسا على عقب وحزنها إلى انتظار جميل طفوليّ، بل إنّها لا تجد ثقل الحمل وتعبه ومشقّته التي تجدها هالة كلّما زارتها وحدّثتها عن متاعب حملها. أيّ أنس وهدوء ينبع من هذا الصّغير الذي يملأ عليها حياتها حتّى قبل أن تراه؟

وما إن دنت ولادتها حتّى عاد إليها ذلك الصّوت الذي كلّمها أوّل حملها.

- قال لي كلاما غريبا يا بركة. قال قولي أعيذه بالواحد الصّمد من شرّ كلّ حاسد، فأجدني أردّده.

- ردّديه يا سيّدتي لا ضير في ذلك، وسأردّده معك: أعوذ بالواحد الصّمد من شرّ كلّ حاسد.

سألتها فاطمة عندما زارتها:

- كيف حملك أراك بصحة جيدة، وبخير وعافية؟

- أجل يا خالة، لا أجد تعبا أو مشقّة كما تجد الحوامل، تزورني هالة فأدرك ما أنا فيه من راحة وصحة وخفّة جسم.

- قالت بركة إنّك تسمعين صوتا يحدّثك بين الفينة والأخرى. لقد جلبت معي هذه التّمائم، خذيها هي لك، وعلّقيها في عنقك والبسيها كما تلبس الأساور، لعلّها تدفع عنك تلك الهواجس، وكلّ عين حاسدة شريرة، أحضرتها لك من الكاهنة بعد أن أخبرتها بما ترين.

وبعد أيام سألتها بركة مستغربة:

- أين التّمائم يا مولاتي، لا أراك تعلّقينها؟

- ما هي إلاّ أيّام علّقتها حتى وجدتها قد قطعت.

- قطعت، كيف ذلك؟ سأبعث للكاهنة لتحضّر لك أخرى...

صارت آمنة في كنف عبد المطّلب بعد وفاة ابنه، يطرق بابها كلّ عصر، يحضر لها بنفسه من السّوق ما تحتاجه من مستلزمات المعيشة، وخصّص لجِمالها وغنمها من يأخذها إلى المرعى مع جماله الكثر التي تملأ الوادي.

مقام النبذ

مالت شمس الضّحى على الحرم ثمّ انسحبت على باقي البيوت حارّة حتّى توسّطت كبد السّماء أو تجاوزته قليلا، ورِجلا القسّ تقودانه عن عادة إلى البيت العتيق، ورأسه إلى السّماء. يتكئ على عصا الآراك التي في رأسها اعوجاج، يتحسّس بها كلّ نتوء أو انعطاف نحو اليمين أو اليسار، أو صعود أو انخفاض. اعتاد أن يذهب بمفرده منذ سنوات بعد أن فقد بصره ليطوف بالكعبة، ويسمع لأحاديث القوم دون أن يشارك فيها بعد أن اعتزلهم أو كاد، ولم يعد يخرج إلى مجالسهم إلاّ لماما.

يشمّ هواء مكّة ليلا حين تخلو الطّرق والممرّات، ثمّ يعود بمفرده يعرف بيته ولا يتوه، ويرفض ما يعرضه عليه أيّ غلام من غلمانه أو خدمه، ويصرّ على أن يختلي بنفسه، وكثيرا ما خرجتُ خلفه أراقبه من بعيد حيث أراه ولا يشعر بي، أترك مسافة كبيرة بيننا وأنا أتعقّبه.

- لم تبعتني؟

وجدته ينتظرني عند مدخل البيت وعلى وجهه سحابة.

- أريد أن أختلي بنفسي. أريد أن أنصت لصوت مكّة الذي يأتيني واضحا ليلا.

تلقّى الشّيخ على وجهه هواء حارّا لفحَه، بدا له أقرب إلى حرّ الهاجرة، وهو لا يرى مكان ارتفاع الشّمس من السّماء بل يقدّره بقدر هذا الحرّ، وما يسمعه من أصوات يرهف لها السّمع. رنين نقود، ومساومات مشترين وردود باعة، وقرعُ أوانٍ نحاسيّة، وصيحات دواب، وأصوات ديَكة متشاجرة، وعزفٌ رقيقٌ للقيان، وروائح تدخل

أنفه يحاول أن يتعرّف عليها من شتّى العطور والتّوابل الهنديّة، ترك كلّ ذلك خلفه واقترب من الكعبة. ها قد خفتت وصارت قليلة إلى أن تلاشت عدا أصوات الملبّين.. تكون قريبة منه، ثمّ تذهب هي الأخرى إلى شأنها وتبتعد، تفرّ من الحرّ وتتّقيه لترتاح من تعب النّهار، وهو لا يعبأ على كبر سنّه.

أتراه قد تبعني كاتبي أو أيّ أحد من الغلمان؟ حتما قد لاح هذا السّؤال في خلده طرفة عين، ثمّ لم يعبأ بهذا أيضا، فأمر الملَك الذي حدّثته به خديجة يشغله، ويصرفه عن أيّ شيء سواه.. قال لي قبل أن يخرج: ناولني عمامتي وعصاي يا بنيّ أريد أن ألتقيه وأسمع منه.

- إلى أين يا سيّدي؟ سألحق بك. لم نعتد منك الخروج في مثل هذا الوقت من النّهار.

- لا تخش عليّ، سأعود بعد أن يطمئنّ قلبي، أليس الطّريق هو الطّريق؟! عيناي لا تفرّقان بين ليل أو نهار، ولكن هذا اليوم ليس كسائر الأيّام... لن أبقى في البيت هذه السّاعة سألقاه وأفهم منه.

غادر مسرعا رغم سنواته المتعبة دون أن يعبأ بسؤالي، ودفقات من الهواء السّاخن تلاعب وجهه، وتدخل منخريه وهو يحثّ السّير غير مبالٍ.

آنسه حلمه الذي صار حقيقة بل الحقيقة الأجمل من الحلم التي طالما انتظرها منذ عهد زيد وصحبه... في الموسم أمام البيت العتيق التي تمجّده العرب وتقصده من كلّ صوب، والقرابين تذبح أمامه

والهرج والمرج، وزيد يحدّثهم عن الآلهة، ويسألهم أن يخرجوا معه ليبحث عن دين جدّهم إبراهيم.

كم مضى على ذلك الزمن؟ سنوات عديدة كان حينها ما يزال قويّا يستطيع أن يبصر الطّريق. لم يكن مضطرّا لأن يعتمد على هذه العصا التي صارت رفيقته حيثما حلّ، ولا مجبرا أن يرهف السّمع ليدرك ما يحدث حوله، حينها طاف معه بالصّحراء كلّها، ولم يتركا مكانا إلاّ بحثا فيه وسألا، ولكنّهما ظلّا على ظمئهما.

لم ينغّص عليه القيظ ولا كثرة الحركة في مثل هذا الوقت من النّهار وهو يتحسّس الطّريق إلى مقصده بعصاه، وكلام زيد يرنّ في أذنيه. لم تبق سوى خطوات حتّى يصل إلى البيت العتيق حسب ما تخبره به حاسته القويّة.

أترى محمّدا هناك يطوف كالمعتاد كلّما انصرف عائدا من الغار؟ أريد أن أسمع منه حتّى يزول الشكّ، ويهنأ بالي.

هذا إساف وتلك نائلة، صنما النّحاس مستقبلان البيت، عندما ألمس معدنهما الصّقيل أحمد الربّ وأعرف أنّي قد وصلت. مررت بقرب أحد المتمسّحين بهما، يبدو غريبا عن مكة، صوته يدعو يهزّ نفسي، تعلق كلماته في أذنيّ وأنا انصرف إلى حال سبيلي وأدعه لإلهيه. أخيرا لم يعد الحرم بعيدا، كلّها خطوات.

هذا هو البيت، لقد وصلت.

كنّا هنا أربعتنا منذ سنوات عديدة لم أعد أحصيها، في أحد الأعياد في جوف الكعبة عند هبل، الوثن العظيم من العقيق الأحمر على

هيئة بشر كسرت يده اليمنى فجبّرت بقطعة ذهبيّة لامعة زادته بروزا من بين أصحابه... يردّد حوله الطائفون التّلبيات وتقدّم له الهدايا، وتذبح القرابين، والأقداح السّبع بالقرب منه تنتظر المشورة. بدأ الأمر عندما امتعض زيد من كلّ ذلك:

- أترى هذه الآلهة التي لا تملك أمرها فتدفع عنها الأذى ممّن كسر يدها حتّى جُعل لها واحدة من ذهب، تقدّم لها القرابين وتصدح لها الأنفس بأمانيها ومكنوناتها التي لا تبوح بها لأحد؟

- اكتم ما تقول وإلاّ لقيك من أذى عمّك الخطاب ما لقيته آخر مرّة وأنت في جوف الكعبة تسبّ الآلهة، وتعترض على الذبائح.

-يخشى منك أن تفسد القوم وتذهب بعقول الشّباب فيتركون دين الأجداد.

- شاة خلقها الله، وماء أنزله الله من السّماء، وكلأ أنبته الله من الأرض، ثمّ تذبح على غير اسمه! لقد أخطأ قومنا دين جدّنا إبراهيم، ما هذا دين الأجداد، فالتمسوا الحقيقة في غير هذه البقعة التي يكبس عليها هبل واللاّت والعزّى، وتتحجّر العقول أمامها.

ثمّ استقبل الكعبة ملبيّا:

لبّيك حقّا تعبّدا ورقّا...

لم يتمّ تلبيته حتّى انكبّ عليه بعض السّفهاء فأسقطوه أرضا، وكالوه بضع ضربات على رأسه كادت تفقده صوابه، لولا أنّنا كففناهم عنه أنا وعثمان وعبيد الله.

- ألم نحذرك من عمّك الخطاب وبطشه؟

أسندته على ظهري وأوصلته إلى بيته وهو يشدّ على أسنانه من غيظه:

- شجّ منكبي وأدمى جبيني سوط سفهائه الذين سلّطهم عليّ. أشعر بظهري على غير ما يرام، سأخرج غدا فارّا إلى أعالي مكّة، فهل ترافقونني، فقد بلغ أذى الخطاب حدّا لم أعد أطيقه؟

وجم ثلاثتنا وتركناه لغده وحيدا. كانت صفيّة تسمع حديثه، ولم يغمض لها جفن حتّى أرسلت من يُعلم عمّه بما همّ به، فوضع حرّاسا باتوا على عتبة داره منذ تلك اللّيلة. حاول مقاومتهم في الصّباح حتى يفسحوا له الطّريق، ولكنّه لم يفلح، وعاد أدراجه خائبا يشتاط غيظا. أطرق قليلا ثمّ خمّن بأنّ أحد رفاقه حتما هو من وشى به.

- أتشكّ بنا يا زيد؟ جئت لأطمئنّ عليك!

- أم جئت لتراني في أسر الخطّاب؟

- أتشكّ بي، أحلف لك بأعزّ ما تملك أنّي لم أفعل. سكتتُ وطأطأت رأسي لأصارحه بما لا يراه:

-إنّها زوجك صفيّة.

امتقع لونه واكفهرّ وجهه. كنت أراها ونحن نتحدث تطلّ علينا برأسها ترقب ردّة فعله وهي تنصت إلى كلامنا، ثمّ كشفت عن نفسها لمّا علمت أنّ أمرها افتُضح:

-أخشى عليكَ ممّا في رأسك، ومن هذا الإله الواحد الذي تبحث عنه تستعيض به عن آلهتنا، أقلع عن رأيك وسأطلب من الخطّاب أن يكفّ حرّاسه عن الدّار.

- أأنتِ فعلت ذلك يا صفيّ؟ لم أتوقّع ذلك منك! آلهة تشدّ قوائمها بالرّصاص لتثبّت لا يجدر أن تُعبد.

خرجت ذلك المساء وتركتهما لشجارهما...

اجتمع شيوخ بني عدي وأشرافها في دار النّدوة بعد أن شاع بين بطون مكّة ما حدث لزيد بن عمرو بن نفيل وصار حديث الموسم.

- كيف له أن يخالف عاداتنا ودين آبائنا، يكفر بهبل، ويرفض الذّبائح على الأنصاب التي تقدّم قربانا، ويسجد في الموسم أمام الحجيج لإلهه الواحد موصدا وجهه عن آلهتنا، لو كان يفعل ذلك بين جدرانه الأربعة لهان الأمر.

- والأدهى والأمرّ أنّك تركته يفرّ ليلة البارحة.

اشتاط الخطّاب غضبا:

- فرّ بعد أن انشغل الحارس في بعض شؤونه. لقد أغلظتُ له العقوبة وحرمته من الطّعام والاستراحة، ليذهب زيد إلى الجحيم، لَيْته يتيه في الصّحراء وتلتهمه الأفاعي أو ليمت عطشا ولا يعود إلى مكّة فيفسد شبابنا.

-لا تتركوه يدخل مكّة.

- لم لا تقتله وتكفينا عاره.

- لا أعرف ما الذي يمنعني كلّما هممت بذلك؟

سأبرأ منه أمام الملأ في سوق مكّة القادم...

لم نعد نراه في الحرم منذ فراره، فكان لا يدخله إلاّ سرّا، ولم ألقه بعدها سوى ليلا مرّتين قبل خروجنا في مكان لا يعلمه سوانا، أحضرُ له معي بعض الطّعام.

- أهذا ما قاله سادات قريش يا ورقة في اجتماعهم، أنا عازم أمري، لن يختار لي أشراف القوم راحتي والنّهج الذي أريد، هم لا يملكون عليّ أنفاسي ولا ما بين أضلعي.

رنّت كلماته الغاضبة في أذني القسّ وتردّدت، وهواء الهاجرة يلفح وجهه وهو يستحضر ما وقع لزيد منذ حادثة الموسم في هذا المكان.

تمسّح بيديه بثوب الحرم ووضع رأسه عليه، وبينما هو يدعو إذ بمحمّد بعد أن أتمّ طوافه الأخير يقترب منه ويحدّثه والرّوع ما زال منه شيء في نفسه، وإن هدّأته خديجة بكلامها، وبما حملته من رأي القسّ.

- جئت لأسمع منك يا ابن أخي، حدّثني بما رأيت وسمعت من هذا الملك.

- جاءني فقال: اقرأ، قلتُ: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني حتّى بلغ منّي الجهد، ثمّ أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثّانية حتّى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطّني الثالثة حتّى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني

فقال: "اقرأ باسم ربّك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم "،

فقرأتها ثمّ انتهى، فانصرف عنّي... فخرجتُ حتّى إذا كنتُ في وسطٍ من الجبل سمعتُ صوتا من السّماء يقول:

- يا محمّد أنت رسول الله و أنا جبريل...

رفعتُ رأسي إلى السّماء أنظرُ فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السّماء يقول:

- يا محمّد أنت رسول الله و أنا جبريل...

فوقفت أنظر إليه فما أتقدّم وما أتأخّر، وجعلتُ أصرفُ وجهي عنه في آفاق السّماء فلا أنظر في ناحية منها إلاّ رأيته كذلك، فما زلتُ و اقفا ما أتقدّم أمامي وما أرجعُ ورائي حتّى بعثَتْ خديجة رُسُلها في طلبي، فبلغوا مكّة ورجعوا إليها وأنا و اقف في مكاني ذلك، ثمّ انصرف عنّي، و انصرفْتُ راجعا إلى أهلي حتّى أتيتُ خديجة.

- في البدء كانت الكلمة...

تمتم القسّ واتقدت عيناه، وهو يهزّ رأسه مقسما بما لا يدع مجالا للرّيبة أو الشّكّ:

- والذي نفسي بيده إنّك لنبيّ هذه الأمّة، ولقد جاءك النّاموس الأكبر الذي جاء موسى. يا ليتني أكون فيه جَذَعا، وأدركك حين يُخرجك قومُك.

سأله وعلى وجهه علامات الإنكار وخوف بدأ يتسلّل إلى عينيه من ألم سيكون قريبا من أهله وقومه:

- أوَ مُخرجيّ هم؟

- نعم، الهجرة مصير الأنبياء وأولياء الله. **والله لا يأتي أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلاّ عُوديَ، ولئن أدركتُ يومك لأنصُرنّك نصرا مؤزّرا.**

تسرّب لي من ارتعاشة يده ونظرة عينيه خوف وحيرة، وألحّ على ذاكرتي خروج زيد وقتله في الصّحراء، دمه في رقبة الخطّاب وصفيّة بنت الحضرميّ.

الصّحراء ملآى بأوجاع المرتحلين والمنبوذين والمطرودين أكثر من أيّ مكان آخر، لعلّ امتدادها والحريّة التي تفسحها سبب ذلك، حرية لا حدّ لها، حريّة تُخبّئ فخاخا في كلّ مكان، كلّها سراب.

الناس يركنون إلى الأوهام، لأنّها تريحهم ولا تكلّفهم شيئا سوى إغماض أعينهم واتّباع القطيع، في ضجيجه يحيون، وتختفي عيوبهم. أمّا الحقيقة فتكلّفهم غاليا، تفتح الأعين عليهم وتمسح الغبش عن عقولهم، لذا هي متعِبة ومكلّفة، تطردك من القبيلة، وتضطرّك إلى حمل زوادتك والرّحيل، ولك أن تختار طريقك إمّا أن تدّثر بدفء الوهم مع الجماعة أو تترك برد الحقيقة ينخرك وحيدا.

الصّحراء متخمة بحكاياتهم وألمهم واحتراقهم، ولعلّه لأجل ذلك هي أرض النّبوءات السّماوية التي تحرّر الإنسان وتنصفه وتقف إلى جانبه.

أسوء حالات القسوة أن لا يسمعك أهلك، ولا يكتفون بذلك بل يطردونك من بيتك وترابك وهوائك لتهيم على حواف بيوت الآخرين منكسرا، لا أهل لك، ولا وطن، ولا صدر ينفتح لك كلّما كنت

متضايقا، أو سعيدا لتشركه فرحتك. سألتني عيناه المنكرتان اللّتان بدأتا تغوصان في صحراء قاسية من الألم والنبذ: أيّ وجهة أقصد بعيدا عن البيت العتيق؟ أأترك بيتي وولدي وتجارتي وحياتي كلّها؟!

التفتَ إلى إساف ونائلة التي كلّما نظر إليهما تأكّد له سخف البشر وخواؤهم، ثمّ إلى البيوت الطينيّة خلفه، ونظر إلى القرية التي يمكن أن تواجهه يوما، هو ابن تربتها وطينها، ومن لعب في ساحاتها، ورعى غنم أهلها، وشهد الحزن والفرح فيها. شعر أنّ حجريّتها ستقع عليه، وستكتم أنفاسه لا ريب، ولن تسمع أيّ كلمة سيقولها. مَلَك من السّماء، وهو رسول الله إليهم؟! حتما سيخرجونه، وهو يتيمهم وفقيرهم، لا غنيّهم، ولا كبيرهم، سينكرونها عليه، لِم هو بالذات دون أسياد قريش وشيوخها؟ سيتكتّم على الأمر ما استطاع.

-لكن عليك أن تكون ذا عزم حين يخرجك قومك، كلّ ما مررت به في حياتك شيء وما سيأتي شيء آخر فلتثبت، فرسالة السّماء إلى الأرض مناطة بك، أتى بها ذاك الملَك الصافّ جناحيه...

لولا خديجة ابنة العمّ، لا يدري ما كان سيفعل دونها، دون هذه المرأة التي احتوته بكلّها، بيتها ومالها وقلبها وتركته لخلوته التي حبّبت إليه في الغار، ولم تنكرها عليه.

أراد القسّ ورقة أن يسأله عن أمور أخرى كانت تحيّره عن الملَك جبريل، كيف تراءى له، صوته، كيف كان الوحي، هل هو مثلما تراءى ليسوع؟ لكنّ محمّدا كان قلقا، يرتعش وهو يمسك بتلابيب ثوب الكعبة ويتمتم بكلام لم يفهمه.

اقترب منه القسّ خطوة أخرى، لمس بأصابعه المرتعشة وجهه، ولمّا أدرك عينيه مسح عليهما، كأنّما يريد أن ينال بركتهما، ثمّ بكلتا يديه أدنى رأسه منه وعمد إلى تقبيله بكلّ ما يحمله من تعب السّنين، ووهن شيخوخته، وإلحاح السّؤال الذي حمله منذ شبابه.

- أنت رسول الله فاثبت.

ثمّ انصرف كلّ منهما إلى منزله، محمّد وقد اطمأنّ وهدأت روحه، وورقة فرحا منتشيًا في نفسه قدر من الدّهشة ممّا حكى له، ومن كلّ ما سمع هذا اليوم الذي يستحيل أن يمّحي من ذاكرته.

عاد بعصاه يتلمّس طريق العودة وهو يضعها على التّعرجات والنّتوء والحصى ذاتها التي يحفظها عن ظهر غيب، وصورة زيد تلتصق بذهنه منذ أن جاءته خديجة وكلّم محمّدا، تمنّى لو أدركه معه.

- يا لزيد لو أنّك معي الآن فتشهد ما أشهد، وتشاركني فرحة هذا اليوم الذي خصّني به الربّ تقدّست أسماؤه دون بقيّة صحبي...

كأنّما لم يمض على ذلك العهد سوى برهة، أو كأنّه أمامي الآن ظهره إلى الكعبة ورأسه إلى السّماء ينادي:

-اللّهم لو أنّي أعلم أحبّ الوجوه إليك عبدتك به، ولكنّي لا أعلمه.

ثم يسجد على راحته. كان يبكي كلّما فكّر في ضياع نهج جدّنا إبراهيم، أراد أن يستردّه.

وجدتني بعد لقاء محمّد ثمّ انصرافه أمام ذاكرتي وحرائقي التي لم تكن لتنطفئ كليّا، وإنّما تخبو لتعود جذوتها كلّما وجدتْ ما يؤجّجها.

زيد وجعي... لو كنت يومها معه. ألوم نفسي كلّما تذكّرت الحادثة، يا لهذه الغصّة في الصّدر التي تفسد لحظات الفرح...

انقلب حاله فجأة إلى حسرة وهو لا يزال في الطّريق، تألّم لشمل أصحابه الذي تفرّق... ابن الحويرث المسموم وزيد المقتول. تذكّر بحرقة أيّامهم معا، وحاول عبثا أن يطردها، ولكنّ الصّور كانت تتراءى بين عينيه المظلمتين جليّة كوضح النّهار، وجه زيد الثّائر بتصميمه وإلحاحه، وعيناه الحائرتان اللّتان يبدو أنّهما لم تُغمضا منذ أكثر من ليلة، وهو يسأله بإصرار في الظّلام الدّامس أن يخرج معه سرّا، بعد أن رفض صاحباه مرافقته.

في هذه النّاحية حيث تنبعث الرّيح السّاخنة من أعالي مكّة ولّى ورقة وجهه صوب الغار الذي بدا له بعيدا حيث نزل هذه اللّيلة كاتم السرّ بعد أن انقطع عن الأرض منذ المسيح، وظلّ سؤال محمّد ونبرة صوته القلقة يتكرّر في أذنيه: أو مخرجيّ هم؟

لا أدري لماذا تراءى لي السيّد المسيح مصلوبا بدمه وألم الخيانة ينحره أكثر من المسامير التي كانت تدمي يديه وقدميه وكلّ جسده، وتقرّبه من الخلاص. ارتعبت... طردتُ هذا الخاطر سريعا وواصلت طريقي. اللّحظة الأولى للبوح تكون دائما صادمة، وتحتاج قلوبا محبّة وصبورة لتستوعبها وتتقبّلها، لذا يجب أن نختار من نبوح له ومن نستودعه السرّ، لأنّه قد يكون في هذا البوح الذي نظنّه راحة لنا هلاكنا ومقتلنا.

وقف هنيهة أمام مفترق ثلاثة طرق، ثمّ انتحى الطّريق الأيسر منعطفا نحوه ومشى في حدود العشرين خطوة يعُدّها بتمتمات منه،

تاركا وراء ظهره الطّريق الأيمن الذي ينتهي بخان صغير، يملكه يهوديّ في السّتّين من عمره. مال خطوتين أخرتين إلى اليمين قبل أن يصل إلى عتبة داره، قرعها بعصاه ثمّ اندس بين جدرانها وأحداث يومه تأخذ بعقله وفؤاده وكلّ حواسه التي أتعبها الانتظار وتزيد من رعشة يديه، سيحاول أن يستريح وينام بعد يوم حافل، كنت أسمع تمتمته:

- يا أمّنا العذراء قد حان الأوان!

***

كان يوم الأمس مختلفا ومشهودا قلب أمور القسّ، وجعله ينبش جرح زيد بعد أن دُفن معه.

- أراك عدت إلى البكاء يا سيّدي؟ سألتك فأجبتني بشبه ألغاز، ثمّ تهت في تلك الحكاية التي لم أفهم علاقتها بحالك، ولِم رويتها لي ؟!

- فرح انتظرته منذ أمد، مذ كنت في منتصف العمر... اكتم الأمر، فهذا أمر جلَلٌ تخشاه قريش ويهود...

اقترب منّي باشّا بعد أن انقلب الدّمع إلى ابتسامة تملأ وجهه، زادت من حيرتي، كطفل بين بكائه وفرحه مجرّد شعرة رقيقة.

- لقد بُعث محمّد.

- محمّد بعث؟! من محمد؟!

- محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب الذي حكيت لك عن والده أمس. بعد هذا العمر بلغتُ ما انتظرته... واللّه لئن صدقتني خديجة، فإنّه النّاموس الأكبر الذي كان ينزل على موسى، قدّوس قدّوس...

- النّاموس الأكبر وموسى، لم أفهم شيئا؟ أكانت تلك المرأة الملتفّة في ثيابها السيّدة خديجة بنت خويلد؟

- أجل هي... أتتني قبل نور الصّباح... في صوتها رعشة وفرحة مكتومة تخشى أن تخيب، تريد أن تتأكّد وتستفسر. أجل هو النّاموس الأكبر، جبريل كاتم السرّ والوسيط بين الأرض والسّماء، هو من كان يأتي موسى وعيسى، سألتني والفرحة تملأ صوتها وارتعاش يديها، وهي تقول: يا عمّ كيف لي أن أتأكّد من أنّه ملك؟

- أبإمكانها أن تتأكّد يا سيّدي؟

- أجل، أعلمتها بطريقة تتيقّن بها.

بعد أن هدّأت خديجة محمّدا وذهب روعه وعاد لون وجهه إلى طبيعته أرادت أن يطمئنّ قلبها لأمر هذا الذي يأتيه ويكلّمه ولا تراه:

- أي ابن عمّ، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟

- نعم.

فجعلت لما بدا له جبريل تجلس على فخذه اليسرى، ثمّ تتحوّل إلى اليمنى ثم تجلس في حجره وتسأله في كلّ مرّة إن كان يراه، فلمّا حسرت عن رأسها وطرحت ما عليه اختفى. لم تتمالك نفسها فصاحت:

- يا ابن عمّ، اثبت وأبشر، فو الله إنّه لملك وما هو بشيطان، هكذا حدّثني ابن عمّي ورقة وطلب منّي أن أصنع لأتبيّن هذا الذي يأتيك، وأنت تعلم ما له من علم بكتب السّابقين.

لم تسع خديجة فرحتها. ودّت لو تطير بجناحين، وتُعْلم بنفسها ابن عمّها القسّ الضّرير، ولكنّها بقيت إلى جانبه، وأرسلت إليه غلاما من غلمانها لقيه في الطّريق، فزفّ إليه الخبر، فزاد ابتهاجه وزادت هرولته ليلقاه عند الكعبة، حتّى لفت انتباه كلّ من مرّ به في الطّريق، وهو الطّاعن في السنّ ولم يهنأ باله حتّى سمع منه.

خرج القسّ ليلا كعادته في وقت متأخّر يشمّ هواء مكّة فمرّ على الشّباب اللاّهين ينشدون أشعار عنترة وزهير، وقس بن ساعدة عذبة، تنساب من أفواههم فيطرب لها، أو تغنّى على الرّبابة أو تُصحب بعزف النّاي بصوت ابن مطرود الذي ورث عن أبيه شيطانه وصوته الرّخيم. وإذا فرغوا منها حكوا قصّة حفر زمزم والغزالتين الذّهبيّتين اللّتين وُجدا بها، والقسّ الضّرير يسمع فيبتسم حينا أو يتغضّن وجهه منكرا ما يروونه، دون أن يتدخّل في تصحيح ما شهده وعاشه، أو إبداء رأيه أو إضافة ما سهوا عنه أو لم يعلموه.

- انظر إلى الشّباب اللاّهين... هم من يملؤون صمت هذه البقعة ليلا، تنطق ألسنتهم التي أغواها الخمر بملل أو شكوى من الحياة في مكّة.

مكّة بقعة رتيبة، تبدو هادئة عدا ما يسمع من تلبيات تكثر وتعلو أيّام الموسم، وخصومات بين التّجّار، ولكنّها في سرّها مليئة بالتّناقضات التي تشتمّ منها رائحة ثورة توشك أن تنفجر في الأفق، ما يراه العبيد من الأسياد، والإغارات التي يشنّها المخلوعون الذين تبرّأت منهم قبائلهم أو المنشقّون الذين هجروها بعد أن لم تعد تسعهم، والمنبوذون الذين يعيشون على أطراف الحرم يبحثون عن لقمة تسدّ

رمقهم إلى أن يجدوا من يجمعهم ويدفع لهم ليصيروا مرتزقة يبتسم لهم الحظّ مرّة أو مرّتين قبل أن يلقوا حتفهم. الشّباب اللاّهون يهربون إلى كؤوس الخمر، وإلى كلام الشّعراء والحكماء والقصص القديمة ليتسلّوا بها.

مكّة بقعة تشتعل على مهل، كأنّما أسمع أجيج النّار وتذمّر النّاس من خلف أبواب بيوتهم، وأنتظر أن تنشب يوما، أو ينفجر بها الغطاء، رغم أنّ سادتها يظهرون أنّ الأمر على ما يرام حتّى يحفظوا تجارتهم وأموالهم ومن ثمّة هيبتهم.

تبدو مكّة هادئة أيّامها ولياليها حدّ الرتابة والملل، وفي الخلف تكون الانتهاكات سريّة، ستنفجّر هذه الطّرقات يوما، أتحسّس ذلك في غناء اللاّهين والسّكارى، وفي صوت الرّبابة التي تعزف أشجان النّاس. منذ حادثة القتل ليلتها والنّاس يغلقون أبوابهم باكرا، ويظهرون أنّهم يخلدون إلى النّوم، ولكنّ قلوبهم ترتجف وآذانهم تحت الغطاء تنصت لأيّ صراخ وهي تخشى أيّ طعنة في القفا. هو رغم عماه يبصر ومكّة في عماها ملتفّة.

كانت القصص والحكايات تصل إليه مع نسمات اللّيل وهو يقف غير بعيد عنهم ولا ينضمّ إليهم...

ولمّا فرغوا من القصّتين ذكروا حادثة فيل أبرهة وجيشه وما حلّ به على يد طيرٍ أنيابها كأنياب السّباع وأكفّها كأكفّ الكلاب قادمة من وراء البحر... ترى ماذا قالوا عنها أيضا؟

- يا لتلك السّنوات من العمر... ابتسم ورقة وتجاذبه خليط من المشاعر وهو يتذكّر عام الفيل وما حدث حينها.

- عام الفيل هو العام الذي ولد فيه الموعود.

ثمّ راح يسرد لي هول ما وقع يومها وما أعقب هذه الحادثة في طريق عودتنا والدّهشة تعقد لساني.

المسار الثّاني: لفافة الصّوف

-1-

خمسون يوما من حادثة الفيل، ذات اثنين من ليلة رائقة مقمرة... سواد كثيف قادم من جهة البحر بدا فجأة لهم، فانصرفوا إليه حينما كانت أعينهم على الحرم من على رؤوس الجبال ترقب وصول أبرهة وجيشه وما سيفعله، وهل سيهدم الكعبة، فإذا اقترب بدا طيورا أصغر من الحمام صفرا، برؤوس سوداء وأرجل ومناقير حمراء، يحمل كلّ طائر ثلاثة أحجار، اثنان في رجليه، وواحد في منقاره، حجارة مثل الحمّص وأكبر من العدس.

بل قيل إنّ أصغرها كرأس إنسان وأكبرها كالإبل ما أصابت أحدا إلاّ هلك. لها أنياب السّبع وأكفّ الكلاب، أهلكت الفيَلة كلّها، الثلاثة عشر.

- طيور تهلك مخلوقا كالفيلة؟ هذا مالا يصدّقه عقل.

- هذا ما حدث يا مولاتي، عدا الفيل المسمّى محمود، فقد أبى أن يتّجه إلى الحرم ليهدمه. ضربوه وأدخلوا عصيّا في بطنه ورقبته وخرطومه، بل في كلّ جسمه، لكنّه افترش الأرض ورفض أن يقوم. أتصدّقين يا سيّدتي؟! والغريب أنّه إذا ما وجّهوه إلى اليمن حتّى يرجع قام وهرول، وكذلك فعل إذا وجّهوه إلى الشّام وإلى المشرق، أمّا إذا عادوا فوجّهوه إلى الحرم فإنّه يأبى ويجثم على الأرض، كأنّه يدرك هذا الفيل!

- وهل حقّا ما يروونه عن أبرهة؟

- أجل يا مولاتي، سمعت من جمع النّساء وأنا أملأ الجرّة أنّه أصيب في جسده، فكانت تسقط أنامله أنملة أنملة، كلّما سقطت واحدة نزل

الدّم والقيح حتّى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطّائر حتّى انصدع صدره عن قلبه فهلك.

كانت ليلة كالحة عصيبة، امتلؤوا فيها فزعا ورهبة، ليلة ممّا يسمّونها ليالي العذاب، هذا ما يرويه النّاس ويلوكونه منذ تلك السّاعة، كلّما خرجت إلى السّوق ملئت أذنيّ بأحاديثهم. ما يزال النّاس صغيرهم وكبيرهم حتّى بعد هذه المدّة يا مولاتي يردّدون ما وقع في دهشة يزيدون وينقصون... ولكنّ فرحتهم واحدة ووجوههم متهلّلة أنّ ربّ البيت قد حمى بيته كما قال سيّدي شيبة. لقد صدق فللبيت ربّ يحميه.

- دعْك من هذه الأحاديث يا بركة واذهبي إلى فراشك! فقد سمعتها منك أكثر من مرّة.

وبينما تهيّأت آمنة للنّوم إذ بدأت بوادر الوضع، وشعرت أن وليدها يوشك أن يخرج إلى الدّنيا، فنادت بركة من غرفتها:

- يبدو أنّ الصّغير يريد أن يهلّ اللّيلة.

- اللّيلة! نحن بمفردنا، خطت خطوات مرتبكة في الغرفة لا تدري ما تصنع.

- مالك لا تستقرّين في موضع؟ أنت توتّرينني.

- لا قدرة لي بأن أقبلك بمفردي يا مولاتي.

- هالة ابنة عمّي مشغولة بولدها حمزة.

- وثويبة جارية سيّدي أبي لهب بعد أن قضت ليالي معنا، هي الآن في دار مولاي تحضن المولود الجديد وترضعه. أنا أخشى يا مولاتي أن تلدي بمفردك، ولا علم لي بما أفعله.

- ما العمل إذن يا بركة، الوقت يمضي، ماذا سنفعل؟

- تذكّرت، سأنادي الشّفاء بنت عمرو، هي امرأة طيّبة، ويقولون يدها حانية ورقيقة.

أسرعت الجارية إلى بيت القابلة. طرقت الباب وهي تعضّ على شفتها السّفلى وتزفر ولا تستقرّ في مكان، ومن حسن حظّها أن فتحت المرأة:

- أرجوك أسرعي... مولاتي توشك أن تلد.

وهمّت بجذبها.

- انتظري حتّى أضع عليّ ثيابي، كلّها لحظات وأجهز، لا تقلقي.

وبينما هما في الطّريق أدارت الشّفاء رأسها يمنة ويسرة وقد شدّها شيء في هذه اللّيلة:

- ليلة مختلفة... رائقة من ليالي الرّبيع. انظري يا بركة لجمالها وضيائها.

- مولاتي بمفردها، تنتظرك فلنسرع، ولا وقت لي للنّظر إلى السّماء أو النّجوم.

هلّ الصبيّ الوضيء وقت السّحر، والصّوت ذاته يكلّم آمنة كما عهدته في حملها:

قولي: أعيذه بالواحد من شرّ كلّ حاسد.

- أعيذه بالواحد من شرّ كلّ حاسد. أعيذه بالواحد من شرّ كلّ حاسد....

ردّدت آمنة في ضعف، وعيناها لا تصدّقان النّور الذي خرج منها وعمّ الغرفة.

- انظري إلى الصّبيّ يا بركة!

هي من قضت معها الحلو والمرّ وآنستها بعد أن فقدت عبد الله. حملته ثمّ جلست على الأرض ووضعته في حجرها وهي تبكي:

- ابن سيّدي عبد الله.

- ظننت أنّي لن أضع مولودي بجوار الحرم بعد أن لذنا بالجبال والشّعاب نحتمي من بطش أبرهة ونخشى من معرّة جيشه. أرأيته يا بركة ما أجمله! يذكّرني بعبد الله.

ما أسعدني به بعد حزني على فراق أبيه، يا قرّة عيني وعين أبيك التي لم تكتحل برؤيتك؟

كانت الشّفاء بعد أن أضجعته ترقب نور هذه اللّيلة وإشراقها من النّافذة. لم تر ليلة مثلها قطّ، وهي لا تكفّ دهشة تحدّث الجارية بالنّور الذي رأته يخرج من آمنة وهي تضع مولودها، بدا لها كأنّما أضاء السّماء والأرض.

- يا لنور هذه اللّيلة.

- فعلا، ليلة مختلفة وادعة وهادئة. يا لهذا الوجه الطّلق الذي لم يتعب أمّه! ماذا ستسمّينه يا سيّدتي؟ نهضت وأعادته إلى سرير آمنة.

- سأرسل بعد طلوع النّهار في طلب جدّه عبد المطلب والأمر له في تسميّة حفيده.

حين أشرقت المعمورة حثّت بركة الخطى إلى دار عبد المطّلب في وقت مبكّر. لم تدر كيف تطوي الطّريق، تشمّر عن ثوبها حينا لتسرّع في خطواتها، وتهرول حينا آخر ولا يهنأ بالها أو تستريح حتّى تصل إلى عتبة الدّار. طرقت الباب ففتحت هالة وهمّت بركة بإخبارها بسبب قدومها في مثل هذا الوقت، لكنّ أنفاسها كانت تتقطّع ولا تسعفها:

- على رِسلك يا بركة، استريحي أوّلا...

- وُلد لسيّدي عبد اللّه غلام كالقمر.

- أحقّا يا بركة، لك البشرى في هذا الصّباح البهيّ.

- أآمنة بخير؟

- أجل يا سيّدتي في أتمّ عافيتها وسعادتها.

- عبد المطلب ليس بالدّار، هو في مجلسه.

تناهى إلى سمع ثويبة الخبر وهي في الغرفة المجاورة، فتركت حمزة نائما بعد أن أرضعته وشبع، وأسرعت لتخبر سيّدها أبا لهب وعيناها تبسمان في وجهها الأسود الحبشيّ الذي تهلّل:

- أبشر يا سيّدي ولد لأخيك عبد الله غلام.

- غلام لعبد الله! أحقّا ما تقولين؟! حمدا للآلهة.

- جاءت بالخبر بركة للتوّ يا سيّدي.

نظر إليها منفعل الأسارير ودون أن يفكّر خرجت من شفتيه هذه الكلمات التي لن تنساها ثويبة:

- أنت حرّة يا ثويبة من الآن...

-...

تردّدت الكلمة في أذنيها حرّة، حرّة... أحقّا ما أسمع! ربطت الدّهشة لسانها فلم تنبس ببنت شفة. قعت على قدميه تقبّلهما، والدّموع تبلّل خدّيها اللّذين لم يعرفا سوى الرقّ والعبوديّة والاشتغال في البيوت والنّوم مع البهائم.

- أبهذا القدر فرح سيّدي لهذا الخبر، يا لحبّه لأخيه الذي وُوري التراب في يثرب، ويا لبركة هذا المولود! تأمّلت وجه مولود آمنة وهي تروي لهم القصّة.

تبعت بركة السيّد إلى الحِجر، وما إن رآها تشير إليه بيدها خلف مجلسه وهو برفقة ولده وبعض القوم حتّى حدّثه قلبه أنّ الأمر يتعلّق بحدث مهمّ يخصّ آمنة، فنهض من مجلسه وسار إليها وعيناها تفضحانها:

- وُلد لك غلام يا سيّدي.

- حمدا لربّ البيت! أغمض عينيه في دعاء طال متّجها إلى البيت العتيق، ثمّ غادر من فوره المجلس معتذرا من جلسائه، وهي تتبعه إلى دار ابنه دون أن تكفّ طيلة الطّريق عن الكلام، تصف له الغلام. وهو يسرّع خطاه، متهلّل الوجه كأنّما سيطلّ على ولده عبد الله، وما إن دخل على آمنة حتّى حمل الصّبيّ وقبّله ثمّ حضنه إليه وهو لحم طريّ، وكلّه حبور وبِشر بهذا المولود.

جلس وهو يلتقط أنفاسه من الطريق، وراح يتفرّس ملامحه بحنوّ ويشعر كأنّما هو يذوب رقّة بين يدي هذا الطّفل الذي ولد للتوّ، أيّ

إحساس هذا الذي يسري الآن في صدره؟!وآمنة تحدّثه بما رأت أثناء حمله، وما قيل لها والهاتف الذي كان يجيئها أثناء نومها.

-علمت أنّي لن يخيّبني الله أبدا، وسيعوّضني في ولدي عبد الله خيرا.

حمله وخرج به دون أن يقول لها شيئا. رأت نظرته إليه وابتسامته التي لم تفتر منذ أن وقعت عيناه عليه إلى أن غاب عنها. بقي صوته يرنّ في أذنيها بعد أن عاد إلى عتبة الدّار ونادى بركة بأعلى صوته: أعلمي سيّدتك أنّي سأعود به بعد قليل، سأُري هذا الغلام مكّة. وصل إلى مجلسه، تجاوزه بقليل ثمّ طاف به بالكعبة حسب عادة القوم.

- يا الله...

شاكرا وداعيا، وصور حلمه لياليه السّابقة تعاوده، فيتفاءل بها خيرا ويمتلكه شعور قويّ كاليقين أنّه سيكون لابنه هذا شأن.

قال في قرارة نفسه بعد الكلام الذي قال له معبّر الرّؤيا:

- سأسمّيه إذن محمّدا...

وبعد أن طاف بالبيت أدخله جوفه وهو يحّدثه:

- هذا يا ولدي البيت الذي لو هدمه أبرهة ما رأيته قطّ، بيت جدّينا إبراهيم وإسماعيل، كأنّما حُفظ لأجلك يا بنيّ حتّى تتربّى غير بعيد عن أركانه، وتلعب في ساحته، وتنال بركته.

هرولت جدّته فاطمة لمّا سمعت الخبر إلى دار ابنها، وأصرّت أروى أصغر عمّاته أن تصحبها، وبكى العبّاس ابن الثلاث سنوات يريد أن يراه. وضعته فاطمة في حضنها كأنّ عبد الله بين يديها، هي التي لم يجف دمعها مذ نعي إليها خبر وفاته.

- رائحة ولدي الذي مات غريبا ولم أره، يا قرّة عين جدّتك، يا ابن المفدّى الذي ما فتئ أن فتك به الموت. ولدتَ يا فلذة كبدي يتيما، ليتك ترى ولدك يا عبد الله، وتشاركنا هذه اللّحظة!

استدارت وهي تكتم العبرات التي خنقتها حتّى لا تراها آمنة النّافس، وهي تأخذ نفسا عميقا تشمّ الصّغير ثمّ تقبّله بين عينيه، وفي خدّيه وجبينه ويديه الصّغيرتين وقدميه الطّريتين.

- أيّ شوق أحمله لك يا بنيّ!

بينما كانت أروى والعبّاس ينتظران دورهما...

بقيت آمنة مستلقية في فراشها، وجاءت برّة والجدّة قيلة فرحتين بابنتهما التي نزلت عليها المصائب وهي لاتزال عروسا، والآن جادت عليها السّماء بغلام بهيّ وضيء.

ما إن اطمأنت على صحّتها وصحّة الطّفل حتّى سكبت لها من برمة الطّين طعاما ساخنا وحارّا وقرّبته منها.

- هذا يعيد إليك عافيتك، ويدرّك الحليب.

تناولته ثمّ نامت فابتعدن عن مخدعها حتّى لا توقظها الأصوات وتخلد للرّاحة، وبقيت برّة تعتني بها أيّاما حتّى تستردّ عافيتها، في اللّيل تتّخذ مكانا بقربها تهدهد الصّبيّ ولا تضعه من حجرها طيلة الوقت، وهي ترقب وجهه الملائكيّ ولا تدعه ينام إلاّ بين يديها.

- أيّ وجه وضيء رُزقت يا ابنتي!

- ناوليني الغلام يا أمّي لأرضعه...

- يا لهدوئه! تقولين لم يطعم شيئا، يبدو هادئا لو كان جائعا لبكى.

- حتّى الآن لم يلتقم ثديي، وبصره شاخص إلى السّماء، أخشى عليه. كيف لصبيّ مثله أن لا يدخل جوفه الصّغير طعام منذ ليلة البارحة.
- سأدعو ثويبة فقد سمعتها تحمد الآلهة على امتلاء ضرعها، تستطيع أن ترضع ابنها مسروح وحمزة بن شيبة، ويبقى ممتلئا.
- لم يقبل الصبيّ على ثدي ثويبة هذا الصّباح أيضا، وأعرض عنه كإعراضه المرّة الماضية.
- أخشى أن يصيبه مكروه يا أمّي، ليس في استطاعتي تحمّل فقد آخر! لا أطيقه!
- حاولي ثانية وثالثة، ناوليه ثديك الأيمن مرّة أخرى، لعلّه يقبل عليه من الجوع.
لقد أمسكه، ألم أخبرك أنّ الأمر يستدعي قليلا من الصبر.
لقد توقف، وهو يدير رأسه يمينا وشمالا، يبدو أنّه لم يجد ما يشبعه.
حاولت آمنة مرّات ومرّات وفؤادها ينفطر عليه، وبينما هي تدعو أن يحفظ وليدها، إذ طرقت الباب ثويبة تسأل عنه، وفي يدها ولدها مسروح.
- خذي عنّي يا بركة هذا الغلام، سأحاول ثانيّة مع محمّد لعلّ الجوع بلغ به حدّا يجعله يُقبل على حليبي.
- حليبي شحيح، قالت آمنة آسفة، ماذا سيحلّ بهذا الصبيّ؟
- لا تفزعي يا ابنتي إذا التقم ثديك وجذب فسيكون الحليب غزيرا، هذه عادة النّساء والرّضع دوما، لعلّ حزنك على عبد الله وراء شحّ الحليب.

أدنته ثويبة منها وكشفت عن ثديها ووضعته في فمه، وآمنة تدعو والدّمع يكاد ينزّ من عينيها. حرّك شفتيه جذب واستمرّ في الجذب مستريحا في حجر الجارية.

- مرحى لقد رضع.

أشارت آمنة بسبّابتها إلى جاريتها ودمعة غلبتها حتى وصلت ذقنها وهي تبتسم، ولا تكاد تصدّق:

- اصمتي يا بركة دعيه يتمّ رضعته، لم يذق اليوم شيئا، لشدّ ما خشيت عليه.

باتت آمنة تلك اللّيلة هانئة بعد أن شبع وليدها وزال خوفها عليه، وصارت ثويبة في الأيّام الأولى تزوره مرّة في الصّباح ومرّة عندما تتوسّط الشّمس جوف السّماء، ومرّة قبل اللّيل يغفو بين يديها فلا تمسك نفسها عن تقبيله ثمّ تضعه وهي تدندن:

- يا للّوجه البهيّ، أيّ الصّبيان رزقت يا سيّدتي، لم أر أشدّ منه جمالا! جمع بين جمال الهاشميّين والزّهريين.

وما إن تهمّ بالمغادرة حتّى تناديها بركة:

- انتظري يا ثويبة، أمرتني سيّدتي أن لا أدعك تذهبين قبل أن تأكلي شيئا، أنت الآن تطعمين ثلاثة صبية.

مسحت فمها وهمّت بالنهوض:

- شكرا لك سيّدتي، عليّ أن أعود إلى دار عبد المطلب لأعتني بحمزة وأنيّم ولدي مسروح.

يا فلذة كبدي ما عساه يا ترى يفعل في غيابي؟ أكيد أنّه جائع.

وفي اليوم السّابع أعدّ عنه عبد المطّلب الذبائح، ودعا لها قريشا ثلاثة أيّام في مأدبة عظيمة ظلّ الخاصّة والعامّة يتحدّثون عنها. ضجّت الدّار بالزّهريين والهاشميّين المهنّئين وكلّ بطون مكّة الذين كانوا قبل أشهر يعزّون آمنة في زوجها الذي مات غريبا.

- لم رغبت في أسماء آبائه يا أبا الحارث؟ عبد العزّى وعبد شمس، وعبد مناف أعمام أبيك، لِم لمْ تختر واحدا منها؟

- محمّد... ما أغرب هذا الاسم!

سلسلة الفضّة التي خرجت من ظهره أذهلته ليلتها، تشعّبت أطرافها فاتّصلت بالسّماء والأرض والمشرق والمغرب، وبينما هو يصرف نظره إلى ما يخرج منه ويتفرّع ويرفع رأسه ثمّ يخفضه ويلمس موضع اتّصالها به وعيناه تتّسعان، إذا بها صارت شجرةً. شجرة ضخمة تخرج من صلبه تعلّق أهلُ الأرض جميعا مشرقا ومغربا بكلّ ورقة من أوراقها التي تشعّ نورا. ما أكثرهم وما أعظمها! كان المنظر مذهلا تاه فيه بصره... استفاق مغتبطا، يا للحلم الغريب! ظلّ في فراشه زمنا غير قليل يستعيده ويتحسّس ظهره حيث خرجت السّلسلة. أكلّ هذا خرج منه؟! ثمّ طلب معبّرَ الرؤيا ليقصّ عليه ما رآه في نومه. قال له على الفور بعد أن أنصت له:

- هذا مولود من صلبك يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السّماء والأرض.

- سأسمّيه إذن محمّدا...

جال في فكره هذا الحلم الجميل الذي أبهجه أكثر من ليلة بينما تعالت في مجلسه الأصوات مستغربة هذا الاسم الذي اختاره. يستشعر الآن لذّة ما حلم به ولا يلتفت إلى كلام سادة قريش، صمت ثمّ ردّ عليهم:

- أردتُ أن يُحمد في السّماء والأرض.

-2-

هواء مكّة رغم قساوته غير هواء هوازن التي صارت لا تطاق بعد أن انقطع عنها المطر، وضاقت بأهلها جدبا وإقفارا. سنة شديدة أكلت اللّحم ودقّت العظم، ولم تُبق إلاّ أرضا مقفرة وشياها هزيلة، وأطفالا يبكون جوعا ليلا ونهارا لا يجدون في ضروع أمّهاتهم ولا دوابهم ما يشبعهم، ورغم ذلك تبقى الطائف مصيف المكيّين، وهوازن تأخذ من هواءها العليل.

- لقد أخّرنا القوم بشارفي المسنّة وأتانكِ العجفاء وأراهم ضاجّين بولدنا، كلّ الصّبية بكوا ثمّ سكتوا إلاّ هو لم يسكت منذ خرجنا من بني سعد.

- لا تقل هذا عن ولدي، يكفيه ما هو فيه... كلّهم بكوا ولم يسكتوا إلاّ عندما يغفون تلك الإغفاءة القصيرة ويوقظهم الجوع وبطونهم الفارغة، بَيْد أنّ ابننا صوته أشدّهم وأغلظهم.

وكزت المرأة الأتان المبطئة بقدميها منكرة على زوجها كلامه، وطفلها على ظهرها تورّكه في قطعة قماش قديمة من كتّان تربطه إليها عند الخصر والصدر وتمتّن العقد حتّى لا يقع وصراخه لا ينقطع، يطنّ في أذنيها ويشعرها بالألم.

- قلبي ينفطر لهذا الصبيّ!

- وأنا لا أطيق أن أسمع صراخه الذي لا يكفّ، لعلّنا نصيب خيرا في مكّة!

سرّع البدويّ قليلا ناقته السّمراء بعصا رقيقة كان يحملها. لقد ضعفت وذهبت أسنانها من الكبر، وزادها قلّة الكلأ تعبا، تكاد تظهر عظامها، لم يبق إلاّ الجِلد على العظم.

- ارفق بالسّمراء يا رجل، ألا ترى هزالها والحزن الذي في عينيها من فقد صغيرها بالأمس؟ هي تفرح وتحزن مثلنا... يا حسرتي عليها، مسّ نسلها أيضا الجدبُ الذي نعيشه منذ فترة.

- لكنّا نؤخّر القوم منذ خرجنا يا امرأة.

- هذا أقصى طاقتها، فلا تكلّفها المزيد.

أناخوا رواحلهم بالقرب من السّوق، وبعد أن نزلت النّسوة أخذن في اختيار رضعاء مكّة الذين قدم بهم أهاليهم إلى هذا المكان كما جرت العادة بين الحين والآخر، وكان سعد الحضنة أكثر ما يعجب المكيّين يستودعونهم فلذات أكبادهم حيث البادية والهواء العليل والطيبة والحضن الدّافئ، وفصاحة لسان أهلها.

- والله يا امرأة إنّي لأرجو لك حظّا موفقا، وولدا من الأثرياء، لعلّ أهله يجزلون لنا العطاء، فينالنا معه ما يخرجنا من هذه الفاقة التي لم يعد يطيقها صبيّنا، سأنصرف لبعض الشّأن وسأطوف بالبيت ثمّ أعود، تكونين قد أنهيت، فلا مكان لي هنا بينكنّ... بين نساء مرضعات.

انتقلت النّسوة بين الصّبيان يخترن ويسألن عن أهلهم ونسبهم، وأكثر ما كان يشغلهنّ هو الثّراء حتّى يصبن من خيرهم ما يغدقه عليهنّ الآباء، وكانت المرأة صاحبة الأتان العجفاء والصبيّ الباكي تنظر إليهنّ، وهنّ يتسابقن لأخذ أفضل الولد حتّى لم يبق إلاّ صبيّ جميل الوجه

كأنّه قبس من نور، تحمله جارية حبشيّة تقف إلى جانب سيّدتها التي في وجهها شيء من حزن ومرارة.

بقلب آسف كلّمت بركة سيّدتها آمنة:

- انصرفت عنه كلّ النّسوة يا سيّدتي لمّا علمن بيتمه، ما من امرأة عرضتُه عليها إلاّ أبتْ، مذ تركتك وأنا من امرأة إلى امرأة حتّى أتممت عشرتهنّ، يقلن من يؤدّي لنا الأجرة؟

بكت آمنة وحضنت إليها صغيرها، ولم تقل شيئا.

- لا تحزني يا سيّدتي، نحضره في يوم آخر فالمراضع كثيرات، وثويبة تتكفّل بإرضاعه مع ابنها مسروح إلى أن نجد له مرضعا، فلا تقلقي!

- أخشى أنّه لا يشبع، فلبن ثويبة لابنها مسروح وحمزة بن هالة.

- كلّها يوم أو يومان ونجد له مرضعا مناسبة، لو كان لا يشبع لبكى، ولكنّي لا أراه إلاّ هادئا وديعا كأنّما تهدهده الآلهة!

انصرفت النّسوة بالرّضع من أسياد مكّة، من أطفال بني مخزوم وبني أسد وعدي، مسرورات مستبشرات بما أخذن، إلاّ البدويّة صاحبة الأتان العجفاء ظلّت في إقبال وإدبار وهي تهدهد ابنها الباكي، وتنظر إلى طريق الحرم وفي عينيها حيرة، تنتظر زوجها لتسأله وتأخذ رأيه.

- أخيرا عُدت...

لم يبق سوى ذلك الصّبيّ الذي تحمله الحبشيّة وعيناها دامعتان، انظر تلك سيّدتها التي تقف إلى جانبها إنّها تكابد دمعة تتحجّر في

مآقيها. يتيم لم ترض كلّ صويحباتي أخذه، ما عسانا ننتفع بما تقدّمه أمّه وجدّه، وأحفاده كثر؟!حتّى وإن أجزل لنا العطاء فلن يكون كأبيه! بعد أن انقضى النّهار أو كاد، وهدأ الحرّ، وكادت الشّمس تختفي بين أحضان جبال مكّة وهمّ الرّكب بالعودة، قالت المرأة لزوجها بعد أن طال بها التّفكير واحتارت في أمرها تقلّبه منذ الصّباح ولا تجد حلاّ لفاقتها:

- أنرجع فنأخذ الغلام، فإنّي أكره أن أعود خالية الوفاض وصواحبي مليئات الحجور قد نلن مبتغاهنّ؟

- افعلي، ودعينا نرحل! كان فاترا يائسا من نجاح زوجه في جلب ولد ثريّ.

- إذن سآخذ الغلام اليتيم.

أسرعت عائدة إلى مقصدها، وأقبلت على آمنة المكسورة الخاطر والمطرقة لا ترفع عينيها عن الأرض منذ أن أعادته إليها بركة بعد أن رُفض من المرضعات كلّهنّ، وطلبت منها الغلام وهو في لفافته وديع الوجه، هادئه غير مدرك لما يحدث حوله. تهلّل وجهها بعد أن شعرت بمرارة إعراض النّسوة عن ابنها اليتيم.

نظرت إليه المرأة وهو يحرّك يديه الصّغيرتين في ثوبه الصّوفيّ الأبيض ويمصّ إبهامه، فقبّلته بين عينيه، ثمّ ألقمته ثديها فأقبل عليه يرضع حتّى شبع. ما هذا بحقّ اللاّت؟! ذهلت السّعديّة وكتمت الأمر، وما إن كانت تتأمّل الصّبيّ الوضيء، وتتساءل عمّا حلّ بها وهي لم تأكل شيئا منذ الصّباح سوى حبّة تمر يابسة اقتسمتها مع زوجها،

ثمّ بللت ريقها الذي جفّ بنواتها تمصّها إلى آخر النّهار تتصبّر بها، حتى جاءها صوت آمنة مختلطا بالدّموع:

- ما اسمك؟ ومن أيّ بيت أنت؟

- حليمة بنت أبي ذؤيب من بني سعد بن بكر، وذاك زوجي الحارث بن عبد العزّى، وهذا ابني عبد الله الذي سيتشارك مع ابنك في الحليب.

- أنعم وأكرم، وهذا وحيدي محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب، ابن ابن سيّد قريش، وأنا أمّه آمنة بنت وهب.

طابت نفس حليمة لمّا علمت بنسبه الشّريف، وعلّقت على كلامها وهي تبتسم حتّى بدت نواجذها:

- محمّد اسم جميل وغريب، لم أسمع به في بني سعد، ولا في الأماكن التي نأخذ منها رضعاءنا. قليل من يتسمّون به.

- هكذا سمّاه جدّه.

فردَتْ آمنة للمرأة الغريبة يديها اللّتين صارتا خاويتين لتعيد لها ابنها ثانية لتودّعه، وتضمّه للمرّة الأخيرة قبل رحيله ضمّة طالت، تُفرغ فيها كلّ الاشتياق ووحشة الصّدر والعمر، ثمّ ناولتها الغلام ثانية وقلبها يتمزّق، كمن يسلّم مجبرا قطعة منه بعد أن عادت بركة بصرّة ثيابه وأعلمت جدّه برحيل حفيده.

- لم يبق لي سواه بعد وفاة والده، فأحسني إليه ولا تدعيه يغيب عن ناظريك!

أوصتها وألحت وعيناها دامعتان...

- لا تخشي عليه يا سيّدتي سأضعه في عينيّ، هو مثل ولدي عبد الله، فليقرّ فؤادك، وسأجلبه لك بين الحين والآخر لتريه.

جاء عبد المطلب قبل أن يرحلا بالغلام، فتحدّث إلى الرجل البدويّ زوج المرضع، وسأله عن نسبه ومنزله وأمور أخرى في حديث طويل دار بينهما بعيدا عن النّسوة، ثمّ أوصاه بحفيده الوحيد من عبد الله بعد أن قصّ له قصّة أبيه.

ودّعت آمنة صغيرها باكية بعد أن استعادته من المرأة ثانية تعيد حَضنه وتقبيله ولا تكتفي أو ترتوي، وبركة تواسيها وهي تمسح هي الأخرى دمعها، فلن يريا محمّدا بعد اليوم إلاّ زائرا حتّى يبلغ سنّ الفطام، وسيخلو البيت منه بعد أن ملأه، وسدّ فراغ فقد أبيه.

انطلق الرّكب وحليمة لا تصدّق ما رأت من إقبال الصبيّ على ثديها. راحت تحدّث زوجها الحارث بما طرأ عليها، وما إن أظلم عليهم الطّريق حتّى ضربوا الخيام، وحطّوا المتاع عن الإبل ليقضوا ليلتهم في العراء، ثمّ يستأنفوا سيرهم في الصّباح.

قرّبت حليمة ابنها فشرب حتّى شبع ونام بعد أن لم يكُفَّ ليلة أمس كلّها عن البكاء، ووضعته بالقرب من ابنها الجديد، وهي تنظر إليهما وتعجب من فورة الحليب التي تشعر بها والامتلاء إذا ما قرّبت غلام مكّة منها، وبينما هي كذلك إذ جاءها الحارث بقدح الخشب الكبير مملوءً حليبا وطلب منها أن تشرب:

- من أين لك بكلّ هذا الحليب الذي لا يزال دافئا؟

- من السّمراء...

- السّمراء شارفنا؟ قل غير ذلك. حملت غطاء رقيقا للطفلين وهي تدبر عنه بظهرها، ثمّ همّت بالاستلقاء أمامهما. ألم تكن لا تبضّ قطرة بعد أن يبس ضرعها من العَجَف!

- تعالي أُريك شيئا.

أخذ بيدها إلى حيث عُقلت الأتان والشارف، لمست ضرع النّاقة فصاحت ولم تملك نفسها... ثمّ خفضت صوتها حتى لا يسمعها من في الرّكب:

- أيُّ بركةٍ حلّت بك يا سمراء، شربنا وارتوينا، وضرعك بعد حافل!

- هات السّقاء سأحلب قدحا آخر.

والله إنّنا قد أخذنا نسَمة مباركة يا حليمة!

-3-

تأهّب الرّكب للمسير قبل أن تبزغ الشّمس، فحملت حليمة الرّضيع بين يديها وابنها عبد الله خلف ظهرها ملتفًّا في قطعة الكتّان، غير باكٍ ولا جائع، بل نائما لأوّل مرّة منذ سنة القحط على بطن ممتلئة، وسارت بها أتانها جنبا إلى جنب مع زوجها الحارث وهو يمتطي شارفه، وفي نفسهما راحة لم يشعرا بها في طريق قدومهما إلى مكّة.

-بتنا في خير ليلة، لم نذق طعم نوم ليلة بأكملها منذ مدّة لبكاء الغلام، كم أشعر بالرّاحة وأستطعم حليب ناقتنا في حلقي. لم يحدث لنا ذلك منذ أمد، لم أعد أذكر منذ متى بتنا بخير كهذه اللّيلة، إنّها لحقًّا نسمة مباركة أخذناها من مكّة!

في وادي السُّرَر الذي يبعد بضعة أميال عن مكّة حيث الشّجرة الكبيرة التي يُتبرّك بها، ويعتقد كلّ مارّ أنّها قطعت تحتها سُرَرُ سبعين نبيّا، سارت رواحل بني سعد عائدة من مكّة التي توفّر للمرضعات فرجا يخفّف من كربتهنّ وفاقتهنّ بما تدفعه العوائل الغنيّة، تسبقها راحلتا حليمة وزوجها كأنّما تتوق الدّابتان إلى الديار.

- مالكِ يا سدرة! كيف صرتِ أسرع من أُتُن صويحباتي؟

- حتّى السّمراء، ألا ترينها يا حليمة، كأنّما يتباريان بمدّ الأعناق، وكنّ أمس يؤخّرن الرّكب!

ابتسم الزوجان، ثمّ ضحكا ضحكة صافيّة غمرت الوادي، لعلّها امتدّت حتّى سمعها من كان بالقرب منهما، وشعرا بدفء غريب افتقداه منذ لم يعد يشبع صغيرهما ويهزل يوما بعد يوم. وراحا

يتقدّمان الرّكب والسّمراء وسدرة تمدّان عنقيهما أكثر فأكثر، كأنّما هما أيضا في بهجة.

غمزت أمّ هند صاحبتها وهي تشير إلى الأمام:

- انظري أليست هذه حليمة وزوجها الحارث، وهذه أتانها العجفاء وتلك شارفها التي سقطت أسنانها... ألا ترينهما كيف يحثّان السّير كأنّما هما في سباق؟!

- حقّا، هذه حمارة أسرع من حمارتها، وهذه ناقة أسرع من ناقتها!

- ألا ترين ما أرى يا أمّ عوف... حتّى حليمة والحارث عادا بغير الوجه الذي ذهبا به، بل حتّى صبيّهما لم أعد أسمع صراخه الحادّ، وكان لا يسكت من شدّة جوعه؟!

- تعالي لنسرع ونرى عن قرب ما الأمر؟

ولمّا اقتربت المرأتان منها سألتاها والحيرة تأخذ بعقليهما:

- ماذا صنعت يا حليمة بالأتان والشّارف؟! أهما اللّتان خرجت عليهما معنا؟!

- نعم والله إنّهما لهما.

- والله إنّ لهما لشأنا!

نظرتا إليها وهما لا تصدّقان ما تراه أعينهما في فضول تملّكهما.

- ابنُ من هذا الغلام الذي أخذت؟

- حفيد سيّد قريش عبد المطّلب بن هاشم.

صمتت المرأتان وأبطأتا سير دابّتيهما تاركتين وادي السّرر خلفهما والشّجرة المباركة، وحليمة وزوجها يسبقانهما والحسد يشتعل في قلبَيْ المرأتين.

وما هي إلاّ سويعة من الزّمن حتّى وصلوا إلى هوازن، وإلى مراعي بني سعد التي لم يبق منها سوى البطحاء مقفرة مجدبة، اختفت مراعي العشب التي كانت تملأ الوادي.

- ما هذا يا حارث؟ لم هذه الجلبة ولم يجتمع النّاس هنا؟

- سأرى، حزمة عيدان يربطونها على ظهر ثور.

- إنّه قربان الاستسقاء.

- انتظرني حتّى نرى إضرام النّار.

- لا أقوى على النّظر يا حارث، قلبي يحدّثني أنّه سيحترق دون أن تنزل قطرة ماء.

جرى الثّور بعد أن بدأت تصله ألسنة اللّهب هائجا كالمجنون، لعلّ السّماء تمطر وترحم احتراقه، ورفع الكبار نساء ورجالا أكفّهم يتضرّعون بالدّعاء، أمّا الأطفال فتبعوه بأعينهم، ومنهم من جرى إلى نهاية المنحدر يرقبونه، المطر المطر...

- يا ربّة السماء أغيثي أبناءنا وشياهنا!

- أكلت النّار الثّور المسكين ولم تبرق السّماء برقة واحدة.

انصرف المجتمعون وتركوا كومة الرّماد تخمد يائسين.

- قلت لك يا حارث لا قدرة لي على رؤية هذا، لنقترب من مرعى شياهنا، أشتاق إلى أبنائي، ها هي شياهنا يا أبا عبد الله، وذاك ولدنا حذيفة.

جرى الفتى بعد أن حدّث أبناء حيّه الذين كانوا يحرسون غنمهم وهي تجِدُّ باحثة عن الكلإ تسفّ التّراب:

- ذلك الرّكب التي خرج فيه والدانا، انظري يا أُنيسة هناك أرى السّمراء وسدرة على رأس المتقدّمين. تعالي ننظر ماذا جلبوا لنا معهم من مكّة؟ تعال يا عوف وانظر ماذا جلب لك والدك من بلاد الحرم؟

- ألا ترى، كلّ أمّهاتنا تحملن رضعاء جددا كعادتهنّ كلّ موسم، يشاركوننا فيما نحن فيه من بؤس وجوع، يقتّرون علينا في اللّقمة لإطعام هؤلاء الأجانب. لا أدري لم يمتهنّ أثداءهنّ وأبناؤهنّ أحوج إليها؟

- ألا تدري حقّا ما السّبب؟ أنت تعلم الفاقة التي ألمّت ببني سعد هذه السّنة أكثر من غيرها، لعلّنا ننال من خير هؤلاء الرّضعاء شيئا.

اتّجه الطّفل ممتعضا إلى والديه، وعيناه تشزر الرّضيع الجديد، ولا يطيق النّظر إليه.

- عوف يا ولدي انظر إلى الصّبيّ الذي جلبته من مكّة... هو صاحب ثراء فاحش لعلّنا نصيب منه الخير الكثير.

انزوى حذيفة إلى والديه وراح ينظر إلى الغلام المكّي بعد أن قبّل أخاه عبد الله الذي اشتاق إليه، وبدت أضراسه الخلفيّة لرؤية الشّارف والأتان.

- اشتاق إليكما السّرب يا سدرة، وأنت أيضا يا سمرائي. تبدوان بأحسن صحة، لعلّكما أصبتما مرعى وفيرا بالقرب من البيت العتيق.

- من هذا الغلام يا أمّاه... لم أر أجمل منه؟!

- هلمّا إلى الدّار وسأحدّثكما عن قصّته...

جمعا غنماتهما الهزيلة ولحقا بأبويهما وهما يسألان عمّا أحضرا لهما من مكّة.

- امتطي معي السّمراء يا أُنيسة واتركي أخاك يجلب الشّياه.

ما إن اقترب الرّكب من الدّار، وسمعت حُذافة صوت الشّياه وحديث إخوتها حتّى خرجت تستقبلهم، وفي نفسها فضول عن الرّضيع الجديد هذا الموسم، أهو صبيّ أم صبيّة؟

أخذته عن أمّها وراحت تتأمّله وهو يغطّ في النّوم، وحليمة تفكّ القماش الذي ورّكت فيه ابنها حذرة من أن توقظه:

- امسكيه عنّي يا أنيسة!

جعلت حليمة للضّيف الصّغير مكانا في غرفتها بالقرب من ولدها عبد الله، فمنذ اليوم ستصير أمّه الجديدة، وجمعت أبناءها وأوصتهم وهي تفرك أذن أنيسة التي لم تكن تغيب عنها غيرتها ولا شغبها:

- هذا الصّبي وحيد أمّه، وقد أوصتني أن لا يغيب عن ناظري، هو ابن عبد المطلب.

- ومن عبد المطلب هذا؟ قال حذافة مستغربا شدّتها عليهم تجاه هذا الصّبي أكثر من غيره من الرّضعاء الذين اعتادت أن تحضرهم.

أجابه الحارث بشيء من الشدّة:

- عبد المطلب سيّد قريش القائم على رفادة وسقاية الحجيج.

- حدّثينا يا أمّي كيف وفّقت إلى ابن سيّد مكّة، لقد وعدتنا!

- سنرتاح من السّفر أوّلا ونأكل شيئا، ثمّ أروي لكم ما حدث لنا في مكّة.

- نأكل شيئا؟ هل أحضرتما لنا شيئا من مكّة؟

- هات السّقاء يا حارث

- حليب ناقتنا السّمراء شهيّ وطازج.

- منذ متى يا أمّي عاد إليها حليبها، لم تبُض قطرة منذ فقدت سَقْبها المسكين؟!

- لعلّها يا حذافة قد لحقتها بركة مراعي الحرم.

- هات القداح يا حذافة!

-4-

ما إن فركوا أعينهم من النّعاس حتّى انسلّ الواحد تلو الآخر إلى مرقد الرّضيع القرشيّ، وأعينهم لا تبتعد عنه. يدان صغيرتان غضّتان تتحرّكان في لفافة الصّوف الأبيض التي تحتها حريرة خضراء، غسلتها حليمة وأعادتها للصّبيّ فجرا بعد أن جفّفها هواء هوازن، فبدا الصّبيّ كما سلّمته لها آمنة في أوّل عهدها به نظيفا ومعطّرا، وتوهّمت على لفافته بعض البلل من دموع آمنة شعرت بها عندما أخذت منها الصّبيّ في آخر عهدها به، وأدنته من وجهها لتقبّله بين عينيه، وراحت للقيا الحارث الذي كان ينتظرها عند راحلته. تذكّرت حليمة ذلك فبدا لها وجه آمنة حزينا كئيبا يبتعد وسط صخب السّوق، وعيناها تتبعانها كلّما التفتت.

وإذ بصوت حذيفة يحدّثها وهو يمسك بأحد أصابع الرّضيع بعد أن أزاح عنها لفافة الصّوف وأخذ في تقبيلها:

- كالبدر المنير يا أمّي... ما أجمله من صبيّ!

- ما أشدّ سواد عينيه وبياض ما يحيط بهما!

- هذا يسمّى دعج العينين.

- وأهدب الأشفار أيضا.

- ومثله لم تر عيني بين الصّبيان!

- حتّى أنت يا حارث هنا مع الصّبية تحدّث الغلام؟!

- جماله آسر يا حليمة...

- اتركه يا حذيفة واذهب لتخرج الشّياه إلى المرعى.

- ليس في المرعى عشب، فلِم أخرج بها كلّ صباح؟ دعيني مع الرّضيع القرشيّ.

- اذهب يا بنيّ، قضمة أو قضمتين خير من حبسها، ننتظر انتهاء هذه السّنة الشّهباء، فلم يصبنا منها إلا الهزال والجوع وصوت الأطفال الذي لا ينقطع من البكاء.

ألا تسمعون صوت طفل جارتنا، لم يكف اللّيلة بأكملها.

- الطّفل الذي ولد قبل أوانه

- تقصدين الخدوج؟

- لقد بقي هزيلا رغم أنّه تجاوز السّنة فقد ولد في مثل هذا الوقت من السّنة الماضية. قيل إنّ به مسّا أو مرضا عجز الحكماء عن مداواته، هو لا يتوقّف عن البكاء والأنين الذي يصلني قويّا عندما يذهب الأطفال للنّوم وعند الفجر ومع السّحر، ومع مرضه لا يجد حتى ما يأكله.

انفضّ أطفال حليمة ووالدهم كلّ إلى شأنه، وتركوها ترضع الوافد الجديد، وهي لا تصدّق فورة الحليب التي تشعر بها كلّما التقم ثديها:

- معهم حقّ يا محمّد، فوجهك الصّغير يا بنيّ آسر...

ولمّا أتمّت أرضعت عبد الله أيضا وصدرها لا زال حافلا، ووضعته إلى جانبه.

- وحقّ اللاّت إنّ في ثديي ما يكفي صبيّا آخر، يشغلني صوت طفل جارتنا المريض الذي يزيده الجوع حدّة.

غفا الصبيّان وهما جنبا إلى جنب كأنّما من بطن واحدة، فأسرعت حليمة للانتهاء من أشغال البيت قبل أن يستفيقا. كنست الدّار ثمّ أوقدت النّار لتعدّ الطّعام، وملأت برمة الطّين ماء وتركتها تغلي، وهي تحدّث نفسها بصوت مسموع:

- يكاد الشّيب يملأ رأسي كلّما نظرت إلى هذه القدر وما سأعدّه؟

وما إن فتح الصبيّ المكيّ عينيه وابتسم لحذافة حتّى تركت ما بيديها وحملته وراحت تتحدّث إليه وتعرّفه بالبيت وإخوتها:

- هذه أُنيسة تصغرني بسنوات، الطّفلة العنيدة التي تغار من الرّضعاء وتعضّهم إذا ما غابت أمّي.

- أنا أعضّ...؟

بكت أنيسة وأسرعت تبحث عن أمّها لتشكوها.

- وحذيفة يكبرني... ذاك الذي أخذ الغنيمات إلى المرعى.

وعبد الله الحبيب أوّلُ من عرفتَ، لا ينام إلاّ في حضني... وأنا حذافة وينادونني الشّيماء لهذه الشّامات في بدني. انظر... وراحت تريه موضعها كأنّما يدرك ما تقول.

ستكون صبيّي من الآن فأنا الأخت الكبرى، واعتدت أن أساعد أمّي في القيام بشؤون الرّضع الذين تحضرهم من مكّة، وأفرح للهدايا التي ينالني نصيب أوفر من إخوتي لقاء مساعدتي لها، ثوب جميل، أو حلوى الفالوج، أو قليل من العسل.

ومن الآن ستصير هذه الدّار دارك، وهذا مرقدك.

حذافة لم تُتمّ عقدها الأوّل إلاّ أنّها امرأة صغيرة تساعد أمّها، وتعتني بإخوتها في ليلةِ أو ليلتي الغياب حينما يقصد والداها مكّة في مواسم البحث عن الرّضعاء الذين صاروا يعنون لهم الكثير حين زادت الفاقة وبلغت العظم.

- حذافة تغسل المواعين، البرمة والصّحون وملاعق العود كلّها ولا تساعدني أنيسة، وتعدّ الطعام، وتفرش الدّار ليناموا، وتهتمّ لشأن إخوتها إذا ما رحل والداي. لها الحقّ في بعض الحلوى فلم تغار أنيسة؟ أليس كذلك يا محمّد أجبني؟

محمّد اسم جميل لا يسمّى به صبيان حيّنا، لعلّه اسم مكّي.

نمْ يا صغيري، ولا تبالِ بما بيني وبين أنيسة، سأغنّي لك...

راحت حذافة الفتاة الصّغيرة التي اعتادت أن تشارك والدتها في مسؤولية الصّغار وهي لم تتجاوز العقد الأوّل تهدهده بعد أن فرغت من حديثها إليه، وتغني غناء بدويّا جميلا أرخى على إثره الصّبي جفنيه، وغطّ في نوم عميق إلى المساء، فانصرفت المرأتان إلى شؤونهما.

الصّيف مبكّر هذه السّنة، لا مظاهر للرّبيع، والحرارة الشّديدة التي يستفيق عليها السّعديون تجفّف ما بقي من ماء في الوديان والشّعاب. سماء شحيحة، وأرض متشقّقة عاقر تزيدها الرّيح جفافا، ولا جدوى مطلقا من إشعال النّار في أذناب البقر وإطلاقها، يكفيها ما بها من جوع حتّى تحرق. أخذ الحارث يتّقي بيديه أغصان الشجرة اليابسة التي صارت ناتئة أكثر من ذي قبل وحادّة، تكاد تعمي من تصيبه، أو تدمي يديه أو وجهه لجفافها. صرف أغصانها وأبعدها عن وجهه ليمرّ

من أعلى التلّة، وهو يرقب ديار بني سعد، ويحمل سقاءه الفارغ، وعندما نزل إلى السّفح احتمى تحت ظلّ شجر السّدر الذي تمتدّ جذوره إلى جوف الأرض وتثمر ثمرا طيبا يتقوّت به من يمرّ بها.

- هذا بعض النّبق لا تقربوه، سآخذ بعضا منه للشّيماء. إنّه صغير وجاف هذه السّنة.

رائحة الشّوحط... في مثل هذا الوقت من السّنة تكون قويّة ونفّاذة. وقف الحارث على طرف الوادي، ثمّ علا التّلّة وهو ينظر إلى الأرض التي ما عادت الأرض التي عرفوها قبل هذا العام. العبوس يخيّم على ديار بني سعد، والباديّة لم تعد المكان الذي يشبع أغنامهم ولا أطفالهم، حتّى الشّجرة الكبيرة الواقفة في أعلى التلّة، التي يبلغ سنّها سنّ ولده البكر يبس الكثير من أغصانها، وما زالت تمنع هلاك كثير من المعز والإبل. اعتاد الصّغار أن يأكلوا ثمرها بعد أن يلعبوا به كحبات الخرز.

- انظر يا بنيّ، الشوحطة الكبيرة التي عِصيٌّ كثير من السّعديين من أغصانها تكاد تيبس.

في مثل هذا الوقت من الرّبيع تنبعث رائحتها حين تتسلّقها الماعز، وتعلفها الإبل والشّياه، لم يبق منها إلاّ بعض الأوراق والسّيقان الهزيلة. نزل الحارث عائدا بسقائه بعد أن انتصف ماء، وقد تلبّسه شيء من عبوس الشّجر والوادي الذي يكاد يجفّ.

المراعي على امتداد البصر بيضاء لا خضرة فيها عدا بعض أشجار الآراك والغضا المتناثرة في البريّة وشجيرات السدّر التي بقيت تقاوم، حتّى وادي أوطاس يكاد يجفّ فلا نجد ما نشرب ولا ما تشرب بهائمنا.

***

- هذا صوت حذيفة وهو يعود بالشّياه يا أمّي.

خرجت حليمة تتفقّد ابنها والشّياه، وما إن رأتها حتّى استغربت:

- كأنّي بها عادت بغير الوجه الذي ذهبت به. انظري يا حذافة إلى ضروعها التي تكاد تلامس الأرض.

اقتربت منها حليمة من شدّة عجبها وهي لا تصدّق:

- حمدا للاّت، كلّها حافل بالحليب، أيّ بركة حلّت بنا.

حلبت حليمة ما سدّ رمق أطفالها وزيادة، وملأت السِّقاء، ولمّا عاد الحارث حدّثته وهو لم يتجاوز عتبة الدّار بما رأت من الشّياه، فذهب عبوسه وهو يعقد وِكاء سقائه في أعلى الخيمة، حتّى إذا ما هبّت الرّيح صار الماء الحارّ الذي أحضره بمشقّة من وادي السّتارين عذبا وطيّبا.

- لعلّه أصابها ما أصاب الأتان والشّارف. أيّ نسمة مباركة أخذناها يا حليمة من مكة!

خرجت أمّ هند ترقب شياه حليمة بعد أن سمعت الصِّبية يتحدّثون عن الحليب الذي تدرّه، وما إن رأت ضروعها ممتلئة حتّى أسرعت إلى دار أمّ عوف لتخبرها الخبر، وفي الصّباح راحتا تراقبان حذيفة

والطّريق الذي يأخذ معه شيّاهه، لوتا أذني ولديهما قبل الذهاب إلى المرعى وقالتا لهما في شيء من الشدّة واللّوم:

- ويحكما انظرا أين تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحا معها.

- افتحا أعينكما جيّدا، أريد ضروعا مليئة هذا المساء.

وراحا يتتبّعان حذيفة، أينما حلّت غنمه جلبا غنمهما أيضا إلى أن انتهى اليوم فعادوا جميعا يتبع بعضهم بعضا.

أسرعت المرأتان وفي يديهما قدحان، وراحتا تجلسان أمام شيّاههما:

- إنّها لا تبضّ ولو قطرة حليب، ألم أقل لك يا عوف أن تتبع غنم بنت أبي ذؤيب.

افترشت الأرض، تلوي شفتها العليا:

- ولا حتّى شياهي يا أمّ هند!

نهضت أمّ عوف بالعصا إلى ولدها، فلم يملك إلاّ أن يتّقي الضربات بيده وهو يقسم:

- وحقّ الآلهة لم أتركها تغيب عن ناظري، وليس في المرعى ما تأكله غنمنا ولا غنم حذيفة، لكنّ غنمنا تعود جياعا، ليس فيها قطرة لبن، وتعود غنمه شباعا يحلبون منها ما يحتاجون وزيادة.

- والله إنّ الأمر لعجب يا أمّ عوف، دعي الغلام فهو لا يكذب.

فعل الصّبية الشّيء ذاته في اليوم الثّاني والثّالث وكذا الرّابع، ولكنّ الغنم كانت تعود جياعا وغنم حليمة شباعا ممتلئة لبنا.

هوازن لا عشب ولا ماء، حتّى الرّيح التي تهبّ هذا اليوم منذ الصّباح تذرو التّراب وتزيد من جفاف الأرض، وتزداد الوجوه انكماشا وتتشقّق

الشّفاه ولا تجد ما تأكل إلاّ نزرا يبقيهم على قيد الحياة وحافة الموت، الجوع الذي يلهب أصوات الأطفال الباكين فلا يتوقّفون حتّى ليلا.

نظر حذيفة وهو ممسك بعصاه من بعيد إلى ديار بني سعد، وهو يمسّد ظهر شاته ويحدّثها بما يراه من خير وبركة في غنمهم دون غنم القوم:

- نعم يا صغيرتي ما هذا الضرع الحافل، ما الذي تغيّر، المرعى هو المرعى والشّاة هي الشّاة؟!

تعالي يا سدرة حان أوان عودتنا، أتذكرين هذا الوادي عندما كان يغمرني بالماء، يغطيني إلى الرُّكب وأختي حذافة، حقّا كنت صغيرا ولكنّ الماء كان وافرا، ونحن نتقاذف به وأنت تكرعين منه ما يرويك ومعنا الشّياه.

لم يعد الوادي يسعنا جميعا في هذه السّنة المجدبة.

-5-

رافقت الشّيماء محمّدا إلى حيث يلعب الصّبية خلف الدّار، شاركهم لبعض الوقت، وهو لا يغيب عن ناظريها، وما إن لاحظت أنّه يريد أن يغفو حتّى أخذته منهم رغم أصواتهم المعترضة التي انطلقت مرّة واحدة كأنّما اتّفقوا. لم تهتم بإرادتهم ولا فيما يرغبون به، كُفّوا لا فائدة من الصّراخ، فكّت يده الطريّة من يد أنيسة التي جذبته من ثوبه وشبكت يدها بيده. نهرتها، وبصرامة انطلق صوتها الجادّ الأكبر من عمرها الذي تجيده في مثل هذه المواقف كلّما استدعى الأمر: هذه وصيّة أمّي، وهذا وقت نومه.

تربّعت أرضا ووضعته في حجرها وشرعت في هزّه، كما علّمتها والدتها، وكما تفعل أيّ امرأة، بذات إصرارها وتفانيها وحرصها، هي الطّفلة التي لاتزال تحتاج لأن تلعب أيضا، هي تتقن هذه اللّعبة، وتعشق هذا الدّور وتحبّ أن تكون مرضعة أطفال مستقبلا شرط أن يكونوا أثرياء. منذ سنوات صارت تربح أمّها مبلغا لا بأس به من أعباء الاعتناء بالرّضعاء، إضافة إلى الهدايا موسم الزيارات.. حاولت أن تنتظم هزّات حجرها أكثر، وهو شاخص بعينيه الدّافئتين إلى السّماء وكلّما باغتوا قلبه الصّغير بصراخهم تنهّد تنهيدة علا فيها صدره وانخفض، ثمّ التفت إليهم يتتبّع ببصره شبه الغائب جريهم وراء الخراف الحديثة الولادة وإمساكهم بها وهو يبتسم إلى أن أغمض جفنيه تماما. وجهه ملائكيّ، كم شبّ وكبُر منذ أوّل يوم رأيته فيه، كأنّه الأمس!

لفافة الصّوف التي كبر عليها وكانت تغمره يوما، ولا يظهر منه سوى جزء من وجهه وأصابعه، والحريرة الخضراء التي لم تعد تسعه، والأسبوع الأوّل الذي ملأ فيه الوادي ببركته، وأمّ عوف وأمّ هند وهما تسألاني قدحين من اللّبن للرضّع فأملأ لهما السّقاء بعد أن يئسا من أمر ولديهما في تتبّع غنمنا دون جدوى، وطفل جارنا المريض الذي لا ينقطع بكاؤه شُفي وامتلأ جسده للّبن الذي كانت تعطيه أمّي كلّما سمعت أنينه، كأنّي بالآلهة أرسلت إلينا بهذا الصّبيّ المبارك حتّى تمرّ تلك السّنة المجدبة بخير، بل لعلّها أجمل سنة مع أجمل رضيع مكيّ.

أعادته لما استيقنت من نومه العميق إلى الدّار، وهي تمشي الهوينى تخشى أن توقظه، ومسحة حزن طافت بوجهها فجأة لمحتها حليمة ولم تقل شيئا.

وفي اللّيل حينما اجتمع إخوتها بعد عودتهم من المرعى انفردت به في ركن وأخذت تحدّثه:

- لا أدري ما سأفعل في أيّام غيابك عنّي يا محمّد. لم أدر ما حلّ بي في أيّام زيارتك لأمّك آمنة في المرّة الأخيرة، صرت كالمجنونة، عليها حقّا أن تفي بوعدها لجدّك عبد المطلب. طلب منها أن تُزيرك أمَّك مرّة في السّنة حتّى تطمئنّ عليك، وها هي السّنة تمرّ بسرعة وتتمّ الحولين.. هم فعلا أهلك، ولكنّي أشعر أنّك واحد منّا.

- كفّي يا حذافة عن الحديث إليه، هذا أوان تحميمه، فغدا صباحا نشدّ الرّحال إلى مكّة.

حضّرتْ له حليمة مدقوق ورق السِّدر لتغسل شعره وليفة من قماش لتحكّ جسده، وحذافة كعادتها لا تكفّ عن ملاعبته والغناء له. تشكّلت رغوة من المدقوق هشّ لها الصّبيّ وحاول أن يمسك بفقاعاتها، وحذافة تدعك ظهره وتتحاشى هذا الشّيء بين كتفيه.

- أخشى يا أمّي أن أؤذي اللّحمة النّاشزة بين كتفيه.

- إنّها لا تؤلمه، منذ جلبته من عند آمنة وهذه اللّحمة الحمراء تكبر معه، كبيضة الحمامة وعليها شعيرات سود متراكبات كأنّها من عَرْف فرس.

- أرى أنّها لا تؤلمك يا محمّد عندما أدعكها... لو تهت منّا فسنتعرّف عليك بهذه الشّامة.

هذا أخٌ لي لم تلدهُ أمّي

وليس من نسل أبي وعمّي

فديته من مخول معمّي

فأنمِهِ اللّهم فيما تنمي

ملأ غناؤها الدّافئ المكان، هذه عادتها منذ أن كانت صغيرة، وهي تنيّم طفلا أو تحمّمه أو حتّى ترتّب، فلا تصمت حتّى يتناقص صوتها وتنام بقربه، فيحملها الحارث إلى فراشها، ولمحمّد كلّ هذا الكلام الجميل.

التفتت إليها حليمة وعلى وجهها نصف ابتسامة، وإلى صوت أنيسة وهي تردّد غناء أختها، ناعم بين يديها كعجينة طريّة دافئة حتّى أنّها تشعر في كلّ لحظة أنّه سينزلق منها، وفي يدها المشط تسرّح به شعره

الأسود الكثيف، وتتيه في وجهه المشرب بحمرة، وقد زاده الاستحمام نضارة:

- إنّه يشبّ يا أمّي شبابا لا يشبّه الغلمان! ما أشدّ ما كبرت يا محمّد!

دعكت شعره ثمّ صدره وظهره وجزءه السّفليّ بدلو ماء واحد، ثمّ جفّفته، وما إن ألبسته ثيابه وهدهدته بصوتها الدّافئ حتى نام، ولكنّها اللّيلة كأنّما ذُرّيَ في عينيها الملح.

- بأبي وأمّي يا محمّد ما أهدأك!

اقتربت منها حليمة، عيناها تزدادان بريقا حتّى توشكان على البكاء.

- لا أطيق أن ترحلي به إلى أمّه.

صاحت في وجهها وهي تضع البساط بشيء من الشدّة اصطنعتها وهي تحاول أن تخفي ما بنفسها هي الأخرى:

- ما بك يا حذافة، هذا ولد عبد المطلب، وليس ولدنا، وليس أوّل رضيع نعيده لأهله.

انفرطت دموع الفتاة وهي تحت الغطاء بعد أن آوت إلى فراشها، فتركت لها العنان حيث لا يراها والداها، وأدركت أنّ هذا الشّعور يخصّها وحدها ولا يعني شيئا لأحد. لم يحبّ محمّدا أحد مثلي، سأنقطع عن مساعدتها، فلا داعي لأن تعتمد عليّ بعد الآن... لقد غطّت أخيرا في النّوم، اسحب يا حارث عن وجهها الغطاء، وجهها محمرّ.

الشّيماء ممتازة في أشغال البيت وتربية الرّضعاء، ممتازة في تعويضها عندما تغيب وتخرج إلى مكّة ليلة أو ليلتين، امرأة حقيقيّة

ابنتي كما يناديها والدها، ولكنّها هشّة كغيمة، تشبهُ أمّها، فغالبا ما يتشرّب البكر من الأولاد سمات الآباء والأمّهات.

سوّت حليمة عن وجهها الغطاء ولم تطمئن حتّى قبّلتها على جبينها، ثمّ جلست بعد أن اطمأنّت إلى نوم الجميع عند رأس الصبيّ القرشيّ في وقت متأخّر من اللّيل، وكفّها على خدّها وهي تحدّثه:

- ها قد فطمتك يا محمّد، وها أنت تنام شبعانا وبيدك الكِسرة، ولا تحتاجني.

بكت حليمة وشعرت أنّ صغيرها مفارقها لا محالة.

- بدأ فراقك منذ ثلاث ليال لم ألقمك فيها ثديي، لا أطيق فراقك عنّي واعتدتُ التصاقك بصدري حتّى تنام وأنام وتبقى اللّيل كلّه بجانبي.

أتراني أقدر على فراقك؟

- حليمة أتحدّثين نفسك؟ لقد أفقدك حبّ محمّد صوابك وتلومين الشّيماء...

اتركي الصّبيّ ينام ولا تنوحي عند رأسه!

- أنت لا تشعر بما أشعر به يا حارث! حذافة معها حقّ، هي الوحيدة التي تشعر بي. أشعر كأنّه قطعة منّي، ألأنّي لم أجد معه ما وجدتُ من الرّضع من تعب، أمّا بركته فأنت تعلمها، لا أدري ما كان سيحلّ بنا لولاه في تلك السّنة المجدبة!

- كيف لا أشعر، وكلّ من يرى محمّدا لا يملك إلاّ أن يحبّه، حتّى أطفالنا اعتادوا عليه وكان مباركا علينا، ألا ترين الشّيماء كيف لا تَطعَم حتى تُطعمه، أخشى عليها عند إرجاعه لأمّه.

- قالت إن أعدته فإنّها لن تعينني على الرّضع مرّة أخرى لشدّة تعلّقها به، وكأنّ الأمر بيدي.
- قلت لكِ لا تدعيها تتعلّق به ولا بأحد من الرّضعاء، لا تزال غضّة العود.... ستتأذّى.
- لكنّ محمّدا غير بقيّة الرّضعاء، إنّه يدخل القلوب دون استئذان.
صمتت قليلا ثم عادت إلى كلامها السّابق:
- مضت السّنتان وها قد فطمته يا حارث وحان أوان إعادته لأمّه، ما تراني أفعل من بعده؟
- أيّ بركة حلّت بنا منذ حلّ في بني سعد، مختلف ليس كالرّضعاء الذين أحضرناهم من قبل، في وجهه شيء.
- لو علمت السعديّات بركته لما زهدن فيه ذلك اليوم في مكّة في سوق المراضع، أتذكر يا حارث، حتّى نحن لم نرده. مرّت السّنتان سريعا ووجه آمنة بين ناظريّ، حزين حينما رفضنه وهنّ يتعللن بيتمه ويردّدن لا لا هذا الطفل يتيم، هو الآن بعد مرور السّنتين مثل أبنائي وأكثر، كيف نما بين يديّ، خطواته الأولى وكلماته... لم تره أمّه مثلما رأيته، وفي كلّ مرّة أشدّ الرّحال لمكّة أدعو اللاّت أن تعيده إليّ، هي الآن فرحة سعيدة تنتظر عودته وأنا يكاد قلبي ينفطر.
- نامي يا حليمة، وغدا يكون ما أرادته الآلهة...

-6-

كأنّ شيئا ما ذا خطب يحدث، أو يعتمل في الأفق، وينتظر المكيّين وكلّ من يدخل الوادي المقدّس، حتّى زوّار البيت ليسوا سوى نفر يدخلون، يطوفون به ويدعون الآلهة لعلّها ترضى فتدفع عنهم الأذى، ثمّ لا يطيلون المكوث في هذا البلد، يكاد البيت العتيق أن يكون خاليا.

- لم أره هكذا من قبل يا حارث.

- إنّه خطب ألمّ بمكّة.

- كأنّي بها على غير حالها، وجوه مصفرّة وحركة غير عاديّة، بل سكون غير عاديّ، أين هي أسواق القماش والأدم والجواري الحسان؟ أعتدتُ أن أملأ عينيّ وخاطري بها كلّما مررنا من هنا وإن لم أشتر شيئا.

- فعلا لا شيء من ذلك، كأنّ شيئا أصاب مكّة، أين بهجتها؟!

- انظري يا حليمة إنّهم يعشّرون!

- يعشّرون؟!

- تعشير الحمار، ألا ترين تلك الجماعة من التّجار الذين يبدون غرباء على مكّة كيف ينهقون عشرا في طلق واحد!

إنّه الوباء يا حليمة، تذكّرت... سمعت في سوق الطّائف العائدين من مكّة البارحة يتحدّثون عنه ولم أتبيّن صحّة الخبر.

- أخشى على ابني، ليس هذا عهدنا بمكّة تبدو كأنّها خالية من أهلها، لنسرع ونعيد للسيّدة آمنة ولدها قبل أن يصيبه مكروه.

في فناء الدّار جلست آمنة على الحصير تنسج لصبيّها الغائب خميصة سوداء تُعلّمها ببعض الوشي الأخضر على شكل نخيل في استقامة واحدة، تكاد تتمّها ليأخذها معه في زيارته القادمة حتّى تقيه برد البادية، فحتما سيلحق بأولاد حليمة إلى المرعى، هذه اللّمسات الأخيرة تعمل فيها جهدها حتّى تبدو جميلة وأنيقة تليق بابن سيّد قريش. سأتمّها اللّيلة، اشتري لي يا بركة بعض عيدان القرنقل.

- يقترب موعد إحضار محمّد يا مولاتي.

- بل اليوم من كلّ سنة موعده حسب ما اتفقنا عليه. اثنتا عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل، اليوم ولد منذ سنتين قبل طلوع الفجر.

- أذكر يا سيّدتي، خمسون يوما من حادثة فِيَلة أبرهة.

- أتذكرين نور تلك اللّيلة يا بركة؟

- كيف لا أذكرها يا سيّدتي، وهل تُنسى ليلة مثلها.

- كم أشتاق إليه يا بركة أعدّ الأيّام واللّيالي، أراه كلّ ليلة في الحلم. أراه في صورة الهاتف الذي كان يجيئني أثناء حملي به، إنّك حملت بسيّد هذه الأمّة، يرنّ في أذني كلامه وأستعذبه:

سيّد هذه الأمّة... سيّد هذه الأمّة. يرفعني هذا الكلام إلى السّماء.

أراه فيما يراه الرّائي سيّدا يجتمع حوله النّاس من كلّ حدب وصوب يسألونه حوائجهم.

وكلّما حلُمت به وجدتني أبكي، وأتذكّر عبد الله، فأفرّ إلى صندوق الثّياب آنس به، أخرج جرابه الذي أخذه معه في آخر سفر له، وأخرج

منديلي الذي كان بين يديه وهداياه لي وسقاءه وسيفه الذي لا زلت أحتفظ به لمحمّد عندما يكبر...

فجأة سكتت آمنة وبركة وأنصتتا:

- هذا قرع على الباب يا سيّدتي، من تراه يأتينا في مثل هذه السّاعة، أتراه سيّدي شيبة، لكنّ موعده عصرا؟

- هذا قرع حليمة أعرفه مرّة كلّ سنة يدقّ له قلبي.

- سأفتح الباب يا سيّدتي.

- لا يا بركة أنا أنتظر هذه اللّحظة منذ حول كامل، أريد أن أكون أوّل من يراه ويحضنه.

أسرعت لتفتح وقد انتابها شعور جميل يرمّم انكساراتها القديمة، وما إن رأت محمّدا حتّى فتحت يديها إليه وانتظرت أن يرتمي في حضنها، ولكنّ الصبيّ تشبّث بأمّه حليمة، ولم يرد أن يفارقها وبكى. بكت آمنة إنكار طفلها لها من طول غيابه عنها، وأدخلتهما وهي تمسح دمعها.

- ما بك يا سيّدتي؟ قالت بركة

- فرحتي بعودة محمّد...

- كأنّما كبر أكثر من أقرانه يا سيّدتي، لا أرى ولد هالة وهو في مثل سنّه حسن مثلما حسنتَ، ولا قوي جسده كما قويت. أيّ بركةٍ في حليبك يا حليمة؟!

ستنام اللّيلة في حضني وسأطعمك بيديّ.

انفلت الصّبيّ من يد بركة أيضا، وبكى وزاد تشبّثه بأمّه حليمة.

- أرأيت يا بركة؟ محمّد لا يعرفني ولا يعرفك، ويفضّل حليمة.

بكت آمنة وبكت معها بركة... لن أتركه يذهب مرّة أخرى مع السّعديّة، كلّها أيام وسينساها، ولا يعرف أمّا غيري.

- لم يكن هذا قرارك يا سيّدتي، ألا ترينه كيف نما وقوي، وهل من الرّضع من لم يكبر ويعرف أمّه؟

من حسن حظّك يا محمّد أنّ بركة طبخت لنا اليوم اللّحم المقدّد، الوصفة التي أحب، ويحبّها والدك، وصفة القرشيين الثّريد باللّحم المقدّد.

- أخشى أن ينساني يا بركة؟ ولا يذكر وحدتي وحملي له وفجيعتي في والده وصبري على غيابه؟

في اليوم الموالي أخذ الصّبيّ يعتاد تدريجيّا على المرأتين، وصار يأكل من يديهما ويذهب إليهما إذا ما نادياه. قالت له حليمة:

- أنا فقط مرضعتك يا محمّد وهذه أمّك التي حملتك في بطنها.

- له عذره يا حليمة، فلم يرني إلاّ مرّة أو مرّتين، ولا يزال صغيرا، فأنت أمّه التي يستيقظ على وجهها وصوتها كلّ يوم، تطعمينه وتلبّسينه.

امتلأت عينا آمنة بالدّموع. لك أُمّان يا محمّد. وضعاه في وسطهما وراحت آمنة تمسح دمعها وتروي له قصصا عن أبيه وجدّه.

بعد انقضاء ليالي زيارة حليمة همّت بالمغادرة بعد أن ودّعت الصّبيّ وتركته نائما، وعند الباب أعطتها آمنة الأجرة وبعض الثّياب والزّاد وبعض الهدايا للأولاد وتركتها تغادر، ولم تكد تطأ العتبة حتّى نادتها آمنة كاسفة باكية:

- انتظري حتّى تأخذي محمّدا معك... أخشى أن يصيبه وباء مكّة.
- أحقّا يا سيّدتي...
- قلت لك ارجعي بابني فإنّي أخاف عليه الوباء، ولولا ذلك لما تركتك تأخذينه، هاك هذه الخميصة أنهيتها هذا الصّباح، كلّما قلت أنهيتها وجدتني أضيف لها بعض التّفاصيل الدّقيقة التي تجعلها أجمل بعد أن يلبسها ابني. اذكري لولدي أنّ أمّه نسجتها له خصّيصا وهذا السِخاب، صنعته لأجله. رائحة القرنفل تحميه من المنامات المزعجة ومن هوام الأرض.
قبّلت حليمة يدها شاكرة وهي لا تتوقّف عن البكاء فرحا، ثمّ أسرعت إلى الدّاخل قبل أن تغيّر رأيها لتحمل الصّبيّ الذي كان يغطّ في نوم دافئ، ولا يدري شيئا ممّا يدور بين الأُمَّين.
محمّدٌ...
كم تغيّر منذ أعطيته لحليمة في لفافة الصّوف، كم حلا وطال، واشتدّ عوده!
وجهٌ دافئ تزيّنه حمرة، وجه أبيه ماثل في قسماته، ونظراتِ عينيه التي لم أشبع منهما يا بركة...
لا أطيق الوداع في عينيه، يذكّراني بعيني عبد الله في آخر مرّة قبل رحلة الشّام، ذاك الفجر.
آهٍ يا عُمري، كم صرتَ تشبهه، طلعته ونظرة عينيه، وسيم قريش الذي قُبر في عزّ شبابه، غريب الدّيّار.
لا أطيق الوداع في عينيه يا بركة، لا أطيقه...

-7-

أسرع ركب السّعديين بالخروج من مكّة وهم يخشون الوباء هاربين بأنفسهم وما يحملونه من رضّع وأطفال المكّيين. وانطلقوا يحثّون سير دوابهم، ولم يطمئنوا حتّى لم تعد تظهر لهم من البلدة الموبوءة سوى أعالي الجبال الجرداء. ولمّا دخلوا الطّائف عرّجوا على بيت اللاّت يتمسّحون بها لينالوا بركتها، ويشكرونها على السّلامة من فتك الوباء، ثمّ دخلوا هوازن ولقيتهم البادية بجمالها الهادئ.
هتف الحارث ومن كان معه في الرّكب:
- يا لصحّة هواء بادية بني سعد!

خرجت حذافة على غير عادتها هذا المساء لتبقى مع إخوتها عند الغنم، وكلّ حواسها على الطّريق القادم من مكّة، وعندما ظهر الرّكب تبيّن لها أنّ السّمراء وسدرة يتقدّمانه وحجر حليمة فارغ. طأطأت حذافة رأسها وحملت أخاها عبد الله، وهمّت بالانصراف إلى الدّار، وهي تتوعّد:
- لن أتعلّق بأحد بعد اليوم، فلتبحثي عمّن يُورّك الرّضعاء عنك.
ألقت بجسدها جلوسا على الأرض أمام الخيمة وهي لاتزال في حالتها تلك.

مشى الحارث على أطراف أصابعه وهو يحمل محمّدا الذي كان يخفيه عند جار لهم، فوجدها مديرة ظهرها عن الرّكب وهي تبرم وتزفر وتبرطم وفي يدها عود صغير ترسم به خطوطا عشوائيّة على

التراب. وضعه بعيدا عنها وتركه يمشي إليها، فركت عينيها وأمسكت برأسها:

- أهذا محمّد أم حلم جميل؟

- هذا أخونا القرشيّ يا شيماء.

ألقت العود ونهضت من الأرض وجرت نحوه حتّى تعثّرت من فرط فرحها، عانقته وأجلسته في حجرها، ثم التفتت إلى والديها تسألهما:

- كيف سمحت لكما السّيّدة آمنة بإرجاعه؟ كأنّما استجابت لي الآلهة.

- إنّه الوباء الذي يضرب بمكّة.

- هذا من حسن حظّنا.

أكيد أنّك جائع... أنا لم أذق طعاما منذ الصّباح وأنا أنتظر موعد الرّكب الذي تقدم فيه، تعال لنأكل شيئا.

- شيماء

- ما أحلاها من فمك يا محمّد! ظننت أنّي لن أسمعها مرّة أخرى.

راح الحارث وحليمة وحذيفة أكبر أولادهما البكر يتحدّثان عمّا أصاب مكّة:

- سمعنا من العابرين الذين لقيناهم عند مدخل الطّائف أنّ الكثير من أهلهم دخلوا الواد المقدّس ولم يعودوا إلاّ من عشّر كالحمار، كأنّه يلبّس على الوباء الذي لا يفتك إلاّ بالآدميين.

- لم أر المقابر ملآى مثلما رأيت اليوم.

بات محمّد في حضن الشّيماء، وملتصقا بظهرها رقد عبد الله تقصّ لهما حكايات علّمتها إيّاها حليمة وأخرى نسجها عقلها الصّغير وحبّها لهذا الصّبيّ وأمومتها المبكّرة. ناما أخيرا، عليّ أن لا أسرف في حبّي له، فإنّه عائد لأهله لا محالة، وإن لم يعد بعد الفطام فالأمر لن يطول، فما إن ينقضي الوباء حتّى تبعث من يأخذه.

نامت الشّيماء وهي تقنع نفسها بأن تقتصد في حبّ محمّد، وفي الصّباح عزمت بعد الانتهاء من أعباء البيت على أن تخرج به للّعب لتريه شيئا جميلا رأته البارحة عند الشّياه.

- سأُخرج أخويّ اليوم يا أمّي للّعب خلف الدّار مع الصّبية، اسمحي لي.

- لا تتركيهما يغيبان عن ناظريك.

- لا تخشي عليهما، هما في عينيّ.

- انتبهي إلى أخيك القرشيّ.

- انتظر يا محمّد سأقلّدك هذا السّخاب من القرنفل، صنعته لك أمّك آمنة خصّيصا في آخر زيارة لها، وهذه الخميصة انظر، المشجّرة بالأخضر أخفيها لك لأيّام الشّتاء. شتاء البادية قارس.

- إنّها جميلة يا أمّي، كم أحبّ أن تكون لي واحدة.

- سأنسج لك واحدة في مقبل الأيّام.

جمعت الشّيماء إليها عبد الله ومحمّد ونادت أنيسة وطلبت منها أن تساعدها في الاعتناء بهما، وراحوا يحملون من خلف الدّار عصيّا وبعض سعف النّخيل ليفرشوها ويتخذونها مكانس وأدوات للّعب.

يا ربّ أبق أخي محمّدا

حتى أراه يافعا وأمردا

ثمّ أراه سيّدا مسوّدا

واكْبتْ أعاديه معا والحُسّدا

وأعطه عزّا يدوم أبدا

غنّت الشّيماء بصوتها البدويّ الدّافئ، وهي تطعمه تمرا، وعبد الله وأنيسة يردّدان وفي أيديهما حصى يصنعان به بيوتا وغنما ويفرشان سعف النّخيل الذي أحضراه.

وأعطه عزّا يدوم أبدا

يا ربّ أبق أخي محمّدا

حتى أراه يافعا وأمردا

ولدتْ شاة حذيفة بهمةً، كم هي صغيرة وضعيفة ترضعها أمّها. تعال يا محمّد لأريك شيئا.... أرأيت قوائمها الهزيلة ونظرة عينيها... لذا لم تخرج معه للمرعى. اقتربَ منها ومسح على ظهرها وفرحته غامرة، لم يشعروا بالوقت حتّى انتصف النّهار وسمعوا نداء حليمة للغداء، يرقبونها كيف تتدرّب على المشي، وكيف ترضع من أمّها، كانت مدهشة.

عاد الحارث من أحساء بني سعد وقد ملأ سقاءه بماء بارد من واد مليء بالرّمال إذا ارتوت شتاء من السّيول لم ينقطع ماؤها في القيظ حيث يمنع الرمل عنه حرّ الشّمس فلا يجفّ. حفر عنه إلى أن نبع باردا عذبا، شرب حتّى ارتوى وبلّل وجهه وجلبه لأهله.

وفي صباح من صباحات بادية بني سعد النقيّة الهواء، الجميلة بهدوئها ورتابتها، خرج محمّد بعد أن غادر إخوته بالشّياه في الصّباح الباكر كعادتهم إلى المرعى وابتعد عن الدّيار دون أن يخبر أحدا.

- هذا محمّد هناك، أراه يبتعد.

لحسن الحظّ رأته حذافة يتبع إخوته بعد أن خرجوا بالقطيع، تبعته ولمّا رأته قد تعب حملته وتجاوزت ديار بني سعد حتّى اقتربت من أخيها حذيفة ومحمّد يرى الشّياه ويفرح لمرآها. ها هي البهمة التي وُلدت حديثا تلعب مع صويحباتها، تنطّ وتقفز كظبية في البريّة.

- أتراها هي من حملتك على الخروج وأغرتك دون أن تخبرني.

هزّ رأسه وابتسم وهو منشغل باللّعب، حملته وهو ينظر إليها وإلى إخوته اللاّعبين حتّى نام في حجرها وهي تغنّي له كما اعتادت كلّما هدهدته:

هذا أخٌ لي لم تلدهُ أمّي

وليس من نسل أبي وعمّي

فأنمِهِ اللّهم فيما تُنمي

ردّدت حتّى أغمض عينيه، فغطّته برداء رقيق كان على رأسها. الشّيماء تغنّي بصوت ترقص له البريّة، بشجرها وطيرها وبهائمها وواديها، حتّى الشّوحطة الكبيرة المعمّرة في أعلى التلّة، وهي تشهد أيّامهم صباحهم ومساءهم برتابتها وعفويتها، وبعد أن نام بين يديها أطرقت تنظر إليه. أحبّت وجهه الوضيء، وعينيه الدّعجاوين اللّتين

في بياضهما شكلة محبّبة، وأهدابه الطّويلة السّاحرة، وحاجبيه المقرونين.

- كيف تبتعدين من غير أن تخبريني؟

فاجأتها حليمة، وهي تغيب في ملامحه، تقف كتلة ضخمة قبالتها، تسدّ الأفق. هلعتْ وهي تصيح غاضبة في وجهها:

- قلتِ إنّك خلف الدّار، لم أجدك لا أنت ولا محمّد ولا حذافة ولا حتّى أنيسة، كاد قلبي يتوقّف من شدّة القلق والخوف، لولا أنّك تحملين هذا الصّبيّ لأوسعتك ضربا.

- سامحيني يا أمّي لن أعيدها ثانية، رأيت محمّدا يتبع إخوتي إلى المرعى فجِئتُ به، هذا كلّ ما في الأمر.

- وتتركيني أبحث عنكما كالمجنونة، لم أترك دارا من بني سعد إلاّ وسألت فيها عنكما، حتى لم تعد رُكبي تحملني. ما عساي أقول لآمنة ولعبد المطّلب.... حتّى أخبرني صبيّ بأنّه رآك خلف محمّد تتّجهين إلى المرعى، لولا أنّه في حجرك الآن لرأيتِ ما سأفعله بك. حسابي معك عندما نعود إلى البيت.

ثمّ أهكذا تنيّمين أخاك في حرّ الشّمس؟

- لا يا أمّاه فوالله ما كان في الشّمس، وإنّما كانت سحابة تظلّله.

- سحابة؟!

- كلّما تحرّكتُ تحرّكت معي، فلم يصبنا حرّ.

- أحقّا ما تقولين؟!

- وحقّ الآلهة يا أمّاه؟

- نعم، إنّه مبارك كما قالت أمّه آمنة.

- ناوليني إيّاه لنعود إلى الدّيار.

عادوا تحت لهيب شمس هوازن، ومحمّد بين يديها مغطّى بالرّداء الرّقيق ومظلّلا من السّماء إلى أن وصلوا إلى البيت، ولمّا عاد الحارث من جلب الحطب والرّوث اليابس حكت له عن الغمامة.

- ألم أقل لك يا حليمة إنّا أخذنا نسمة مباركة، سأعلّق السّقاء في وتد الخيمة وأضع الحطب ثمّ نتحدّث، صُبّي لي شيئا آكله منذ الصّباح لم أذق الطّعام.

- ستوقظهم...

- هل نام الجميع؟

- أجل، كلّهم، تعال وانظر ما أجمل أبنائي وهم نيام ومعهم الصّبيّ القرشيّ، يبدو واحدا منهم، أترى حبّهم له... يمسك عبد الله بيده حتّى وهو نائم؟!

- ما كلّ هذه الطّاقة للحديث في مثل هذا الوقت؟! قلت لك صُبّي لي شيئا لآكل، أتضوّر جوعا....

- حاضر أنا قادمة...

- حبّهم هم فقط، وحبّكِ أنت أيضا، ألا تنتبهين لذلك يا حليمة كأنّما هو ابن بطنك، بل كثيرا ما خشيت غيرة أطفالنا منه.

- وهل يملك أحد إلاّ أن يحبّ محمّدا، بل مَلَكَ حبّ بني سعد كلّهم رغم صغر سنّه.

- مرّت السّنوات بسرعة، ها هو يتمّ عامه الرّابع.

غطِّ عبد الله أمامك، لشدّ ما يتقلّب في نومه هذا الفتى، مثلما يفعل مع أقرانه في النّهار ويطارد الحملان يفعل الآن!! وأطفِئ السّراج، فكم تعبت حتّى ناموا جميعا.

***

في المساء خرجت حليمة مذعورة، هذا صوت الشّيماء!

- آه محمّد... ماذا فعلْتَ بي؟!

خشيت عليه أن يكون قد أصابه مكروه، حملت ردائي وخرجت فوجدتها جاثية ومحمّد يسكتها ويربت على كتفها ويحنو عليها. زفرتُ، إنّها الشّيماء، وليس محمّدا، لم يتصوّر أنّه سيؤلمها كلّ هذا القدر، ثمّ انفرط باكيّا، وأفلت ما يحبسه من الدّموع كأنّه غيث انهمر، وهي تحكّ بين كتفيها وتتألّم.

- ما بك يا شيماء؟ أرني ما بين كتفيك.

ما هذه العضّة في ظهرك؟ من فعل بك هذا؟

- أخي القرشيّ، استندت عليه وأنا أورّكه حين أردت الجلوس من فرط تعبي فعضّني، لعلّي أوجعته فأنقذ نفسه بأسنانه.

سكتتْ قليلا ثمّ نظرت إليّ مستنكرة:

- ألن تعاقبيه يا أمّي؟

- بلى سأفعل يا شيماء، ألا ترينه وهو يبكي أيضا، لا أدري من عضّ الآخر. يبدو وكأنّه يتألّم أيضا.

تنفّست حليمة الصّعداء فقد كانت تخشى عليه، أمّا العضّة فأمرها هيّن، ستشفين منها يا ابنتي ويزول ألمها وإن كانت غائرة في ظهرك، ستحتاج سنوات لتمحى، هذا إن مُحيت، وزال أثرها، هي ذكرى من أخيك المكيّ، أعتقد أنّها ستلازمك طيلة حياتك.

تعال يا بنيّ، وضعته في حجرها بعد أن مسحت دمعه، لا تخف ستسامحك الشّيماء.

يا ربّ إذْ أعطيته فأبقه

وأعله إلى العلا وأرقه

وادحض أباطيل العدى بحقّه

لقد نام يا شيماء على وقع غنائي وهدهدتي، لا تغضبي من أخيك يا ابنتي...

-8-

ديّار السّعديين تنام وتصحو على صوت صبيانها وضحكاتهم وهم يتراشقون بكلّ ما يقع بين أيديهم، ويتبارزون بالعصيّ التي قُدّت من الشّوحطة الكبيرة التي بُعثت بعد أن زالت سنة الجدب، وغسلَ المطر بكاء الأطفال وتحسّر النّسوة من قلّة الزّاد والهزال وتشقّقَ الوجوه والشّفاه، واعتلت الوجوهَ حمرة وامتلاء أعادها إلى حالها.

- أنواع شتّى من الأدم، أرأيت يا حارث بركة هذه السنة السِّبْت، والمنجوب، والماروط والمسلوم والمُعرتن... ساعديني يا شيماء لنبسطها تحت الشّمس وكلّها أيّام وستجفّ وتصير جاهزة، ننتقي أجودها لتحملها أكتاف الإبل إلى أسواق الشّام وأسواق غزّة. لو تعلمون يا أولاد فرحة بني سعد بموسم الدّباغة، تزدان الدّيار بصوت رجالها ونسائها، ويُحضّر لها بأشهر، نجمع للدّبغ لحاء الشّجر وورق السَّلَم والقرَظ والعَرتن.

أمّا الصّيف فللاشتغال بقطف العنب لصنع الخمور، أو يترك ليجفّ لبيعه زبيبا، بساتين الكروم في الطّائف على مرمى البصر، كلّها تصير كخليّة نحل، يُقبِل على زبيبها الكثير من المكّيين وسقاة الحجيج ليُعدّوا المنقوع، ويُنقل قسط منه إلى أسواق بصرى.

يصبر أهل هوازن والطّائف على هذه المشاق ويكلّفون حتّى أطفالهم ببعض الأعباء حتّى يكفلوا نصيبا من المال يأتي لهم بما يكفي من الحنطة أو الشّعير والسّكر والزّيت لتمرّ سنتهم على ما يرام.

- يكفي يا أبنائي هذا اليوم لنرتاح، كان يوما شاقّا عليكم.

شعاب هوازن نضرة بماء المطر، تروي البهائم وتفرح الرّعاة الذين تعلو أصواتهم في ذهابهم وإيّابهم، وصغار الشّياه تنطّ وترغو عند المرعى، حتّى الشّارف والأتان عادتا إلى الامتلاء والاكتناز بعد الهزال واللّحم الذي فقدتاه في السّنة المجدبة، ألا ترى ذلك يا حارث؟ كيف لا أراه، إنّه بادٍ للعين ولا يحتاج إلى تخمين.

غنيمات حليمة شبعى بطونها من طيّب الآراك، وقد كثرت هذه السّنة وتوالدت، والحارث في أتمّ سعادته بها. ولدت كلّ شاة بهمة حتّى عاد لهم بهمات كُثُر. نزل من على السّمراء، وحمل بين ذراعيه ما جمعه من روث يابس ووضعه خلف الدّار حيث معاقل البهائم. لو ترين يا حليمة في المراعي البعيدة كم انبسطت مراعي الرّمث، وازدانت القطعان بالصّغار، ألا ترين أنّه يجب أن نفصلها إلى قطيعين؟ قطيع للبهم من الماشية ترعى خلف الدّيار، وقطيع أذهب به بعيدا بحثا عن الكلأ ليتنوّع رعيه ويجود لحمه ولبنه. معك حقّ، أنت أدرى بما يصلح لغنمنا، افعل ما تراه مناسبا، ساعدني في حمل قربة اللّبن فالخير كثير.

احمرّت الأرض بالنّوّار والزّهر والشّقائق... وزقزقت الطّيور... وجدت القبرّة الجوّ فسيحا وملوّنا فأطلقت العنان لصوتها الحادّ فسكن المدى، وامتلأت الشّعاب ماء تُذهب عن الأنفس كبسة القحط واليبس، أيّ سعادة يبعثها اللّون الأخضر، ومنظر الماء الصّافي؟!

أنصتت لصوتها حليمة كعادتها وهي تدندن مساءات الرّبيع أمام الخيمة وتخضّ قربة اللّبن، وتنعم برائحة العفار المحترق التي تنتشر

طيّبة في الهواء، أمّا محمّد فجلس إليها يلعب ببعض الحصيات في حجره، وإخوته لم يعودوا بعد من المرعى وما إن رأت حركته قلّت حتّى قرّبته من حجرها، فوضع رأسه على ركبتها ولم تكمل حكايتها له حتّى نام. يا قلب أمّك! خرجت الشّيماء فابتسمت وحملته إلى مرقده. يحبّ أن تدلّله أميّ وأن أحمله بنفسي.

***

يعشق المغيب في عيون بادية بني سعد، هواؤها العليل وحرارتها أكسبت وجهه حمرة، وفصاحةُ لسان السّعديّين انطلاقا في الحديث رغم أنّه مازال صبيّا، كأنّما عروقه متوغّلة فيها، كالشّوحطة الكبيرة التي بعمر ابننا البكر في أعلى التلّة، تحرس الوادي وتباركه.

رأيته اليوم خلف الدّار وحيدا يراقب الصّبية، ينظر إلى الطّير وبساتين الكروم ومنظر الأدم مدبوغا ومبسوطا، ويشخص ببصره إلى السّماء ينتظر الغروب في هذه البادية التي فتح عينيه عليها كأنّما هي موطنه الأوّل ومسقط رأسه ولا يعرف غيرها.

انظر يا حارث... هو الآن مع عبد الله يطمئنّان على صحّة الشارف. تشرّب هدوءها كأنّما انشقّت هذه الأرض وخرج منها، وحقّ اللاّت كأنّما خرج من البادية، هدوؤها وطيبتها يلبسه كأنّه سعديّ أبًا عن جدّ لا مكيّ.

أعارته البادية بامتدادها لونها وصبرها ومزاجها الهادئ، علّمته أن يحبّ إخوته ويشتاق إليهم كلّما خرجوا إلى المرعى، ويلهو مع البهم ويجاريها في قفزها ولعبها وشقاوتها.

- أتراه يقدر على جوّ مكّة عندما نعيده إلى أمّه.

- دعينا ننام يا حليمة، ليس أوّل الرّضعاء الذين تركوا مكّة ثمّ عادوا إليها ونسونا، فلم تصعّبين الأمر عليك... وعليّ.

- لا أتصوّر أنّ محمّدا ينساني، بكتْ، بعد أن رضع منّي، إنّه كابني تماما، كعبد الله. اشتدّ بكاؤها.

- قولي إنّك تخشين أن لا تقدري أنتِ على غيابه، لا هو من لا يستطيع التعوّد على هواء مكّة حين يرجع، دعيني أنام فأنا منهك بعد تعب النّهار.

- ليس قبل أن تُدخل الوَلديْن...

كانا يمسّدان على ظهر الشّارف، أعطاها نواةً ممّا كانا يأكلان من التّمر فانحنت برأسها عليهما رغم صوتها الذي كان يشبه أنين طفل، ثمّ انضمت إليهما الأتان، تمسّحت بظهر الشّارف ورقبتها، فناول عبد الله نواته للأتان أيضا، وأخذتا تجرشانهما مدّة ثمّ بلعتاها والطفلان يرقبان ملامحهما.

- أنتما هنا وأنا أبحث عنكما؟!عودا إلى فراشكما فالوقت قد تأخّر.

عاد الحارث إلى فراشه وعيناه شبه مغلقتين من شدّة النّعاس، ثمّ دنا من حليمة وهمس لها:

- بدا لي محمّد على غير عادته حزينا هذه اللّيلة، كأنّما في نفسه شيء يضمره، حاولي أن تفهمي منه غدا بطريقتك، فأنت أمّه لن تعدمي الوسيلة.

- الصّباح رباح....

جلس الصّبيّ القرشيّ منذ ساعات الصّباح الأولى وحيدا يضمّ ركبتيه إلى صدره، ويقفل على عالمه بجبينه، ولمّا يستفيق منه أو يشعر بالملل يرفع رأسه، ويطيل النّظر إلى الأفق البعيد.

- إلى ما تنظر يا محمّد؟ أوقفت حليمة القربة التي تروح وتجيئ وتأمّلته.

- إلى المراعي، حيث خرج إخوتي.

-... ما بك؟!

-...

- أرى في عينيك شيئا، وفي فمك كلاما تريد أن تقوله لأمّك، أعرفك، قل ولا تخشى شيئا.

أدنته منها ومسّدت على رأسه بعد أن وضعته في حجرها.

- أشتاق إلى إخوتي، وأحبّ لو أخرج معهم.

- لكنّي أخشى عليك.

-...

عانقته بشدّة ورسمت قبلة على جبينه، صمت ولم يقل شيئا ولمّا غادرت عاد إلى شروده.

وفي اليوم الموالي دنت منه، وقبّلته كعادتها كلّما استيقظ أو خرج وغاب عنها ولو لبرهة، ثمّ سألته عن وجومه مرّة أخرى:

- أشعر بالوحدة يا أمّي وأشتاق لإخوتي وهم غائبون عن الدّار طيلة النّهار.

سكت ثمّ أردف في رجاء يملأ عينيه ونبرات صوته:

- هلاّ سمحت لي يا أمّي بالخروج معهم إلى المرعى.

- عاهدتُ والدتك أن لا تغيب عن ناظري.

- أعدك يا أمّي أن لا أتركه يغيب عن عينيّ، تدخّل حذيفة

- اسكت أنت، من أين خرجت ؟!قلت لا، يعني لا.

حزن محمّد ولزم مرقده، ولمّا رأته لم يحدّث أحدا يوما كاملا جمعت أبناءها مساء اليوم الموالي ووطئت على قلبها.

- سأسمح لك بالذّهاب إلى المرعى على أن تحفظوا أخاكم جميعا. تعدني يا حذيفة، وأنت أيضا يا أُنيسة؟

- وأنا أيضا يا أمّي سأحرصه.

مرحى مرحى... سنكون معا في المرعى، ولن تبقى وحدك من الآن.

راح حتّى عبد الله يعِدُ أمّه، انتفض الصّبي فرحا، وقبّل والدته، وهو يجمع يديه الصّغيرتين على عنقها:

- شكرا يا أمّي، أعدك أن لا أغيب عن ناظرهم.

امتلأ البيت بالفرح وتعانقوا كلّهم يحضنون الصّبيّ القرشيّ بعد أن وافقت حليمة، يمنّون أنفسهم بقضاء أيّام جميلة معا قبل توديع الرّبيع، وراحوا يحضّرون ليوم حافل.

- خذوا معكم الزّاد قبل الخروج.

نزل الحارث عن ناقته الشّارف وعَقَلها... أرى محمّدا غائبا مع إخوته في المرعى.

- لو رأيت فرحتهم اليوم بمرافقته لهم، كأنّما حازوا حمر النّعم.

***

صار يعرف كلّ أفراد القطيع بعد أن نما وأنتجت كلّ شاة تقريبا بهمة رشيقة وناعمة، صار يعرفهم واحدا واحدا ومكانهم في الزريبة قرب أمّهاتهم، وهو بعيد عن أمّه التي أنجبته، أمّه آمنة التي لا يحمل في رأسه سوى صور قليلة عنها، وتملأ حليمة والشّيماء وعبد الله وحذيفة وأنيسة كلّ ذهنه، بل ليس له في حياته غيرهم. يرى الشّياه ليلا تلوك الكلأ الذي جمعته نهارا من المراعي، مذهلة وهي تمضغه، أتراها سماء مكّة مثل هذه السّماء؟ يشعر ببادية بني سعد تسري في عروقه، لكنّه يتساءل عن مكّة ويدرك أنّه ليس سعديّا عندما يناديه السّعديون من أهل البلد الصبيّ القرشيّ أو فتى مكّة أو ابن عبد المطّلب.

يصعد الجبال وينحدر منها في سرعة البرق، غلام جفر قويّ لا يهاب شيئا، يصعد إلى قمّة الجبل ويجلس على طرفه حتّى يخشى إخوته عليه وهو ينظر إلى الوادي وإلى السّماء وإلى ديار بني سعد وعليا هوازن حيث تجتمع القبائل الأربع سعد وجشُم ونصر وثقيف.

تحلّقوا حول جمر الغضا أمام الخيمة ليلا، وراح الحارث يذكر لحليمة كم أعدّ من الجلود المدبوغة التي يستطيع بيعها لقافلة الشّام.

- سأرحل بها غدا إلى سوق عكاظ، أبيعها وأشتري سكّرا وزيتا وحنطة من السّوق الأسبوعيّ، وأحضر الموسم الأخير لتباري الشّعراء من مختلف القبائل، أستمع إلى شيء من الشِّعر، ثمّ أقفل راجعا قبل الغروب.

- حظّا موفّقا في عكاظ، اعتن بنفسك.

غادر الحارث قاصدا السّوق، وأخرج حذيفة الشّياه إلى المرعى فشيّعته حليمة بنظراتها حتّى اختفى، ثمّ عادت إلى الخيمة لتتمّ أشغالها، وما هي إلاّ لحظات حتّى قدم إليها عبد الله مسرعا.

- الشّاة السّوداء تلد يا أمّي، تحتاج مساعدتك.

خلف الدّار شمّرت حليمة عن ساعديها، وسلّت الصّغير من أمّه، تخلّصها من وجعها وتسرّع راحتها، أطلّ برأسه المبتلّ وقائمتيه الأماميّتين اللّزجتين، والشّاة مستلقيّة على جانبها الأيمن، تنظر نظرة غريبة، فهمتها فقط حليمة، نظرة استعطاف إلى ربّتها. مسحت الشّيماء التي كانت مُساعدتَها الأولى تلك اللّزوجة عن وجهه وكافّة جسده، ثمّ حملته وراحت تنظر إلى عينيه وتُريه لمحمّد، مبتهجة بالضّيف الجديد الذي سيشرّف القطيع بعد فترة قصيرة ويصاحب إخوتها إلى المراعي عندما تشتدّ قوائمه.

- المسه، مدّ يدك

- ساخن وطريّ... وناعم

نظرت الشّاة الأمّ إلى الشّيماء نظرة وهَنٍ، ثمّ إلى صغيرها نظرة أموميّة كأنّما تريد أن تقرّبه منها حتّى تراه وتلعقه. راقباها بفضول وفرح كبيرين وهي تلعقه ثمّ ترضعه ثمّ وهو يميل برقبته على قائمتيها الخلفيّتين ويستريح.

بعد أن شهدا ولادة الصّغير خرج محمّد وعبد الله معا إلى التّلة، ووقفا إلى جانب الشّوحطة الكبيرة ليرقبا من هناك خيام بني سعد، ومنظر الوادي في الأسفل قبيل الغروب، مع احمرار الغسق، مكتظّا بقطعان الماشيّة من الماعز والغنم والإبل تتدافع لتشرب قبل أن يعودوا إلى معاقلهم حيث تبيت.

قال حذيفة لأخته أنيسة وهما أسفل الوادي يبصرانهما في أعلى التّلة:

- ألا ترين أمّي محقّة عندما تقول كأنّما قدّ هذا الصّبيّ القرشيّ من عجينة هذه الأرض.

- بلى هو كذلك.

أثمرت الشّوحطة الكبيرة حبّات خرزية جميلة، قطف عبد الله ومحمّد ثمرها بعد أن استقرّا بقربها وتركا خلفهما النّوار والرياحين والزّهر، ولعبا بتلك الثّمار لعبة المفايلة حتّى سئما، ثمّ غسلاها بماء السّقاء وأكلاها. كان يومه الأوّل معهم متعبا ومدهشا.

***

لم تكد تفرغ حليمة من مخض قربة اللّبن وتعليقها في وتد الخيمة لتبقى باردة منعشة يتغدّى بها الأولاد وزوجها الحارث، تذهب عنهم الجوع والعطش معا، وتشرع في إصلاح جديلتيها وتمشيطهما حتّى سمعت عبد الله يعلو صوته اللاّهث كلّما اقترب:

- أخي محمّد... الحقوه، أدركوا أخي القرشيّ..

- ما الذي حدث، قل يا عبد الله؟

- جاءه رجلان عليهما ثياب بيض شقّا بطنه، أخشى أنّه قُتل!

- يا ويلي، ماذا حدث لابني؟ وماذا نقول لأمّه؟

- هل تعرفهما؟

- لم أرهما قط، ليسا من بني سعد.

حمل الحارث عصاه وانطلق إلى حيث محمّد، أمّا أنا فرميت المشط ووضعت سترا على رأسي وتبعتهما، وإذا بمحمّد منبطح على ظهره..

-أيزال حيّا...

لن أسامح نفسي إذا ما أصابه مكروه...

-كفّي يا حليمة ودعيني أسمع نبضه.

زممت شفتيّ وبلعت صوتي، وإذا بي انتبه إلى عبد الله... المسكين، كطير جريح، يمسك بثوبي ويختبئ ورائي ويعضّ أصابعه ويشهق. سامحيني يا أمّي تركته بمفرده. التفتُ إليه، مسحت دمعه وحضنته وهمست في أذنه وأنا في هلع شديد... لا تخش يا ولدي سيكون بخير.

- إنّه لا يزال يتنفّس.

- حمدا للاّت، حمدا للاّت... ألم أقل لك يا عبد الله.

قبّلتُ يديه، ثمّ حملته في حذر ووضعته في حجري وقلبي يكاد ينطّ من الثّياب:

- لن أطمئنّ حتّى يفتح عينيه، ويحدّثني.

بكيتُ بصمت وعيناي مصوّبتان على وجهه وعلى كلّ جارحة من جوارحه، أتحسّس أيّ حركة منه، ثمّ كدت أشرع في عويل ونواح أفجّر به بني سعد لمّا أبطأ، وأخرجهم من بيوتهم، لولا أنّه فتح عينيه... أيّ رحمة نزلت على قلبي، ولكنّه...

- ممتقع اللّون يا حارث.

- حمدا للآت أن فتح عينيه...

- أميّ...

- ما بك يا بنيّ؟ قصّ عليّ ما حدث يا حبيب أمّك.

- جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، أضجعاني وشقّا بطني، ثمّ استخرجا منه شيئا فطرحاه ثمّ ردّاه كما كان.

عرّت بطنه فأجهشت بالبكاء ثمّ حضنته وهي ترتجف... ما حلّ بابني؟ سامحني أنّي تركتك للعراء، فعبث بك الغرباء.

حمله الحارث إلى الدّيار وهو يخفف عنه ويسأله عن شكل الرّجلين وهل رآهما من قبل.

ولم يكد ينبلج الصّباح حتّى أَبركَ الشّارف وجهّزها للرّحيل بعد أن تأكّد من أنّ محمّدا على ما يرام وبإمكانه أن يصحبهم، وصعدت حليمة على أتانها ووضعته أمامها وانطلقوا إلى مكّة.

-9-

أتخيّل محمّدا كيف كبر، وصار غلاما قويّا، لولا الوباء الذي ألمّ بمكّة لما تركته يذهب، ويقيم في بادية بني سعد سنة أخرى وأكثر. كم أشتاق إليه... أتخيّل كلّما جلست إلى نفسي ما قاله وما لم يقله، وما فعله وما لا يفعله، سكونه وحركاته وحتّى أنفاسه، أتراه يسأل عنّي، ويذكُرني، ويعرف أنّ له أمّا تنتظره في مكّة على أحرّ من الجمر.

آهٍ يا بركة كم أحنّ إليه، وأنتظر أن تنتهي سنوات غيابه عنّي، مضت فترة طويلة منذ جلبته السّعديّة ولا أدري كيف صار الآن.

أتراها لا تزال الخميصة التي نسجتها له على قدر جسده، فهو يشبّ شبابا لا يشبه الغلمان، كأنّما هو ابن ستّ سنوات؟ عملت حساب ذلك فصنعت له أخرى أكبر وأوسع حتّى لا تضيق عليه بسرعة، أتراه يلبسها ويقدّرُ أنّي من صنعها له؟ والسِّخاب أكيد أنّه تمزّق وبلي، في كلّ مرّة تأتيني به أعمل له واحدا، سأصنع له عقدا آخر قرنفليّا.

ما صبّرني على غيابه أنّ حليب حليمة كان نفّاعا له كما تقول أمّي، وحبّها لابني لا يختلف فيه اثنان، قد رأيت بأمّ عينيك مدى تعلّقه بها وكذلك إخوته من الرّضاعة، وهواء البادية ناسبه بعيدا عن أوبئة مكّة، هذا ما جعلني أصبر على فراقه كلّ هذه المدّة.

ما إن خرجت بركة قاصدة بيت سيّدها شيبة لشأن أرسلتها فيه آمنة حتّى عادت مضطربة، وأسرعت لتحدّث سيّدتها بما وقع، ويتحدّث به النّاس من ضياع محمّد من حليمة أعلى مكّة، يقولون عند وادي تهامة.

يجب أن أخفي عنها الخبر سيتوقّف قلبها إذا علمت بما حدث، سيجده سيّدي شيبة حتما، رأيته وجماعة من قريش من مقتفي الأثر يجوبون المنطقة وسط جموع الحجيج يبحثون عنه، لن تنقضي اللّيلة حتّى يجدوه... هكذا يحدّثني قلبي، أيّ خطب ألمّ بك يا سيّدي؟ لن أرجع إلى البيت ستكشف سيّدتي أمري.

ولكن... أخشى أن تأتي النّسوة ممّن سمعن بتضييعه فيخبرنها، عليّ أن أعود، وسأمنع أيّ طارق يحدّثها عن فقدانه، فقلبها لازال منكسرا من موت مولاي عبد الله، ولا تطيق أن يلحق بمحمّد أيّ أذى.

السّعدية عادت بمولاي محمّد وضيّعته في وادي تهامة، ومولاي شيبة وأعمامه ونفر من قريش من مقتفي الأثر يبحثون عنه. من أين ألمّ بنا هذا الخطب؟! لا لا، ليس عليّ أن أخبرها، ستموت فرقا عليه، وسأثبُت.

شعرتُ عندما عدت إلى الدّار وأنا أكتم اضطرابي في بريق عينيها بلهفتها له، وشوقها لعناقه، فلم أقوى على أن أخبرها، وذبت في ملامح وجهها، أمٌّ مشتاقة وحيدة منكسرة وابن مفقود لا خبر عنه إلى هذا الوقت المتأخّر. تسمّرت مكاني وظللت أسيرة عينين، واحدة تشفق عليها، وأخرى على الباب ترقب خبر سوء.

حملت بركة بمفردها هذا الهمّ ساعات وساعات، وكلّما تقدّم اللّيل ولم يظهر شيء ازدادت اضطرابا، وحاولت أن تغلّفه بابتسامة باهتة وانشغال بأعباء البيت إلى أن انتصف اللّيل سمعت طرقا، فأسرعت لتفتح ودقّات قلبها تكاد تخرج من الثّوب وهي تخشى أخبار السّوء،

ولا تغيب عن ذاكرتها صورة سيّدها شيبة ووهْب قادمين في وجوم ليخبرا آمنة بتخلّف مولاها عبد الله ومرضه في يثرب، وبكاء سيّدتها بعد أن انصرفا وانقطاعها عن الطّعام والنّوم، وما أعقبه من موت عبد الله. لا أريد أن تكبس عليّ هذه الذكرى. ارتبكتْ ثمّ حاولت أن تسيطر على نفسها.

دخل عبد المطلب وهو يحمل الصّبيّ على عنقه في قمّة ابتهاجه وهو يلاعبه، وخلفه حليمة مطأطئة الرّأس عليها ابتسامة باهتة:

- أقسم أن أذبح الجزور وأطعم كلّ أهل مكّة على أن ردّت لي الآلهة ابني.

سلّمه بركة ثمّ انصرف، فهمّت إليه باكية تحضنه... لم تصدّق آمنة ما ترى فليس هذا موعد زيارتها، وهي منذ الصّباح تتحدّث عنه وتتخيّل كيف صار شكله، ولم تعلم أنّه سيبيت في حضنها اللّيلة.

تعال يا ولدي إلى حضني، ها قد كبرت وازداد طولك، يا روح أمّك وأبيك، كم أدين لك يا حليمة! مرّرت أصابعها على شعره وقبّلت عينيه ويديه وأعادته لصدرها ثانية بكلّ الشّوق والحرمان اللّذين يقبعان في أعماقها.

الشّوق كبير والفرحة ما بعدها فرحة. ولكن... لم ينظر إليّ الجميع هكذا؟ ماذا حدث، ما خطبكما ولم تبدين يا حليمة ممتقعة اللّون وأنت يا بركة؟ ولِم يقسم عمّي شيبة فيما سمعته وأنا قادمة من الغرفة بأنّه سيطعم كلّ أهل مكّة؟!ماذا يقصد بأن الآلهة ردّت له ابنه؟

- لقد كان سيّدي ضائعا في وادي تهامة.

سرى الشّحوب في وجهها وأرخت جسدها الذي تكلّس على أقرب بساط وكادت تبلع لسانها:

- ضاع ابني... ولم تخبريني يا بركة؟

- سامحيني يا سيدتي خشيت عليك.

قصّت عليها حليمة الخبر، وهي تبكي وتحضنه.

بينما نحن بأعالي مكّة... إذ مرّ سيل من الحجيج أضللت إثره محمّدا، فلم أشعر حتّى لم أجده في يدي ولا يد الحارث، وكنت أتصوّره معه، وهو يتصوّره معي. صحت وأنا أناديه، لكنّ المكان كان صاخبا بأصوات زوّار البيت، دورانهم حول الحرم في حركة واحدة، الآلاف تلك اللّيلة ملأني بالغثيان وودت لو أقعو أرضا وأنوح على تضييعي لابن سيّدي عبد المطّلب.

أدركنا الظّلام الدّامس ونحن نبحث عنه دون جدوى، ولمّا يئسنا لم نجد بدّا من إعلام جدّه. حملنا أنفسنا آسفين خائفين خجلين نادمين لندقّ باب عبد المطلب ونقضّ مضجعه ونخبره الخبر، لعلّه يجده فلا يصيبه مكروه، وكنّا على استعداد لتوبيخه وما يصبّه علينا من غضب، وأي عقاب يقضيه في حقّنا.

انطلق سيّدي مع جمع من النّاس كلّهم ينادون على محمّد، وقلبي ينفطر، ويدعو أن لا يصيبه مكروه. طال مكثهم وطالت علينا اللّيلة وهم يبحثون، إلى أن أطلّ سيّدي عبد المطّلب وهو يضعه فوق عنقه

متهلّل الوجه. قصد الكعبة طائفا به يعوّذه، ويدعو له، ويشكر الآلهة.

قال وجده رجلان في وادي تهامة عند شجرة اليمنى، أسكنه التّعب واللّيل إليها بعد أن جرفه سيل الحجيج الذي تدفّق في أعالي مكّة، لم يستطع أن يعود، كانت الجموع تجذبه إلى غير ما يريد، إلى أن وجد نفسه وحيدا فلجأ إلى ظلّ الشجرة، جلس تحتها ينظر ما حوله وجموع الحجيج في طريقها إلى البيت العتيق. وجداه يجذب أغصانها، ويلعب بأوراقها غير فزعٍ، وعلى وجهه النّعاس وبعض الإرهاق من السّفر.

بكت آمنة... كلّ هذا حدث لولدي وأنا لا علم لي. حضنته بين ذراعيها بقوّة وقبّلته.

- يا ولدي حمدا على عودتك سالما...

استفسرت بركة:

- من هما الرّجلان اللّذان وجداه؟

- يقول سيّدي شيبة هما ورقة بن نوفل وصاحبه زيد بن نفيل، لم يتركا مكانا إلاّ وبحثا فيه منذ أن ذاع خبر ضياعه.

- حمدا للآلهة أن ردّته سالما معافى.

بدأ الهدوء يعود إلى آمنة ولكنّها تعود إلى اضطرابها وإشفاقها عليه عندما تتصوّر ما كان سيحدث لو ذهب مع الحجيج، أو أصابه مكروه، ترتعد فرائصها وتطرد مجرّد الفكرة من رأسها غير مصدّقة أنّه رُدّ إليها بعد أن تاه وسط تلك الجموع وفي ليلة ظلماء.

- خشيت عليه يا مولاتي-قالت حليمة- ولعبت بي الظّنون بعد أن تذكّرت ركب النّصارى الأحباش الذين أرادوا أن يأخذوه إلى ملكهم. قالوا إنّ له لشأنا، لم أكد أفلت منهم إلاّ بعد جهد، أخفيته تحت ثوبي والعرق يتفصّد منّي، ظننت أنّها نهايته، تصوّرتهم وجدوه وسيأخذونه إلى بلدهم، ولن أراه بعد يومي هذا، وما عساي أقوله لك ولجدّه.

استدركت آمنة وحليمة تسترسل في حديثها لتسألها مقاطعةً حديثها:

- ولكن ما حملك أن تردّيه إليّ وكنت عليه حريصة، فليس هذا الموعد الذي تأتيني به؟

- أدّيت أمانتي.

لم تصدّق قولها، وألحت عليها في السّؤال حتى روت لها ما حدث، وقصّت لها قصّة الرّجلين ذي الثّيّاب البيض، اللّذين شقّا بطنه واستخرجا من قلبه علقة سوداء وغسلاه ثمّ خاطا الموضع، وأرتها الشّقّ الملتئم وهي ترفع عنه ثيابه.

لم تخف آمنة ولم تجزع بالقدر الذي تصوّرته السّعديّة. استغربت تصرّفها ووجهها الهادئ، ورأتها تضمّه إليها وتسأله إن كان يؤلمه بعد أن سمعت منه تفاصيل ما وقع.

- لقد خلد إلى النّوم، أريد أن أسألك سؤالا يحيّرني.

- اسألي يا حليمة.

- عندما وقعت له الحادثة خشيتُ عليه الشّيطان، وأراك مطمئنة كأنّ شيئا لم يحدث.

- ما للشّيطان عليه من سبيل، فقد عوّذته عند ميلاده، اجلسي لأقصّ عليك ما حدث لي أثناء حمله ومولده.

حدّثتها بكامل هدوئها عمّا رأت عند حملها به، وما سمعت، والنور الذي خرج منها يوم وضعته فأضاءت منه قصور الشّام.

- دعيه عنك وانطلقي فإن لابني هذا شأنا، ولا تنسي أنّه ابنك أيضا، رعيته كلّ هذه السنوات، شاركك حليب ابنك وقوت يومكم. البيت بيتك، كلّما قدمت مكّة يمكنك المجيء لتريه.

نحر شيبة الجزور وصنع طعاما لكلّ أهل مكّة فرحا بعودة حفيده له، وفي اليوم الموالي صرف السّعديّة بعد أن جهّزها بأحسن جهاز، هدايا لها وللحارث ولأبنائها وللشّيماء التي كانت لا تطعم إلاّ إذا طعم ولا تنام إلاّ بعد أن ينام. أوصى لها وحدها بصاع من الحلوى، فمنذ التقى محمّدا لم يذكر أحدا مثلما ذكرها إلى جانب الغنيمات الصّغيرة في بادية بني سعد والسّمراء وسدرة.

حدّثته قبل أن يهمّا بالرّحيل بما رأت من بركة حفيده منذ سنة القحط، وقصّة الغمامة، ضمّه إلى صدره وبكى...

- يا حليمة، إنّ لابني شأنا، وددتُ أنّي أُدرك ذلك الزّمان.

ركبت أتانها واعتلى الحارث شارفه بعد أن تجهّزا للمغادرة، وقالت وهي تودّع الصّبيّ الذي كان بمثابة ابنها عبد الله دامعة:

- كانت الشيماء محقّة، ليس عليّ أن أتعلّق بالرّضعاء بكلّ هذا القدر، وإن كان محمّد ليس كغيره، كالرّبيع الذي يداهم الصّحراء.

هيّا بنا يا حارث كأنّي به البارحة يوم أخذْته في لفافة الصّوف وأمّه تبكي وتتبعني بنظراتها إلى أن غبت عنها، واليوم نعود من دونه... أتركه خلفي يلوّح لي.

- الآن أدّينا ذمّتنا، فلنعد إلى بني سعد بغير محمّد، الصّبيّ القرشيّ المبارك الذي لا أظنّ أنّنا سنجد له صنوا يوما ما بين رضعاء مكّة كلّها.

مقام الضّياع...

اقترب القسّ الضّرير من دار النّدوة تتقدّمه عصاه كقلب نابض تجسّ الطّريق، ورأسه إلى السّماء كعادته... مضى الكثير من الوقت لم يشارك في اجتماعاتها، فتناهى إلى سمعه بعض من نقاشهم وهو يهمّ بالدّخول:

-لم يدفع القاتل الديّة، علينا أن نخلعه من القبيلة وباقي عائلته.

-قَتل دفاعا عن النّفس ولا يملك مالا لدفع الديّة.

- لسنا مسؤولين عن فقره.

- سنُؤلّب أبناء القبائل علينا.

- من السّهل أن تحلّ المشاكل من مكانك، وأنت تجلس على بساط وثير.

-شرّفت مجلسنا يا ابن العمّ، منذ مدّة لم تشاركنا قراراتنا ونقاشنا، أنت كبير بني أسد وحكيمها وشاعرها والعارف بكتب الأوّلين.

توقّفوا عن الحديث ونهضوا من مجالسهم لاستقباله مستغربين.

-إنّه العمر يا أبا سفيان، لم أعد أقوى على هذا الشّرف، وإنّما اشتقت إلى هذا المجلس فأردت اليوم أن أزوركم.

-أشتمّ شيئا –نظر إليه عمرو بن هشام مرتابا -نحن نعلم أنّك انقطعت عن مجلسنا منذ فترة طويلة عندما لم تعد قراراتنا تعجبك، فما الذي دفع بك إلينا اليوم؟

-قلت هو الملل يا أبا الحكم، والاشتياق إلى صحبتكم.

لم يطل مكوث القسّ الضّرير بينهم، وانصرف على وجه السّرعة ما إن انتهى المجتمعون من مناقشة ما يحدث في مكّة، ومسائل زائري البيت موسم الحجّ من أجل جمع الأموال للرّفادة. أراد أن يعرف إن علم سادات قريش بما حدث لمحمّد في الغار، علّهم شكّوا في الأمر، لا شيء عن محمّد، قرارات الزّواج والختان وخروج القوافل والرّفادة بين القبائل... كالعادة لا شيء مهمّ.

في هذا المجلس قبل سنوات انطلق خبر تشهير قريش بفراق زيد لدينها، فلجأ إلى أعالي مكّة بعد أن اشتدّ أذى عمّه الخطاب له. قال المبارك متّى: " طوبى للمطرودين من أجل البرّ، لأنّ لهم ملكوت السّماوات".

سرّج ناقته وأخذ معه قربة الماء وبعض الزاد وتسلّل ليلا، ألجأه برد اللّيل إلى غار حراء. أوقد نارا وهو منشغل بما كان من حديث زوجه، ولم يشعر بالجوع طيلة تلك اللّيلة، الصّمت مطبق على الغار عدا طقطقة النّار وأنين أغصان الشّجر وبقايا نباتات قبيل لحظة النّهاية. مع الظلمة نزف ذكرياته مع صفيّة، وقبلها خطبته لها وزواجهما والفرحة التي ظنّ أنّها كثيرة عليه، أصوات ضحكاتهم معا يتردّد صداها في جوف الغار البارد...

بعد ليالٍ نحت بالصّوان الذي أوقد به النّار خروجه على جدار الغار، رسم وجها وضّاء، أضاء عتمة وحدته، وجه صفيّة الحسناء، وبين يديها رسم خنجرا. كانت صفيّة فاتنة، ورغم عدم امتثالها لأمره إلاّ أنّه لطالما أحبّ جموحها، لعلّه وجد فيها شيئا منه، من طبعه،

والطبعان الحارّان لا يلتقيان. رسم في اللّيلة المواليّة حزنه وأضاف إلى وجهها حاجبين مقطّبين، ووجها وسَوْطا كان للخطّاب وعصيّا. لم يكن وجهها اللّيلة مضيئا وضّاحا، كان مخيفا، وإلى جانبها خناجر وعصيّ الحرّاس وهم يكبِتون فيه الرّغبة في الخروج. لم أكن أفهم كيف لامرأة جميلة ورقيقة مثل صفيّة أن تلجأ إلى شدّة الخطّاب وقسوته لتثنيني عن رأيي، كيف اجتمع النّقيضان.. جمالها يكفي أن يردع الصّحراء بما فيها.

تمكّن أخيرا من الخروج من مكة، وتفلّت هذه المرّة من عيني بنت الحضرميّ التي كانت كلّما رأته متهيّأ لسفر أعلمت الخطّاب. أصدر أوامره وهو يشتعل غضبا بعد أن أفلت زيد من حرّاسه بأن لا يتركوه يعود إلى مكّة فيؤلّب الشّباب على دينهم. آواه الغار ووجد فيه بعض الدّفء كما آوى الأوّلين قبله من الفارّين من عشائرهم، ممّن نبذتهم قريش. النّبذ شعور مرير خانق إذا ما زرعه أهل بيتك ليسمق بماء أشركوا فيه كلّ عشيرتك.

ليالي حراء ليال كلّها للتّأمل، ادّثر فيها بالسّؤال في برد الصّحراء مغتربا عن عشيرته ملتفّا بنبذهم وإصراره أمام النّار التي أوقدها تضاهي نارا بين دفتي فؤاده. نام طويلا في الكهف حتّى لم يعد يذكر عدد تلك الأيّام واللّيالي بلا أكل عدا شربة ماء تجتمع في نتوءات الغار بعد سقوط المطر، وحبّات من الكَباث من آراكة في الطّريق أسفل الجبل، وبلحات نفدت منه اللّيلة الماضيّة.

ها هو الشّهر ينقضي ويزحف شهر آخر من النّبذ، أراد أن يدخل مكّة ثانيّة بعد أن رأى أنّ مداخلها هذه الأيّام تخلو من شباب عمّه لانشغالهم بإعدادات رحلة اليمن، ليتحدّث إلى أصحابه علّه يقنعهم بمرافقته للبحث عن نهج إبراهيم.

تسلّل في الهزيع الأخير من اللّيل إليها بعد أن تأكّد من خلوّ طرقاتها عدا بعض من شباب قريش المترفين الذين لعب النّبيذ برؤوسهم، وهم يغادرون خمارة الرّومي. هاهما رجلان ضجران خسرا كلّ نقودهما ينظران إلى ناحيته، توارى عن أعينهما التي بدت له تائهة وضبابيّة، كأنّما الطّريق إلى بيوتهما يبتعد كلّما أوشكا على الوصول، ولمّا غابا عن بصره وأمن على نفسه اقترب من الكعبة متأمّلا ما حولها بعد غياب لا يطيقه وهو يخفي وجهه.

انطلق كسهم لا يخطئ ضالته بعد أن فرغ من طوافه إلى بيوت ثلاث، بيوت رفقاء دربه، وصل بيتي متخفيّا كثعلب رشيق يعرف غايته جيّدا، وألحّ عليّ في السّؤال لأصحبه في رحلته. كان مرتابا وقلقا، يتلفّت يمينا وشمالا يخشى أن يراه شباب الخطّاب فيلحقوا به الأذى كما فعلوا آخر مرّة.

-نهج جدّنا إبراهيم، هل أنت مدرك لما تقول؟!كم مضى من الزّمن عليه، وأين تبحث عنه؟

-لا أدري، ولكنّي عازم ولن أتراجع، لم يعد المكان يسعني.

في هذه البقعة الحارّة، وفي هذا الوادي، حيث لا شيء غير الرّمال والحصى والبيت العتيق الذي تجتمع حوله بيوت القرشيّين يركن

النّاس إلى ما ألفوه من دين أجدادهم، وفي بيت كلّ واحد منهم حجر يتمسّح به إذا ما أراد سفرا ويسأله التّوفيق.

***

ما يقارب العشر سنوات بعيدا عن هواء مكّة وسمائها وأهلنا الذين رغم المساوئ يظلّون أهلنا، جُبنا خلالها الأرض عطشى شبرا شبرا. لم نترك ديرا ولا صومعة ولا راهبا ولا حبرا إلاّ وسألناه عن نهج إبراهيم، إلى أن استقرّ بنا المقام في نُزل كنّا نختلف فيها كلّ يوم إلى أديرة الرّهبان، نرقب أفعالهم وأقوالهم، لكنّ الطّمأنينة كانت تستعصي علينا إلى أن التقينا الأب بولس الذي كنّا نستمع إلى صلاته في الهيكل فنعجب بها، وتفهو أفئدتنا إلى معرفة المزيد لعلّ فيه راحتنا، ارتحنا له أيّما ارتياح وكشفنا له عن غايتنا. دلّنا على كنيسة في أعالي جبل كأنّما غرست بين أشجار ووديان، موقعها آسر، يختلف إليها جلّ الباحثين عن طريقهم.

وصلنا عند أولى تباشير الصّباح الذي كان باردا رغم إشراقة الشّمس. دقّ زيد الباب وهو يرقب الأسوار العاليّة التي تحيط بالبناء الضّخم الذي بدت أناقته المهيبة من العتبة. أوصلنا أحدُ الشّمامسة إلى حجرة كبير الرّهبان بعد أن عبرنا بهوا واسعا يزيّنه صليب كبير من العاج الأبيض، مرصّع بأحجار تتلألأ عليها أشعة الشّمس التي كانت تحنو عليه من كوّتين أعلى المكان يمينه وشماله، زادته جلالة وفخامة.

انتظرناه في حجرة الاستقبال حتّى أتمّ صلاته، ثمّ سألَنا دون أن يرفع بصره عن صورة العذراء التي كانت معلّقة على الحائط:

- أتنويان الإقامة بيننا أم هي زيارة استطلاع؟

- نريد أن نعرف كلّ شيء عن صلاتكم وتسبيحكم، وعن الرّهبان والكنيسة، كلّ شيء.

- يقصد صاحبي أنّنا لم نقرّر بعد.

قال زيد:

- أريد أن يطمئنّ قلبي، أبحث عن راحة أبديّة وأجوبة لأسئلتنا، ثمّ نقرّر.

أقمنا في غرفة الضّيوف التي تتّخذها الكنيسة لمثل هذه الحالات، سوّى الرّاهب الذي بدا لي خمسينيّا ثوبه الكهنوتيّ، وقبّعته الكنسيّة التي زادته وقارا وهو يهمّ بالجلوس على كرسيّ خشبيّ فخم من الزّان وسط الحجرة، وابتسم ابتسامة مهيبة وهو يحدّثنا، بعد أن طوى صفحة الكتاب الذي سلّه برشاقة من رفوف مكتبة لم أر مثلها لا من قبل ولا من بعد، رغم تطوافي بكثير من البلاد وأعاده إلى الرفّ، واستقبلنا بعينيه اللّتين كان فيهما شيء غريب لم أدركه لكنّه حبّبه إليّ:

- ولكن هل لي أن أعرف من تكونان أوّلا؟

أخبرناه بنسبنا وأنّنا من أشراف القوم، وإلى البيت العتيق محجّة العرب تعود ديارنا ويستقرّ أهلنا، فطفح وجهه بسرور دفعه إلى مزيد من الاطمئنان إلينا، وإن أخفينا عنه تشهير قومنا بترك زيد لدينه،

والأذى الذي لحقه من عمّه، والأشهُر التي قضاها مغتربا في الغار، وتسلّله كلصّ ليلا لمكة ليرى أهله عند خلوّ المداخل من حرّاس الخطّاب.

لمّا علم أنّنا من الأشراف، مع ما قرأه من رسالة التّوصيّة التي أرفقها بنا الأب بولس، استقرّت ملامحه، وجادت سحنته بما كان مخبّأً من نور ربّاني دفين وصفاء داخليّ، وأهدانا حريّة التنقّل في الكنيسة ومكتبتها طيلة مدّة إقامتنا، وأكثر من جلسة معه لم يبخل فيها علينا بالإجابة عن استفساراتنا. كنّا نستفيض بين يديه في أسئلة كثيرة حيّرتنا، وهو يجيب بهدوء بالغ لفت انتباهي وارتحت له، بل غبطته عليه.

انقضت السّنة سريعا كلمح البصر، ونحن نتتبّع حياة المسيح وتعاليمه من أفواه الرّهبان ومن مكتبة الكنيسة نتزوّد لنهمنا بما نقرؤه، يسوع المسيح وقضية الميلاد ومريم العذراء والحواريّون والصّلب، والأناجيل الأربعة... كانت هذه بعض ممّا استمعنا إليه ممّا يقام من دروس وبحثنا عنه في الكتب إلى أن قرّرتُ ذات صباح بارد اشتدّ مطره وأرعدت سماؤه وأبرقت أن أحضر قدّاس الآحاد بكلّي. امتلأت الكنيسة يومها بالمُريدين الذين لم تمنعهم الأمطار من حضور كلمة كبير الأساقفة والتّبرّك بدعائه، كأنّما يحتفون بقراري.

حاولت أن أقترب منه رغم العدد الكبير من الحاضرين وهو يهمّ بالمغادرة، وبعد أن تجاوزت بشقّ الأنفس تلك الأفواج الهائلة سألته المباركة وهمست له بتنصّري، وأنا لا أصدّق أنّي قريب منه وأحظى

بمخاطبة حضرته المبجّلة. رفع بصره إليّ وغمرني بنوره الذي لايزال حتّى الآن يلامس شغاف قلبي وقال:

-ليباركك الربّ يا ولدي.

وتحرّكت أصابعه المباركة بين كتفي وصدري لترسم صورة الصّليب كأنّما حفرت للأبد.

حملتُ بركته لا تسعني الأرض ولا السّماء، وبحثت عن زيد الذي انتبهت فجأة أنّي لم أره منذ ليلة البارحة، طرقت عليه باب مقصورته فإذا بصوته يجيبني بعيدا كأنّما هو في قاع بئر لا يُعرف له قرار:

- أدخل يا ورقة.

- ألا زلت نائما، هذا ليس من طبعك، ماذا حدث؟!

- أصابني ليلة البارحة مغص ألزمني الغرفة، ولكنّي تحسّنتُ الآن بعد أن شربت خليطا من الأعشاب المهدّئة جلبه لي أحد الشّمامسة، قال هو من أعالي جبال الأناضول التي لا تبعد كثيرا من هنا.

- أعلنت تنصّري منذ قليل أمام أكبر الأساقفة.

جحظت عيناه دون أن يحوّلهما إليّ، وهو يحدّق في الزّاوية الأخرى من الغرفة، وكلّمني بهدوء بالغ:

- سعيدٌ لأجلك.

- ما لك تقولها بفتور، لا تبدو سعيدا بهذا الخبر.

- أنا متعب من ليلة البارحة، لايزال بي بعض الوهن والوجع.

- لعلّه تعب السّفر والتّجوال الذي أنهكك في المدّة الأخيرة، سأتركك لترتاح.

تركته وأعلنت قراري أمام الجميع، وعُمّدت في اليوم الموالي أمام جمع غفير من النّاس، بعدها قررنا الرّحيل. غادرنا الكنيسة بعد أن أهدانا كبير الرّهبان الذي استقبلنا أوّل مرّة صليبا مرصّعا هو الذي لا أزال ألبسه حتّى الآن، ونسختين من الإنجيل، ثمّ شددنا الرّحال إلى صحرائنا.

كان زيد قلقا أمام هدوئي وإيماني الذي ملأني منذ أن باركني كبير الأساقفة وكلّ الرهبان. كان يريد أن يحدّثني ثمّ يحجم، ويعود إلى صمته المضطرب ويقلّب صفحات كتاب أهداه إليه راهب شابّ تعرّف إليه، يحمل خليطا بين ملامح عربيّة وروميّة لاحظت ملازمته له منذ أن حللنا بالكنيسة وجلوسه إليه إلى وقت متأخّر من اللّيل في مقصورته.

وذات مساء هاجت فيها الصّحراء خرج زيد من صمته وهمس كمن يبوح بسرّ يخشى أن يتلقّفه هذا الخلاء:

- حدّثني راهب كنيسة الأناضول إيّاه، ذاك الذي كنت ألازمه، عن نسطور الذي قُتل ظلما، وآريوس الذي أُحرقت كتبه ومات مسموما وليس عقابا من الربّ، وقسطنطين الذي غيّر الحقيقة في مجمع نيقيّة، والمجمع المسكونيّ الذي قال بألوهيّة المسيح، الثالوث الآب والابن والرّوح القدس.. كنت حائرا، ولم أستطع مثلك أن أختار ذاك الدّرب.

لم يدخل الإيمان قلبي، رأيت السيّد المسيح مصلوبا فازدادت حيرتي، أهذا الإله الذي صلبته مخلوقاته من الفانين؟! إلى أن أطلعني الرّاهب

الشابّ على خبيئته خلف رفوف مكتبته الصّغيرة. نزع الآجرة الأولى ثمّ الثانيّة وبقيت مشدوها لمّا ظهرت أمامي مجموعة من الكتب المخفاة في جزء من الحائط.

هذه الكتب الممنوعة والأناجيل المحرّمة، همس لي الرّاهب. لم أستطع النّوم ليلتها ولا باقي اللّيالي، وادّعيت المرض حتّى أقرأ المزيد منها ليلا وأنام قسطا من النّهار. التهمت كلّ ما وقعت عليه عيناي من كتب ولفائف مخفيّة حين تتوقّف الحركة في الرّواق، ولكنّها كانت تغذّي اضطرابي وتكبر معها حيرتي.

بحثت عن أيّ شيء يتعلّق بنهج جدّنا إبراهيم، فلم أعثر على أيّ إجابة عدا التّيه والحيرة، رأيتكَ فرحا بإيمانك وطمأنينتك فلم أشأ أن أشوّشك وأنقل اضطرابي إليك. كنتُ منشغلا بالقراءة وبما حدث ليسوع المسيح وحوارييه وكتابات الإنجيل، كنت تائها هل الربّ هو المسيح، أم المسيح بشر؟ وهل يمكن لبشر كأمّنا العذراء أن تلد إلها يُعبد؟

لم أشعر بالطّمأنينة إلى حياة الرهبان، ولا بين جدران الكنيسة، ألا يمكنني أن أكون في صحرائي متعبّدا مطمئنا إلى إيماني بدل هذه الأسوار، فلا أرى إلاّ من هذا الحيّز الذي يُحدَّد لي ولا ألتقي إلاّ بأصناف من النّاس يرضى عنها رجال هذا المكان.

أَفهِمْتَني يا ورقة، فهذا ليس هو النّهج الذي لأجله اغتربت عن قومي ورحلت عن عشيرتي. أعدتُ مرارا وتكرارا كلام الرّاهب أقلّبه في عقلي وقلبي، ولكنّ الطّمأنينة كانت تعوزني.

تمدّدنا على الرّمال ونمنا من شدّة التّعب، ولم أشعر كم طال الأمر إلى أن استفاق زيد وعلى وجهه اضطراب شديد وهو يتصبّب عرقا. طلبت منه أن يحكي لي عن رؤياه.

-شعرت بجدّنا إبراهيم وصفيّة يقتربان منّي، وفي قلبي ظمأ وخواء أريد أن أملأه. كان يحمل صحفا، بسطها وقدّمها لي، وكانت صفيّة تتقدّم نحوي بشعرها الذي كان كالصّحراء شاسعا ومضلّلا. بسطت يديّ إليه لأتلقّى ضالّتي وملت بوجهي إلى صفيّة، وإذا بي أسقط في هوّة سحيقة بها دمّ يغمرني.

هذا الحلم الذي يكبس عليّ يطاردني منذ رحلت وتركت صفيّة خلفي وولدي والمدينة ببلادتها وحجريتها.

طلبتُ منه أن يحاول النّوم ثانية، فاللّيل لا زال في أوّله. سكن وامتثل لكلامي، لكنّ الكابوس ظلّ يراوده، ووجهه يصفرّ ويبيضّ حتّى صار كأنّ قطرة دمّ لم تعد تسري فيه.

كنت مذهولا بين وجه جدّنا إبراهيم الذي بدا متعبا من رحلته من أرض كنعان، وصحفه المبسوطة ووجه صفيّة. أخبرني بصوته الرّخيم:

- قدمتُ لأجلك ولأجل الضّالين أمثالك...

قدّمها لي وربت على كتفي ودعاني إليها ثمّ قال:

- ستبعث أُمّة وحدك...

انشغلت بالصّحف المبسوطة والنّظر إليها وهو يبتعد، وإذا بي أنتبه لفأسه التي نسيها، ناديته بأعلى صوتي، استدار نحوي وصاح مبتسما:

- احتفظ بها سيكون لك بها حاجة.

وانصرف إلى حال سبيله... أمّا صفية فظلّت ترمقني بعيني مهاة شاردة يعلوهما حاجبان مقطبان، وشعر أهوج كثيف كأنّما انسدل على الكون كلّه.

الصّحراء تنام على أسئلة المرتحلين، تغطّي بكثبانها عطشهم نحو اليقين ولا تترك معالم لمن جاء بعدهم.

بعد أن توغّلنا في أرض كنعان ألحّ الحلم على زيد، الصّحف ووجه صفيّة.

- قال لي الرّاهب الشّاب، راهب الأناضول لأبي الأنبياء إبراهيم صلوات الربّ عليه عشر صحف بُسطت فيها تعاليمه.

- صحف عشر؟ هل يعرف مكانها؟ سألت زيدا

- توسّلت إليه بكلّ جارحة من جوارحي ليخبرني، قال: لعلّك تجد منها شيئا في كهوف قمران بعد خراب هيكل أورشليم في السّنة الثّمانين من ميلاد المسيح، الكهوف التي تجمَّعَ فيها كثير من المضطهدين، يحملون كتبهم الممنوعة، علّك تجدها بينهم.

التفت يومها راهب الأناضول إلى أوراقه وخطّ بعض الكلمات.

- خذ هذه الرّسالة، واسأل عن الحَبر رافاييل وسلّمها له.

نبعد عن المكان مسيرة يوم، سنشدّ الرّحال غدا منذ الصّباح الباكر إلى قمران حيث أسفار النّبوءات الأولى.

قابلنا هناك حبرٌ يرتدي ثوبا يبدو عليه البلى من كمّيه اللّذين فيهما شيء من التّمزيق، شيء يشبه الفتق وآثار رتق لم يعد يجدي، هو الحبر الذي كتب اسمه الراهبُ الشّاب في الرّسالة، له علم بكلّ لفافة

في الكهف. ما إن نطقنا باسم إبراهيم حتّى أخذ يردّد دون توقف عبارة ظننت أنّه لن يسكت عنها:

" لنسلِكَ يا إبراهيم أُعطي هذه الأرض من النّهر إلى النهر"

أدخلنا الكهف وقدّم لها شرابا باردا كنّا بأمسّ الحاجة إليه، وراح يتفحّص بعينيه الصّغيرتين الذّابلتين رسالة التوّصية التي زوّدنا بها راهب الأناضول الشّابّ، ويسألنا بضع أسئلة عن حال قريبه بعد أن حدّثنا عن علاقة النّسب التي تجمع بينهما، وإن لم نبد للأمر اهتماما، وعلاقتنا به ونحن نجيبه ونشرح له، وقد أبطأ في الردّ، إلى أن فرغ من كلّ ذلك وأجاب:

- لا وجود لهذه الصّحف، محتها السّنون وقدم العهد.

غادرنا المكان مسرعين قبل أن ينسدل الظّلام بعد أن شكرناه على وقته الذي قضاه معنا وعلى الشّراب البارد.

كنت منشغلا بإيقاد النّار وتحضير شيء لنأكله، ولم أنتبه لزيد إلاّ وقد افترش الرّمل وتوسّد مزوده ونام عند أوّل اللّيل دون أن يأكل ولو بلحة، كان مرهقا ويائسا.

وفي الصّباح بعد أن أفقت لم أجده، ووجدت بقربي لفافة ربطها في خيط سقائي حتى لا تذهب مع الرّيح، ولمّا لم يطمئن وضع عليها حجرا. فتحتها بعد أن خلصتها من ربطة السّقاء، وإذا بزيد أمامي يرجوني ويعتذر:

"يا أخا لم تلده أمّي، يكفي ما لقيته لأجلي. لا أريد أن أثقل عليك، عد إلى أهلك".

كان هذا آخر عهد لي بزيد...

***

ظلّت عينيّ معلّقة على مشارف مكّة، أرقب الطّريق الرّئيس الذي يدخل منه التّجار وزوّار البيت، منذ أن تصحو الشّمس إلى أن تغفو بين حضن تلك الجبال الجرداء. كلّ تلك الجموع ارتحلت واحتملت مشقّة السّفر لأجل هذه الحجارة التي تقتات من هذا الضّجيج الفارغ، ويغتني صنّاعها من أسياد مكّة.

حمل السّادن من خدم بني عبد الدار دلوا من ماء زمزم، وصعد إلى أعلى يغسل عن إساف ونائلة الغبار وما علق بها من دماء الذّبائح، ليُعِدّهما لجموع الزّائرين وعطاياهم، وهو لا يتوقّف عن التّرديد:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا... مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا... مثلي وكان شيخك المقبورا

وفي الغد عدت إلى المكان ذاته دون طائل. دمت على ذلك أشهرا ثمّ انسحبت إلى غرفتي، أجلس في الظّلام على كرسيّ قديم، أجتر أيّامي معه في صحراء أسئلته، وأنصرف إلى الشّعر أبكيه فيه وأبثّه شوقي وحيرتي. كان الشّعر وحده قادرا على مداواتي، أتحسّس حضوره وغيابه كلّما خرجت إلى السّوق أو البيت العتيق، وأسأل الدّاخلين من الزوّار والعائدين من القوافل... إلى أن أخذت كتفَ بعير في لحظة أملٍ أن أسمع أخباره، وخطَطْتُ إلى صديق لي بعد السّؤال عن أحواله:

"إلى راهب الموصل بعد التّحيّة والسّلام... أمّا بعد: أجاءك زيد بن عمرو بن نفيل العدويّ، فقد كنّا معا في عمورية زمنا، ثمّ خرجنا إلى أن التقينا حبر كهف قمران ثمّ تركني وأنا نائم عند أوبتنا، ومنذ ذلك الحين لم أجد له أثرا. أسألك بحكم صداقتنا أن لا تتوانى في إعلامي إذا تناهى إلى سمعك أيّ خبر عنه، أيّ شيء... "

"ورقة بن نوفل الحائر"

قال لي ليلتنا ما قبل الأخيرة:

- أنا فرس لم يروّض، سأبقى أركض، وأركض لأصل إلى بغيتي... إلى ما ضاع من نهج أبينا، أنا الصّحراء المتراميّة التي لا يمكن أن تحدّ أو تلملم، أو تختصر في خيمة، أو بين جدران البيوت الطّينيّة.

كان رغم ما يتفوّه به من كلامٍ منكسرَ الخاطر من الدّاخل.

- يؤلمني أنّها لم تفهمني...

اختارت التربة التي عاشت فيها، أرض آبائها وأجدادها، واخترت أسئلتي التي جرّتني إلى هذه الصّحراء التي عرّتني أمام نفسي، الأسئلة التي ترهقني، كيف ضاع نهج جدّنا إبراهيم، وكيف اجتمعت تلك الحجارة والأوثان أمام البيت العتيق، وحُشي بها جوفه، وصار النّاس من كلّ حدب وصوب يطوفون بها ولأجلها تراق الدّماء، وإليها الدّعاء والابتهال ؟!

صوتها الأجشّ وهي تخبرني ليلتها أنّها من طلبت من الخطّاب أن يمنعني من الخروج يفسد عليّ كلّ شيء أنا الذي شككت فيكم، في رفاق دربي، تمنيتُ لو أنكرتْ. قالت وهي تدافع عن نفسها:

- أردتُ أن أبقيك إلى جانبي.

- ولو بأذيّتي، أنت تخسرينني يا صفيّ.

عيناها الدّامعتان زادتا من حسرتي، كانتا كعيني مهاة جامحة... جمالها يكفي أن يأسر الصّحراء بما فيها.

لأعاهدنّك يا صفيّة أن أجد الطّريق وأعود إليك لتعلمي أنّي على حقّ، وأنّي لم أعد خالي الوفاض، سأعود لك بالنّهج وبالصّحف.

كلّما تسرّب إلى ذاكرتي وجه صفيّة وعمّي الخطاب تملؤني غصّة وأتذكّر قول طرفة الشّاب الذي أفرده قومه إفراد البعير الأجرب.

لم تعد مكّة السّقف الذي يظلّنا كما كنّا صغارا، لم تعد تجمع شملنا، صارت كابسة على الأنفاس، إمّا أن تظهر الولاء وتكون مثلهم، أو تعزَل وتُطحن وتُؤسر بين أربعة جدران أو تحمل مزودك وتغادر... يدفعونك قهرا إلى الهجرة.

- الهجرة مصير الأنبياء وأولياء الله.

- ولكنّي لست نبيّا، ولا أملك يقين الأنبياء، ولا تأييدهم من علٍ، ولست وليّا.

- أتريد أن ترجع؟!

- لا أستطيع أن أعود ولا أريد، فقد نترك المكان رغم تغلغله فينا لأنّه لم يعد يستوعبنا. لو عدت لقتلني الخطاب هذه المرّة، ولن يكتفي بأسري... ورغم اشتياقي لداري وولدي ولصفيّة إلاّ أنّ شيئا هنا - وأشار بيده ضاربا صدره- قد انكسر بيننا.

هذه الصّحراء تفتح جراحي، وتضع عليها ملحا ثم تملؤها بالرّمال.. يا أخي كلّما توغّلنا في هذه الكثبان شعرت أنّي أقبض على سراب، السّراب في كلّ مكان، يبدو أنّي أبحث عن شيء مُحيَ، محته السّنين، أتراه قد خانني يقيني.

- يا إبراهيم، يا أبانا

بصوت أعلى:

-يا إبراهيم، يا أبانا

كثيرا ما تراءى له بفأسه مهرولا، أو منصرفا إلى شأنه غير عابئ بأحد.

يصيح زيد لصمت الصّحراء:

ضِعتُ يوم ضاعت الصّحف

ولا حياة لي إلاّ بعد أن أجدها.

الصّحراء فضاء للتعرّي من كلّ وهم، وللتأمّل في متاهاتك دون أن يقاطعك أحد، ولتجوب الوجود والكون في صمت قيظها والتهابها تزيد نفسك اشتعالا، لا تؤوب إلى رشدك إلاّ بعد أن تدّثر الشّمسُ عند المغيب، ويستفيق اللّيل... لينهض هذا الكائن الحارّ باكرا وتعاود الكرّة مع ذوات مثلك.

الشّكّ طريق العارفين للوصول إلى اليقين، والهجرة والسّفر مصير أولياء الله الذين نبذهم أقوامهم، طريق الثّائرين والرّافضين للأقفاص التي ولدوا فيها.

قلت له في إحدى اللّيالي العصيبة بعد أن أقحلت نفسي في لحظات ضعف:

- أكان يجب أن نغادر أهلنا، لِمَ لَمْ نرض مثلما رضي القوم؟
- الذات الخاليّة من الانفعالات حجر أصمّ، بئر خربة. وقبل التّغيّر لا بدّ أن تصيبك عواصف الدّهر وعليك أن تتحمّل، فلا شيء بغير ثمن، والسّهم الذي يصيبك دون أن يقتلك، تستفيق بعده بقوّة أكبر وجَلَد ما كان لك أن تقدر عليه قبلا.
- أهو سهم بنت الحضرميّ؟
-....

صمتَ وتركني لسؤالي ورغبتي في أن أختفي... تمنيت لحظتها لو دفنتُ رأسي في هذه الرّمال الحارّة، بينما التفت النّاحية الأخرى يتأمّل الأفق البعيد في إصرار هادئ.
طالما تلمّس سبيله في الصّحراء الواسعة، هو الرّجل الجلَد، الصّبور الذي لا يحبّ الطّرق الممهّدة، ويسلك الدّروب الوعرة ليبحث عمّا ضيّعه من ذاته. كانت العندل رفيقته التي تأنسه في هذه القفار، جُمالِيّةً وَجْناء، لونها الأصهب وحدقتا عينيها يذكّرني بصفيّة وعشيرتي ولا أدري لم...؟!
- فُكّ عنك يا زيد، ولا تبتئس ما دمنا معا، وما دامت العندل مطيّتك.
سكت ولم يُجبني كعادته في أحايين كثيرة، ناظرا إلى امتداد الصّحراء التي بقدر ما تريح تزيد تيها.
- لم لا تعود معي وأنا سأكفلك عند عمّك الخطاب وأسياد قريش؟

- أنا لست نادما على قراري، ولو وقفتْ بطون قريش كلّها ضدّي، مكّة لم تعد تسعني منذ تلك اللّيلة التي أوسعني شبابها النّزق ضربا، لم أعد أشعر بالرّاحة في أرضها ولا سمائها.

نهج جدّنا مبتغاي، ولكنّي لا أدري أين أجده؟

لا أدري أين أجده...

رفع صوته عاليا في الظلام.

***

كانت الأيّام تقودنا إلى أسئلة أخرى تحيط بنا وتنفتح على الفؤاد، نرتحل مع الرّمال، تحوينا الصّحراء وتعجننا بكثبانها، نتوحد معها، وتزداد الأسئلة إلحاحا.

لم يجد زيد ما يطفئ ظمأه، ظلّ طيلة رحلتنا متشقّق الشّفتين رغم أنّه كان يحمل ما يكفي من الماء في سقائه، عيناه إلى أعلى... لم يقر على قرار. أمّا أنا فكان ماء الإيمان يغسلني وينأى بي عن هبل والعزّى وإساف ونائلة... صارت ماضيّا أشعر بالسّخف كلّما تذكّرته وأخجل من نفسي، أمّا زيد فظلّ على عناده.

- لم لا تتنصّر مثلي، وتعود إلى زوجك وأهلك؟ ألم تتعب من هذه الصّحراء، ألم تشتق إلى البيت العتيق؟

- ليس بعد، أشعر أنّي لم أخلق لأكون على هذا النهج، لا أريد أن أعود إلى البيت مع حيرتي. أريد نهج جدّنا إبراهيم، وأشعر أنّي سألتقي قريبا بمن يضعني على هذا الدّرب.

تضييق قومي عليّ امتحان لأثبت رغم أنّي أسير في طريق لا أعرف نهايته وما يجرّه عليّ... أو أركن إلى ما ألفناه من دين آبائنا، السّراب يغريني لأتوه فيه بحثا عن نفسي، لم تركت عشيرتي وأهلي وهمت في صمتها، واستبدلت مكّة داري وأهلي بكلّ هذه الأسئلة؟!

الصّحراء صمت ناطق، يهمس لكلّ عابر أنّ تلك الآلهة محض ضلال وغواية، صنعناها من أوهامنا على هيئة ما نراه حولنا ثمّ عبدنا خيبتنا وصممنا وبكمنا وعمانا فيها، أهذا اليقين الذي أتيه لأجله وتهجرني زوجي وتؤذيني لأجله عشيرتي؟ صاح في صمتها ببحّته التي صنعها دمعه:

أَرَبا واحدا أم ألف ربّ أدينُ إذا تقسّمت الأمور

وفي صباح لاعبت رمالَه الرّيح التي هبّت بقوّة ليلة كاملة صحوت وأنا أفرك عينيّ منها، وأنفض ثيابي، فلم أجده بقربي. قال لي ليلتنا السّابقة ونحن في طريقنا للقاء حبر قمران:

- عد إلى أهلك، فقد وجدت مبتغاك، ويكفي ما لقيته لأجلي، لا أريد أن أثقل عليك.

- لن أعود إلاّ وأنت معي، يبدو أنّك تبحث عن المستحيل.

التهمته الصّحراء وغاب بين فكّيها... شعرت يومها أنّها ترميني في قعر يستحيل الخروج منه وتغمرني برمالها. كان يقيني مجرّد وهم، وتأكّدت أنّي تائه فيها...

جريت رغم وهني كالمجنون، حتّى قبل أن يجري الدّم في جسدي فور أن فتحت عيني، كنت خائرا ويائسا كقشّة. أردت أن أعوي كذئب ضيّع قطيعه، ولكنّي كنت أدفع بقدميّ للرّكض لعلّه لم يبتعد، ولأوّل

مرّة وأنا أجلس إلى النّار وحيدا آنسني صوت عواء الذّئب، والرّيح تزيده قوّة كأنّما تنفخ فيه، وهي تديره في هذه القفار. أراه وراء التلّة تبرق عيناه، أغبر، ضامرا، لعمري إنّه مثلي.

- يا صديقي، تبدو كمن يبحث عن شيء مثلي، شيء لا يدعك تنام... أترانا سنجد ما ضيّعناه؟ عم مساء أيّها الذئب، فغدا للبحث بقيّة.

جريت يمينا ثمّ استدرت إلى طريق الشّمال، شرّقتُ وغرّبتُ بعد أن امتطيت ناقتي، ليس في هذه الجهة ولا تلك، كلّ الصّحراء متشابهة، طوّقتني بامتدادها الذي لا حدّ له زمنا لم أعرف قدره إلى أن حلّ الظّلام. ولمّا يئستُ جلست على الرّمال أستعيد كلامه في اللّيالي الأخيرة التي جمعتنا.

شعرت أنّي كنت كلّما أردت أن أثنيه عن قراره ازداد إصرارا، وكلّما اقتربت منه زاد نأيا، كان سرابا... أتراه كان قراري مجرّد وهمٍ أمام يقينه؟

ليلةٌ أخرى بمفردي... بين خوفي وشكّي ويقين زيد، وافتقاده، شعرت بالبرد، ملأتني رعدة تدّثرت بعدها دون جدوى إلى أن عاد إليّ بعض الهدوء. تراتيل الرّاهب الرّومي تسكن فؤادي، وماء التّعميد يغسلني ورئيس الكنيسة يصبّه فوق رأسي... أفقت في ساعات الصّباح الأولى وقد غمرني الماء حتّى غُمّ عليّ، وظننتها آخر شهقة. فتحت عينيّ، فإذا بالرّمال تملأ وجهي ومنخري إثر اشتداد العاصفة الرّمليّة.

فقدت يقيني بعد أن لم أجد زيدا، مكانه الخالي أربكني، أيّ يقين كان زيد بالنسبة لي رغم أسئلته ورغم أنّه كان يبدو لي ضائعا؟! تساءلت

عن استسلامي للرّاهب، وتعميدي أكان مجرّد ردّ فعل وركونا بعد تعبي أمام السّفر والارتحال أيّاما وأشهرا وسنين أم كان يقينا؟ بقيت معلّقا بين زيد وإصراره وشكّي وريبتي.

بقيتُ أيّاما رمليّة هائجة أبحث عنه، لم أدر كم طالت، عشرة أيّام، عشرون، شهرا، أم شهرين... أتزوّد من المدن المتاخمة ثمّ أعود أسأل عنه. أين تراني أسأل عنه، ماذا أقول لهم، رجل يبحث عن طريقه يجوب الصّحراء على راحلته، يحمل أسئلته ولأجلها ترك أهله وماله وعشيرته...؟! شعرتُ بالجنون، كنت أبحث عنه دون جدوى، أوقف القوافل وأسألهم، وأتفقّد المرتحلين لعلّه سقيم بينهم أو جريح، ولكنّه كان كالملح الذي ذاب في كوب ماء دافئ.

كانت الصّحراء خاوية خواء نفسي، والشّمس تنفث نارها على رأسي ثمّ تنفخه كأنّما تتقصّد أن تطردني من أرضها، وتطلب منّي أن أعود، كأنّما تقول لي يكفي أن فقدت صاحبك، فقيد السّؤال.

عدت بعد أن نضب الماء منّي ذات شمس حارقة لن أنساها ما بقي لي نفَس، وكدت أموت عطشا بعد أن طردتني الصّحراء دون أن أشمّ رائحة زيد أو أجد له أثرا، وأنا أهتدي بمنارات الطّريق، يائسا بئيسا كحبّة رمل أفردتها الرّيح عن الجماعة وعبثت بها. كان زيد هو الجماعة في عينيّ.... أدركت عندما كُتب لي عمر جديد بعد أن كدت ألقى حتفي أنّه يستحيل أن أمسك بالطّائر الحرّ.

عدت إلى مكّة التي لم تعد تعني لي شيئا دونك يا صديق العمر... يا أخا لم تلده أمّي كما قلت لي أثناء سفرنا وأنت تبتسم، سوى أنّها أرض

الموعود بعد أن أعلمني دانيار الأصبهانيّ بما قاله راهب البلقاء، وتلك حكاية أخرى. لأجل ذلك فقط صبرت على تلك السّنوات، وعلى انطفاء عينيّ لأرى بقلبي وسكينتي ما تمنّيتَ أنت أن تراه وتشهده.

لقد آن أوانه، ولكنّي وحيد دونك في هذا الظّلام.

استيقظت الصّحراء فيّ بعد كلّ تلك السّنوات، وذكرى زيد وأنا أكلّم محمّدا وأمتلئ باليقين...

-هذه أنت يا قتيلة. أقبلي يا أُخيّة، لقد آن أوان الموعود، لقد بُعث المخلّص.

تنازعها السنّ والكبر وارتعاشة في رأسها:

- أتقول الموعود؟ لقد صدق العرّافون إذن...

***

قبل خمس سنوات عند عتبة هذا الباب، باب بيتي... جاءني رجل يبدو غريبا عن ديارنا، بسحنة غير سحنتنا نحن المكّيّين ولا من جاورونا. رجلٌ يقارب الثّلاثين، ولكنّ عينيه كانتا تشعّان كطفل في العقد الأوّل. طرق بابي وسألني:

- أأنت ورقة بن نوفل؟ قسّ بني أسد؟

- نعم.

- أنا دانيار من أصبهان، حدثني عنك زيد بن عمرو بن نفيل.

انتفضت من مقامي وشيء من الدّهشة أربكني بعد أن خضّني لفظه لاسم زيد الذي لم أسمعه منذ زمن، وأعادني إلى الصّباح الذي رحل

فيه وتركني وحيدا في الصّحراء. استيقظتْ في نفسي مشاعر فرح ونهمٌ لا يحدّ للسّؤال، فبادرته حتّى قبل أن أقوم بواجب ضيافته:

- أين هو؟ وأين التقيتما؟

- أمّا عن أين هو، فهو لم يعد على هذه الأرض.

قالها مطأطئ الرّأس ومسحة من حزن ملأت وجهه وسرت إليّ. لم تدم فرحتي طويلا، رجّني كلامه، كنت كمن رُفع إلى أعالي السّماء وحُلِّق به ثمّ ترك على حين غرّة ليسقط على وجهه. تمنيت لو بقيت على أملي وانتظاري، تيبّستُ كصنم أخرق ثمّ عدتُ إلى جلوسي خائرا لا أنبس ببنت شفة...

- كنت إلى جانب سيّدي إلى آخر نفَس له، كان يعدّ الخطوات ليصل إلى مكّة، لم تسعه فرحته إلى أن سطت علينا جماعة لصوص وقطّاع طرق في أرض لخم. قبرتُه هناك وجئت لأخبركم.

- الرّجل الحكيم العارف الذي لا يؤذي نملة قُتل.

تقطّعت الكلمات في حلقه:

- لم أستطع أن أنقذه رغم أنّه وهبني الحياة، كانوا جماعة مسلّحين داهمونا على حين غرّة.

- زيد مات مقتولا من جماعة لصوص سفلة قضوا على كلّ أحلامه، لم يمهلوه حتّى يحقّقها.

ملأتني حينها حسرةٌ وهو يقصّ عليّ ما حدث لزيد لو وُزِّعت على أهل المعمورة كلّهم لوسعتهم.

بكيت بحرقة ضياع أسئلته وحياته كلّها بحثا عن الحقيقة على يد لصوص من أجل كيس دراهم. أيّ سخف تخفيه لنا الحياة؟! زيد الذي ترك قومه وجاب البلاد سائلا سنوات لم يقرّ له قرار يؤول إلى هذا المآل.

لم أستطع أن أصدّق هذه النّهاية التي قُدّرت له، ولما أفقت من خيبتي طلبت منه أن يروي لي كلّ شاردة وواردة عمّا حدث بينهما، وما رآه منه. أردتُ أن أستعيدك يا أخا لم تلده أمّي، وأستعيد نفسي معك...

- كان أوّل لقاء لي معه طريفا، تبسّم وغصّة في عينيه المبتلتين تجرّعها وأتمّ حديثه، في موقف كدت ألقى فيه حتفي، وأنا أخرج من الدّغل المطلّ على المعبد الشرقيّ الذي كنت أختفي وراءه في ظلمة اللّيل. أمسك بعنقي وكاد يدقّه، ثمّ رجّني رجّا وعاد إلى كتم أنفاسي ثانيّة، ثمّ أطلقني وقد كاد يغمى عليّ.

- من وراءك؟

لم أشكّ لوهلة أنّه سيقتلني، ولكنّه عندما ضربني بمزوده على رأسي ولم يعمد إلى غمد سيفه، أيقنت أنّه ليس في نيّته الإجهاز عليّ، ثمّ لطمني به في ضربة أخرى على وجهي زاجرا:

-لِم تتعقّبني، وتختفي وراء هذا الدّغل؟ من وراءك؟

التقطت أنفاسي وأجبته مستعطفا:

- أنا لا أتعقّبك يا سيّدي.

- أنت كاذب، هذه المرّة الثانيّة التي أشعر بك تراقبني، أَطَلبَ منك سيّدك ذلك؟

- لا لا... لا دخل لسيّدي بالأمر، لا يذهب تفكيرك بعيدا.

- إذن لِم تأتي هاتين اللّيلتين على التّوالي إلى هذا المكان؟

-....

-من وراءك تكلّم؟ هل من مكّة من يدفع لك لتأتيه بأخباري؟

-لالا يا سيّدي، ما لي ولهذه الأرض البعيدة، لا أعرف أحدا من ساكنيها.

عاد إلى كتم أنفاسي بذراعه القويّة ولوى يدي إلى الخلف، فأشرت بيدي الأخرى نافيا، حينها فقط أطلق سراحي، فعادت إليّ الحياة.

- أقسمُ عليك يا سيّدي بمن أراك تصلّي له، وتتكلّم إليه أنّ أحدا لم يطلب منّي أن أراقبك.

- إذن لماذا تتعقّبني، تكلّم؟

سكتتُ لحظات ثمّ أجبتُ:

- راعني إلهك الذي لا تراه، ونحن نرى معبودنا، ومع ذلك تناجيه كلّ هذا الوقت من اللّيل.

نظر إليّ مبتسما وقد تغيّرت ملامحه، ودعاني للجلوس، وقدّم لي ماء لأشرب، وأراد أن يدفع عنّي الخوف ويعتذر فناولني بَلَحتين وقال:

-هذا من أرض الحرم، اشتريته من أحد الباعة المتجوّلين.

وتركني هنيهة لألتقط أنفاسي.

- أنت خادم الحجرة المقدّسة... رأيتك تخرج أكثر من مرّة من إيوان المعبد.

- أجل يا سيّدي.

- قصّ عليّ قصّتك، تبدو غريبا عن هذه الديّار كما تُظهر سحنتك.
- أنا من أرض جور بأصبهان، اشتراني سيّدي الأوّل وأنا لم أتمّ العاشرة، ونذرني لخدمة المعبد والنّار المقدّسة. أرأيت تلك الحجرات التي تتغذّى منها النّار؟ أنا من يصنع ذلك الفحم ويرتّبه بعد أن أجهّزه في شوالات وأضعه في خزانات الإيوان، كما أجمع الهوما النّبتة المقدّسة من الحقول ثمّ أنقلها إلى حجرات خصّصت لذلك... وأتولّى إضافة إلى ذلك إعداد البخور.

رويْتُ له عن سنوات خدمتي في المعبد وحياتي الرّتيبة في الحيرة، البلدة التي أذكرها أكثر ممّا أذكر مسقط رأسي وعائلتي بأصبهان التي لم يترك لي الزّمن منها سوى بقايا صور أنعم بها، ولا أدري إن كانت حقيقة أم نسجها خيالي وأنا أرى حنو الآباء والأمهات على أولادهم وتعلّقهم بالدّيار التي يسكنونها، وأنا لا أب لي ولا أمّ ولا بيت. من هذه الصّور التي تعلق بذاكرتي ما كانت تصنعه أمّي في أعياد النيروز من طعام وحلوى وتزيين للبيت على بساطة احتفالنا، وسرقتي لقطع الحلوى المفضّلة لديّ التي تعدها خصّيصا لهذه المناسبة، وثمرة السنجد البريّة، ولمّا اكتشفت أمّي الأمر شكتني لأبي فأوسعني ضربا حتّى راحت تتوسّل إليه وتطلب منه أن يعفو عنّي.

أذكر وجهها وهي تمسح دموعي وتقول: لا ينبغي أن يبكي الأطفال في العيد، امسح دموعك واخرج للّعب مع أقرانك. كنّا نتراشق بالماء وصورة والدتي وهي تضع على طاولة الطّعام مرآة ونسخة من الكتاب المقدس علمت فيما بعد أنّه الأفستا، تبدو لي حقيقيّة. أفعلا هذا وجه

أمّي وذاك أبي وتلك أعياد النيروز في قرية جور أم هو ما صنعه اشتياقي ونسجته غربتي.

قصصتُ له أيضا عن سيّدي الأوّل الذي كان أحد هرابذة المجوس، وعن لؤمه وجشعه الذي تراءى لي في وضح النّهار ذات ليلة قمراء.

- هل اكتشفت سرّه بتعقّبه كما فعلت معي الآن؟ هذه عادة سيّئة لديك.

- نعم يا سيّدي، فأنا يجفوني النّوم ليلا وأنا أتذكّر عائلتي، وتطوّح بي الأفكار فأسمع دبيب النّمل، وأكتشف خبايا النّاس.

كان يجمع العطايا والهبات من الفقراء ويعدهم بالمغفرة ورضا الربّ وشفاء مرضاهم، وكنت أجلّه أيّما إجلال إلى أن سمعت ذات ليلة صوتا غريبا قادما من حديقة المعبد. اقتربت متخفيّا إلى أن أدركت الصّوت، كان صوت حفر. هالني منظره وهو يُخرج جرّة ويضع فيها كيس النّقود ويعود إلى إهالة التّراب عليها ودفنها تحت الأرض، رأيته يفعل ذلك أكثر من مرّة خاصة في مواسم التبرّك والهبات.

ولمّا مات ولاحظ النّاس أنّي لم أذرف عليه دمعة، هو من رباني ولم أعرف أحدا غيره، رغم حضور أفواج كثيرة في مأتمه وتأثّرهم الشّديد بموته. استغربوا الأمر وألحّوا عليّ في السّؤال، فأخبرتهم أنّه كان يخدعهم، ودللتهم على مكان الجرّة، فإذا هي ثلاث جرار مملوءة ذهبا وفضّة. هاج النّاس يومها وشتموه ميتا ورموه بالحجارة، ورفضوا الصّلاة على جثمانه.

أمّا سيّدي الثّاني فهو كما ترى يخلص للنّار المقدّسة ويهب لها حياته.

- وأنت؟

- ماذا تقصد؟

- لمن تخلص؟

- أنا مع دين سيّدي! حبّ النّار المقدسة يملأ خاطره وعقله.

- وأنت؟

-.... أنا من يشعلها!

- أتملأ خاطرك وعقلك؟

- تملؤه...

- لِم تشعلها وتهتم لأن تبقى مشتعلة مادامت في قلبك دائمة الاشتعال، وتملؤك كما تقول؟

إنّ معبودنا يملأ الفؤاد دون أن نحتاج لنراه.

ردّ بعد طول تفكير:

- نشعلها لمن هم مثلك لا يعرفون معبودنا الأزليّ، وينقصهم اليقين.

- أهذا إلهكم الذي لولاكم لما كان، أنتم من تهبونها الحياة، ولولاكم لظلّ معبودكم خامدا، الماء يطفئه وحفنة التراب. إنّ نور القلب أدوم من ناركم.

أيّ معبود يتغذّى من عباده، من الفانين من المخلوقات، أيّ معبود يخبو وينطفئ لولا النّبتة المقدسة إلاّ إذا كان فانيا هو أيضا؟! وإن كان كذلك فلا يستحق أن يُعبد.

- أنا أعشق سيّدي فهو من فتح عيني على الدّنيا، بعد أن لم أكن أعرف سوى تلك الغرفة الضيّقة التي أتشاركها مع جماعة من الرّقيق

وتلك النّار التي أرى سيّدي يحافظ على اشتعالها ويتوجّه إليها بالدّعاء، ويكلّفني بجمع النّبتة المقدسة لها، وتحضير الفحم.
هو من سمح لي بالتّردّد مرّتين كلّ أسبوع على كنيسة النُّقيْرة حيث يتعلّم الصّبية القراءة والكتابة وتعاليم نسطور، وإن كنت لا أختلف إلى هذه الدّروس إلاّ تنصّتا وفضولا، صرتُ أخطّ الحروف وبعض الكلمات في وقت قصير. هناك سمعت تراتيل الرّهبان من مشربيّة الحجرة، ما أشدّ إعجابي بها، ساحرة، غير الهمهمة التي أسمعها في المعبد.
تلفّت خلفه ثمّ تابع:
- ولكن أخشى أن يسمع سيّدي هذا الكلام.
كنت عند خروجي أصنع بورق البردي قاربا أحاكي فيه صانعي القوارب في البلدة وأكتب فيه رسالة ممّا تعلّمته في كنيسة النقيرة إلى أهلي بأصبهان أسألهم عن أحوالهم، وكنت ألعب مع طفل تنوخيّ من عرب الضّاحية، يشتغل والده بالزّراعة وتربية الماشيّة، وهو من علّمني صنع القوارب. كانت حياتي جميلة هناك ومختلفة، وهي الوقت الوحيد الذي أقضيه خارج المعبد برفقة صديقي التّنوخيّ، في طريق العودة من الكنيسة عند النّهر الذي كان يروي البلدة بأكملها. صدق سيّدي الأوّل الذي كان يقول عن طيّب هواء البلدة ما حفظته عنه"يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة" رغم أنّه شخص كاذب خائن إلاّ أنّ هذه كلمة صدقٍ قالها.

هناك في معبد النّار التقت عيناي لأوّل مرّة بسيّدي زيد الذي نزل ضيفا على سيّدي ومولاي أحد هرابذة المجوس، هو من فتح عيني الأخرى على صلواته، وكنت قبله شغوفا بما رأيته في كنيسة النقيرة.
عالم ساحر من الصّلوات بعيدا عن النّار التي قال لي سيّدي المجوسيّ هي المعبود، ولكن كيف لهذا الإله أن يكون لولانا، نشعلها ونهبها الحياة وإلاّ ظلّت خامدة، ولولا ذلك الفحم الذي أعدّه والنّبتة المقدّسة ماذا كان سيحلّ بالنّار؟
هؤلاء النّصارى الذين كنت ألقاهم في الكنيسة يعبدون ربّا مختلفا...
قال لي سيّدي الطيّب المجوسيّ:
- نحن يا ولدي نرى معبودنا وهم لا يرونه.
- أيّ معبود ينتظر الحياة من عبدته، ويحتاج لأن يحرسوه؟
ردّ عليّ آسفا:
- أرى أنّ السّنوات التي حظيت بها في بيت النّار المقدّسة وشرف خدمتها الذي وهبته لك لم يصنع منك العبد البارّ الذي يليق بخدمة سيّد هرابذة المجوس.
لم يكن سيّدي يعلم أنّي أستمع إلى التّراتيل في الكنيسة ويمتلئ بها وجداني، وقد أشاركهم صلواتهم ودعاءهم كلّ أيّام الآحاد وهم يلحّون متضرّعين:
يا نسطور ليرحمك الرب.
-اذهب للنّوم يا دانيار فقد تأخّر الوقت، ولا تؤاخذني على ما فعلته معك، كدت أقطع أنفاسك، يبدو أنّنا لا نختلف كثيرا...

- ماذا تقصد يا سيّدي؟

- اذهب للنّوم واتركني لمناجاتي وأسئلتي.

وبعد ليال من هذه الحادثة، وقبل خلودي إلى النّوم دخل سيّدي الهربذ غرفة الرّقيق على غير عادته، ودعاني ليخبرني أنّي سأغادر باكرا برفقة سيّد جديد اشتراني منه وطلب منّي أن أحضّر نفسي، ودسّ في يدي بعض المال. كنت حزينا وتائها، لكنّي لم أقل شيئا، وشعرت أنّ سيّدي الطّيب حررّني من خدمة النّار بعدما قلته له، ولم يعد راغبا في خدمتي.

وفي الصّباح غادرت إلى الموصل مع سيّدي الجديد، وكانت مفاجأتي كبيرة ومدهشة عندما علمت أنّه ليس سوى سيّدي زيد، وكانت أعظم عندما خيّرني بين أن أبقى معه، أو أن أذهب إلى حال سبيلي. نظر إليّ نظرة لم أفهمها حينها وقال:

- أنت حرّ يا دانيار.

بكيت عند قدميه... ولم أدر ساعتها إن كنت فرحا أم تائها، شعرت أنّ ظهري بلا سند، وأنّي لأوّل مرّة منذ قدومي إلى معبد النّار، في العراء بمفردي، عاريا من كلّ شيء. واختلطت عليّ مجموعة من الأشياء، لِم لست في بيتي، وأين بيت النّار الذي تصوّرته بيتي وتصوّرت أنّي لن أغادره ما دمت على قيد الحياة؟

أدركت في نهاية المطاف أنّي في الحقيقة لم يكن لي بيت منذ اللّحظة الأوّلى.

رجوته أن يرحل معي إلى قريتي جور حيث يقيم والداي. سألت عنهما ولكنّي أُعلمت أنّهما تُوفيّا، ولم أجد لهما أثرا، وبدا لي بقايا بيت تصوّرت أنّه بيتُنا، وضيعةٍ صغيرة نسجتُ طفولتي فيها أو أحببت أن تكون ضيعتنا. أُخبِرتُ أنّ أهله توفيّا بعد أن اشترى البيت رجل موسر لم يستطيعا دفع الدَّيْن له فعملا عنده واستأجرهما إلى أن غابا. عدت مع سيّدي زيد يائسا متّجهين إلى الشّام، وصورة البيت الذي اعتقدت أنّه بيتنا في الضّيعة تملؤني، وذكرى أعياد النّيروز وثمرة السّنجد...

أنت يا سيّدي تركت بيتك لتهيم في هذه الصّحراء لا أدري عمّ تبحث، لكنّه يبدو أمرا كبيرا يستحقّ... وأنا لا أبحث سوى عن أربعة جدران، عن بيت يأويني.

- الوطن الحقيقيّ هو الملأ الأعلى، وهناك نجد آباء... هكذا حدّث أفلوطين شيخ مصر يا دانيار فلا تقلق.

قال لي زيد وفي عينيه راحة كبيرة لم أره عليها قبل تلك اللّيلة.

***

تركت خلفي أسوار المعبد واستقبلت المروج الخضر والبساتين، نهما إلى الحياة، إلى دفئها، أكتشف للمرّة الأولى السّجن الذي كنت أحيا فيه، وقدمَيّ وهما تلامسان العشب النّديّ وتقضيان ما شاء لهما من وقت، لا أصحب معي شوالا لوضع النّبتة المقدسة ولا لصنع الفحم، أبيت في العراء لا في بيت الرّقيق، أنام الوقت الذي أريد وأصحو ساعة أشاء. هاهي الشّمس والزّهر والبستان لا تحتاج منّي أن أخفي أنفاسي

عنها، لا يحجبني عنها حاجب وهي في عنان السّماء ولا تحتاجني لتحيا، بل يحتاجها الإنس والزّهر والبستان، هي جديرة بأن تُعبد ويعتكف لأجلها في هذا الجمال الذي يأسر اللبّ، ليست كالنّار التي كنت أخفي أنفاسي عنها حتى لا أدنّس طهرها وأنا أطعمها.

لم أرد أن أقيم في بيت غير بيتي، لذا كنت أبحث عن بيتي في كلّ مكان أحلّ فيه بعد أن غادرت بيت النّار، وكنيسة النقيرة، حتّى عندما اشتراني سيّدي زيد وخيّرني بين أن أظلّ معه أو أرحل، كنت أبحث عن بيت أشعر بأنّي جزء منه وهو جزء منّي.

تساءلت دوما لم أقمت في بيت غير بيتي، بيت النّار، وجعلت أمري تحت رحمة سيّدي الجشع الذي خان ثقة زوّار المعبد... ومنذ ذلك الحين وأنا أبحث عن بيت.

بعد أن اشتراني من سيّدي الحيريّ وحرّرني وخيّرني، وآثرت طريقه بعد أن لم أجد أحدا من أقاربي في قرية جور، صحبني معه إلى الشّام بعد أن مررنا بالموصل وجبنا الجزيرة كلّها، ولكنّي لم أجد البيت الذي أبحث عنه، ولم أفهم حينها الشّيء الذي يبحث عنه.

قال لي ذات ليلة ونحن نجتمع على النّار:

- لم أترك ديرا إلاّ طرقت بابه ولا راهبا إلاّ سألته. أقمت بينهم أعرف دينهم وكنت كلّما لا أجد ضالّتي أتسلّل صباحا وأخرج من حياتهم لأبحث من جديد.

وكثيرا ما رأيته في خلواته يدوّن على بعض اللّفائف التي كان يحملها معه ملاحظاته عن الأماكن التي يصل إليها وما يراه وما يسمعه.

أخبرني أنّه يبحث عن صحف عشر لمن يسمّيه جدّه إبراهيم لم يجدها، وفي كلّ مرّة يشدّ الرّحال إلى مكان يُبلَّغ أنّها قد تكون فيه، وآخرها ما تناهى إلى سمعه من أنّها قد تكون عند ناسك يهوديّ موصليّ يخفي مجموعة أسفار قديمة ولفائف في جرار من فخّار تحت الأرض. لكنّه لم يجد شيئا ككلّ مرّة، رأيت ليلتها صفاء في وجهه رغم وعثاء السّفر، وجهه الأسمر كان مشوبا بحمرة شديدة. نظرت إلى لحيته التي اختلط سوادها ببياضها فتأكّد لي أنّه غاية في الحكمة والصّبر أيضا.

وفي منتصف اللّيل عندما أسلم نفسه للدّعاء والصّلاة، مناجيا ربّه في خلواته، وصار الصّوت القويّ متهدّجا خافتا، حينها تملّيت منه. في وجهه ذكاء وطبع أَبِيٌّ لم أعهده لا في سيّدي الأوّل ولا في سيّدي الثّاني في معبد النّار.

جميل محيّاه في وسامة، رغم أنّه كما بدا لي قد ترك الشّباب خلفه منذ زمن طويل، وفي عينيه الواسعتين اختبأ كدر قديم لم أفهمه.

أشبعت نظري منه ومن ملامحه التي كانت تدهشني، ويحيّرني أمره، هذا الذي ترك الأهل والسيّادة وهام على وجهه، وأنا الذي لا أملك شيئا وأبحث عن بيت يأويني.

- ألا زلت مستيقظا يا دانيار، نم ينتظرنا سفر طويل.

- وأنت يا سيّدي ألا تتعب؟!

- أنا... لا تلتفت إليّ، عندما يكون التّعب هنا، وأشار إلى صدره، يكون نيل الرّاحة صعبا. سأنام هذه السّويعات قبل أن ننطلق.

حدّثني ليلتها عن حبه لامرأة ملكت قلبه، حكى لي عنها أشياء ما كنت لأذكرها، فقد كان متعبا ويائسا، كان ألمه كبيرا.

... مشينا طويلا تحت حرّ الشّمس إلى أن همّت بالمغيب، توقّف بعد أن أبصر شيئا واستقرّت عيناه عنده:

- حسنا لنصعد إلى تلك الصّومعة في أعلى الجبل، لعلّنا نستطيع أن نبيت فيها ونستريح ثمّ ننطلق عند الفجر.

أحضر لنا راهب البلقاء خبزا وزبيبا وعسلا شاميّا وزيت زيتون، ودعانا للإفطار فاجتمعنا عليه ولم نشعر إلاّ وقد مسحنا الصّحنين ولم نترك له شيئا، واكتفى هو ببضع لقيمات رغم أنّه كان صائما.

- ما أطيب هذا الخبز!

- من حنطة هذه المزارع، أعددته بنفسي.

- تسكن في هذه الصّومعة وحيدا، من أين تقتات؟!

- أزرع بعض الحنطة ممّا يكفيني، وأربي بعض الماشية، وأشتغل بالنّسيج، هذا كلّ ما أحتاجه في هذه الحياة.

كانت اللّيلة وضّاءة بالقمر الذي اكتملت استدارته، جلست مع سيّدي زيد نستمتع بسحرها، ولم يخطر على باله أن يسأل الرّاهب عن ضالته التي ترك لأجلها كلّ شيء خلفه. أتمّ صاحب الصّومعة أشغاله فاطمأنّ إلى ماشيته ووفّر الماء لها ثمّ لحق بنا إلى قمّة البناء.

-أأنتما تاجران؟

- بل مرتحلان؟

- ممّن؟

- أنا من مكة، وهو من جور وعاش جلّ شبابه في الحيرة.
- إلى أين ترتحلان؟
- بغير وجهة، نسافر في البلاد.
- أتبحثان عن شيء؟ اعذراني على تطفّلي، ففي وجهيكما شيء.
- ذاك حديث طويل، يئست منه.
- أخبرني لعلّك تجد عندي ضالتك، ومسح على لحيته البيضاء ووضع كتابه جانبا.
- أبحث عن صحف إبراهيم.
تنهّد الرّاهب الشّيخ:
- كان إبراهيم أُمّة وحده، أراد أن يرى الله... إنّك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، إنّ الصّحف التي تبحث عنها قد تناسخت من قديم الزّمان ولم يبق منها شيء، وفُقدت من أيدي البشر، لكن سيُبعث نهجه على يد نبيّ من بلادك.
وها قد أظلّ زمانه، يخرج من البقعة التي خرجت منها، يبعث بدين إبراهيم الحنيفيّة.
- من بلادي، من مكّة؟!
- أجل من مكّة... اِلحقْ به، فإنّه مبعوث الآن، هذا زمانه.
-شاممْتُ اليهودية والنصرانية فكرهتهما، واغتربت عن قومي لكراهتي في عبادة الأوثان، فجبت كثيرا من البلاد، من راهب إلى حبر، ومن كنيسة إلى صومعة إلى دير، وحاجتي في مكّة، لم مكّة؟!
سكت هنيهة متفكّرا ثمّ تابع في استغراب:

- أهو في المكان الذي تركته وهمت على وجهي كلّ تلك السّنوات لأجله. أكان عليّ أن أجد ضالتي حيث كنت أقيم، أكلّ ذلك الاغتراب وهو بين ظهرانينا، أمام البيت العتيق، أكان يجب أن أرحل كلّ هذه المدّة لأعرف الآن أنّه هناك، وسيخرج من البقعة التي أنشأتني بحجريتها، وعِبثُها وعابتني وتركتها ورفضتني وهمت على وجهي؟

أيعقل أنه سيبعث هناك؟!من مكّة؟! من بين تلك الأصنام والحجارة؟

أفي تلك البقعة التي يحمل أبناؤها كلّ تلك الغلظة والجفاء والنبذ؟!

-هذا ما أراده الربّ تقدّست أسماؤه... أتركك ما تستريحان.

برقت عينا سيّدي زيد وطار النّعاس منهما وهو لا يصدّق أنّه ترك بغيته في بلاده وهام على وجهه كلّ تلك السنوات. بلعت الدّهشة لسانه وفكّر طويلا وهو في فراشه لا يغمض له جفن ينظر إلى سقف الغرفة، إلى أن استدار إليّ وقال:

- أتعلم ليلة كنتَ مختفيّا في الدّغل ترقبني، اللّيلة التي كنت قاسيا معك وكدت أكتم أنفاسك، اعتقدتُ أنّ عمّي وأخي الخطّاب قد أرسلك لتتعقّبني وتعيدني إليه أو لتقتلني، أو أنّ زوجي أرادت أذيّتي بمن تبعث بهم، أتتصوّر أن زوجي وعمّي يفعلان ذلك؟

- عمّك وأخوك كيف اجتمع الأمران؟ يتعقّبك ليقتلك؟ وزوجك، لم أفهم شيئا.

- من عادة العرب أن يتزوّج الرّجل امرأة أبيه فتزوّج أبي الذي هو عمرو بن نفيل امرأة أبيه فولدتني وكانت ولدت قبلي الخطاب، فكان

الخطاب عمّي وأخي لأمّي، لأجل ذلك أراد أن يسيطر عليّ، فحبسني وسلّط عليّ شباب قريش ليرقبوني.

حكى لي ونحن أعلى الصّومعة بعد أن انصرف الرّاهب إلى صلاته لأوّل مرّة ما حدث له، وخروجكما من مكّة وضياعكما في كثير من البقاع تسألان عن بغيتكما. تصوّرتُ أنّه فقط من ليس له بيت مثلي هو من يعيش وحيدا منبوذا، يبحث عن بيت يقرّ إليه.

كانت عيناه تشعّان، ولم يستطع النّوم ليلتها، أخرج جرابه وشمّ التّراب الذي بداخله وحدّثني لأوّل مرّة عنه وعن الوشاح.

روى لي اشتياقه لولده وأهله وتراب مكّة والبيت العتيق، تذكّر أذى عمّه الخطاب وزوجه فبكى غربته وقسوتهم. لم أتصوّره يبكي بعد ما رأيت من قوّته وجلده، ثم مسح دمعه وقال:

- سأبدأ حياة جديدة، فقد وجدت الآن من ينسيني كلّ ذلك، المنتظر، لكن لا أدري إن التأمت جراح القلب بعد هذه المدّة.

تغيّرت ملامحه وتهلّل وجهه وهو يسأل: ترى كيف صارت مكّة؟

لم أر ولدي من فاطمة بعد ولادته إلاّ مرّتين، أرسلت إليّ قبل وضعها وأنا في الغار تسألني ماذا تحبّ أن تسميّ ولدك؟ انسحبتُ بنبذي وشجني ودخلت مكّة مضطربا لألقاها وأقول لها:

- سعيد، أحبّ أن أسمّيه سعيدا.

- قلبي يحدّثني أنّي سأنجب ولدا، ماذا إذا كانت بنتا؟

- ستكون سعيدة أيضا...

- سيكون الصّبيّ سعيدا خيرا من أبيه صبيّا أو صبيّة، وسيعيش زمانا خيرا من زمان أبيه.

كانت فاطمة على خلاف صفيّة في كلّ شيء، هادئة سمراء كآراكة، حتّى خلخالها الخروس الذي كانت تحشوه قرنفلا يشبهها ونوارات الحناء التي لم تمّحِ مذ عرفتها من على باطن كفّيها وقدميها، تصنعها لها مزيّنة الحيّ بالخِطر اليمني... قالت لي بإلحاح وبوجه وديع في آخر ليلة لي في مكة بعد أن تسللتُ إلى الدّار لأتزوّد بشيء من المال والطّعام والثّياب وكثير من القوّة لا أجدها عند بنت الحضرميّ:

- ارحل وابحث عن طريقك وستجدني وولدك بانتظارك، سأحدّثه عنك، لا تقلق، عن صفائك كنبع غدير وقلبك الذي يضطرب كعاصفة رمليّة، وأسئلتك التي بدأت أنا أيضا أجد لها مكانا في عقلي الذي لا يفقه شيئا، وسأورّثها ابننا سعيد.

أنا مدين لها ولابني بهذا الحبّ الذي كلّما أوشكت على الانطفاء انتشلني. الحبّ ينفخ فينا حياة أخرى بعد أن نعتقد أنّنا على شفا الانهيار، ويرينا جوانب لم نكن نراها من الحياة، بل يشكّلنا من جديد ويرمّم ما انكسر منّا، وكنت بحاجة إلى جرعة منه بعد كلّ ما حصل. كان حبّها الذي أثمر في الصّحراء وعلمتُ قدره حين ابتعدتُ يداعب قلبي الذي أضنته المحن وأعيته أسئلتي، وينعشه.

قال لي بعد أن بدت عليه علامات التّعجّب والخيبة معا وهو يتذكّر زوجه التي آذته:

علمت بعد كلّ هذا العمر الذي انقضى أنّنا قد نعثر على الحبّ والتّفهّم في المكان الذي لا نتوقّعه، وأنّ الحبّ وإن كان جارفا وطاغيا فسيفتر حتما إذا ما قوبل بالأنانيّة والصدّ والخيانة.

أتراها مكّة ستقبلني يا دانيار بعد كلّ ما حدث، بعد أن تبرّؤوا منّي في سوقهم وأعلنوا عصياني؟ لم يبق لي منها سوى ما أحمله من ترابها وحصاها في الجراب كما أحمله في القلب، وهذا الوشاح الأحمر من صفيّة الذي لم أستطع أن أرمي به في الصّحراء رغم كلّ ما فعلتْ... وذكرى ولدي سعيد وهو نائم ليلا وفاطمة تحمله لتريه لي، فأقبّله قبلة عجلى من أب لن يقرّ له قرار، ولا يدري متى يرى ولده مرّة أخرى.

- تنتظرينني كلّ هذا الوقت؟

- لقد نام طفلنا.

بعث لي ورقة بأخته قتيلة لتخبرني بقدومكَ، ولكنّها لم تحدّد لي هل أوّل اللّيل أو آخره.

- حتّى أنا نفسي لم أكن أعرف متى أستطيع القدوم، انتظرت حتّى فرغ الطّريق.

- لقد نام طفلنا، قالت مرّة أخرى

أصحيح يمكن أن يبتسم لي القدر وينقلب الرّجل منهم إلى متيّم بفعل تميمة تدسّها المرأة في وسادته بعد أن وافقتْ إعراضا من امرأتك الأولى، كان عليّ أن أنتهز الفرصة.

ولا ينطبق عليك القول أنّ أسرع طريق للوصول إلى قلب الرّجل معدته.

قالت لي:
- دعني أنقع رِجليك وأدعكهما كعادتي كلّما قدمت إليّ وحانت نوبتي القليلة التي تجود بها عليّ بين الفينة والأخرى. تبدو متعبا
- لا وقت لذلك اللّيلة.
قعدتُ وسرحتُ ببصري بعيدا في الغرفة المظلمة جهة نوم الصبيّ، متفاديّا عينيها. لم يكن ينير الغرفة سوى نور قنديل ضئيل، ولم أقل شيئا، اقتربت منّي حتّى التصق كتفانا، وأرخت رأسها على كتفي، وأمسكت بيدي وأنا شارد، أو أدّعي الشّرود، فشبكتْ أصابعنا بشدّة، ثمّ تنهّدت:
- أجئت لتصمتَ؟! حتّى في ليلة الوداع هذه لا تستغني عن تأمّلك الطّويل وتفكيرك..
أنظر إلى عينيّ، فقط أريد أن تريحني من هواجسي...
-... تعلمين أنّ فكرةً تأخذ عقلي، وتشغل حياتي.
- أنا راضية بقدري، أنا من تزوّجت رجلا مختلفا قد يترك لأجل خاطرٍ الكونَ برمته.
-... أتسمّين هذا خاطرا؟ أنهج جدّنا إبراهيم مجرّد خاطر؟
- ما علمي بهذه الأشياء، أتركنا من ذلك، فقط انظر إلى عينيّ، وعدني أن تهتمّ بنفسك وسأنتظرك.
لا تعرف النّساء مثلي سوى الانتظار، انتظار أزواجهنّ أو مصائرهنّ، فمنذ ولدنا نرى آباءنا يخرجون للصّحراء ثمّ يعودون وليس لأمّهاتنا من حيلة سوى انتظار أوبتهنّ. حياتنا رحيل دائم لم نخيّر فيه.

استدرتُ ونظرت لأوّل مرّة ليلتها في عينيها:
- لم أنت هكذا يا فاطمة؟!
-ماذا تقصد بهكذا؟ أتقصد مختلفة عن صفيّة التي لا ترضى أن يشغلك عنها خاطر أو نهج أو أيّ شيء كان، تريدك أن تكون لها وحدها، كلُّك لها حتّى ولو كبّلتك بقيود الخطّاب.
لقد همستْ لخادمتها التي أخبرتْ طبعا خادمتي أنّك قد تكون عاشقا... وإلاّ لم هذا الشّحوب والصّمت والانصراف عن ملذّات مكة، خمرها وذبائحها ونسائها، وانشغال عقلك، والآن إصرارك على الرّحيل؟
- أتصدّقين هذا الهراء؟
- طبعا لا... أنا أعرفك، وإن كنت أنت لا تعرفني حقّ المعرفة.
حدّق في عينيها أكثر...
-... فطالما عهدتك في أكثر من مرّة وأنت برفقة أصحابك خاصّة إذا حضر ورقة، تتحدّثان حتّى الصّباح ويعلو صوتكما بما لا أفهمه، وقد لا تلتفتون إلى ما أعددته لك ولضيوفك من أصناف الطّعام والشّراب، وكلّ أهل مكّة يعرفون ذلك، تقتاتون من الكتب والأفكار وتلك اللّفائف التي تأتيكم بين الحين والآخر يحملها البريد إليكم أو التّجار... وكم من فكرة أسهدتكم إلى الفجر.
- أو لا تكون الحقيقة مُتطلِّبة؟ أَوَ لا تستحقّ؟
- أيّة حقيقة؟ علا صوتها حتّى خشيت أن يسمعنا أحد واغرورقت عيناها. تتركنا لأجل حقيقة لا تعرفها، ألسنا كلّ الحقيقة أنا وابنك

الذي من صلبك ومسقط رأسك ومرتع صباك وشبابك وكلّ أهلك؟
ألا نستحقّ نحن أيضا؟
كانت ضفيرتها الكثيفة الملقاة إلى الأمام تخفي الجهة اليمنى من عنقها الطّويل الذي ينحدر عليه قرط براق من خيوط فضيّة ينتهي بجمانتين، وخصرها مربوطا بحزام مبرقش من صوف، وكأنّما رأيت نضارتها للمرّة الأولى، تبدو فتية أكثر من ذي قبل، وعلى أصابعها بقايا أصباغ اشتغلت بها في سائر النّهار، وهي تلوّن الصّوف.
غيّرتُ مجرى الحديث بهذا السّؤال:
- منذ متى نام الصّغير؟
- منذ زمن طويل، أوّل اللّيل... انتظرْ سأوقظه، لابدّ أن يراك، فقد مرّ وقت طويل على نومه.
هزّته فلم يحرّك ساكنا واستمرّ في نومه إلى أن بللت وجهه بقليل من الماء، ولمّا بكى أرضعته ففتح عينيه ونظر إليّ نظرة لن أنساها ما حييت.
حملتُه ودفنت وجهي في صدره الصّغير الطريّ حتّى لم أعد أتنفّس سوى نفَسه الحليبيّ الحارّ، ثمّ أرفع رأسي وأعود إلى دفن وجهي عندما تغلبني العبرات.
وقفتُ لحظة أرمقها كأنّي أرى ذاك الوجه للمرّة الأولى ودفء تلك العينين، وغمرتني برهةً كأنّها العمر كلّه بذراعها الآخر، وأنا لا أطيق هذا الوداع فانسللت منها، ودسستُ وجهي مرّة أخرى في صدر سعيد فغمرني نفسُه الحليبيّ البريء الذي غلبته العفونة بعد تجشئه.

وكدت أضعف وأبقى لولا أنّها تشجّعت وقالت لي كأنّما هي امرأة أخرى غير التي شعرتُ بخوفها وارتباكها وهي تحضنني:

- نحن ننتظرك، فلا تطل الغياب...

حينها فقط سقطت من عينيها دمعتان فهرعتْ لمسحهما ببطن كفها، وهبّت نسمة باردة قبل الفجر من الجبال السّوداء فالتصقت بي لآخر مرّة، ثمّ ناولتني زادي وما حضّرته لي لهذا السّفر، وظلّتْ تحمل الولد وتريني وجهه وهي ترفعه بكلتا يديها، وتبسُمُ بكلّ صفحة وجهها إلى أن تواريتُ. كنت كلّما استدرت وجدتها وابني باسمة، وبدت لي لحظة كأنّما تكتم دموعها ولكنّها حتّى لحظتها كانت تنثر ابتسامتها. كانت كالنّخلة القديمة في الوادي التي لا أتخيّل مكّة دونها.

بعدما فعلته الخثعميّة تصوّرت ألاّ امرأة يمكنها فهم ما خرجتُ لأجله ولا حتّى كثير من الرّجال، دوافعي بعيدة عن إدراك امرأة.

ونفرتْ من عينيّ بعض الدّموع لكنّي كبحتها، ولم أستدر حتّى لا أضعف أمام هذه المرأة التي لم أعرها ما تستحقّ من اهتمام. أدركت ذلك بعد فوات الأوان، ولكنّي سأعود إليها ثانية أعدها.

وعندما لم تعد تراني أطلقتُ الرّيح لساقيّ وغصّة لم أكن لأطيقها لو بقيت هناك، إلى أن اتبعدتُ ثمّ جلست هنيهة خلف صخرة بعيدا عن الأعين أستعيد أنفاسي.

تنفّستُ بعمق عبق المكان الذي نشأت فيه وامتلأ جوفي ببخور الكعبة موسم الحجّ، أوان الضّجيج وهتافات الملبّين. اندفعت إلى صدري كلّ الهزائم والخيبات المعجونة بطعم الخيانة، هزائمي مع الخطاب،

وصفية التي لم تفهمني، وتجلّت في ذهني لحظة إدراك وصفاء خاطفة عن فاطمة التي بدت لي اليوم مختلفة، فاطمة التي فاجأتني. اعتمل كلّ ذلك في صدري بسرعة البرق وأنا أودّع القرية للمرّة الأخيرة، ونهرت نفسي عندما ملأتني رغبة جامحة في الالتفات: لا تلتفت وراءك، لا تلتفت.

وقبضت قبضة من حصى مكّة وتراب البيت العتيق...

إلى أن التقيت ورقة في المكان الذي اتّفقنا عليه، ثمّ تركنا مكّة نائمة، تلك البلدة الحجريّة، وعائلتي وقبيلتي وكلّ أهلي وما أملك خلفي.

كم مضى منذ ذلك الحين؟ سنوات من العمر بعيدا عن ولدي، ولم أر سعيدا بعدها إلاّ مرّة واحدة وقد تجاوز السّنتين بعد عودتي من نصيبين ودخولي مكّة ملثّما.

- هذا سرّ الجراب إذن الذي كنت تعانقه كلّما أردت النّوم، على الأقل لك الذّكريات وهذا الجراب، ليس لي من قربتي جور شيء...

ما عسى عبدا مثلي أن يملك من ماضيه، غير فحم ونار في غرفة المعبد.

-لقد صرت حرّا يا دانيار وبإمكانك أن تصنع حياتك.

كلانا سيبدأ حياة جديدة.

ضحك، بكى، مشى، جلس، استلقى، نهض، تحدّث، سكت، ابتسم، قطّب، خفض صوته ثمّ رفعه:

- متى يحين الصّبـــــاح؟

وقبل النّوم ألصق ظهره على الجدار وجمع ركبتيه، وراح يفرغ ما بصدره بما لم يحدّثني به طيلة رحلتنا. كان غريبا وصادقا كطفل، أجهش بالبكاء، ثمّ ابتسم حتّى بدت أضراسه.

- قد تقودنا الأقدار إلى طرق لم نطرقها يوما، تحببنا فيها، وإن بدت للآخرين مستحيلة.

في أكثر من مرّة كنت خائفا من نفسي، وما تجرّه عليّ، بدأ خوفي بعد لقاء حبر قمران حينها تركت صديق عمري ورقة، ورحلت دون أن يشعر، وكان يكبر كلّما لا أجد الصّحف إلى أن تيقّنت أنّها ضاعت ولم تعد موجودة. يئست وبكيت طويلا ثمّ قررت في نفسي أن أتناساها إلى أن أحياها فيّ هذا الرّاهب. الأحلام ليس لها حدّ، والأسئلة لا يمكن أن تتوقّف ويسكت صوتها، ولم أكن قادرا على أن أكبحها وأكبتها، كانت أكبر منّي.

كنت عند كلّ سقوط أذوب في صلاة لا تشبه أيّ صلاة، فهي ما بقي لي... دعوت الله ورجوته أن ينير هذه الظّلمات التي تلازمني، ويوصلني بملكوته إلى برّ اليقين.

يا كلّ كلّي فكن لي

إن لم تكن لي فمن لي؟!

كان إنصاتي له مخيفا، وموحشا، وحياتي فارغة أمام حياته، قال دانيار.

نمنا ساعتين قبيل السّحر، عندما انقطع صوته وجدته معانقا جرابه. نحّيته من بين يديه وغطّيته وتركته ينام، وأعدت الوشاح إلى الجراب المملوء ترابا ووضعته بالقرب من فراشه.

وفي الصّباح قابله بيت الماشية وصيّاح الدّيكة فابتسم... جمع أغراضه وابتسم ثانية وثالثة، كان كمن وُلد هذا اليوم.

سرّجنا النّاقتين وخرجنا قبل أن ينفذ ضوء الصّباح من شقوق الباب بعد أن زوّدنا راهب البلقاء بخبزه الطيّب. لم نغب عن عينيه وهو أعلى الصّومعة يلوّح لنا بيده إلى أن بعدت المسافة بيننا، ولم نعد نرى ملامحه بعد أن نزلنا من أعلى الجبل، واستقبلتنا كثبان الرّمال الممتدّة. كان سيّدي زيد متلهّفا لتطأ قدماه بعد طول غياب مكّة، ولم يعبأ كعادته برؤية سهل أو واد أو تأمّل سماء كما عهدته في سفره، ولا حتّى بتدوين ما يرى. كانت عيناه تبرقان، وثغره يبتسم حتّى في صمته، وهو يحثّ الخطى إلى أرضه التي تركها منذ زمن.

وبينما نحن نيّام بأرض لخم بعد يومين من السّير دون انقطاع إلاّ لأخذ بعض الزاد وملء السّقاء، هاجمتنا جماعة لصوص ملثّمين، قيّدوا سيّدي على حين غرّة بعد أن جابهه ثلاثة رجال أشدّاء وإلاّ لما تمكّنوا منه، ولمّا سألهم:

- من أنتم؟

قال قائدهم ببرودة أعصاب:

- ماذا ترى؟ نحن قطّاع طرق... واسترسل في ضحكه ولا مبالاته.

لم أستطع أن أدفع عنه شرّهم، فقد كانوا يفوقونني عددا وعدّة. لم أحمل في حياتي سيفا ولا خنجرا، غفر الربّ لسيّدي فقد كان يربّيني تربية الجاريّة، ولا أدري كيف سمح لي بتعلّم الكتابة والقراءة. أخذوا ماله ومتاعه وناقته العندل ولمّا قاومهم قتله أحدهم بخنجره. لقد حرّرني، ولكنّي لم أستطع أن أنقذ حياته.

حتّى العندل رفضت ولم تَنْقَدْ لهم وعضّت أحدهم وبركت بالقرب منه، ولم تتركهم يؤذون صاحبها إلى أن قيّدوها ولجموا جموحها ووضعوا قماشا على رأسها وهي هائجة في حالة لم أرها فيها من قبل، أمّا أنا فلم أفعل شيئا...

كنت إلى جانبه مقيّدا أبكي وهو ينازع نزعاته الأخيرة، طلبت منه أن يرتاح ولا يتكلّم، لعلّ أحدا يمرّ وينقذه، ولكنّه أبى.

- معي كلّ الوقت لأرتاح...

أن تخالف قومك وترحل لتعيش كعابر سبيل بحثا عن فكرة أو نهج، يعني أن تعيش حياة الحَرّ، وبرد الصّباحات الفردية، وحياة الخوف، والجوع... حياة الغربة في هذه الصّحراء التي يظهر فيها الغول للفرادى مثلي.

تشتاق إلى ولد يناديك أبي، وإلى أمّ تناديك ولدي، وإلى زوجة تخشى عليك، وتناديك قرّة عيني وتاج رأسي، وتشفي جراحك. تشتاق إلى الجدران الأربعة التي تجمعك بها وبولدك، وإلى غمضة تكون فيها مطمئنّا، لا يتربّص بك أحد، وأن ترحل هاربا يعني أنّك مطارد، وأنّه في

أيّ لحظة قد يطعنك خنجر، ويذبحك حقد أو طمع في دينار أو درهم وتأكلك الهوام في هذه الصّحراء.

رضيتُ بكلّ ذلك وعشته اختيارا، وها قد وقع ما كنت خائفا منه، ولن أدفن في مكّة التي طردتني، ولم يتسع صدرها لي.

-أرجوك أن ترتاح يا سيّدي، لعلّه يمرّ شخص فينقذك.

-فات الأوان يا دانيار...

أبلغ زوجي صفية أنّي ربحتُ الرّهان، فقد قطعت وعدا على نفسي أن لا أعود خالي الوفاض، سأعود بالنّهج، وها قد عثرت عليه. أعلمها أنّي لم أجب الصّحراء وكلّ تلك البلاد وعدت خائبا. لقد عثرت على النّهج الذي لأجله تركتني وآذتني. أتمنّى أن يكون لي عمر آخر لأصحّح المسار، بعض المسارات نفقد لأجلها حياتنا دون أن نصل.

أعلم فاطمة وولدي سعيد أنّي أحبّهما، يستطيعان الآن أن يبدآ حياة جديدة، الحياة التي كنت أتمناها.

بقيت مقيّدا وهو يلفظ أمامي أنفاسه الأخيرة، نزف إلى آخر قطرة من دمه حتّى اسودّت سحنته ثمّ بدا باهتا، وبعد لحظات سكنت روحه وصار جثّة هامدة، وهوت كلماته الأخيرة عليّ كصخرة.

بكيت القيد الذي كلّما فررت منه إلاّ وجدتني فيه من جديد، بكيت عجزي تجاه الرّجل الذي فتح عينيّ على الحياة وأعتقني.

تساءلت لمَ لمْ يقتلوني، ولم يلتفتوا لي، لم أكن أعني شيئا، حياتي أو موتي سواء...

بقينا على هذه الحال زمنا من الصّباح إلى المساء إلى أن مرّت بالقرب منّا قافلة التفتت إلينا لمّا سمعتْ صراخي. فكّ أحد خفرائها وثاقي، وأعلمني أنّ هذه فعلة لصوص بني لخم بعد أن وصفت أشكالهم وأفعالهم. ما مرّ أحد بهذه البقعة إلاّ فعلوا به الأفاعيل وسرقوا ماله. أعانوني على قبر سيّدي زيد في تلك الفلاة، ثمّ سرتُ معهم وأنا شبه غائب، إلى أن قدمت يثرب فأعطاني سيّدهم ذاك الفرس الذي قدمت به والثّوب الذي ألبسه وطعاما يكفيني لألحق بمكّة.

- ماذا قرّرت أن تفعل الآن؟

قال لي دانيار وهو يمسح العرق عن جبينه بعد أن استراح من إلقاء العبء عن كاهله:

- سألحق ببني عدي أُخبر أهله، وسألزم هذه الأرض المباركة أنتظر الموعود، أو أسافر إلى بلدة بها نخيل قال عنها الرّاهب هي الأرض التي تفتح ذراعيها له بعد أن يخرجه قومه، أرض بين حَرّتين بينهما نخل

- لعلّها يثرب... حرة الوبرة وحرة واقم.

- وما الحرّة؟

- أرض حجارتها سوداء.

- سأعود إليها وألزمها إلى أن يحين الأوان.

تقدّست أسماء الربّ وعلا ملكوته... لقد خرج زيد على قومه في كلّ شيء، وخالف آباءه وأجداده عدا عشقهم للتّرحال والتّيه. التّيه طريق الحائرين، ودرب العطشى الذين يبحثون عن مستقرّ الرّوح، وعن موارد تشفي غليلهم.

خارت قواي وأنا أستمع إلى قصّة دانيار، جمعتُ ما بقي منّي، وتنهّدت.
- اعذرني لم أقم بواجب ضيافتك.
بعد أن استراح وطعم وشرب وأنا أنظر إليه غائبا فيما رواه لي عن صديق العمر، حدّثته بملء الشّوق إلى أيّام زيد التي ولّت ولن تعود.
تلقيت بعد أشهر من فراق زيد ردّا من راهب الموصل أعلمني فيه بعدم مجيء زيد، لكنّ ناسكا أعلمه برجل مكّي جاءه قبل مدّة يسأله عن صحف إبراهيم بعد أن علم أنّه يخفي بعض اللّفائف في جرار من الفخّار تحت الأرض. ازدادت دقّات قلبي سرّجت ناقتي وشددت الرّحال فور وصول الرّسالة، لا أستطع انتظار الصّباح، أردت أن أتأكّد بنفسي وأشمّ رائحة زيد.
أعلمني النّاسك اليهوديّ أنّ رجلا بمواصفاته سأله عن الصّحف قبل ثلاثة أشهر، رجلا وقورا، تظهر عليه النّعمة رغم وعثاء السّفر، معمّما عريض المنكبين يركب بعيرا من النّوق الجهم، قدّم لي الكثير من المال ظانّا أنّي أخفيها وأرغب في بيعها لمن يدفع أكثر، غضبت وصرفت وجهي عنه.
- ألا ترى يا ولدي ثياب الصّوف التي ألبسها والغرفة الضيّقة التي أعيش فيها والخبز اليابس وزيت الزّيتون في هذا الصّحن؟ لا أرغب في غير ذلك، هذه الحياة تكفيني.
اكفهرّ وجه النّاسك لمّا استعاد الحادثة ثمّ راح يستغفر ويدعو الربّ:
- ألوهيم اغفر له واعفُ عن عبادك الضّعفاء.
إلى أن عاد إليه صفاؤه. تيقّنت من أوصافه أنّه زيد لا غيره، صحت:

- هذا هو.

كان يتفلّت منّي كسراب... كلّما اقتربت منه نأى، أين أجدك يا صديق العمر؟!

الصّحراء تسمع صدى الخطوات، وتتربّص بمن يغمض جفنيه عنها ولو طرفة عين، لا شيء يخبّأ في الصّحراء، الصّحراء بيت بلا سقف، ولعلّها لأجل ذلك تطفح بالأحلام، وتلامس أحلامُ أهلها النّجوم، وهي للسّبب ذاته أرض النّبوءات. هي كعين صقر تبقى مفتوحة وإن نامت، فلا ترضخ لهدوئها وصمتها، ففي الوقت الذي ترخي جفنيك تتربّص بك وتنشب نابها بجسدك، الصّحراء مخاتلة وقاتلة بقدر ما تسع المظلوم وتفتح له ذراعيها.

تلبّسني شحوب وحزن شديدين وأنا أخرج مع دانيار لأريه ديار بني عدي وأودّعه.

أضفى منظر الشّفق ظلالا حزينة على البلدة وهيّج قلب ورقة وهو يستعيد ذكرى زيد.

-ألا زلت تبكي يا سيّدي؟

-إنّه أخي الذي لم تلده أمّي، مات كالطّائر الحرّ ورفض عبودية عمّه، ووصايا وتقاليد البلدة التي ضاعت معالمها بمعالم ليست لها.

كنت في دار النّدوة اليوم، أردت أن أستعلم إن وصل خبر نزول الوحي أسياد قريش، يبدو أنّهم لم يعلموا شيئا. علينا أن نكتم الأمر ما استطعنا لنحمي محمّدا.

***

المسار الثالث: أمّي بعد أمّي

-1-

ليالي مكّة مختلفة عن ليالي بني سعد، لكنّها ساحرة أيضا، فيها شيء مختلف، لعلّه البيت العتيق فله سطوة عجيبة. ليلة هادئة عدا بعض أصوات شباب لاهين، لعبت الخمرة برؤوسهم، ففعلوا الأفاعيل بإساف ونائلة العظيمين. هدوء هوازن ونجومها وجبالها ووديانها والغنيمات والشّارف والأتان التي تنام ملاصقة للخيمة ولا يسمع إلاّ اجترارها العشب بعد أن ملأت نهارا المرعى بأصواتها غير صخب مكّة وتلك التّلبيات التي تعلو وهي تدور حول الكعبة.

أصغى لها الصبيّ وهو في حضن أمّه التي لم تتوقّف منذ صار مقيما معها عن الحديث عن والده عبد الله، وجدّه شيبة، وسيادته لقريش، ومكانته بينهم إلى أن أغمض جفنيه وخلد إلى النّوم، فقامت وجلبت له غطاء وعادت إلى التمدّد بجانبه تمسّد شعره إلى أن نامت هي الأخرى، ولم تشعر إلاّ ونسيم الصّباح يلامس وجهها وبركة تناديها كما توصيها دائما كلّما تأخّرت في النوم:

- استيقظي يا سيّدتي أعتقد أنّك سهرت مع سيّدي محمّد.

فركت آمنة عينيها دون أن تغادر فراشها:

- ما أشدّ حبّه لمراقبة السّماء والنّجوم، بقيت معه لوقت طويل في فناء الدّار أحكي له وهو صامت يرقبها.

- لقد اعتاد جوّ البادية في بني سعد وسيتعوّد على مكة.

- ها قد استيقظ رجلي الصّغير، ما أجمله حتّى دون أن يغسل وجهه، تعال يا بنيّ إلى حضن أمّك.

- سأجلب لكما شيئا تأكلانه.

نظر إلى المقصورة الخشبيّة، دوائر وخطوط نقشت بإتقان، أخذ يتأمّلها ثمّ نهض ووقف أمام صندوق الثّياب الذي يبدو صنو المقصورة. أمّا آمنة فقد انشغلت بترتيب السّرير، وهي تفكّر في حياتها الفارغة قبل قدومه، وبكائها كلّما اشتاقت إليه لولا بركة، بركة التي عادت بعد تحضير الطّعام إلى تنظيف البيت وغسل الصّوف التي جزّتها من الغنمات الأيّام الماضيّة، تريد أن تنهي قبل أن تضرب الشّمس بحرارتها فتجفّ الصّوف بسرعة فتغزلها آمنة وتصنع شيئا لولدها كما اعتادت كلّما حان موسم الجزّ.

- كنت أفتقدك وها قد عدت إليّ، تعال يا محمّد سأريك أشياء أبيك، ناوليني الصّندوق يا بركة، أحفظها لك لمثل هذا اليوم.

- لا يزال صغيرا يا سيّدتي على مثل هذه الأشياء.

- أريده أن يشبّ وذكرى والده لا تفارقه، وإن كان لا يعرفه ولم يلتقه، هذه هي الأشياء التي تبقّت لي منه.

أخرجت منه جراب الهدايا والسّقاء الذي لازمه في آخر حياته والسّرج وسيفه المأثور، ثمّ أخذت من الجراب القماش السّاسانيّ وضمّته بكلتا يديها، وقضت برهة من الوقت في البكاء ثمّ محاولة أن تتماسك دون جدوى.

- أهذا ما تريدين أن تريه ولدك؟

- لم أستطع أن أتمالك نفسي يا بركة.

أطلعته على أشياء أبيه التي تخفيها في صندوق الثّياب منذ وفاته، وسمّتها له واحدا واحدا وحدّثته عنها.

- هذا المأثور... سيف والدك، سيكون لك عندما تصير رجلا.

وبينما هي تعينه على حمله سمعت طرقا على الباب.

- ترى من يأتينا في هذا الصّباح؟!

- وعدني جدّي أن يصحبني لنجوب مكّة، قال هي مسقط رأسي وعليّ أن أعرفها كما أعرف كفّ يدي.

- يا بقيّة أبيك، بل كلّ أبيك! وحضنته

يا حبيبي يا محمّد... ألا ترين يا بركة لست أنا الوحيدة المستعجلة.

نور بكّة وهواؤها كما سُميّت بعد حادثة الفيل بعد أن بكّت الجبابرة ولم تبق عليهم، غير نور وهواء بني سعد أو حتى هوازن أو الطّائف مصيف المكّيّين. وعده جدّه أن يجوب به البلدة، ويعرّفه بدروبها وديارها بعد أن عاد إلى كنف أمّه، ولن يعود إلى السّعدية ثانيّة.

هذه المرّة على خلاف سنوات اعتاد فيها شيبة أن يدقّ باب آمنة بعد العصر ليسأل بركة إن كان ينقصها شيء قبل أن يذهب إلى السّوق، سيزورها من الآن فصاعدا صباحا ليصحب حفيده إلى الطّواف بالبيت العتيق، وسيمتثل لطلب حفيده ويدخله جوفها، ويتركه يتأمّل زواياها كما اعتاد أن يفعل كلّما جلبته السّعدية من البادية.

كلّم حفيده مبتهجا وهو على قارعة الطريق:

- قالت مرضعتك أنّ عرافة بني سعد تنبّأت بمقبل أيّامك، ستكون ذا شأن، وسأُعوَّض في ولدي عبد الله خيرا، أعطني يدك.

ومدّ له يده المعروقة.... كان الجميع يرى ما بينه وبين جدّه، وكانت عينا شيبة تفضحانه وهو يرمق ولد عبد الله بغير العين التي ترى بقيّة أحفاده.

- هذا إساف وهذه نائلة، يقول آباؤنا إنّهما مقدّسان، ويقول آخرون إنّهما أحدثا في هذا المكان وارتكبا الفاحشة فمُسخا إلى حجارة.

خرج عبد المطلب عن وقاره وكثيرا ما يفعل ذلك مع حفيده، وقهقه بتهكّم ومحمّد يتأمّلهما رافعا رأسه نحوهما.

- إن كانا كذلك فلم يعبدان، أمكافأة على ما فعلاه، أليس غريبا؟

وقف أمام نائلة، عيناها كبيرتان كعيني مهاة، شفتاها.. وجهها الدّائري المكتنز وجديلتاها الغليظتان. وقف يتأمّل جسدها الصّقيل المصنوع من الصّلد من الحجارة... وأشعة الشّمس تزيد الجسد الصقيل لمعانا فتبرز علامات الوجه واليد الضّخمة والرأس والعينين، وتحضره اللاّت في الطائف، صخرة بيضاء بلا ملامح، مربّعة ملساء، عليها نقوش، غير هذا البيت المربع المسقوف من خشب الدّوم وجريد النّخيل.

فاجأتهما موجة من صخب الطّائفين ذكّرته بالعدد القليل ممّن يرتاد بيت اللاّت من الثَّقَفِيّين، وبدا لهما غلامان أسودان يتقدّمان الرّكب.

- نحن غرابا عك

- عكّ إليك عانية عبادك اليمانية.

- ما لهم يا جدّي عراة؟!

- لا يرغبون في الطّواف بثياب أذنبوا فيها، فمنهم من يجد من يعيره ثيّابا، ومنهم من يشتري أخرى.

أحنى رأسه الصّغير وسأل مبتسما عندما رأى شيئا يشبه ما رآه في بيت اللات

- أفي البيت العتيق أيضا مطمورة؟ حفرة الهدايا والنّذور

- أجل وتدعى الغبغب.

- مثل مطمورة اللاّت في الطّائف التي تقع أسفلها.. وتُدعى الغبغب أيضا!

أين تذهب عطايا الآلهة في مكّة يا جدّي؟

- هذا سؤال لا يسأله الغلمان!

اعتاد في الطّائف أن يصحبه الحارث زوج مرضعته الذي كان يناديه أبي إلى ذلك البيت فيأبى السّجود مثلما يفعل عبد الله وحذيفة، ورغم أنّهما يجذبانه من قميصه إلاّ أنّه يبقى في الخلف ولا يفعل ما يفعلون. ما أشدّ ما أكره ذلك يا جدّي. ويغادرون الفناء وهو يحدّثهم عن اليهوديّ الذي كان يلتّ السَويق في المكان، وصُنع له صنم بعد وفاته سميّ اللاّت، ثمّ يدخلون السّوق وهو أجمل ما في رحلتهم، سوق عكاظ حيث يبيع الحارث قطعا من الجلد المدبوغ، ويشتري زيت وسكّر وحنطة الشّهر، يملأ الخوص والعكك ويعودون بالمؤونة فرحين.

ينزلق من يد زوج مرضعته ليترافق مع عبد الله الذي كان يحب أن يتفرج على طيور وقردة قال إنّها تُجلب من بلاد بعيدة. لم أر مثلها من قبل يا جدّي، ثمّ يعودان إلى مجلس يحبّه الحارث كلّما قدموا إلى هذه

السّوق ويحرص على أن لا يفوته، يجتمعون حيث وجوه من ثقيف رآها من قبل وأخرى لا يعرفها، قال الحارث هم شعراء يتناشدون الأشعار لشيخ أقيمت له قبّة من أدم في مكان مرتفع، ولا ينصرفون إلاّ حينما ينتهي عرضهم.

كان قبالة الصّبيّ وجدّه وهو يحدّثه عن بيت اللاّت فور دخولهما جوف الكعبة قرنا كبش معلّقان على الجدار.

- إنّهما يُطليان بالطِّيب، قرنا الكبش الذي ذبحه جدّنا إبراهيم، علّقت عليهما الحليّ من هدايا الكعبة.

- أهما حقا قرنا كبش جدّنا إبراهيم؟

- لا يا بنيّ، مضى على ذلك زمن طويل، وإنّما وضعا فقط ليذكّرا كلّ من يراهما بقصّة الذبح.

عيدان على شكل حمامة، وصور لمخلوقات لم يعرفها بأجنحة أكبر من أجنحة الطّيور وأجمل.

- هذه الملائكة يا ولدي.

صحبه بعد أن أراه زمزم ودفقها الذي لا ينقطع إلى مجلسه حيث يضع فراشه عند الحِجر ويجتمع إليه أبناؤه وأحفاده دون أن يطؤوه لهيبة شيبة في نفوسهم، ويعطف على محمّد فيدعه يقترب منه ويضعه في حجره ليتمه.

- قصّ لي يا جدّي قصّة حفر زمزم؟

- تلك قصّة طويلة بدأت برؤيا وانتهت بنذر.

- ما هو النّذر يا جدّي؟

- أسئلتك كثيرة تدلّ على نباهتك، سأروي لك كلّ الحكاية بتفاصيلها.
كان الصّبيّ مشدوها، عينان طفوليّتان تبرقان بالحياة والسّؤال، ووجه لا يلتفت إلاّ لجدّه شيبة.
- غزالتان ذهبيّتان وسيف، خرج من الأرض ماء... قال أحفاده جميعا كأنّما لقّنوا.
ثمّ راح الصّبيّ يتتبّع ما يربطه بوالده وتنقبض ملامحه عند ضرب الأقداح، ثمّ تنبسط عند الفداء بالإبل المئة.
ولمّا كانا في طريق العودة سأله:
- أكنت ستذبح أبي عبد الله حقّا يا جدّي؟
-... لو ذبحته لما رزقت غلاما ذكيّا ونابها مثلك.
وأدناه منه حتّى التصق به، وفي عينيهما كليهما فرح غامر... كان كلّ منهما يرى في الآخر نصفه المفقود، شيبة يرى في الغلام ولده المتوفى، والصّبيّ يرى في جدّه والده الغائب الذي هو بأمسّ الحاجة إليه، أدرك أنّ شعوره تجاهه غير شعوره تجاه الحارث زوج ضئره.
كان الجميع يرى ما بين الجدّ وحفيده، كانت عيناه تبسمان وهو يعلّمه كما يعلّم الرّجال رغم حداثة سنّه، ويريه موطن أجداده، وحيث لعب والده، وحيث خُدش أمام الأقداح عندما أراد أن يفي بنذره، ويقدّمه قربانا للآلهة فجذبه أخوه الحارث من تحت رجليه.
كلّ يوم يريه موضعا من مكّة ويروي له قصّته معه كم مرّة خرج مع عبد الله إليه وكم كان عمره: جبل أبي قبيس، الصفا، الوادي، أجياد...

- هنا بين هذه الدّروب لعب والدك، وعند هذا المنعطف سقط وبكى، وعند هذا النّتوء نفضتُ عنه التّراب، أذكر بكاءه وهو طفل وحملي له مثلما أحملك الآن.

وكيف ارتقى إلى بلح هذه النّخلة وأنا أضعه على كتفي، أسمع صوته وضحكاته المجلجلة بين وادي مكّة وجبالها، ووقع خطاه بين دروب هذه البيوت الطينيّة.

ما إن يدخل الصّبيّ الدّار ليرتاح ويتناول غداءه حتّى يعيد على آمنة ما رآه مع جدّه وما قصّه عليه وهو عند عتبة الفناء. كانت غبطة طفوليّة تمتّن عراه بأمّه وجدّه، ودهشة الاكتشاف تنسيه جوّ هوازن وما ألفه هناك ودرج عليه، أمَّه السّعدية وحذافة وأنيسة وعبد الله والبهم التي كان يرعاها خلف الدّار وبني سعد كلّها، ديارها وسماءها وخيامها بعد أن قضى بينهم سنوات طفولته الأولى.

- أليس لعبد المطلب شيء إلاّ محمّد؟

- أترين فرحه به كما أرى؟!

- غدا سيريني جدّي جبل حراء قال إنّه جبل هادئ يصلح للعزلة والتّحنّث، لكنّه بعيد. أوصاني أن أنام باكرا حتّى أصحو نشطا وأستطيع أن أصعد إليه.

- سيأخذك حتّى جبل حراء؟

- أجل يا أمّي، لقد وعدني.

- إذن تعال إلى فراشك.

- لكن ماذا يقصد بالتّحنّث يا أمّي؟

- ألم يخبرك جدّك؟

- كلا يا أمّي...

- إذن اصبر لتعلم غدا.

انفلت منها وانطلق كالسّهم إلى بركة التي كانت تجفّف يديها قبل أن تستلقي في مضجعها ليسألها فتعانقه وهي تعيده إلى فراشه ولا تستطيع أن ترفض له طلبا، تحدّثه بما تعرف وهي ترى فيه صورة أبيه عبد الله.

- الذي أنجب لم يمت.

همس في أذن آمنة وهو شبه نائم:

- حدّثني جدّي اليوم عن والدي، وأراني الدّروب التي لعب فيها، وقال إنّي أشبهه، وجدّتي فاطمة عانقتني وقالت كأنّما عيناك عيناه وبكت، أحقّا أشبهه يا أمّي؟

- أجل يا ولدي، كلّما رأيتك تدخل عليّ كأنّما أرى والدك.

طلّته وعيناه... متى تصير رجلا مثله تعتمد على نفسك وتكون سندا لي.

-2-

ها قد مرّت خمس سنوات... وتكاد تنقضي السّنة السّادسة... لم أفعل شيئا طيلتها سوى أن أصبر لتصبح وديعتك أكبر وأجمل. صبرت على فراق صبيّنا إلى بني سعد حتى ينشأ صحيحا معافى ويتربّى عند أفصح بطون هوازن، أفصح العرب، حتّى أرحل به إلى ذاك القبر المنسيّ لأريك ما أودعته فيّ ثمّ رحلت من غير عودة، جميلا ووسيما ونابها تماما مثلك بعد أن صار يتحمّل أعباء السّفر ولا أخاف عليه المرض أو الهلاك.

سأرحل إليه يا بركة وأُريه قبره، وأحكي له عن حديثه إليّ ذاك الفجر، ووعده لي بأنّه سيعود سالما.

ترى كيف تمكّنتُ من كتم رغبتي في أن أزور قبره كلّ تلك السنوات، وادّخرت كلّ ذلك الشّوق والحزن والدّموع حتّى يكبر ابني لأصحبه معي إليه، هديّةً تنطّ وتقفز وتلعب. ما أجمله... أتراها عيون الأمّ لا ترى صغيرها إلاّ أجمل ما في الكون، أم أنّ جماله إلهيّ؟

وفجأة نفد صبري يا بركة، فها أنا أَعُدّ كلّ ليلة ما تبقّى على رحيل قافلة الشّام بعد أن أخبرت العمّ شيبة برغبتي. لم أعد أطيق، امتلأ الصّدر حتّى لم يعد يسع يوما واحدا، أخفي له الكثير من الكلام ومثله من الشّوق وبعض اللّوم أيضا...

- اللّوم يا سيّدتي؟!

- أجل اللّوم، فقد تركني وحيدة مع ابنه ورحل.

- لا تبتئسي يا سيّدتي، فها هو سيّدي محمّد يكاد يتخطّى السّادسة.

- كم كانت طويلة ليالي الوحدة والانتظار...
مسحت ما انفرط من دمعٍ، وهي تلحظ زوّادة الطّعام التي كانت تشتغل جاريتها الحبشيّة بإعدادها للرّحلة:
- هل أتممت تحضير الرّاحلتين؟ أخبرني العمّ شيبة أنّ القافلة ستنطلق إلى الشّام غدا فجرا، وستتوقّف بيثرب كعادتها، حيث تضعنا، لتتزوّد وتأخذ تمورها وثمارها لتباع هناك.
- كلّ شيء جاهز يا سيّدتي... فقط بعض الأمور الصّغيرة التي سأتمّها في المساء. ألا ترين فرحة محمّد بهذه الرّحلة، أوّل رحلة طويلة له، لم يعتد الخروج إلاّ من مكّة إلى بني سعد، ومن بني سعد إلى مكّة، هذه المرّة ستكون الرّحلة أطول قليلا.
- أخشى عليه من حرارة الطّريق، ومن أيّام السّفر المتتاليّة. أتراها تلك الطّبقة السّميكة من جريد النّخيل التي أضفتها لسقف الهودج كافيّة، لعلّها تمسك عن رأسه الصّغير الأذى؟
- طبعا كافية يا سيّدتي، لقد صار غلاما قويّا، فلا تخشي عليه.
- والمؤونة أهي جاهزة؟ لا أريد لولدي أن يضعف. أريد أن أريه وديعته جميلا ومعافى وقويّا...
- لا تقلقي يا سيّدتي، كلّ شيء جاهز، حتّى سيّدي شيبة انتقى بنفسه أقوى النّوق من نجائب الإبل واهتمّ بسلامتها، رأيته بأمّ عيني يشرف على طعامها وتفقد حوافرها وأوصى بتنعيلها بجيّد الجلد.

لقد رأيتهما مع بقيّة النّوق يرعيان في الجوار، بعيران قويّان في اكتناز وجميلان أيضا. حتما سيحبّهما سيّدي الصّغير، رأيته يعلّفهما بنفسه ويكلّمهما، ويمسّد على رقبتهما وهما جاثيان في أتمّ الهدوء.

- أترى العمّ شيبة يطيق فراق محمّد؟ بدا في المدّة الأخيرة كأنّما يعيش لأجله، كأنّ لا شيء يشغله إلاّ حفيده.

ودّع عبد المطّلب محمّدا وزوج ابنه مشدّدا على من يصحبهما في القافلة على أن لا يغيبا عن ناظريه، بعد أن لم يعد يقوى سنّه ولا صحّته على السّفر الطّويل. قبّلته جدّته فاطمة وحضنته طويلا وأعطته مزودا صغيرا أعدّت له فيه بعض التّمر والحلوى وقالت وهي تلوّح بيديها:

- اهتمّ بأمّك، فقد صرت رجلا.

طافت القافلة بالبيت العتيق كعادتها في موسم خروجها، وامتلأت السّاحة بالمودّعين وأصحاب الأموال والبضائع وعلت كلمات الوداع والوصايا، وعيون عبد المطلب وفاطمة لا تنزلان من على بعير آمنة وابنها إلى أن غابا في الطّريق الشّماليّ، ولم يعد يظهر لهما شيء، والدّعوات بعودتهما بأتمّ عافيتهما تملأ شفتيهما وقلبيهما اللّذين لم يعودا يطيقان فقدا آخر.

زيّنت آمنة داخل الهودج بشرائط ملوّنة طفوليّة لتشغله طيلة سفره فلا يملّ، وأعدّت مكانا لابنها اعتنت به أكثر من أيّ شيء آخر حتّى يكون مريحا.

- من هذا البيت الصّغير الذي أعدّته لك أمّك ستراقب الصّحراء وترى الطّريق إلى أخوال أبيك.

كانت آمنة تضمّه إليها كلّ ليلة بعد أن يقضي معظم ساعات الارتحال في النّظر من فتحة الهودج، تستعيد معه حكايا أمّها بُرّة وجدّتها قيلة إلى أن يخلد إلى النّوم، وعندما تستيقظ في الصّباح الباكر تجده قد سبقها يتأمّل الشّروق، وكلّ ما يدبّ في الصّحراء من عقرب يختفي في الرّمال لينقضّ على فريسته، إلى غراب يأكل سحليّة أو عنكبوتا، إلى حشرة تتّقي يربوعا... أرنب بريّ جميل، أصرّ في هذه الاستراحة القصيرة أن يلعب بالحصيّات مع بركة ويجلجل بضحكاته عندما يغلبها في إخفائها في الرّمال وهي تسايره وتتصابى له.

- ما أحسن طالعك وما أسوء طالعي.

ثمّ تستدرك وهي تمازحه:

- كيف لجارية حبشيّة مثلي أن يكون لها طالع جيّد، ومع سيّد قريش، كيف لي أن أهزمك؟

ضحكا وآمنة ترقبهما كأنّما تضحك الدّنيا لها، ممالك وسيادة تبنى في ذهنها كلّما تأمّلته وهو تحت ناظريها يلعب، أو في حجرها يغطّ في النّوم، وصوت الهاتف الذي كان يأتيها بين الفينة والأخرى أثناء حملها يخبرها بعلو شأن ولدها يتردّد في خاطرها فتسعد له، وكلام السّعديّة عن بركته وما أخبرتها به العرافة، يشيّد في ذهنها قصورا، ثمّ يكفهرّ وجهها فجأة، وتنتابها قشعريرة شديدة ممّا قاله كاهن سوق عكاظ حين رآه مع حليمة فيما روته لها:

- عليكم بهذا الغلام، اقتلوه فإن له مُلكا

هربت به السّعدية يومها وذابت وسط مرتادي السّوق وباعتهم. ما هذا المُلك الذي يُقتل لأجله ولدي؟ لا أريده له. ارتعدت فرائص آمنة وهي تستعيد كلامها، وودّت لو أخفته في بؤبؤ عينيها حتّى يشبّ ويصير رجلا.

- هيّا يا بنيّ سيواصل الرّكب مسيرته. احملي يا بركة تلك الحصيّات واجلبيها إلى البيت الصّغير، سأواصل معه اللّعب في هودجنا. أضمرت خوفها عليه وهي تدعو الآلهة أن تحفظه فلا يمسّه سوء.

يوم متعب حتّى على النّوق التي اعتادت السّفر في هذا الجوّ الخانق من الحرّ، ولولا حادي الإبل لما اجتمعت واطّردت في سيرها. لعب الصّبيّ بتلك الحصيّات مع آمنة حتّى نام نوما عميقا وهي تمسح عنه حبّات العرق وتروّح عنه بمنديلها، ولم يستفق إلاّ في اليوم الموالي حين تسلّلت الشّمس إليه، وأضاءت وجهه الصّغير وهو في حجر والدته.

أخرج من مزوده الخاصّ الذي أعطته جدّته فاطمة تمرتين أكلهما وأعطى النّواتين للبعير الذي يركبه ولبعير الزاد الذي تركبه بركة، وراقبهما وهما يجرشان إلى أن بلعاهما وهو يضحك من أصواتهما وحركات مشافرهما الغليظة، ويمسّد على قائمتيهما الأماميّتين ويتذكّر في حركاتهما السّمراء شارفُ أمّه السّعدية وكذا سدرة الأتان، كم يشتاق لهما وإلى ديار بني سعد.

أخرج رأسه من الهودج عند شروق اليوم السّادس، وأخذ يردّد ما علا به صوت رئيس الخفراء وسيّد القافلة:

- هذه مشارف يثرب على بعد نصف يوم يا أمّي.

- سنصل قريبا إلى ديار أخوالك، هم أهل عراقة ونسب كريم وسيادة في قومهم.

- ها هو جبل أُحد في الأفق منفردا على مدّ البصر... سنتوقّف عند أقرب واد لنشرب ونرتاح ونملأ أسقيتنا وتشرب دوابنا ثمّ نستأنف رحلتنا. لم يبق الكثير على ثنيّة الوداع.

تغيّر الهواء، وانبسطت الأرض ونبت الزّرع، وظهرت أشجار النّخيل السّامقة التي تتدلّى عراجين تمورها، وهبّت نسمة عليلة راقت لها أنفسُهم المتعبة من السّفر والحرّ، وسمع صوت الماء رقراقا صافيّا، وانتعشت أعينهم لاخضرار لم يتعوّدوا عليه، وأرض طيّبة لم يطؤوها من قبل.

- ما هذه البناءات المرتفعة التي لم أر مثلها؟!

- بيوت دائرية عاليّة يا بركة انظري، ليس لنا في مكّة مثلها!

- تلك أُطُم يثرب يا سيّدتي. قال العبد الذي يصحبهم.

- ما أجملها!

توقّف الرّكب في المدينة التي بدت لمن يدخلها لأوّل وهلة رائقة وصافية كرياضها وبساتينها ونخيلها والماء الذي ينساب بين أوديتها.

- تبدو واحة ممتدّة تتخلّلها هذه الحصون. طافت بركة بعينيها في المكان وهي تحدّث سيّدتها.

وبينما انشغلت القافلة بحطّ الرّحال للمبيت في المدينة اللّيلة انصرف بهم العبد إلى ديار بني عَدي بن النّجار يقصدون دار النابغة.

- أخوال أبيك هم سادة القوم في هذه الدّيار. هنا وُلد جدّك عبد المطّلب، وعاش صباه قبل أن يقدم إلى مكّة، وهنا ديار جدّة أبيك سلمى، المرأة الجميلة، ذات الحسب والنّسب، المرأة المتدليّة هكذا سمّيت بعد حادثة الحبل، سأقصّ عليك قصّتها مع جدّ أبيك هاشم بعد أن ترتاح من السّفر.

- المتدليّة؟!

أخذ بزمام البعيرين وساقهما إلى الدّار التي لم تكن تبعد كثيرا، وما إن عرفوا من القادم حتّى علا التّرحيب، وخرج الأطفال لاستقبالهم وشرعت النّساء في إعداد صنوف الطّعام.

- انتظرنا قدومكم منذ زمن! تفضّلوا معنا.

قالت سيّدة من سيّدات بني عدي...

صمتت آمنة ولم تقل شيئا ولم تحرّك ساكنا واعتراها وجوم، وأوّل ما نطقت به سؤالها عن قبر زوجها حيث لم ترد أن تلج دارا وترتاح، أو يدخل جوفها طعامٌ قبل أن ترى مثواه الأخير.

- تعالوا معي، تفضّلوا من هنا.

سآخذكم إليه...

بدا المكان بعيدا وهو على بعد خطوات، وتنامت لهفتها واشتدّت لتراه. أمسكت بيد ابنها وضغطت على أصابعه، أيشعر مثلما تشعر وهو الصّغير الذي لم ير أباه ولا يعرف معنى أن يكون له سند كعبد الله ثمّ لا يجده أمامه في صباح من الصّباحات ولا يعود إلاّ آخر ثياب ارتداها بعرقه ومرضه الذي كابد؟ للمرّة الأولى حمدت الآلهة أن

جنّبت ولدها هذا الشّعور وكفته تلك اللّحظات. تعثّرتْ، أخذت بيدها بركة. كوني قويّة يا سيّدتي لأجل ولدك. ليس بيدي يا بركة، ليس الأمر بيدي.

- هذا قبر زوجك عبد الله بن عبد المطلب.

ما إن رأت القبر حتّى سقطت عليه وتهالكت قواها... لم تتمالك نفسها، لم يبق من زوجها سوى جثوة تراب.

- هذا ما بقي لنا من أبيك يا بنيّ.

انفلتت منها دموع سنوات الغياب، بكت كأنّما لم يمض على وفاته سوى برهة، بل كأنّما قُبض الآن، ولمّا أفرغت ما في جعبتها، أخذت تحدّثه عن وديعته التي تركها لها وفارق الحياة.

- أتراه يسمعني يا بركة؟

- تماسكي يا سيّدي إن لم يكن لأجلك فلأجل ولدك.

ثمّ استدارت تسأل الحاضرات:

- أمنكنّ من شهدت مرضه وموته؟ أعلم أنّ الظّرف ليس مناسبا، لكنّي... غلبتها دموعها

ممّا كان يشكو؟

قالت امرأة تبدو في السّتين من عمرها:

- ألم يخبروك؟

- أريد أن أسمع منكنّ.

- لِمَ هذا السّؤال يا ابنتي، وقد مرّ على ذلك سنوات؟

-لازال في القلب حرقة لا تنطفئ...

نطقت كهلة ممّن كان في المجلس:

- كانت الحمى تأكل جسده، وكان يهذي باسمك، ويضع منديلا نسائيّا على وجهه والحمّى تفتك به. لقد ذهل أخوه الحارث عند قدومه من مكّة لرؤيته، فقد تغيّر وجهه ولم يعد الشّاب الوسيم الذي يعرفه، والذي غادر للتّجارة منذ فترة وجيزة.

- لقد لازمه الحكيم الذي كان يصحبه في القافلة ولمّا لم يتعاف جمعنا له من كلّ حدب وصوب الأطبّاء والعرّافين، لكن دون جدوى. كان خبر وفاته شديدا علينا جميعا، قُبر في عزّ شبابه.

أخفت وجهها عن الحاضرات وشرعت في بكاء طويل وشهيق تبعتها على إثره نساء أخريات، ثمّ قالت سيّدة كانت تقف في الخلف تعصب رأسها أرادت أن تدير دفّة الحديث:

- ها قد ترك لك صبيّا كالقمر! مات زوجي ولم يترك لي شيئا سوى الأحقاد والخلافات في حرب الإخوة هذه، ليته ترك لي ابنا أحمله في أحشائي ثمّ أعيش لأجله عوض هذه الأحقاد التي لا تبقي ولا تذر. هيّا إلى الدّار لترتاحي من السّفر، انظري إلى ابنك كم هو متعب.

واصلت قافلة الشّام مسيرتها في الصّباح بعد أن تزوّدت بالماء وعليل الهواء، وحملت نتاج يثرب وثمارها، وتحرّك الرّكب يواصل الرّحلة الطّويلة، وآمنة منذ ذلك الوقت عند القبر تجلس جلسة المطيل المقيم، تصحبها جاريتها لتحدّثه كما لو كان على قيد الحياة:

- أحسست ذاك الصّباح أنّك لن تتخطّى عتبة الدّار مرّة أخرى، ولكنّي كنت أُكذّب نفسي وأصدّقُ عينيك وكلامك بأنّك لن تتأخّر، كلّها

مدّة السّفر وبيع البضاعة ثمّ سنشدّ الرّحال، هكذا قلت وطمأنْتَني، ليتني منعتك حينها، عشرة أيّام من عرسنا، خضاب العرس مازال بيدي. ماذا لو خالفتَ عبد المطلب، ماذا كان سيحدث لتجارته، وفعلا عادت القافلة محمّلة، المال والبضاعة ولم تعد أنت،

لم تف بوعدك وتركت لي حملا ثقيلا ثقل أخشبي مكّة.

- ألن تنسي يا سيّدتي؟

- كيف أنسى أيّاما جميلة عشتها تعدّ على الأصابع، ثمّ بقيت حياتي صحراء قاحلة؟

- لولا ذاك الهاتف الذي كان يطمئنني...

مسحت دمعها، وتسارعت كلماتها وتغيّرت نبرة صوتها، وهي تقصّ أمام جثوة التّراب كأنّها ليست المرأة التي كانت تبكي الآن:

- قال الهاتف إنّ ابننا هو سيّد هذه الأمّة، كم كان هذا الهاتف مؤنسا لي في وحدتي، وملأ عليّ دفءُ وجود ابننا في أحشائي ليلي ونهاري...

أتعرفين متى أستطيع أن أنسى يا بركة، فقط إذا ما صدقني الهاتف ورأيت محمّدا سيّدا، أتُراه سيكون بمهابة العمّ شيبة في قومه.

سيّد هذه الأمّة، سيّد هذه الأمّة... لعلّ تحقّق هذا الحلم هو الوحيد الذي تندمل له جراحي.

نظرت إليها بعينين حالمتين مغرورقتين...

- سيكون سيّد هذه الأمّة يا سيّدتي. تعالي لندخل الدّار، لا أريد أن يراك ولدك بهذه الحال، ألا ترين فرحته مع الصّبيان وهيامه بأطم يثرب...

كانت كلّ يوم تستفيق فيه تبدأ يومها بزيارة قبر عبد الله وقد تصحب معها محمّدا قبل أن ينفلت مع الصّبيان من أبناء أخواله، لتكرّر عليه كعادتها ما حدث بعد أن تركها وسافر إلى الشّام ولم يعد، تذرف بعض الدّموع التي كانت تقلّ يوما بعد يوم ثم تنهض لتجلس إلى نساء بني النّجار في دار النّابغة.

-3-

تزاحم رجال وأطفال حول بئر من آبار المدينة، وبينهم رجل قويّ البنية في طولٍ، مكفهرّ السّحنة كأنّما هو في ساحة حرب، يقطّب حاجبيه وهو يزّاور عنهم إلى رجل آخر تبدو عليه الأبّهة والحذق وقدرة كبيرة على التّسلّط. غمز الغلام محمّدا: إنّه سيّدُه الفاحشُ الثراء، ثمّ رأياه يعود جيئة وذهابا حاملا عصا يعمل على تنظيمهم وحفظ الدّور. اقترب من سيّده الجالس على مقعده ليستلم الدّراهم ثمّ أسرّ له بكلام في أذنه ابتسم إثره وفحص الرّجال والأطفال بنظراته الشّزراء ثمّ أومأ له بالانصراف، فعاد إلى تنظيمه لذلك الجمع وعصاه تسبقه لتنال من الأطفال الذين يحيدون عن الصفّ.. واصل السيّد عدّ ما بين يديه من دراهم، وبعد أن أنهى أخفاها في كيس من قماش وسجّل المواثيق والعهود بريشته لمن يقرضهم في طابور آخر.

- ما هذه الدّلاء التي يجتمع بها أصحابها عند البئر، وماذا يفعلون عند هذا الرّجل؟

- يشترون الماء من هذا اليهوديّ.

- **ألا يشربون إلاّ بثمن؟!**

- أجل.

قلّب في ذهنه كم من طابور يجب أن يقف فيه هؤلاء لشربة ماء وكم يجني هذا اليهوديّ، وبئر زمزم في مكة لكلّ المكيّين وللحجيج أيضا من زوّار البيت في كلّ موسم.

- دعك من هذا، وتعال سأريك مكانا ساحرا، أجزم أنّك لن تنساه ما حييت.

أمسك بيده وأسرعا إلى مكان تجتمع فيه مياه صافية معتدلة، قال هي مصبّ لبئر من آبار بني عديّ اعتادوا أن يسبحوا فيه. كلّ الأُزر والثّياب على أغصان الشّجرة المحاذية للمصبّ وأطفال عراة يصرخون وهم يتزاحمون حول الماء، قهقهات الأطفال الأكبر سنّا عندما يتمكّنون من الاستحواذ على الدّور ممّن هم أصغر منهم تطفو وتثير بعض المشاحنات، وينتهي الأمر ببعض الضّعفاء وهزيلي الأجسام بتكليفهم بخدمة حراسة الثّياب أو اقتسام حلواهم معهم مقابل السّماح لهم بالنّزول إلى الماء، وصغار لا يجيدون العوم يلعبون بزوارق من جريد النّخيل في جانب من المصبّ.

- هيّا لنسبح.

- **لكنّي لا أحسن العوم...**

- لا تخش الغرق فقط أمسك بيدي واتبعني فيما أفعل فليس بالمكان العميق، سأعلّمك.

كان رذاذ الماء الذي يتقاذفونه يبهجه كما لم يبهجه شيء من قبل ينزع عنه حرّ طريق مكّة ولهبها ويودّ لو يبقى فيه.

- أمسك بي فقط وانظر ما أفعل.

شقيّ هذا الولد ولحوح على تعليم محمّد، بل أشقى أبناء خاله ورغم أنّه الأوسط سنّا، فهو أطولهم قامة وأكثرهم جرأة وشغبا، لم يكف

عن رميه بحفنات من المصبّ منذ الصباح، ينزع عنه بعض الرهب من الماء. قلت لك أمسك بي فقط ولا تخش شيئا.

كان ماهرا في تحريك قدميه وغطس رأسه والتّشقلب تارة على ظهره وأخرى على بطنه، مدهشا وأجمل منه الماء الذي كان ينساب على جسده.

وفي المساء عاد مع الصّبية مرهقين فلم يفعلوا شيئا سوى تناول طعامهم ثمّ ناموا إلى الصّباح.

هزّ مازن منكبه ليوقظ محمّدا الذي بدأ يرخي جفنيه بعد يوم متعب، ولمّا التفت إليه همس له:

- غدا سنذهب للسّباحة أيضا، وسنكرر ما فعلناه اليوم، سأعلّمك بنفسي وسنقصد المكان كلّ يوم، ولن تعود إلى مكّة إلاّ وأنت تجيد ما يجيده فتيان يثرب.

غمغم في الظّلام وعيناه شبه مغمضتين:

- أحقّا ستفعل؟

- أجل ستكون ماهرا في العوم، ولن أخفي عنك شيئا ممّا أعلم.

تبسّم وعاد إلى النّوم...

- اِلزميه يا بركة فأنا أخشى على ابني.

- لا تخشي عليه يا سيّدتي، هو تحت ناظري.

بلغ الرّذاذ من تقاذفهم وجه بركة رغم أنّها كانت تقف جانبا وتراقب، مسحته وهي تحرص على أن لا يغيب عنها محمّد رغم تزاحم الأطفال على المصبّ بين السّابحين ومن على حافّته بزوارقهم من جريد

النّخيل. وفي المساء وصل مرهقا يبحث عن أمّه التي تقضي الكثير من الوقت أمام قبر أبيه ليحكي لها ما تعلّمه وكيف قضى يومه، وقد يلعب مع غلمان أخواله في حجرات دار النّابغة بعض الوقت ثمّ ينام إلى الصّباح.

في الأسبوع الرّابع من قدومهم تحسّن وصار يضاهي غلمانهم في العوم.

-أنت تتعلّم بسرعة.

-الفضل لمازن.

***

- هذه السّيّوف التي ابتعناها اليوم من يهود خيبر، نُعدّها لحربنا مع الأوس، اركنها يا غلام في القسم المخصّص للسّلاح، فهذه الهدنة لا تنبئ بخير، ما تفتأ تنشب حرب أخرى، كأنّما هناك من يشعلها.

أنت هنا بنيّ، لم أرك، أين كنت مختبئا أيّها الشّقيّ؟ ومعك ضيفنا الصّبيّ القرشيّ ابن عبد الله.

- أجل يا أبي، ألعب مع محمّد وأريه أُطمنا، ليس لهم في مكّة مثلها.

- ليس لهم حاجة بها.

التفت السيّد النّجاريّ إلى الخادم وأتمّ حديثه:

- من دوره في المراقبة اللّيلة؟

- بنو سالم.

- لا ضير... أكثِر من العسس على الأطم، شرقها وغربها، وفي كلّ المنافذ... أشمّ شيئا، فهذه الحرب ما فتئت تنشب منذ سنوات لأتفه سبب، وانصرف مستعجلا.

قال الغلام الذي كان يصحب إخوته إلى أعلى الحصن:

- اختبأنا هنا آخر مرّة اشتعلت فيها الحرب أنا وإخوتي وكثير من الأطفال والنّساء والشّيوخ، وكنّا نرقب من الفتحات في أعلى الحصن. وددت لو شاركت أبي وأعمامي قتال الأوسيّين، ولكنّه منعني وقال مازلت صغيرا، غير أنّ أمّي مدّتني وأطفالا كثيرين بحجارة كنّا نرميها عليهم من السّطح، وقد آذيت أحدهم وشججت رأسه، ومنذ ذلك الحين وأنا أجمع الكثير من الحجارة والحصى في ركن أعرفه وإخوتي لمساعدة أبي في حربه.

- من هذه الجارية التي تنظّف مربض البهائم إلى هذه السّاعة؟ هي من التقفت الطّائر، وجدته في أحد البساتين.

تعال نطيّره ثانية من أعلى الحصن، وهذه المرّة ستتلقّفه أنت يا عمرو، انتظرنا في الأسفل.

نطّوا من درَج لآخر حتّى وصلوا إلى الطّابق الثّاني، يحيطون الطّائر بأصابعهم، ويتشاقى عمرو ويدّعي التواء كاحله حتّى يكون ملقيا دائما ولا ينزل أسفل الحصن.

- ما أشدّ مكر عمرو، هو يدّعي المرض، لن أعطيه الطّائر هذه المرّة، سأطيّره بنفسي، وأنت من تتلقّفه، انتظرني في الأسفل.

عاد إلى الدّرج في نطّ طفوليّ رشيق وفي لمح البصر كان في الأسفل...

- الجارية ثانية؟!
- ما اسمك؟
- أنيسة...
- اسمك يذكّرني بأختي من الرّضاعة في بني سعد، كانت في مثل عمرك أو تكبرك قليلا... تعالي لتلعبي معنا.
- سأتمّ أعمال التّنظيف مع والدتي ثمّ نطعم البهائم، ثمّ ألحق بكما إن سمحت لي سيّدتي.
حلّ المساء ولم تحضر أنيسة، وعندما عاد إلى أمّه حدّثها بحضور بركة عن الفتاة التي انتظروها ولكنّها لم تأت، وطلب عمرو من والدته في الصّباح أن تأذن لها باللّعب معهم.
- لم تأخّرت؟
- كنت أساعد أمّي أخشى عليها من الحرمان من الطّعام إذا لم تتمّ عملها في موعده.
ما أشدّ فرحتها عندما التحقت بهم في أعلى الأطم، كان الطّائر يسقط في البستان ثمّ يعودون لالتقاطه. ساعات اللّعب جميلة وصافية أضفت عليها أنيسة غبطة خاصّة، لولا أنفاسهم التي بدأت تتقطّع وهم يصعدون وينزلون آخر النّهار عندما أوشك الغروب بالدنوّ.
- لنسترح في الأعلى سأُريكَ حقول والدي.
سأساعده في غرس فسائل النّخيل، فغدا يبدأ الموسم... أتساعدنا يا محمّد؟

-4-

بأطراف أصابعه لاعب جريد النّخل في الماء حتّى يمرّر الزّورق الصّغير الذي صنعه، ثمّ استلقى على العشب بعد أن تعب من العوم الذي صار يحسنه في الأيّام الأخيرة، وتأمّل سماء يثرب والنّخلة الكبيرة التي يسمّونها نخلة جدّهم، التي لا تبتعد عن مكان عومهم والفسائل التي غرست أمس والبئر التي تتوسّطها. ملأ هرج ومرج الأولاد البئر والسّاقيّة والوادي وحُفر في صدره. شعر للمرّة الأولى منذ قدم هذه المدينة بأسف شديد لأنّ زيارتهم ستنقضي، وهذا آخر يوم له في هذا المكان السّاحر.

لن يستطيع العوم بعد الآن مع أبناء أخواله، ولا تطيير الطّائر من أعلى الحصن، ولا رؤية أنيسة التي كأنّما عوضت أنيسة التي تركها في بني سعد حضورا وشقاوة، ولا حتّى قبر أبيه الذي سيتركه في ديار بعيدة ويرحل. ما أحبّ هذه الأرض إلى قلبه، كم تعلّق بها.

- سنشتاق إليك، مرّ الشّهر بسرعة. تربّع بالقرب منه مازن ابن خاله الأوسط الذي كان في مثل عمره، غير ملتفت إلى العوم اليوم.

- وأنا أيضا، لن أنسى هذه الأيّام...

ودّعت آمنة آل عدي وشكرتهم على حسن الضّيافة، وقبل أن تغادر نظرت نظرة أخيرة إلى القبر. أطالت الوقوف حتّى ظنّت بركة أنّها ترغب في تأجيل الرّحيل، وما إن تخطّوا عتبة الدّار حتّى نادى مازن محمّدا وهو يخفي بين يديه شيئا:

- خذ، هذا تذكار من يثرب، قنينة من دبس التّمر.

تعانقا بحرارة ولم يرغبا في أن يفترقا. سنزورها ثانية يا ولدي، لن تكون الأخيرة. أخذت آمنة وابنها مكانهما في الهودج، ولمّا اطمأنّت عليها بركة اعتلت هي الأخرى بعيرها وبدأت رحلة عودتهم. التفت ملوّحا لمازن ولأنيسة وعمرو وكلّ غلمان بني عديّ وهو يقول لأمّه:

- لن أنسى هذه المدينة، شعرت وكأنّي أعرفها منذ زمن.

- حقّا يا ولدي، هي مدينة جدّة والدك، جذورك وأصولك منها ومن تربتها، وقبر والدك فيها، مدينة صافية ووديعة وأهلها طيّبون لولا تلك الحرب بين الإخوة، لحسن الحظّ لم نقابلها ونحن هناك، كان قدومنا موافقا للهدنة بينهم. أكيد سنعود إليها يوما ما...

بقيت تلك الأيّام الجميلة تسكن هذا الطّفل المكّي الذي ظلّ يحنّ إلى المدينة، ويشعر بانجذابه لها رغم أنّه لم يُقم فيها سوى مدّة قصيرة، ولا يعرف جدّ أبيه هاشم ولا جدّته سلمى، بقيت عيونه معلّقة ببساتينها وتلالها كأنّما ترك فيها جزءا من قلبه. أخرج رأسه من الهودج، الأطم والطّائر والصّعود والنّزول من الدّرج، والعوم مع غلمان أخواله، وأنيسة الجاريّة الخزرجيّة الخائفة التي كانت تشتغل ليل نهار حتّى لا تُضرب بالسّيّاط، وتنال بعض الخبز وقسطا من الوقت للّعب، وصورة أمّه متهالكة على القبر ثمّ مستأنسة به تُحدِّث والده كلّ صباح كأنّما لايزال على قيد الحياة، وصورة دلاء الماء في طابور طويل أمام بئر اليهوديّ... كلّها تُستعاد في رأسه وهو في طريق عودته، رأسه الذي صار يسع بعد هوازن وبني سعد ومكّة هذه المدينة الخضراء يثرب قلب البدايات ومركز جذوره.

- لم لا نقيم في مكّة أطما مثل تلك الأطم يا أمّي؟
راوده هذا الحلم الطفوليّ فرجا أمّه وهو يمسك بيدها.
- صِفها لجدّك أكيد أنّه سيقيم مثلها على الأقلّ لأجل خاطرك، بل إنّ العمّ شيبة كان كثير التّرحال، تاجر من نسل تاجر، ولا بدّ أنّه يعرفها حقّ المعرفة.
التفت إلى الخلف ومسّد على ظهر البعير، لقد ارتاح بما فيه الكفاية مدّة إقامتهم في يثرب وها هو ينطلق بهما في نشاط مشتاقا إلى مراعي مكّة.
-أراك اشتقت إلى جدّك... إلى جولة الصّباح في دروب مكّة وجبالها... حتما تعدّ له الكثير من الكلام والقصص عن يثرب.
- سأُريه أنّي أحسنت العوم.
تلفّت الصّبيّ إلى يثرب إلى أن غابت معالم المدينة، فأدخل رأسه مطرقا وفي عينيه شيء من الحزن، فراحت آمنة عندما رأته على هذه الحال تذكّره بأصحابه من فتيان مكّة الذين ينتظرون أوبته، عمّه حمزة الذي هو من مثل سنّه، والعبّاس الذي يكبره بثلاث سنين. لا تنس جدّتك فاطمة التي لم يبق من مزودها الذي أعطتك سوى بلحات، أمّا الحلوى فقد أتيت عليها، ستقصّ عليهم ما فعلته في شهر سفرك.
أعلم أنّك اشتقت إليهم، وكلّها أيّام وستلعب معهم في دروب مكّة، وسيصطحبك جدّك إلى أمكنته الخاصّة التي تحبّ، لم تتوقّف عن

الحديث حتّى ابتسم وهو يضع رأسه الصّغير على كتفها، ثمّ بدأت أجفانه تتراخى حتّى سكن فوضعت رأسه على حجرها لينام مرتاحا.

في الهودج الملوّن الذي صنعته آمنة نبتت أحلام الفتى، فتى بعمر السّادسة، أطم عالية للّعب وتطيير الطّائر وأنيسة معهم، سوف لن تكنس الحظيرة، أو تجلب الماء للبهائم بل ستلعب معهم من الصّباح إلى المساء، وستكون آبار كثيرة ليشرب النّاس دون ثمن مثل زمزم.

دنت بركة من بعيرهما ونادت محمّدا لتمازحه وتتأكّد من زوال حزنه لفراق مازن وعمرو. اخفضي صوتك فقد غفا. عذرا سيّدتي فقط أردت أن أستعلم عن حال سيّدي.

أغمض جفنيه وكأنّما اجتمع عليه تعب شهر كامل، فأبطأت بركة راحلتها التي كانت تحمل الزاد، وسارت خلف بعير سيّدتها، والعبد الذي أرسله معهم عبد المطّلب يتبعهم ويقوم على حراستهم في سفرهم.

حين وصلوا إلى الأبواء تناهى إلى سمعها صوت محمّد ينادي أمّه، ثمّ يعلو أكثر في نبرة جزع: أمّي، أمّي، دون أن تجيبه. اقتربت من الرّاحلة وأبعدت ستارة تغطّي باب الهودج، وإذا بها تفاجأ بآمنة وما رأته منها.

توقفْ عن المسير، سيّدتي آمنة ليست بخير، صاحت تأمر العبد.

أبركت البعير وأدخلت رأسها إلى الهودج وهي في هلع شديد ماذا حلّ بسيّدتها التي ابيضّ وجهها وبردت شفتاها، وجفلت عيناها ولم تعد تجيب أو تنطق ببنت شفة، أو تحرّك ساكنا عدا يدها التي تراها الآن تمتدّ في وهن لتمسك بيده.

- سيّدتي ما بك؟

-...

غمغمت بكلام لا يكاد يفهم، وعيناها إلى السّماء شاردتان وشفتاها رماديّتان، ومحمّد ذاهل تجمّد الدمع في عينيه.

- ماذا سنفعل في هذا المكان الخالي ما من حكيم أو دواء أو حتّى موضع نستريح فيه حتّى تتعافى.

- لندخل قرية الأبواء لعلّنا نجد من يُعيننا.

همّ الخادم ممتطيا فرسه إلى القرية ليحضر حكيما أو مسعفا، ولكنّه لم يبتعد حتّى انطفأت أنفاسها، وسمعت لها حشرجة، ثمّ اعتراها برود وسكون أخير. صاحت بركة بكلّ ما أوتيت من قوّة في هذه الفلاة، ونادى الغلام أمّه باكيّا وهي لا تجيب، ارتمى على جسدها الذّابل يريد أن يوقظها، ولكنّه لم يجد منها عناقا أو قبلة حارّة تطبعها على خدّيه أو جبينه كما عوّدته، ولا حتّى أيّ حركة.

حاولت بركة أن تجذبه إليها، ولكنّه لا يريد غير أمّه ولا يبتغي بديلا عنها، أمسك بطرف ثوبها ويديها يقبّلهما ثمّ خدّها وعينيها وجبينها.

- أمّي أجيبيني...

التفت إلى الجارية الحبشيّة:

- ما لها يا بركة لم تعد تكلّمني، أأغضبتها في شيء؟ لم يكن بها علّة عند انطلاقنا؟

وبركة لا تطيق أن تخبره بالحقيقة... تعانقه وهي تنتحب.

- يا لابني اليتيم، ذهبت أمّك للقاء أبيك وتركتك وحيدا.

تلبّسه ذهول مفاجئ وعانق أمّه وبكى بحرقة.

أغمضت بركة عيني آمنة وغطّت جسدها الذّابل البارد كأنّه لم تدبّ فيه حياة من قبل، ودخلوا القرية لتجهيزها للدّفن.

- أيّ مصاب حلّ بك يا بنيّ، وأيّ مصيبة حلّت بي غريبة في هذه الدّيار، ما عساي أقول لعبد المطلب؟ أَقُدّر على بني هاشم أن يموتوا غرباء كلٌّ في أرض بعيدا عن أهاليهم؟ يا حسرتي عليك يا بنيّ... ويا أسفي عليك يا مولاتي تبعتِ سيّدي عبد الله ولم تتجاوزي العشرين!

بكى الصّبيّ فراق أمّه حتّى احمرّت عيناه وتورّمت، أنكر عليهم ما يفعلون، لِم يهال عليها التّراب وأمام عينيه، وتوضع في هذه الحفرة في جوف الصّحراء غريبة وحيدة، لِم تُترك في هذا المكان الذي ليس لنا فيه أحد؟ لِم نتركها ونعود دونها؟

تهالك على قبرها وبكى بكاء بكى له الجميع، ولم تستطع بركة أن تثنيه عن البقاء عنده وتدفعه لمواصلة الطّريق حتّى حملته حملا بمساعدة الخادم.

***

عاد الصّبيّ إلى مكّة حزينا مفجوعا وفي نفسه صوت حشرجتها، وعلى يديه ملمس أناملها الواهنة التي دبّت فيها برودة غريبة ليست كدفء والدته، تقبض عليه قبضتها الأخيرة. عاد بغير الوجه الذي غادر به مكّة، حضنته بركة ومسّدت على رأسه وهي لا تكفّ عن النّحيب على سيّدتها ومصير هذا الغلام، وما ستقوله لعبد المطّلب.

تركوها بالأبواء في مكان يُدعى ألف مقنّع، وطول الطّريق لهول الصّدمة يذهلهم عن وعثاء السّفر والحرّ الشّديد.

ألن أراها ثانيّة، ألن أستطيع أن ألمسها مرّة أخرى، ألن أسمع صوتها وهي تناديني باسمي، ألن أحكي لها ما يحدث لي. هَذَى باسمها وهو يحدّث بركة، بركة التي تبقّت له في هذه الفلاة.

تنام سيّدتي نومتها الأخيرة في تلك القرية، قرية الأبواء، ما أعجز رأسي عن تقبّل أنّي تركتها هناك وحيدة وغادرت، فقد عاهدتها منذ أن غاب عنها سيّدي عبد الله أن أبقى معها ولا أفارقها. هناك تحت جثوة التّراب قُبرت أرقّ سيّدة عرفت، كانت تحلم بابنها الوحيد أن يصير سيّد هذه الأمّة كما ردّدها الهاتف في أذنها. أمٌّ آمنت بأحلامها، وعاشت لصغيرها، ثمّ رحلت وتركتني لأمانيها ومخاوفي عليه.

هناك قبرت أحلامكِ، أتراني أقدر أن أمدّ صبيّك بشيء من حبّك ورقّتك.

أعدك أنّي سأرعاه، فأنت تعرفين مدى حبّي له، فهو من حبّ سيّدي عبد الله. عند ذاك الحجر تركتك، وقد أعود إلى زيارتك يوما وحتما سيكون معي، ولكنّه سيعود سيّدا بين قومه لا صبيّا باكيا خائر القوى كما هو الآن.

انتحبت وغطّت وجهها عن محمّد الذي كان ساهيا ينظر من الهودج إلى مكّة التي بدأت تظهر في الأفق... ما اعتقدتُ أنّي سأحبّ مولاة مثل مولاتي آمنة التي لم تكن تراني أَمّة عندها، أذكر إنجابها لك، لحظات المخاض، أمومتها الأولى والأخيرة، الحبل الذي انقطع بينكما على يد

الشّفاء بيديها الحانتين الطّيّبتين، لحظات ميلادك، لحظات ألمك وفرحك وحزنك ووحدتك.

أنستني سيّدتي آمنة حتّى حبشيّتي واغترابي، امرأة أنستني الأغلال التي كبّلتني في سوق النّخاسة وكيف ساقوني إلى مكّة. أتراها دُفنت أحلامها عن طفلها معها، هنا في الأبواء، أم أنّها ستلازم الصّبيّ؟ كم كانت تراك عظيما!

سيّد هذه الأمّة... طالما أبهجت سيّدتي وحيّرتها أيضا، وهي الآن تحيّرني وتثقل كاهلي، حلمتْ بك وهي تحملك في بطنها سيّدا. أجل كانت تراك سيّدا، لكنّه لم يُقدّر لها أن تحيا لتراك تكبر.

سرّعوا خطى البعيرين والفرس والقلوب عند قبرها في الأبواء التي لن تكون بعد اليوم سوى ذكرى رحيل آمنة ومثواها الأخير.

- ضع رأسك على حجري يا محمّد، فقد تركنا قطعة منّا في ذاك المكان الغريب وسنحطّ الرّحال من دونها ولا نملك من أمرنا شيئا.

-5-

أعدّت هالة مائدة الطّعام، وفرشت الحصير وبسطته في الموضع نفسه من الحجرة، وبعد أن رتّبت المكان طلبت من حمزة أن ينادي والده الذي كان مستلقيا في الغرفة المجاورة، فقد صار تقدّمه في السّنّ يحتّم عليه الاستراحة بين الحين والآخر، ولم يعد يقدر على قضاء ساعات اليوم كلّها في مجلسه مع سادات قريش يتباحثون أمرها، أو يخرج للتّجارة إلى البلاد البعيدة كما اعتاد في سفره إلى اليمن يشتري كلّ بضاعتها من صبغ الشّعر واللُّبان... والكندر الذي يُتطيّب به، بعد أن كالته الأوجاع صفعة بعد أخرى، وضربات الزّمن التي أوهنته فلم يعد يقوى كما في سابق عهده، وكان للضّربة الأخيرة بوفاة آمنة أشدّ الأثر عليه.

ولمّا جلس إلى المائدة تفقّد محمّدا فلم يجده، فقال لهالة زوجته الشابّة:

- عليّ بابني، لن يدخل جوفي طعام إلاّ بحضوره، صُبّي لي وله في صحن واحد. إنّ ابني يتيم الأبوين، ولا أقدر على أن أهنأ بمأكل أو مشرب دونه.

- ذهب مع بركة لإحضار أغراضه من بيت والده.

- سأنتظره، عندما يعود أعلميني.

-ابنة العمّ آمنة العزيزة التي طالما لعبنا معا في ديار بني زهرة، ماتت وهي في العشرين من عمرها وتركته ليتمه. لا تخش عليه يا شيبة،

مكانته من مكانة آمنة، وهو مثل ابني حمزة تماما، ما أعطيته شيئا إلاّ أعطيت محمّدا مثله.
ومنذ أن انتقل إلى العيش معنا وبركة تعتني به، وتدلّله ولا تتركه يحتاج شيئا، رأيتها تنيمه في حضنها.
- ما أحنّ تلك الجارية على محمّد، من قال أنّها ستصير حاضنة محمّد بعد أن كانت مولاة أبيه، وآنست آمنة في وحدتها بعد موت عبد الله، وها هي تحنّ على ابنه، ولا تنام حتّى تطمئنّ عليه.
والآن تعود إلى داري بعد أن خلا البيت من ابني لتحضن ابنه! ما أعجب هذا القدر.
- رأيتها البارحة حين استفقت ليلا تغطّيه، وتسوّي له الوسادة. بقيت أرقبها فرأيتها تتكئ أمامه، وتستيقظ كلّما تحرّك واستدار فتسوّي عليه الغطاء.
- سأخرج إلى مجلسي للقيا القوم بعد الظّهيرة، والآن سأغفو قليلا.
كان فناء دار آمنة خاليا ومقصورتها حيث تضع صندوق الأغراض. سقطت دمعتان لبركة فمسحتهما، وضغطت على نفسها حتّى لا يراها الصّبيّ. سنجمع الحوائج التي جئنا لأجلها، ونرحل فجدّك في انتظارك لتخرجا إلى مجلسه.
أدخلُ البيت من دونها بعد أن دخلتُ مكّة مرتاعة متهالكة فارغة إلاّ من ذكراها، وبيدي هذا الصّبيّ الذي لا أقدر على النّظر في عينيه المفجوعتين اللّتين تؤكدان لي أنّ آمنة المحبّة قد طواها التّراب، وضغط على صدرها، ولم نعد قادرين يا ولدي على أن يجمعنا دفء

الحديث، ولا دفء القلب عندما تقسو الحياة وتشتدّ الوحدة، أنا الحبشيّة التي لم أعرف وطنا سوى مكّة منذ وعيت ودارَ سيّدي عبد الله ومولاتي آمنة.

- ساعدني يا محمّد لأحمل أشياءك وأشياء أمّك لنرحل بها إلى بيت جدّك.

الصندوق الخشبيّ، أشياء والدك، ولا تنس المأثور، سيفه الذي لم يكن يفارقه في سفره.

- أكان أبي قويّا؟

بكت بركة:

- كان سيّد مكّة القويّ وشابها الوسيم.

الخميصة التي نسجتْها لك عندما كنت عند السّعدية لا زالت تحتفظ بها رغم كبر جسمك، ثياب أمّك، الوشاح الذي اشتراه والدك من الشّام ولم تلبسه، سقاؤه، وهذا مغزلها الذي لأجلك أتقنت الغزل لتحيك لك أنت وحدك، وكم صنعت لك من سخاب، وجمعت لك من أعواد القرنفل! اتركها يا بنيّ وسأرتّبها عندما نصل.

هنا وضعتك والدتك، وهنا حملتك لأوّل مرّة، ثمّ قدّمتك لي وأنت في اللّفافة لأرى عبد الله فيك، وجاءت جدّتك فاطمة وفرحت أوّل فرح بعد وفاة أبيك، وقبّلتك أروى والعبّاس وتخاصما من يكون الأسبق، وجاءت جدّتك بُرّة كانت الآلهة في عونها على مصابها ببرمة النّفساء ونيّمتك واعتنت بك إلى أن تعافت آمنة.

أَكُتب عليك أن ترث وأنت صغير لم يشتدّ عودك أشياء أبيك ثمّ أشياء أمّك بعد وفاتهما واحدا تلو الآخر؟ يا لبنيّ، سأحملها لك في هذا الصّندوق، صندوق الرّاحلين إلى أن تكبر.

أعانها على حمل الصّندوق وحمل أغراض أخرى إلى بيت جدّه.

***

بعد أن استيقظ شيبة سوّى عمامته وحمل عصاه، وقبل أن يتجاوز عتبة الدّار نادى هالة وسألها إن عاد حمزة ومحمّد. قولي لهما أن يلحقا بي إلى ظلّ الكعبة بعد أن يعودا.

دروب مكّة في مثل هذا الوقت من السّنة أشدّ ما تكون عليه من الصّخب والامتلاء بأشكال وألوان غير مكيّة من زوّار البيت، وأصوات نجرانيّة تعرض البرود المزركشة والموشاة وأخرى شاميّة تبيع السّكر والزّيت والسّيوف وكلّ ما لا يخطر على بال. تجاوز شيبة درب النّخاسين فسمع صوت قينة انبرت لسيّدها في غناء فارسيّ شجيّ لم يفهمه، ولكنّه بدا رقيقا، فيه شجى عميق.

- أهلا يا عبد المطلب. كان القوم يحيّونه وهو يمرّ مستندا إلى عصاه على دكاكينهم ومجالسهم.

قال حمزة لمحمّد:

- سأسبقك إلى مجلس أبي، سننطلق من هذا المكان إلى ظلّ الكعبة، ومن سيصل أوّلا هو من سيخرج مع عمّي الحارث للصّيد، أو نخرج إلى المرعى نرافق الرّعاة إلى أعالي مكّة.

- حسنا.

- أنا عمّك فنادني بعمّي.

وانطلقا يضحكان وهما يعدوان في رشاقة الظباء، وما إن وصل حمزة إلى ظلّ الكعبة حيث مجلس عبد المطلب حتّى جلس مزهوّا بالقرب من إخوته الذين يكبرونه، ثمّ وصل محمّد بعده بقليل.

خرير ماء زمزم يملأ الأسماع، وخفقات أجنحة حمام الحمى تشدّ الصَّبيين، ثمّ انصرفا ببصرهما إلى أحواض الزّبيب التي أقيمت لزوّار البيت من الأدم. تأمّل وجه جدّه الوقور وهو ينشغل بحديثه مع أشراف قريش فَعلتْهُ ابتسامة فخر وعيناه تتراوحان بينه وبين حمزة الذي كان مزهوا بربحه في العدْو، ثمّ جلس إلى فراشه، وكان القوم وأبناؤه وأعمامه يجلسون دون المفرش، فلشيبة الحمد وقار وهيبة لم يسبق أن نازعه أحدهم أو داناه في مكان يجلس فيه. تجاذب الجميع نظرات مستغربة وأخرى منكرة، لكنّه طفل صغير يشتاق إلى جدّه ويحتاج إليه. أمسك أحد الجالسين ثوبه وجذبه فأقعده حول مفرشه، بكى واشتدّ بكاؤه فاستدار عبد المطلب وقطع حديثه فسكت الجميع مستديرين إلى مصدر الصوت.

- هذا أنت يا محمّد لِم تبكي؟

ردّ حمزة:

- أبعدوه عن مفرشك.

وقال أحد الحاضرين:

- عليه أن يحفظ هيبة مجلس سيّد قريش.

- اتركوا ابني فإنّ له شأنا، وأرجو أن يبلغ من الشّرف ما لم يبلغه عربيّ قبله ولا بعده، اجلس إلى جانبي.

ومدّ يده لمسح دموعه، ولمّا جلس بقربه أدناه منه حتّى أجلسه على فخذه، وقال له:

- كلّما قدمت إلى مجلس جدّك لا تقعد مقعدهم، هذا مكانك.

وضرب على فخذه الآخر.

كان الحاضرون كلّهم يرون ما بين الجدّ وحفيده، ولعلّ منهم من رقّ ليتمه المزدوج، فسوّغ لعبد المطّلب تصرّفاته تلك وتمييزه له من بين أبنائه وأحفاده، ومنهم من كان يحسده، ولا يجد مسوّغا لهذا المكان الذي اتّخذه من المجلس. كانت عينا جدّه تفضحانه، وعيون المنكرين تشي بما في نفوسهم تجاه الصّبيّ الذي فاق عنده منزلة شيوخ قريش وسادتها، وسُمع صوت من بين من انفضّ بعد انتهاء المجلس يهمس لصاحبه:

- ألسنا الأكبر منه سنّا ومقاما، هذا الغلام الذي استحوذ على قلب عبد المطّلب حتّى لم يعد يرى غيره، ألسنا سادة قريش؟

زال عبوس الغلام وتبسّم وهو ينظر إلى حمزة الذي سبقه قبل قليل في اجتياز الدّرب. لحمزة رغم ما يقوم بينهما من تسابق وتبارٍ كما يحدث بين الفتيان عادة مكانة في قلبه، فهو منذ أن أغلق عبد المطّلب دار عبد الله بعد وفاة آمنة وانتقاله للعيش معهم في البيت الكبير، وفرحتُه لا تسعه، فلم يعد يبتعد عنه اليوم كلّه بين دروب مكّة ووديانها وجبالها. كم يحب حمزة أن يصحبه ليرى الفرسان وهم

يتدرّبون على الرّماية والقوس، ويعاتب بركة لأنّها تأخذه منه ليلا، وتنيمه بقربها، وتطلب من حمزة أن يذهب لأمّه هالة حتّى يناما، فلا يقضيان اللّيل أيضا في إعادة الحركات التي تعلّماها.

همس حمزة في أذنه بكلام لم تفهمه بركة قبل أن يخلدا للنّوم، ترى ما الذي يدور في ذهن الصّغيرين اللّذين تبادلا النّظرات تحت ضوء السّراج؟!

خرجا بعد العصر مع العبّاس وبعض الصّبيان حيث اتفقوا أن يلتقوا عند السّدرة الكبرى أعلى مكّة. سأُريك شيئا عند هذه الشّجرة، وسنجد بها الكثير من النّبق، وسأختبئ وتبحثان عنّي ثمّ نتقالب الأدوار، وسأريك منظر مكّة من أعلى، جئت مع العبّاس إلى هنا أكثر من مرّة، انتظرك هناك يا محمّد، أترافقني يا محمّد؟ بالسّدرة الكبرى الكثير من النّبق.

- سأجمع بعضه لبركة.

- إذن وافقت، مرحى، سيكون يوما مميّزا سترى.

لأوّل مرّة يرى الغروب خارج الدّيار من أعالي مكّة، بديعا وفاتنا... ما أكثر صمته وشخوص بصره إلى السّماء! كأنّما استودعت البادية هدوءها فيه ومزاجه الرّائق وطبعه الهادئ.

أخفى بعض الحبيبات بين أصابعه، ثمّ دسّها في جيبه، وصعدا أعلى مكّة حيث تظهر البلدة بكلّ مداخلها ومخارجها من هذا المكان.

تفقّده عبد المطلب في حُجرات البيت وأمام الكعبة فلم يجده، فعاد إلى البيت وقد انشغل باله:

- أين محمّد لم أره منذ الصّباح؟

- لم أره أنا أيضا، لا أدري...

- كيف لا تدرين، أين بركة؟ هرولت من الغرفة مرتعشة وقد جلجل صوته في الدّار كلّها ومثُلت أمامه مطأطئة الرّأس.

- كيف غفلت عن ابني؟ إنّي أخشى عليه.

- أعرف أنّي قد قصّرت اغفر لي يا سيّدي.

خرج عبد المطّلب غاضبا وأرسل من يبحث عنه في مكّة كلّها، أمّا بركة فافترشت الأرض ووضعت رأسها بين كفّيها وأخذت تضربه وتبكي.

-6-

أخبره أحدهم أنّه رآه مع بعض الغلمان يصعد إلى أعالي مكّة، رُدّت إليه روحه بهذا الخبر، ثمّ شعر بغضب شديد وفار دمه. بعث بمن يردّه من غلمانه على وجه السّرعة، ولمّا عادوا به واطمأنّ عليه ورجعوا إلى البيت صاح في وجه بركة والغضب يملأ أشداقه:

-أتعلمين أين وجدوه يا بركة؟ كان قريبا من السّدرة الكبرى أعلى مكّة.

طأطأت الجاريّة رأسها واحمرّ وجهها، واعتذرت منه ثمّ تقدّمت إليه فقبّلت يديه وهي تتوسّل إليه:

- لن يتكرّر هذا ثانية يا سيّدي... أعدك

- لا تغفلي عنه يا بركة، لا يغيب عن ناظريك، هو شغلك الشّاغل!

-وعليكَ أن تخبرني وتخبر بركة بخروجك، وأين تذهب؟ ما عهدتك شقيّا! أم تراه حمزة والعبّاس هما من حرّضاك على الخروج وزيّناه في عينيك دون أن تُعلمنا؟

صمت وطأطأ رأسه ولم يقل شيئا.

كان صوت الماعز وأجراسها، وألوان نوّار البريّة التي تنمو بأعالي مكّة تسترعي انتباهه، وتدهشه وتعيده إلى بني سعد، قطف الكثير منها، وصورة المغيب جميلا ومذهلا لصبيّ مثله فتح عينيه أوّل ما فتحهما على البادية. ليته يستطيع أن يعود إلى هذا المكان، ويرى منه الغروب كلّ يوم، لكنّ جدّه لن يسمح له.

المغيب من هذا الارتفاع غيره وسط البيوت الطينيّة، لم يره بهذا الاتّساع منذ أيّام هوازن عند أمّه السّعديّة عندما كان بصحبة إخوته في المرعى.

- ترى كيف هي أنيسة وحذافة وحذيفة وعبد الله إخوتي من الرضاعة وأمّي حليمة وأبي الحارث، وذاك الوادي، وتلك البادية التي تفتّحت عيناي عليها، أتراني أستطيع أن أزورها يوما ما؟

ألقى شيبة نظرة عليه وهو نائم، فألقى عليه الغطاء، وفرد يده فقبّلها في بطن كفّه، ثمّ طبع قبلة على جبينه، ومسّد شعره ثمّ جلس عند قدميه والدّمع يطفر من عينيه اللّتين بدأت غشاوة تملؤهما في الفترة الأخيرة، وعندما عاد إلى حجرته باح لهالة بما ينغص عليه ليلته بعدما استلقى بجانبها:

- أتراني قسوت عليه وعلى بركة عندما منعته من الخروج إلاّ بإذني؟

- لا يا عبد المطّلب، أنت بمثابة والده.

- أخشى عليه يا هالة، خشيتي عليه كبيرة... إلى أن يصير قادرا على الاعتماد على نفسه.

- أظنّه ابننا من طلب منه الخروج أو صبيّا من صبيان أعمامه أو عمّاته، فهو لا يزال صغيرا على فكرة كهذه، وليس في شقاوة وجرأة حمزة، سأعرف غدا من فعل ذلك دون أن يعلمنا وسينال عقابه حتّى لا يعود إلى هذه الفعلة.

حين فركت الشّمس أعين أهل مكّة، وبثّت نورها في الوجوه والقلوب، وتسرّبت إلى بيوت المكّيّين، وتلقّفها البيت العتيق كما اعتاد أن

يتلقّفها منذ آلاف السّنين، انتظر شيبة استفاقة حفيده، فأجلسه على فخذه، ثمّ طلب منه أن يدخل يده في جيبه ويأخذ ما يجده، نبق ناضج أتمّ النضج. تناول حبّة منه وألقمها فم الصبيّ، فقضم طرفا منها، فتنسّم شيبة رائحتها الطيّبة ومحمّد مطأطئ الرّأس في ابتسامة.

- إنّه حلو، تنضجه في مثل هذا الوقت من السّنة الحرارة الشّديدة فيقارب لونه السّواد.

لعلّ هذا ما دفعك إلى أعلى مكّة، إلى السّدرة الكبرى ذات النّبق الحلو، لو تعلم حبّي لك يا محمّد وخشيتي عليك...

بعد انصراف جدّه إلى مجلسه بحث عن بركة فوجدها باكية في زاوية من الغرفة بعد أن عاد سيّدها في هذا الصّباح وأمرها بأن لا تتركه يغيب عن عينيها. دنا منها ومسح دمعها وحضنها وهو يسألها:

- سامحيني لقد وبّخك جدّي بسببي.

- أنا لا أبكي لتوبيخ سيّدي شيبة، هو محقّ... خشيت عليك أن تكون قد ضعت كما حدث ليلة أعادتك السّعدية، أو أصابك مكروه.

بكى الصّبيّ وهو يستحضر حنان أمّه آمنة وأحضانها تلك اللّيلة وجزعها عليه، شدّ على بركة وزاد في عناقها:

- أنت أمّي بعد أمّي.

توقفت فجأة، نظرت إليه، ملأت سحنتها السّوداء ابتسامة عريضة، أشرق وجهها وعادت تحضنه.

- سأكون أمّك يا ولدي إلى آخر يوم في حياتي.

ابتسمت ثمّ ضحكت، قبّلت رأسه، هي التي لم تتزوّج بعد، ولم تنجب وتعرف معنى الأولاد. أخرج حبّات النبق التي قطفها لها وخبّأها عن جدّه:

- هذه لك، جمعتها لأجلك.

قالت وقد تغيّرت سحنتها:

- كلّ هذا لي سنقتسمها معا، واحدة لي وواحدة لك، ما أحنّك يا محمّد وأرقّ قلبك وأنت تجبر خاطري!

***

-7-

دخل حمزة ومحمّد بعد أن أرسل عبد المطلب من يأتي بهما، فإذا بالدّار تضجّ بعمّاته وأعمامه الذين كان في وجوههم شيء غريب على غير العادة، احمرار في الوجه ومخاط في الأنف وصوت شهيق مكتوم. اقترب حمزة وقبّل يد والده، وارتمى محمّد في أحضانه، كان جدّه فاترا، ولم يضعه على فخذه، ويخرج ما يخفيه له من طيّب الحلوى ككلّ مرّة، هرع محمّد إلى بركة وأخفى رأسه في ثيابها.

- ما به جدّي؟

- لا تخف، وعكة وسيزول وجعها.

مَثُلت رغما عنه صورة أمّه في الأبواء أمام عينيه، وعاوده ألم الفقد جارحا وغضّا، هو الذي لم ينسه، رغم أنّه مرّ عليه عامان، مسح فيهما جدّه بحنانه على قلبه، وأدناه منه حتّى فضّله على كلّ بنيه وبناته ولم يهتمّ بغيرتهم، يخشى أن يفقده كما فقد أمّه حيث لم يعتد أن يراه طريح الفراش.

شدّ على بركة بكلّ قوّته، ودفن رأسه أكثر فأكثر في ثيابها...

بعد أن رأى سادة قريش وكبار القوم فراغ مجلس عبد المطلب هذا اليوم على غير عادته، وعلموا السّبب أسرعوا لزيارته.

- أعلمنا ولدك العبّاس أنّك طريح الفراش.

- بعض التّعب والوهن، وفي رأسي طنين وصداع قويّ، لا أقوى على فتح عينيّ.

- كلّها أيّام وستتعافى، نتركك لترتاح.

وما إن غادر عوّاده حتّى اقتربت منه هالة وهي تبتسم:

- ستتعافى يا سيّد مكّة، ألا ترى عوّادك ومكانتك عند قومك؟ ما من أحد ممّن كان يحضر مجلسك، وممّن عرفك إلاّ وأتى ليسأل عن حالك.

لم يقل عبد المطلب شيئا... تأمّلت وجهه الباهت فتوارت ابتسامتها، ودبّ في قلبها خوف وقلق حقيقيّ عليه هذه المرّة.

- مالي أراك منشغل البال، وقد كنت تهشّ في وجوههم رغم ألمك، وما إن انصرفوا حتّى عُدت إلى شرودك، أم أنّ طنين الرّأس قد عاودك؟

- وكأنّ رأسي سينفجر.

أرسلت في طلب بناته حينما رأت صحّته تسوء، وأوصت العبّاس أن يخبرهنّ بأنّه يريد رؤيتهنّ، ولا يحدثهنّ عن تفاقم المرض عليه، ولكنّ الخبر كان قد شاع، ولم يفلح الفتى الصّغير في خداعهنّ.

- وصلت برّة وعاتكة، لم أستطع أن أنظر إليهنّ وهنّ يجتمعن باكيات حول فراشه، وهو لا يحرّك ساكنا، أتراه سيتعافى يا بركة؟

يبدو مرضه هذه المرّة مختلفا على غير ما اعتدتُ منه، فهو لا يُقعده تعب أو صداع، فما باله هذه المرّة يغمض عينيه ولا يكلّمني؟!

هذا طرق أمّ حكيم أعرفه... افتحي يا بركة.

- أجل يا مولاتي معها أميمة وأروى أيضا وعيونهنّ محمرّة كالدمّ، وكأنّما كنّ يشعلن النّار وقد قهرهنّ دخانها.

- كيف حال والدي؟ نطقت أروى والعبرات تسبقها، وهي تسرع إلى غرفته دون أن تنتظر الإجابة.

- أخشى أن لن يقوم من هذا المرض.

يأتي صوته ضعيفا:

- يزداد الطّنين، يكاد رأسي ينفلق.

ارتاح قليلا ثمّ زفر وهو يخاطب حمزة:

- أُدع أخويك أبا طالب والزّبير، أريد أن أوصيهما، أشعر أنّي لستُ بخير، وأخشى على محمّد، يحيّرني أمره، أسرع يا حمزة، يشغلني أمر هذا اليتيم الذي في رقبتي.

حثّ حمزة الخطى لطلبهما، وما إن قدما وأفضى عبد المطّلب بما في جعبته حتّى شعر الزّبير في كلامه ميلا لأبي طالب فتغيّرت سحنته ولم يقل شيئا، ولكنّ أخاه انتبه إلى الأمر وشعر بانزعاجه.

- أرى في فمك كلاما.

- أنا أحقّ منه بكفالة محمّد، وإن كنّا من بطن واحدة، فهو رقيق الحال كثير العيال، وأنا الأكبر سنّا، والأوفر مالا.

- أحبّ أن أكفل ابن أخي محمّدا، وإن كنت فقير الحال، فأنا أحنّ عليه بعد جدّي، وها هو محمّد فاسألوه، فهو لا يمرّ يوم واحد دون أن يأتي إلى بيتي، وفاطمة زوجي تحبّه وتحنو عليه، وأولادي يلعبون معه.

- لنقترع عند الكعبة.

قِدح لعبد مناف وآخر للزّبير في جوف الكعبة يحملها الكاهن عمّن يكفل ابن عبد الله اليتيم، وبعد عدّة محاولات صاح الكاهن ليسمع جميع الحاضرين:

- لقد خرج قدح عبد مناف ثلاث مرات واحتجب قدح الزّبير، تريد الآلهة أن يكفله عمّه أبو طالب، ولا رادّ لإرادتها.

اكفهرّ وجه الزّبير، ولكنّ تلك السحابة انقشعت عنه بسرعة، واستسلم في النهاية لإرادة الآلهة وهنّأ أخاه رغم ذلك، فانطلق أبو طالب وهو يعانق الصّبيّ إلى والده يخبره بنتيجة ضرب القداح، وترَك الزبير لذكريات يوم كان ابن أخيه طفلا وهو يناغيه ويلاعبه، وذكر متألّما أخاه عبد الله أصغرهم الذي مات شابّا ولم ير ولده.

ما إن عاد به عمّه أبو طالب حتّى فرح جدّه وعلا وجهه الباهت ابتسامة وتنهّد تنهيدة عميقة أخافت هالة:

- الآن اطمأننت على محمّد، وهنأ بالي، وأستطيع أن أرحل مرتاحا.

- لا تقل ذلك يا أبي، كلّ العمر لك.

قالت أروى وهي تمسك بيده، ثمّ تبتعد عنه ولا تريد أن تُريه دموعها لتجلس عند قدميه وتقبّلهما. نظر يمينا وشمالا حيث تجتمع بناته اللّواتي قدمن مسرعات بعد أن سمعن الخبر، وزوجاته الستّ كلّهنّ.

- ما أشبه هذا اليوم بيومي قبل سنوات كثيرة عندما كنت ضعيفا، لا ولد لي غير ابني الحارث، كثرت الزّوجات والنّسل، وها أنا سأرحل ضعيفا وحيدا، قال بصوت خافت.

- لا تقل ذلك يا أبي، نهضت أروى من بين قدميه وقد انفلتت منها دموعها، ستتعافى يا سيّد قريش وستعود إلى مجلسك عند الحِجر الذي سيظلّ عامرا بنفَسك يا أبي.

- لقد حان الرّحيل يا ابنتي...

ولم ينقض اليوم حتّى فاضت روحه، وسُمعت أصوات زوجاته وبناته يبكين الرّجل الشّهم والوالد الحنون، وكثرت اللاّطمات وصاحت النّائحات، وكان صوت أروى أصغر بناته نشيجا هادرا، يرثي سيّد قريش.

في شمال مكّة على بعد أكثر من فرسخ، في الحجون حيث يدفن أهل مكّة موتاهم قُبر عبد المطّلب وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، أمام قبر جدّه قُصيّ حيث كان السيّدان العظيمان، سيّدا قريش على موعد، وعاد أبناؤه وسادة قريش والنّاس كلّهم من أهل مكّة دونه، ومرّ الموكب أمام ظلّ الكعبة حيث كان يُعقد مجلسه وطيف شيبة الحمد وجلاله ووقاره لم يبرحه.

- أين محمّد، ما تركت مكانا إلاّ بحثتُ فيه؟!

- لم أره منذ أن عدنا من المقبرة، كان جدّه لا يتركه يغيب عن ناظريه.

- كان مع عمّيه حمزة والعبّاس.

-لكنّهما قالا إنّهما لم يرياه منذ دخلا البيت، سأبحث عنه في كلّ الحجرات ثانية.

- يا لصغيري اليتيم، وجدته مقرفصا خلف سرير عبد المطلب يدفن وجهه بين ركبتيه ويبكي.

حمله أبو طالب وعانقه بشدّة وبكى معه أبا لن يعود.. بكى الصّبيُّ فيه الأب والأمّ والجدّ، وشهقت لذلك عمّاته جميعا وحمزة والعبّاس وزوجات عبد المطّلب.

- ماتت والدته ثمّ مات جدّه، كم تراه يحتمل ليحتمل هذا الفتى؟
قعتْ بركة أرضا وأجهشت بالبكاء.

- نحن معك جميعا يا محمّد، لا تخشَ شيئا وعمّتك أمّ حكيم موجودة.

- لم يتجاوز الثماني سنوات حتّى فقد جدّه أيضا وصورة أمّه في الفلاة لم ينسها.

ما إن يكاد يلتئم الجرح حتّى يُنبش ثانية، ويأتي جرح آخر يفتح الجراح القديمة، فصورة والدته بالأبواء والتّراب يُهال عليها لم تمّح من ذاكرته.

مكّة كلّها حزينة، لم تقم لها سوق منذ أيّام عديدة، مكّة صامتة دونه، فارغة كأنّما خلت، عبد المطّلب الذي روى الحجيج بأحواض الزّبيب الذي يشتريه من الطّائف قبل أن يُقطف في كرومه، مكّة حزينة لا قلب لها للحياة أو الشّراء أو التّزيّن.

لم يكن جدّه كلّ شيء بالنسبة له هو فقط، بل لمكّة كلّها، كأنّما فقدت الأيّام عبقها ورائحتها دون شيبة الحمد، لم تكن تلك المرّة الوحيدة التي وجدته فيها بركة خلف سرير جدّه، كانت كلّما افتقدته، دخلت حجرة جدّه، اقتربت نحو مصدر النّحيب فإذا هو ضامّ رجليه، مخفٍ رأسه بينهما.

حملته ومسحت دموعه ونيّمته في حضنها، وقد تدعو حمزة والعبّاس ليلعبا معه ويخرجاه من حزنه.

العالم دون من نحبّ حالك لا شمس فيه، عندما تفقد حبيبا تودّ لو بكت معك الخليقة كلّها، تدرك بعد غيابه أنّه يعني لك كلّ شيء وأنّك دونه لا شيء، وحيد ضائع في فلاة، هو ركن الزّاوية، هو البيت ودفؤه رغم أنّك كنت تعيش معه ولم تلتفت له كما يجب، فابكه بشدّة لأنّه لن يعود، ولن تقول له هذا الكلام.

- يا لصغيري من بيت لبيت، تنقل أشياءك وثيابك بعد أن أقفل بيت أبويك، لكنّي فرحة لأنّك ستعيش مع عمّك أبي طالب، فرغم فقره فهو رفيق بك وحنون، يحبّك ويرعاك، وأنت لا تفارق داره حتّى عندما كان جدّك حيّا، تحبّ أولاده ويحبونك، وزوجه فاطمة بنت أسد اعتادت عليك وتعدّك كولد من أولادها.

جمعتُ كلّ الأغراض، وغدا سنكون في بيت عمّك، عمّك المحبّ الذي سيربط على قلبك، انهض يا بنيّ من خلف سرير عبد المطلب، لاتزال مقرفصا، جدّي... أعلم أنّه كان يعني لك الكثير، لم يكن يمرّ يوم دون دمعٍ قبل أن يخلد إلى النّوم.

تعال يا بنيّ لننام نومتنا الأخيرة في بيت جدّك... فالحياة لن تقف عند أحزاننا يا ولدي، علينا إمّا أن ننهض من جديد ونجبر خواطرنا بأنفسنا، أو أن نترك الفقد يفعل بنا ما يشاء، يكبر فينا فلا نرى غيره، وحينها سنموت حقّا، وسينتصر علينا الموت.

أمّك كانت تحبّ دفء طلّتك وابتسامتك التي تبعث فيها صورة والدك، فابتسم، سيّدتي آمنة تحبّك مبتسما، وسيّدا... حتّى وأنت صبيّ في الثّامنة.

رغم أنّ أياما قليلة مرّت دون دمع، لكنّ الحياة واصلت مسيرتها كأنّ شيئا لم يكن، أشرقت الشّمس كلّ صباح وانصرفت إلى عشّها كلّ مساء، وتعاقَب اللّيل والنّهار، ووُلد الصّبية والصّبيان، تزوّج من تزوّج ومات من مات، وكبر محمّد وصار فتى وسيما، ولكنّ يديه المرتعشتين مازلت أشعر بهما، ورعشته البريئة كلّ صباح، كلّما بكى وتألّم غياب والدته، وحتّى حين يفرح دونها ولا يجدها بقربه تشاركه حلو أيّامه، إذا ما أُغلقت الأبواب ونام الأطفال في أحضان أمّهاتهم، وبقيت وحدي مع يتمه وفراغ قلبه، رعشته وانكسار عينيه إذا ما نادى أحد الصّبية أمّي أو أبي لا تفارقه حتّى بعد أن كَبُر.

- ابك يا ولدي على صدري، ولا تكتم ألمك عنّي، ألم تقل لي أنت أمّي بعد أمّي؟

ابتسم ودمعه يغسل وجهه. أَعِدْها ثانيّة، أريد أن أسمعها منك، أنا أيضا يتيمة ووحيدة ليس لي أحد سواك. أقول له ذلك إذا ما أردت أن أسكته وأتصابى له، فيلتفت إليّ وينسى نفسه، يمسح دموعه ويقول لي:

- أنت أمّي بعد أمّي.

أذوب فيه، وأحضنه وتمتزج دموعنا وضحكاتنا وكلّ الأبواب مغلقة، ثمّ ننام، ولا أتركه ينام باكيا أبدا، أُضحكه كما كنت أفعل مع أمّه آمنة بعد أن رُزِّئت في سيّدي عبد الله وهي حامل به.

أحكي له عن أمّي وأبي، وإخوتي وكلّ المحرومين أمثالنا، وطفولتي التي لا أذكر عنها الكثير سوى سوق فسيح للذراري المسبيّين يقودوننا كقطعان الماشية وبقربه روث كريه.

سأكون أمّك وأباك وجدّك، وكلّ عائلتك، سأهديك شبابي ووحدتي وكلّ حبّي حتّى لا تجرحك الأيّام، سأمسح يتمك بمنديل حبّ في الصّباح وسأغطيك بآخر في المساء، وسأطعمك برغيف حنان كلّ يوم حتّى لا تشعر بجوع البشر ولا تحتاج رأفتهم. سأعيش لأجلك... سأكون حضنك وظلّك ونفَسك، وكلّ الدّنيا سأكون لك، فحتّى أنا ليس لي غيرك في هذه الحياة، وإن ولدتك السيّدة البيضاء فالأمة السّوداء هي التي قُدّر لها أن تحضنك.

في هدأة اللّيل على الحجر الأصمّ جلس تحت هدوء النّجوم، ما أشدّ حبّه للنّظر إلى السّماء في صمت اللّيل البهيم.

- أراك هنا كلّما سكن الجميع وركنوا إلى النّوم، ماذا تفعل في هذا اللّيل يا ولدي؟

- أتأمّل السّماء والنّجوم.

- أمّا آن أن تخلد للنّوم؟

مقام العمى:
لا نور كنور القلب

يحبّ أن يستفيق سيّدي ورقة بن نوفل باكرا يقتنص هذه اللّحظات من الهواء المنعش الذي يتحسّسه على وجهه قبل أن تلتهب مكّة حرارة فيملأ بها الصّدر لباقي اليوم.

أصوات الرّعاة ومجنونة بني أسد تنادي ابنتها التي فقدتها وتدقّ الأبواب منذ أكثر من ثماني سنوات تبحث عنها هلعة وتخبر كلّ من يفتح لها بأنّها أُخذت منها عنوة بعد وضعها بساعات.

تلك المرأة! تصحو مكّة على عويلها أو غنائها سيّان، ترمي الرعيان بحصيات وبشتائم لا تنتهي تخجلهم فينفضّ جمعهم، يضعون رؤوسهم وينصرفون عجلى إلى مراعي الإبل، أمّا هي فتأخذ ثيّاب صغيرتها التي جهّزتها لها قبل الولادة لتغسلها بالوادي، ثمّ تنزل إليه فتغمرها المياه وتستحمّ، وكثيرا ما اشتدّ صراخها عندما يغمرها الماء وتشعر بالغرق.

ذكرتني بماء التّعميد قبل سنوات، حين غمرني الرّاهب يومها بالماء المقدّس حتّى الرّأس، للمرّة الأولى، ثمّ الثانية ثمّ الثالثة، غسلني الماء من الخطايا، وألحقني بطهر يسوع، يسوع الذي عمّده يوحنا في الثّلاثين من عمره، ألذلك يُسمّى يوحنّا المعمدان؟ مثلي عمّد بعد كبر. يوحنّا عَمّد بماء، وأمّا أنتم فستعمّدون بالرّوح القدس، تلا القسّ قانون الإيمان وخلفه الشّماسة.

ردّد الكاهن كلمات لم أفهم حينها أغلبها وهو يضع يده على رأسي، ثمّ ينفخ في وجهي ويدعو لي بالبركة، زادت الشّموع المنارة ذاك الصّباح نورا على يوم تعميدي. ربّ واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة، وأخذ

يكرّر: أنا عمّدتكم بالماء، وأمّا هو فسيعمّدكم بالرّوح القدس. شعرت كأنّما دماء جديدة تسري في عروقي، وأنّ حياتي بدأت الآن مع رائحة البخور الذي حُمل في قدح نحاسيّ وطفح بها المكان، المعمودية ميلاد جديد.

حمل الشّماس بعد التّجفيف إناء به زيت مسح به رأسي وتلا آيات من الإنجيل، وقصّ عدّة شعرات من الجبهة ومؤخرة الرّأس وبالقرب من الأذنين على شكل صليب، ثمّ علّق الكاهن الذي كان أوّل من استقبلنا عند قدومنا إلى الكنيسة صليبا من خشب حول رقبتي مازلت أحتفظ به في خزانة كتبي، وبدأت التّهاني تصبّ عليّ من الحاضرين. نظرت إليهم أبحث عن زيد ليرى ما أنا فيه، ويبارك إيماني فلم أجده.

لا يزال قانون الإيمان يتردّد في عقلي وقلبي منذ تلك السّاعة: بالحقيقة نؤمن بإله واحد، الآب ضابط الكلّ، خالق السّماء والأرض، وكلّ ما يرى وما لا يرى، وبربّ واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل الدهور. نور من نور، إله حق من إله حق مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر الذي به صار كلّ شيء، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا، نزل من السّماء وتجسّد من الروح القدس، ومن مريم العذراء والدة الإله...

رفع الكاهن صوته بهذه الكلمات التي سمعتها لأوّل مرّة وشدّتني إليها وفتحت عينيّ على السّؤال.

أكلّ ما كنت فيه وهم؟! كان يقين زيد بعد أن اختفى يربكني، الميلاد الذي شعرت به تحوّل إلى ارتداد؟ مُدّ يدك يا يسوع لتخلّصني.

أردت أن أتعرّف على المسيح، فهو وحده القادر على أن يمحو شكوكي، ويقضي على حيرتي، باسم اليسوع سأشقّ طريقي. بدأت عدوى الأسئلة التي أخذتها عن زيد تنقلني من طريق إلى طريق، وتصيبني الالتواءات بالدّوار، مجمع نيقية وقانون الإيمان، هل يحتاج الإيمان إلى قانون أم هو الرّوح التي تسري في الجسد باسم الربّ فينقلك من تضعضع الظّلام إلى علياء النّور؟ الإله والربّ والرّوح، الآب والابن والروح القدس، ما هذا التعقيد؟ وهل لله ابن، وأيّ سمات يأخذها لاهوتية أو ناسوتية؟ وتذكرت ما قاله لي زيد ليلتها ونحن في كنيسة الأناضول عن الكتب المخفاة والأناجيل المحرّمة، وعن نسطور وعن أريوس اللّذين اتُّهما بالهرطقة والكفر البواح ثمّ قتلا لمّا قالا بعدم ألوهية المسيح التي أقرّ بها قسطنطين في مجمع نيقية وقال بالثّالوث الذي لم يكن قبلا... الدّوّار كان شديدا ومربكا.

كان طريقي شائكا، وكم حلمت بالمسيح مصلوبا والدّم القاني يقطر من قدميه المدقوقتين ويديه، يا أبانا خلّصنا، مدّ إلينا غوثك، يا أمّنا العذراء رحماك!

بعد عودتي إلى مكّة واختفاء زيد وما طرحه في نفسي من أسئلة انكببت على الكتب أقلّبها ورقة ورقة، ورحلت بين تلك الاختلافات لعلّي أصل إلى راحة تملأ فؤادي، وتشعرني بالسّكينة إلى أن رسوتُ بمجدافي

وغمرني نور الإيمان لا قانونه، أتراها مثل هذه الأسئلة التي تشغلني هي ما جعل أريوس يكتب رسالته اعتراف الإيمان؟!

طوبى للأبيونيين، طوبى للفقراء من خراف الربّ. كانت القراءة تشعرني بالسّكينة، تطفئ أسئلتي ويقرّ عندها قراري، المسيح ليس إلها بل هو بشر رسول للبشر من الله ربّ الأكوان، هذه القناعة التي قُتل لأجلها نسطور وأريوس وكلّ الموحّدين، يا إلهي سامحني أنا العبد الجاهل الضّعيف الضّائع بين أسئلتي!

***

- اعذرني يا سيّدي لقد قطعت عليك خلوتك.

- لا عليك. أنهيتُ صلاتي، أُدخل يا خانوم.

- هذا موعد تجوالك في البلدة وطوافك بالبيت، أردتُ أن أصحبك، أو بالأحرى أن تصحبني معك!

- حسنا يا خانوم، أحضر لي عصاي.

ما يزال في مثل هذا الوقت بعض العبيد والماشية في السّوق بعد أن انفضّ، ينتظرون أن يُنقلوا إلى مكان مبيتهم عند أسيادهم وممتلكيهم الجدد، أمّا البلدة فتحضّر نفسها للمبيت والرّاحة من يوم حارّ ومتعب وضاج بالتّلبيات وأصوات الباعة والمتجوّلين، عدا بعض السّاهرين من الشّباب اللاّهين وروّاد حانة اليهوديّ الذين لا ينقطعون عنها كلّ ليلة.

- ها قد وصلنا يا سيّدي إلى نهاية رحلتك اللّيليّة، الكعبة أمامنا، بإمكانك أن تدخل.

وضع يده على العمود الذي يلي الباب والتفت إليّ متحسّرا وهو يتحسّس الحجارة:

- تمثال مريم ابنة عمران أما زال بنظارته؟ أيّ صانع مرهف الحسّ جسّد حنان أمّنا ورقتها وصبرها وما لقيته لأجل المسيح! من هذا الذي نقل وجه العذراء بكلّ هذه التّفاصيل! يا لأمومتها الطّاغية ونور وجهها المكلّل بالصّبر والطّهر!

كلّما دخلتُ جوف الكعبة وقفت طويلا عنده، تمثال العذراء تُقعِد في حجرها المسيح عيسى.

كلّما أردتُ رؤيتهما أجتاز ساحة سوق الأدم والقماش، وأترك خلفي أصوات الباعة، وبئر زمزم ومجلس عبد المطلب، لأجد نفسي مباشرة في جوف الكعبة بعد أن أطوف حولها سبعة أشواط ملبيّا، يقابلني عند العمود الذي يقف عند الباب تمثال مريم العذراء صقيلا وجميلا، لفت انتباهي منذ سنوات حينما كنت مبصرا، نتوءات الخزف أتحسّسها الآن كأنّما أراها.

كنت في كلّ مرّة تقع عيناي عليها كأنّي أراها للمرّة الأولى، وأتصوّر مريم المباركة تتحدّث معي وتقول لي:

- أرأيت ولدي؟

لطالما حدّثتني عنه وغمرتني بحنانها ودفء أمومتها، كان المسيح طفلا صغيرا جالسا في حجرها مزوّقا مثلها.

أتفرّسه عندما تطلب منّي ذلك، ثمّ أعود إلى عينيها الصّافيتين كأنّما هما السّماء أو نبع زمزم.

شعور غريب امتلئ به تجاهها، أهو إعجاب أم انبهار أم استغراب؟ بدت لي حينها مختلفة عن أمّهات مكّة بل كلّ الأمّهات، ولا أدري لم شعرتُ في الماضي بشيء من الغيرة تجاه صغيرها، بدت أمّا مختلفة ولعلّه لهذا السّبب أجاد نحتها هذا الصّانع الماهر، واختيرت لتوضع في جوف الكعبة، إلى أن سمعت الزّوّار يتبرّكون بها وينادونها العذراء، ولمّا سمعت قصّتها من أبي ازددت إعجابا بها. تساءلت في صغري لمن هذا التّمثال، ومن هذه الأم التي تجلس ولدها بحجرها، والتي اختيرت من بين كلّ الأمّهات لتوضع هنا؟

لم أدر يومها أنّها والدة المسيح، يسوع المخلّص، وأنّي سأدين لها كما يدين كلّ النّصارى، الطّاهرة مريم ابنة عمران.

أتأمّلها إلى أن ينهرني الحارس ويخرجني غاضبا، فأغادر المكان حزينا وأذوب وسط زحام الطّائفين، ورائحة بخور الكعبة والسّدنة يطيّبون قرنا كبش جدّنا إبراهيم كلّما طُيّب الحرم تملأ أنفي، وتلتصق بثيابي ونظرة ابنة عمران تستفز خيالي. لا أدري لم لم أعر هبل ما أعرته هذا التّمثال الرّقيق، ولا حتّى إساف ولا نائلة اللّذين في الخارج؟ شعرت أنّ له روحا...

كلّ نصرانيّ من مكّة محظوظ، كلّما أراد أن يتبرّك بصورة العذراء والسيّد المسيح وجد المكان مفتوحا، وإن لم أحزن على ذهاب بصري فلأجل هذا التّمثال أحزن على عماي، نظرتها الأموميّة الحانيّة على

ابنها، صفاء عينيها ودفؤهما تبسم له محفورة في ذاكرتي، والآن ليس بإمكاني إلاّ أن أتحسّسه، جسم صقيل ناعم من حجر أملس.

قبل أن نخرج التفت إلى مكان تمثال آخر، وصور الملائكة:

-صورة إبراهيم جدّنا يستقسم بالأزلام، يا للسّخف أكان يؤمن بهذه الخرافات؟ يا للهرطقات الوثنيّة؟

كلّما مررت بإساف ونائلة تساءلت من نحتهما وتاجر بهما واخترع قصّة المسخ، أكيد أنّها مختلقة. هذه قافلة وصلت للتوّ ليلا، حتما جلبت من التّماثيل الكثير.

اشتدّ صفير الرّيح وهم لم ينزلوا بعد بضاعتهم، فامتلأت أعينهم بالرّمال وزادت الشّفاه تشقّقا.

***

- سيّدي أنت متعب، أرح نفسك، في الأيّام الأخيرة أراك إمّا باكيا أو شاردا، أرح عينيك وانتبه لصحتك.

- بعد فترة من قتل زيد لا أذكرها، فقد كانت الأيّام بعده رتيبة ومظلمة بدأ نور عينيّ يزداد انطفاء إلى أن أظلم كليّا، وكنت قد شكوت في السّنة الأخيرة قبل قتله عَشى في عينيّ وغشاوة، فصرت لا أبصر ليلا إلاّ أوهاما وظلالا، زادهما البكاء والحزن وكبر السنّ إظلاما ولم تنفع فيهما العقاقير. منذ وفاة زيد وانفطار قلبي عليه وعيناي لم تعودا كما كانتا، بعدها حتّى النّور الخافت أظلم.

زارني عروة الحكيم، فتفقّد عينيّ شبه المنطفئتين، وصبّ عليهما قطرات دواء من قنينة بها زيت، جلبه من الشّام، ثمّ وضع عليهما ضمادة مبلّلة، سمعتُ خشخشة النّبت المجفّف في مزوده المليء بالعقاقير، المسحوق والمدقوق، والجذور التي يتركها على حالها، والمراهم التي أعدّها بنفسه، ثمّ سمعت صوت زمّ مزوده، إلى أن التفت إليّ وقال:

- في ماء الكمأة شفاء للعين.

لكنّ ذلك للأسف كان دون جدوى، فقد تأخّر الوقت، وبعد فترة عاد إليّ مرّة أخرى ليرى ما حلّ بهما، أشحتُ بوجهي عنه وقلت له في قناعة ورضا احترت حتّى أنا لهما:

- لا تتعب نفسك لم تعد تجدي هذه الأعشاب، ذهب طول العمر بنظري، ليس بإمكانك أن تصلح ما أفسده الدّهر. يسوع المسيح وحده القادر على ذلك بإذن الربّ، فهو جوهر معجزة الطبّ، مجرّد لمسة من أصابعه المباركة جعلت جلد المجذوم ناصع البياض معافى كأنّ شيئا لم يكن به، وانطلق الأبكم بالكلام كلحن شجيّ، وأبصرت أعين العميان مباهج الحياة وألوانها، فقط بلمسة من أصابعه.

لم تنطفئ عيناي مرّة واحدة، بقي بصيص نور، كنت أراه في الصّباح عندما أخرج من الدّار من الظّلمة إلى نور الشّمس أشعر بالفارق، ولكنّي الآن بعد هذه السّنوات لم أعد أرى شيئا، لقد انطفأتا تماما... وتعوّدت على انطفائهما، فلا تشغل بالك يا عروة بالدّواء، والتفتْ إلى

مرضاك من الفتيان، فإن ذهب نور عيني فسأرى بنور قلبي، هذا من عطاء الربّ تقدّست أسماؤه.

صمت برهة ثمّ رفع عينيه إلى السّماء متأسّفا:

أتعلم ما الذي يهدّني؟ كتبي والصّفحات التي نقلتها من الآراميّة إلى العربيّة من كتاب الصّلاة من الإنجيل، وأوشكت أن أبدأ في نقل طفولة المسيح، لكنّ انطفاء عيني لم يمهلني. رأى المخطوط أميّةُ بن أبي الصّلت وباركه، وأطلعني على ما نقله هو أيضا من التّوراة والإنجيل في جلسة جمعتنا إلى منتصف اللّيل. كان أميّة يكثر من الأسفار إلى الشّام وفارس، ويلتقي بالرّوم والفرس وهيهات هيهات أن تحظى بجلسة معه. نسختُ من كتاب الصّلاة نسخة واحدة وددت لو كانت نسخا كثيرة.

هدّني انقطاعي عن النّقل إلى العربيّة ما شرعت فيه منذ سنوات، عمل انتظره منّي الكثير من العرب النّصارى في مكّة وخارجها من الأصدقاء حتّى يتسنّى لهم قراءة الإنجيل.

كنت في حيرة من أمري وتذكّرت ما قاله لي ذات مرّة عروة الحكيم قبل انطفاء عينيّ عندما دخل عليّ ذات مساء وأنا أمسك بمحاورة طيماوس التي أحضرتها من نصيبين بعد عودتي من رحلة الأناضول عن نشأة الكون للمعلّم أفلاطون، وانتظرت أن أقرأها بلهفة بعد أن أنهيت كتاب الربوبيّة لأفلوطين بصعوبة، وشرعت في كتاب التّاسوعات وغشاوة كثيفة بدأت تعيقني عن القراءة، لم تعد عيناي

صافيتين كما كانتا. غضب لمّا وجدني مرّة أخرى لا ألتفت لكلامه منكبّا على كتبي أطفئهما بيديّ:

- ألم أنصحك بالتّقليل من القراءة في هذا السنّ؟

-نحن أهل الكتب لا نجد راحتنا إلاّ بين الكلمات والأفكار، حياة واحدة لا تكفينا.

- أرسل في طلب من يعينك على قراءة كلّ هذه الكتب.

ضحكت من اقتراحه يومها، فقد اعتدت أن ألمس الكتب بيديّ وأشمّ رائحتها، وأتحسّس الحروف بأصابعي وأرى الحبر ونوعية الخطّ والورق وأفهم ما بين السّطور بأمّ عيني، ولم أكن أحتاج إلى واسطة. كنت أنتشي بخلوتي بين كتبي ولفائفي، إلى أن حال الظّلام بيني وبين ما أقرأ كليّا، وانطمس حتّى ذلك البصيص، فتذكّرت اقتراحه وأدركت آسفا أنّه على حقّ.

من حسن حظّي أنّ حالتي هذه لم تدم طويلا، فلم أدر حتّى جاءتني رسالة من صديقي راهب الإسكندريّة لمّا علم بحالي، مرفقة بهديّة لم أنل أثمن منها في حياتي كلّها، هي أنت يا خانوم كاتبي الماهر وفي كلّ موسم من السّنة لا يُفوِّت مرور القوافل فيرسل إليّ عبرها لفائف البرديّ، فهو يقدّر حاجتي إليها.

مخلّصي يسوع المسيح... أنر هذا الظّلام الذي يلفّ عينيّ...

لا أدري لم تراءت لي صورة المسيح وهو يمشي على بحيرة طبريّة في أرض الجليل، سار على الماء وأطعم الآلاف بسمكات وبعض الخبز، وشفى الكثير من المرضى.

تعلّم القسّ الضّرير بعد أن أظلم عليه الكون أن يسمع فيفهم ملابسات ما يقع، ويمسّ فيشعر. لم تبق له سوى رائحة الكتب، يدنيها من أنفه ويستنشقها، لكلّ كتاب رائحة. أخذ يتلقّى ما في الحياة كلّها بسمعه، إحساس الناس، فرحهم وحزنهم من نبرات أصواتهم، من علوّ لهجتهم وانخفاضها، رقتها أو حنوّها، جفافها وغلظتها، وقع الأقدام، صوت المتحدّثين إليه كيف يميّزهم من نبرات أصواتهم، الحضور والغياب كلّها تمرّ على أذنيه وأصابعه.

كان أمر أن أتلقّى العالم بسمعي في بدايته شاقّا، كان عليّ أن أفعّل قلبي وإحساسي أكثر من ذي قبل، لأحكم على الأصوات التي صارت كلّ شيء في حياتي المظلمة، وعليّ أن أنيرها بقلبي. ساعدتني عصا الآراك التي صارت نبض الحياة عندي، ومِجسّة الطّريق.

حمدا للربّ لأنّي نقلت إلى العربيّة بعضا من الإنجيل قبل أن تنطفئ عيناي.

***

صوت خشخشة النّبات اليابس وتكسّره تحت صهوة الجياد وأظلاف الإبل العائدة من المرعى تعرّفه بالوقت، يأكل شيئا، يتعشّى ويهيّئ نفسه للخروج إذا ما جاء اللّيل يتلذّذ بأغاني اللاّهين في حانة اليهوديّ ويتوقّف عند ما يحفظونه من شعر وقصص، وما يتندّرون به من حكايا، وتحلو له تلك الألحان التي تنبعث من الرّبابة.

للأصوات في حياته شأن، يعرف من أصوات الرّعاة وهم يغادرون مع إبلهم إلى المراعي وقت الفجر فيستيقظ ويؤدي صلاته وتسبيحه، ويقرأ شيئا من الإنجيل الذي يحفظه عن ظهر غيب، ويدعو ما شاء له أن يدعو وعيناه مصوّبتان إلى أيقونة العذراء التي يعلّقها عند مدخل غرفته. تصله أصوات النّساء وهنّ يثرثرن في ذهابهنّ إلى الوادي ليملأن الجرار وهنّ عائدات، وهنّ يغنين عن ماء زمزم وبئر عبد المطلب، وعند أوبة الرّعاة مساء يسمع جعجعة الإبل وصوت الحادي فيعرف أنّ وقت الغروب لم يبق عليه سوى القليل.

وبعد أن تخف الحركة يخرج إلى البيت العتيق ثمّ يعود لينام. اعتاد قبل نومه أن يطلب منّي أن أقرأ له كتابا ممّا جمعه وهو يجوب أرض الربّ الواسعة، وكثيرا ما أراجع معه ما نقله إلى العربيّة من الإنجيل، ويحبّ أن أقرأ عليه طفولة المسيح ويفكّر في نقلها إلى اللّسان العربي. زاد اعتزالُه النّاس، وعليه أن يملأ هذه العزلة التي اختارها بمحض إرادته ثمّ دفعه العمى إليها دفعا.

استند إلى الحائط الذي بقرب السّرير ودنا من الكوّة التي تطلّ على الطّريق حتّى شعر ببعض النّسيم ينعش وجهه في تلك السّاعة الأولى من الصّباح قبل أن يشتدّ الحرّ. وقف هنيهة فوصل مسامعه غناؤهنّ وهنّ عائدات بجرارهنّ، وصوت آخر قطيع لراع كسول اعتاد في مثل هذا الوقت أن يستيقظ، على هذه الأصوات يبدأ يومه وهو يتمتم:

- ليبارك الربّ شبابهم...

ثمّ قد يعدّ شيئا يأكله أو يوقظ غلاما من غلمانه الكثر.

صراخ مجنونة بني أسد ممزقة الثّياب تبكي صغيرتها تهدهد خشبة تغطيها بثوب صبية، ليلة ولادتها أُخِذت منها ابنتها ففقدت صوابها.

تجدها تقضي يومها حيث اعتاد بنو أسد أن يقبروا المولودات الجديدات، بعيدا عن الديّار.

- أتعلم المجنونة أنّ ابنتها حية ترزق، لا تزال على قيد الحياة؟

-... لا أظنّها استوعبت ذلك.

أخذ بيدها وأراها ابنتها التي تقترب من العقد الأوّل.

***

بعد انصراف مولاي صفوان بن نوفل، أخو مولاي القسّ... بحث عنّي، نادى بأعلى صوته، ولمّا سمع وقع قدميّ على الحصير وإجابتي له: نعم سيّدي، طلب منّي أن أفتح له الإنجيل، وأقرأ في صفحات حدّدها بنفسه، ثمّ وازاها بنقل أمية بن أبي الصلت لفقرات منه.

- هذه ترجمة لطيفة تنبض بروح السيّد المسيح، كم يهدّني عدم إتمامي لما شرعت فيه من نقل الإنجيل إلى العربيّة.

أتينا من بزوغ الشّمس حتّى منتصف النّهار على جزء كبير من تاسوعات أفلوطين التي جمعها تلميذه فورفوريوس الصّوريّ بعد موته.

- اقرأ عليّ ما قاله عن الكون والوجود

قال باليونانية ما معناه أنّ هذا الكون لا بدّ له من خالق، هو الواحد وهو أصل الوجود، ولا يمكنه أن يخلق الخلق بالاتّصال المباشر، بل

عن طريق الفيض فمن الواحد انبثق العقل، ومن العقل فاضت النفس الكليّة، ومنها انبثقت النفوس البشرية وبقيّة المخلوقات، الواحد كالشّمس التي يفيض نورها على كلّ الكائنات.

- أعجبني رأيه الذي خلّصني من أسئلة طرحتها عن سرّ الوجود، عندما كنت حائرا أنتظر أيّ خبر عن زيد الذي تركني ليلتها ولم أره بعدها وترك أسئلته تؤرّقني. حيثما عثرت على سكينة روحك فضع الرّحال، واشرع في بناء بيتك.

ماذا يقول عن النّفس؟

- يقول ما نصّه: "ارجع إلى نفسك وتأمّل، وافعل كصانع التّمثال، يقطع هنا، ويصقل هناك، ولا تنقطع عن نحت تمثالك حتّى ترى الطّيبة الظّاهرة الكاملة مستقرّة في الحرم الطاهر".

والسّعادة عنده تكون بالاستغناء والاكتفاء، فهي تنبع من داخل الإنسان.

ولكن سيّدي كيف يوجد الشرّ مع وجود الإله؟

- المخلوق الأصلي هو الخير، وعندما يغيب، وفي حالة الفراغ ينشأ الشرّ.

- عندما أحرقت الكنيسةُ في مدينتي بيتنا وبيوت الحيّ كلّها في حملة تفتيش عن المارقين أكان حالة فراغ؟

- حتما، فاللّجوء إلى مثل هذه القرارات التي يسوّى فيها بين المذنب والبريء أكبر دليل على الفراغ والشرّ الذي ولّد كلّ ذلك التخبّط.

- اليوم سنقرأ محاورة طيماوس لأفلاطون اليوناني حول نشأة العالم.

- قال باليونانية ما معناه أنّ العالم يا سيّدي سطح أملس ليس بحاجة إلى جوارح كالعينين والأذنين، لأنّه ليس هناك شيء خارجيّ، ولِيكون مكتفيا بذاته، وهو متألّف من أربعة عناصر النّار والتّراب والماء والهواء.

ثمّ وضع الله الرّوح ليكون مركز الكون، أمّا الزّمن فقد نشأ بعد خلق السّماء، أمّا قبلها فلم يكن هناك زمن، وسيختفي الزّمن بعد اختفاء السّماء، ثمّ خلق الأرض والنّجوم والكواكب، وأوقد نارا في الأرض هي الشّمس.

-كان والدي يسكتني كلّما تفوّهت بالأسئلة، ويحذّرني من غضب الربّ والكهنة حتّى أحرق بيتنا وبيوت الكثيرين.

تألّمت وأنا أتذكّر مصير بيتنا، فراح القسّ الضّرير يربت على كتفي ويقول:

- الأسئلة سبيل الخلاص، والتّسليم مصير الأموات الذين لا يملكون الخيار فيه، أمّا الأحياء فأسئلتهم لا حدّ لها.

- هل تعتقد بصلب المسيح يا سيّدي؟

أجابه بعد لحظات تأمّل:

- أقول بقيامته من بين الأموات.

- ماذا تقول عن الامبراطور قسطنطين؟

ردّ بغضب بعد أن مسح بباطن كفّه على لحيته البيضاء كمن يحاول أن يمسك نفسه وإن تفلّتت منه بعض الشّيء:

-الإمبراطور قسطنطين هو الذي أمر بعقد أوّل مجمع مسكونيّ مجمع نيقية ليحسم في شخصيّة المسيح، هل هو من طبيعة واحدة أم له طبيعتان لاهوتية وناسوتية؟ وأقرّ المجمع بالتّثليث الذي هو عقيدة جلّ المسيحيين حتّى الآن. كان ذلك عام 325 من ميلاد المسيح المجيد، وخرج بقرار تحريم أفكار آريوس واتّهمه بالهرطقة والكفر البواح، كما خرج بقانون الإيمان الكنسي.

الإمبراطور قسطنطين هو من فتح النّار على الموحّدين ولوّن الديانة بمسحة وثنية، هو بداية الهرطقات والأوهام.

- حدّثني يا سيّدي عن آريوس، أشتاق لأعرف عنه المزيد.

-آريوس الرجل الجريء الذي قاوم كنيسة الإسكندرية في قولها بألوهية المسيح، ونادى بالوحدانية. ومجمع نيقية كان حسما للجدال بين آريوس الموحّد وأثينيوس الذي قال بأنّ عيسى إله أزلي وهو نفس جوهر الإله الآب. أحرقت كتبه بأمر من قسطنطين، وكلّ الأناجيل عدا الأناجيل الأربعة.

يكفي هذا اليوم يا ولدي... أتسمح لي بأن أناديك بولدي؟ فأنت مثل ابني الذي لم أرزقه.

شعرت كأنّما نسيت تلك الأحقاد، كصفحة بيضاء انفرج وجهي وحرّكت رأسي بالإيجاب.

***

فتحتُ الكتاب عند الصّفحة التي بها ضفيرة ورق النّخل التي اعتدتُ أن أضعها بين دفّتيه حتى لا يلتبس عليّ آخر جزء قرأناه معا:

- "لم أرد أن أقرأ أكثر، فلم أكن بحاجة إلى ذلك. وما إن انتهيتُ، لَعمري، من هذه الجمل، حتّى انتشر في قلبي ما يشبه نور الإيمان، وانقشعت كلّ ظلمات الشّكّ" من اعترافات القدّيس أغسطينيوس الذي قضى حياته يبحث عن ذاته وأحلامه من تاغست إلى قرطاجة إلى ميلانو. هنا توقّفنا المرّة الأخيرة، ثمّ شرعت أقرأ:

" ها أنذا، مولاي، ألقي فيك همومي، حتّى أحيا، وسوف أتمعّن في عجائب قانونك. أنت تعرف جهالتي وضعفي، علّمني وداوني... "

- أتعلم أنّه اعتنق مذهب ماني فترة من حياته في رحلة بحثه عن ذاته، ماني ابن بابل الذي قال بوجود عالمين عالم النّور وعالم الظّلمات وهما عالمان منفصلان إلى أن حدثت أعنف صدمة في الكون، فاختلطت جزئيات النّور بالظلمات بأشكال مختلفة، فظهرت المخلوقات من أجرام سماويّة ومياه وكلّ ما في الطّبيعة ووجد الإنسان والحيوان، ففي كلّ كائن عنصران متعايشان الظّلام والنّور.

شبيهٌ هذا النّقاش بصفو الصّباحات التي كانت تجمعني بزيد حول كتاب قرأناه، نعرض الرّأي ونقيضه، وأستحضر وجهه المنتصر الذي يستحلي أن يغلبني ونحن نتباحث في قضيّة من القضايا.

أعدتُ الكتاب إلى الخزانة ورتّبت بعض الأوراق ثمّ عدتُ إلى الجلوس إلى مولاي ورقة.

-لا تدري كم غيّرتَ حياتي يا خانوم بعد أن توقّفتُ عن القراءة والكتابة أظلمت الدّنيا في عينيّ واعتزلت النّاس، صرتُ رهين داري ووساوسي وانتظاري، حتّى الإنجيل لم أعد قادرا على قراءته، فقط أتلو ما حفظته عن ظهر غيب. أنت أثمن هديّة وهبنيها الربّ.

-سنتمّ معا يا سيّدي هذه اللّيلة قراءة شرح الإنجيل لاصطفان بن صُدّيللي الذي جَلَب معه مجموعة كتب من رحلته من مصر وكثير من البلاد، ولأجلها طُرد واتّهم بالإلحاد فاستقرّ في دير ببيت المقدس.

- أجل يا خانوم ستقرأ لي ما لم أستطع قراءته عندما انطفأت عيناي تماما. أريد أن أعيد التّاسوعات وبعض الرّسائل، فعندما قرأتها كانت قد بدأت الغشاوة تفتك بعينيّ، وتنغّص عليّ، ولم أستشعرها كما يجب.

- حسنا يا سيّدي

كانت الصّفحات تتتالى وهو صامت بكلّه، إلى أن توقّفت.

- لم توقّفت؟

- أتوق لأن تتمّ ما قصصته عليّ عن الصّبيّ القرشيّ. ماذا حدث له بعد موت جدّه؟

ابتسم لطلبي، ثمّ غابت ملامح وجهه في ذاكرته قبل سنوات عديدة، إلى طفولة محمّد بكلّ تفاصيلها وقد غشي البلدة ظلام كثيف.

المسار الرابع: الأبيض

-1-

على فراش قديم اهترأ جانب من جوانبه تمدّد محمّد، وبالقرب منه وَلدا عمّه طالب وعقيل، أمّا فاختة وجمانة فاشتغلتا بترتيب البيت وتنظيفه، وريطة أصغرهنّ تحاول أن تقلّدهما. ما الذي فعلته يا ريطة، دلقتِ الوعاء ثانية في الحجرة وبلّلت ثيابك. من طلب مساعدتك؟ غلبتها الدّموع فأسرعت لأمّها لتشتكي فاختة التي صاحت في وجهها بأعلى صوتها، الأمّ التي يسَعُ قلبها كثرة عيالها ولمحمّد اليتيم رغم قلّة الحال.

وبينما هي تخيط ثوبا بعد أن أرضت الصّغيرة، ترتقه في سعة بال رغم الضّوضاء التي يصدرها العيال، وتراشقهم بالوسائد اقترب منها عقيل وهمس في أذنها:

- ابن عمّي محمّد لا أراه كعادته منذ أن قدم إلى بيتنا، يبدو حزينا على جدّنا أكثر منّا جميعا، فقد كان يدلّله ويرعاه ويأخذه معه إلى كلّ مكان، ويخصّه بمفرشه في ظلّ الكعبة.

- ماذا بعد يا عقيل أَعُدنا إلى حديث غيرتك منه، ماذا تريد من الفتى اليتيم، قل؟

- لا يا أمّي، أنت تعلمين أنّي أحبّ محمّدا، وإنّما أراه في هذه الأيّام مختلفا، فهو لا يشاركنا لعبنا كما كان، ولا يبرح مكانه، حتّى إنّه لم يمدّ يده إلى طعامٍ اليوم ونحن نتزاحم على المائدة وهو خلفنا مطأطئ الرّأس يجلس على البساط صامتا.

- كيف يستطيع أن يقيم صلبه إن لم يأكل؟ أيحدث هذا في بيتي؟ ولمحمّد مكانة عيالي وأكثر؟

دعت فاطمة بركة على وجه السّرعة وسألتها عن طعام الفتى:

- هو حزين على فراق جدّه، فقد كان كلّ شيء بالنسبة له بعد وفاة سيّدتي آمنة، رأيته يقتات من شربة ماء زمزم، فلا يرغب في الغداء ويكتفي ببعض بلحات في العشاء، وحينما ألححت عليه أجاب: أنا شبعان.

- يا ويلي لو يعلم أبو طالب بذلك لغضب غضبا شديدا وهو منشغل هذه الأيّام بأمر الحجيج.

فكّرت فاطمة في الأمر... فقد انتقل للتوّ للسّكن معهم، ويستحي من مدّ يده للزّاد. خبّأت له جمانة بلحتين وأعطتهما له في المساء، ولكنّه شكرني وقال: أنا شبعان، ولمّا ألححت عليه ورأى حزني اقتسمهما معي، فأخذ بلحة وترك لي الأخرى، وقال لي احتفظي بها عندما تجوعين.

- يا لصغيري لابدّ أنّه منكسر الفؤاد، فما حدث له ليس سهلا، لم ير أباه ثمّ ماتت أمّه ثمّ جدّه الذي تولّى رعايته. يا لقلبه المنكسر وهو الصّغير، كلّنا حزانى لفقد عبد المطّلب سيّد قريش، لكنّها لقيمات تقيم صلبه.

وعندما عاد عبد مناف تعلّقت به جمانة:

- لن أمسّ طعاما حتّى يأكل معنا محمّد.

- ألم يأكل؟

- هو ينزوي عندما يحضر الطّعام، ولا يشارك أولادنا، الفتى حييٌّ لا يزاحم على طعام، ولعلّه حزين أيضا.

- أحضري قدح اللّبن ونادي محمّدا، من الآن فصاعدا سيكون هو أوّل من يطعم ثمّ لعيالي ما تبقّى.

- ليس في البيت غير بعض قطع الخبز وهذا القدح من اللّبن. أتراه يكفي أولادنا ويشبعهم.

- لتبارك الآلهة طعامنا.

أجلسه بقربه وناوله القدح المليء لبنا فشرب حتّى شبع وشربوا وباتوا شباعا فتهلّل وجه أبي طالب وسكنت نفسه، وباتوا بخير ليلة.

- أرأيت يا فاطمة، لقد حلّت البركة في قعب اللّبن، أخشى أنّ ابن أخي يستحي ويترك طعامه عندما يرى قلّة حالنا وكثرة عيالنا، ويجود بنصيبه لأبنائنا.

- حدّثتني جمانة أنّه اقتسم معها بلحة ورفض أن يأخذ الأخرى. رقيق هذا الفتى، رقيق وحنون، وحيي أيضا، ألا ترى وجهه الطّافر بالبشر، ويعجبني ابني جعفر الذي يحب أن يقلّده في كلّ ما يفعل على شبهه له في ملامحه وسحنته، جعفر حبيبي كم يحبّ محمّدا.

- كلّ أبنائنا يحبّونه ورأيتهم اليوم لا يتقدّمون للطّعام حتى يقدّموه.

بعد اليوم سيكون ابني أوّل من يأكل، أسمعت يا فاطمة، أسمعت!

إنّ فقري يقصم ظهري، لا أريد أن تفوتني سقاية الحجيج، ورفادتهم هذه السّنة بعد موت أبي، لا أريد أن تغيب أحواض الزّبيب التي كان يصنعها.

شرد بعيدا في آخر الحجرة ثمّ استدار إلى السّراج الذي ينير المكان.

- لو استدنت من أخي الزّبير...

انزعجت فاطمة واغتمّت لهذه الفكرة:

- أتقوى يا عبد مناف على الدَّيْن، نم والآلهة ستتولى أمرنا وتعرف حسن نيّتك.

- نامي يا فاطمة سأمرّ أوّلا على محمّد فأنا لا أستطيع أن أنام قبل أن أطمئنّ عليه، وأغطّيه بنفسي.

نهض والتّعب يأخذ منه مأخذا بعد عمل النّهار وذهابه إل عُرنة ليرعى إبله ويأتي باللّبن لأولاده حتّى وصل إلى حجرته، فمشى على أطراف أصابعه حتّى لا يوقظه، وإذا به يسمع كلاما خافتا تلقيه بركة في أذن الصّغير. لم يتمالك نفسه، ولم يشعر إلاّ وهو يسترق السّمع ويلصق وجهه بالجدار، لم يستطع أن يكبح فضوله، ولم يعلم أنّ وقوفه سيطول.

- أأنت جائع يا محمّد، أسمع عصافير بطنك؟ خذ هذه البلحات خبّأتها لك، خذ... الحياة تأخذ منّا أحبّتنا مهما كان تعلّقنا بهم، وتعلّمنا أنّ الأشياء مهما كانت جميلة فسنفقدها، ومهما منحتنا أشياء نحبّها أو أناسا لا نتصوّر حياتنا دونهم، إلاّ أنّها تحرمنا منهم، وتفجعنا فيهم. الحياة قد تمنحنا الكثير، ولكنّها إذا ما استدارت عنّا، فإنّ فاجعتنا ستكون كبيرة، هي لا تراعي تعلّقنا بها ولا ألمنا ولا جراحنا. الحياة قاسيّة،

كُلْ هذه البلحة أيضا، لقد نزعت نواتها افتح فقط فمك... هكذا تعجبني.
علّمتني الحياة يا ولدي أنّها إذا ما ضحكت في وجهي مرّة فستكيل لي الضربات وتصفعني بالأوجاع عشرات المرّات... آه يا ولدي كم رأتْ هذه الحبشيّة من الحياة والصّفعات، أُخذتُ من أهلي في الحبشة وصار آل عبد المطلب كلّ أهلي، وها أنت بعد أن ذهبوا جميعُهم والدك وأمّك وجدّك كلُّ حياتي. أنت يا ولدي أبي وأمّي.
- بل أنت أمّي بعد أمّي
- يا روح أمّك.
بكت وحضنته طويلا... ولم يسمع أبو طالب سوى النّشيج... فأمسك نفسه عن البكاء حتّى لا يفتضح أمره.
ثمّ تداركت وهي تمسح دمعها ودمعه، وتخرجه من فراشه وتضعه في حجرها وتغطّيه:
- دعك من كلامي هذا يا بنيّ، أنت صبيّ مقبل على الحياة، فلا تبق رهين حزنك، والدك ووالدتك وجدّك تمنوا أن تكون سعيدا، ولم يريدوا أن تحزن لأجلهم، فعش لأجلك. الموت حقيقة محتّمة، لا يفيد معها الهلع أو الخوف أو الصّراخ أو الانزواء، يجب أن نتقبّلها بهدوء، ولا بأس أن نعيش في ذكريات من فقدنا بحبّ غامر، ونستمدّ منهم القوّة.
عِدني أنّك ستكون مهما بكيت وانتحبت وجَرحك اليتمُ بسكّينه مرّات غلاما قويّا، ستنهض وتمسح دمعك، فالفواجع التي تتالت عليك أكثر

من مرّة لن تثنيك أن تعيش هذه الحياة، فهي جميلة أيضا، لو رأيت فرحة سيّدتي آمنة بمجيئك، كم كانت سعيدة...

لقد نمتَ يا بنيّ، لقد أكثرتْ عليك هذه الحبشيّة وأنت لا زلت غرّا. سامحني، سأخلد للنّوم أنا أيضا فقد تأخّر الوقت، تنتظرني غدا أشغال كثيرة.

حينما تيقّن أبو طالب من نومها ولج الغرفة على أطراف أصابع قدميه، فغطّاهما ثمّ انصرف لينام، وقد سمع كلّ ما كانت تقوله الحبشيّة لابن أخيه.

-وأنت أيضا صرت واحدة منّا يا بركة، لو تعلمين كم تنقصين عن كاهلي في رعاية محمّد!

-2-

ضوضاء العيال تمنع أبا طالب من الاستراحة بعد أن صار يقضي جزءا غير يسير من لياليه في تقليب أمر الاستدانة ليُسهم هو أيضا في إطعام الحجيج، فالسّنة الماضيّة مرّت على خير، واستطاع أن يسدّد ما عليه بعد أن وُفق في تجارته ودرّت عليه الأرباح، أمّا هذه السّنة فقد تفاقم دينه ولم يستطع السّداد.

تقلّب في فراشه وهمٌّ يغالبه ما عرفه في حياة والده الذي كان يقوم دونه بما يجب.

- الجود مفقر يا فاطمة والإقدام قتّال... رغم ذلك لا أحبّ أن أتنازل عن هذا الشّرف، ولا أنال هذه الحظوة التي كانت تنسب لأبي.

- حتّى ولو آلَ أمرُ السّقاية والرّفادة بعد والدك إلى حرب بن أميّة بن عبد شمس فنصب قبّة للضّيف لا يردّ من قصده؟

- ولَوْ، أُسهم ولو بالقليل ممّا أستطيع.

كان أبو طالب لا يردّ مستغيثا ولا مستجيرا، يبذل بغير حساب، لذا فدين السّنة الماضيّة لا زال متراكبا عليه يقصم ظهره.

علت عقيرة فاطمة توبّخ عقيلا على صوته العالي، وتطلب من أبنائها بعض الهدوء ليستريح والدهم في وقت قيلولته على الأقلّ، ثمّ لهم أن يستأنفوا لعبهم... لكنّهم يعرفون حنانه وتسامحه الذي طفا على كلّ شيء بعد أن صار تحت سقف بيته ابنُ أخيه الفتى اليتيم. وحينما تعبتْ منهم وزادتها رفسة الصّبيّ الذي في بطنها بعد أن صار أقوى في

الأشهر الأخيرة لم يعد يُسمع لها صوت حتّى وإن ناداها أحدهم لتفضّ نزاعاتهم التي لا تنتهي.

أقعدتها تلك الرّفسة على الفراش، ثمّ استلقت لعلّه يكفّ، ولزمت مكانها ترقبهم يلعبون وهي في أتمّ سعادتها، تقتصد في جهاز الولد القادم من ثياب إخوته المستعملة، فتنتقي منها ما تراه مناسبا، وتتذكّر حملها الأوّل ببِكرها طالب وأساريرَ عبد مناف.

وفي وسط الدّار الفسيحة على بساطتها وخلّوها ممّا تزدان به العوائل المكيّة الثّريّة من أفرشة حريريّة وطنافس فاخرة، تخيط الفتيات على جلد خروف يجلسن عليه ثيابا لعرائسهنّ، أمّا الفتيان فيتدرّبون على ضرب السّيوف بعصيّهم ويتشقلبون على الحصير، طاقة زائدة وفرط حيويّة وسرور في القلب طفوليّ لا يملكه إلاّ من هم في سنّهم.

- أنت لم تنم أعلم... يسعدني محمّد وقد عاد إلى سابق حيويته ولعبه مع الأولاد. هذا الغلام قويّ ونابهٌ رغم صغر سنّه، وهاهم أولادنا الذّكور والإناث يقلّدونه، ألا ترى ذلك يا أبا طالب؟ جعفر الصّغير كم يحبّ أن يتشبّه به، وكم يسعد عندما يسمع أحدهم يأتي على ذكر الشّبه بينهما.

- بأبي أنت وأمّي يا ابن أخي...

- أتعلم يا عبد مناف ما الذي طلبه منّي ليلة أمس، لتأذن له؟!

نهض من مرقده واتّكأ على ظهره، ثمّ تنهّد وزفر زفرة طويلة:

- ماذا تراه يطلب ولد مثله بلا أب أو أمّ؟

- قال أريد أن أخرج للرّعي.

- أهو جادّ هذا الغلام؟! كم يدهشني!
ناده يا فاطمة أريد أن أحدّثه.

تقدّم محمّد بعد أن ترك عقيل وطالب يرقبان من باب الحجرة سبب هذا الاستدعاء المفاجئ الذي خصّ به هذا الصّبيّ دونهما، فهما يعلمان ما يُؤثره به والدهما من طيّب العطايا على قلّتها في هذا البيت الفقير، حتّى فاختة وجمانة كفّتا عن الخيّاطة ووضعتا العرائس، واجتمعت الآذان كلّها والأجسام الصّغيرة متزاحمة تكتم ضحكاتها خلف الباب، حتّى الصّغيرة ريطة تبعتهم وإن لم تفهم شيئا.

- أحقّا تريد أن تخرج للرّعي؟

نظر إلى عيني عمّه وكلّه إصرار وعزم لم يملك أبو طالب إزاءه إلاّ الإعجاب:

- أجل يا عمّ.

- أَوَ تحسن الرّعي يا ولدي؟

- نعم، فقد رعيت مع إخوتي في بني سعد. اِئذن لي يا عمّ!

فكّر أبو طالب طويلا والفتى يقف أمامه، يتأمّل عينيه اللّتين فيهما شيء من أخيه المتوفّى، إصرار في هدوء يملكه هذا الفتى الصّغير الذي يبدو أنّه خرج من حزنه على جدّه قويّا، ويريد أن يرى العالم ويتعلّم ولا يبقى مثل الفتيان في سنّه، ويكسب من عرق جبينه. المصائب غربال يغربل النّاس، فمن هوى وضعف سقط ومن صبر وسما فقد نجا، الطّبيعة ترفض أن نعيش الصّفاء كلّه، ففي الحياة دوما تصفيات وغربلات أخرى مخبّأة.

خلصت نظرات التّحديق إليه وتقليب الموضوع في رأسه إلى أن تلفّظ عمّه بالموافقة، وكان يخشى رفضه بعد أن طال تفكيره. أسرع الفتى لعناقه وشكره.

- سأكون عند حسن ظنّك يا عمّاه.

- ليس لي شكّ في ذلك يا ابن أخي.

ولمّا انصرف وتلقّفه الصّبية يسألونه أن يصحبهم معه وهم يبتعدون إلى باحة البيت، وأن يحدّثهم عن رعيه في بني سعد، قال أبو طالب لفاطمة:

- إنّ هذا الطّفل مختلف عن أقرانه، إنّه يدهشني!

ثمّ اكتست وجهه على تعبه وشروده في الآونة الأخيرة رقّةٌ لحاله حتّى دمعت عيناه:

- يا لمحمّد يعلم رقّة حالي وكثرة عيالي فيأبى أن يكون هو الآخر عليّ، ويحبّ أن يساعدني ولا يكلّفني قوته.

- يا للرّجل الصّغير، ليت أبناءنا طالب وعقيل مثله!

أسرع محمّد ليزفّ الخبر إلى بركة التي انشغلت في الخارج بطَرق الصّوف، أخذ عنها العود ومال على الكومة يقلّدها فيما كانت تصنع، وهو يحدّثها بما دار بينه وبين عمّه.

- اجلس بقربي واسترح يكفي الصّوف ضربا.

مسح بباطن كفّه العرق عن وجهها الذي ألهبته شمس الظّهيرة.

- لن أتركك تذهب بمفردك في أيّامك الأولى سأكون معك إلى أن تعتاد، وسيَلزمك عمّاك حمزة والعبّاس.

في الصّباح الباكر بادر الغلمان بإيقاظ بركة بأنفسهم، حسدتهم الفتيات على ما ينتظرهم خارج الدّيار. حمل العصا التي لابدّ منها للرّاعي، والسّقاء والزّاد الذي حضّرته الجاريّة الحبشيّة وهي تصحبه كطفل صغير تخشى عليه من هبّ النّسيم، ثمّ انطلقوا بالقطيع إلى أسفل مكّة، حيث لا شيء هناك سوى صدى صوت الخراف وتماوج حشائش الرِّمث والعوسج، وصمت البريّة...

-3-

سنتان أخريان على رعيه أسفل مكّة بالشّعاب لأهلها بأجياد زهاء أجر زهيد، الزوّادة بها بعض بلحات وكِسرةُ شعير، ومحلب من جلد يملؤه إذا ما جاع من الشّاة السّوداء الكثّة الصّوف، التي ولدت حديثا، هي أوفرهم وأطيبهم حليبا وأهدؤهم، سمح له به أصحاب القطيع بقدر طعامه. فُكّ عنها فقط الصّرّ واملأ وعاءك ثمّ أعده إلى مكانه، وصّته بركة بإذن من مالكتها، كلّهم يحبّون محمّدا، هذا الطّفل المختلف، حتّى الخراف...

- ستبيت اللّيلة في المرعى، اهتمّ بنفسك يا بنيّ.

لتباركْك السّماء وتحميك.

- لا تخشي عليّ فأنا مع صاحبي الذي حدّثتك عنه... وشباب وغلمان وعبيد قريش من الرّعاة... ثمّ هذه ليست أوّل مرّة.

- خذ معك هذا الغطاء، فليل الصّحراء بارد.

إلى أن نلتقي بنيّ... لتحفظك الآلهة

ودّعها بابتسامته التي تزهر المعمورة في عينيها إذا ما صبّحت بها.

بنيّ الذي لم تنجبه بطني، ولكنّك كأنّما خرجت من حشا كبدي وفؤادي... همست بهذه الكلمات التي لم يسمعها محمّد ولا غيره وهي تشيّعه بنظراتها، ثمّ تركت الباب مُواربا، لعلّه ينسى شيئا فيعود ليأخذه، وأجابت سيّدتها فاطمة بسرعة البرق.

ما إن حلّ اللّيل في المرعى حتّى أشعل صاحبه النّار بروث يابس كان يجمعه لهذه الغاية وأعوادِ شجر جافّ بعد أن اقتلعتها السّيول،

ودعاه ليجتمع معه على دفئها، ثمّ أخرج نايه ونفخ فيه نفخا رقيقا، وأنامله تتلاعب به فتخرج من جوفه الألحان التي تتيه بين الشّعاب، وتسمع البريّة لحنه وتعرف سمته من عزفه. وفي الجوار قبَع كلبه، عينان قويّتان تنتظران أيّ إشارة من صاحبه لينقضّ على الطّريدة أو أيّ دخيل. عيناه مخيفتان للغريب، كاشفتان، فيهما جرأة وعلم، علم وخبرة بالطّريدة. طالما حدّق في المدى كمن ينتظر عودة أحدهم، لعلّه مالك قديم، ترى ما يُخفيه هذا الكلب؟!

- نحن كالخراف نكدح من أجل المأكل والمشرب من الصّباح إلى المساء، وفي اللّيل نجازي النّفس بالرّاحة، وبالتّأمّل أيضا. هذه البريّة تبوح بأسرارها لمن يطلبها...

في كلّ مساء عندما ينشغل بقية الرّعاة بما يقطعون به طول اللّيل كرواية قصص الغول والجان، أو التّسلي بلعبة المفايلة يخرج صاحبه من جيبه عقدا تتلألأ حبّاته جلبه له المطر:

- السّيول تكشف عن المخبوء، وتجمع ما كان مبعثرا، وتمسح الأرض لتخفي لرجل مثلي شيئا ذا قيمة.

يلمّعه كلّ ليلة بمنديل ثمّ يعيده حيث كان، والفتى يرمقه وينصت له.

-أمسكْ معي رجل الخروف الذي يعرج لأُلُفَّها بهذه العشبة، أصابته لدغة أفعى نجا منها بأعجوبة بينما هربت بقيّة الخراف. الرّاعي مثل أب يعطف على المريض من أبنائه.

اقتسما معا زادهما، والآن وقت احتساء شراب يدفئهما، وضع على النّار إبريق الشّاي. ترك هذا الرّجل البلدة بصخبها وضوضائها وتلبيّاتها وآثر رفقة الخراف وصمتها الهادر.

في صمت الصّحراء بوح ناطق لا يدركه إلاّ من أرهف الاستماع لها... رفع رأسه ناحية الجبل، وجال بناظريه في الظّلام الذي كان يغطّي كلّ شيء عدا هالة الضّوء الذي ينبعث من النّار في أماكن متفرقة حيث يجتمع الرّعيان تبعد عن بعضها بعض الشيء، ووميض نجوم تناثرت في صفحة السّماء حوله.

الخلاء مربك لمن هم مثلي، وهذه الخراف التي تراها خير معلّم وأحسن شيخ.

أتعلم أنّها تدرك... فهي تعلم مكان العشب والكلإ، علّمتني أنّ وجود الشّجيرة يعني وجود الماء على مسافة قريبة، ومن توجّسها وشكل آذانها كنت أكشف عن خطر ما، ذئب متربّص أو أفعى قريبة. واجتماع الغربان يعني وجود جيفة كلاب أو ما شابه بالجوار، تماما كما يدلّ الدّخان على النّار، والبعر على البعير، وأثر السّير على المسير.

تتداوى الخراف بأعشاب بعينها تعرفها كما تعرف قوائمها الأماميّة والخلفيّة، الخراف تُعلِّم مثلما يفعل الآباء والأمّهات مع أبنائهم.

إذا كانت الخراف تعرف ذلك، فالإنسان أولى بهذه المعرفة.

علّمه الرّاعي الذي صار صاحبه ومؤنسه في هذا الخلاء كيف يرعى النّعاج الحوامل والمرضى، لأنّها الحلقة الأضعف، ويحميها من الذّئاب.

الذّئاب البشريّة أشدّ شراسة، تستطيع أن تعرف من أصواتها وحركاتها وحتّى آذانها المتوجّسة فتحتاط، ونفورِها جماعات إلى مكان واحد عندما تحسّ بخُطى غريب أو رائحته، أعرفها الآن بعد هذه السّنوات وأشعر بها...

كان الرّاعي يتحدّث كأنّما يقرأ عن ظهر غيب، أو بين يديه كتاب لا يبصره أمثالنا، أو كأنّما يلقّنه أحدهم. لم تكن أنغام نايه وحدها التي تأسر من يستمع إليها، كان لكلامه أيضا وقع السّحر.

وبعد أسابيع من الرّعي، ككلّ مرّة، قبض الصّبي اليتيم أجرة رعيه من العوائل المكيّة التي لها مئات الأغنام، أجرةٌ زهيدة لقاء تعبه ويتمه الذي لعلّه لولاه لما خرج إلى البريّة. فرح بها أكثر من أيّ شيء آخر، حتّى ممّا يجود به عليه أعمامه الموسرون وعمّاته، فالدّنانير على قلّتها من عرق جبينه. أذكر وجهه المزهوّ عند أوّل أجر له، يوم أرانيها بكيتُ قلّتها واحتياجه ولكنّي لم أرد أن أظهر له انزعاجي.

حاكتْ وجهه المزهوّ بعَرقه. رَجُلي الصّغير، خبّأ النّقود، وأسرع إلى عمّه ليضعها كلّها بين يديه ولم يدّخر شيئا لنفسه، لا أنسى أبدا وأنا أمام باب الغرفة الموارب وجه عمّه الذي قهرته قلّة الحال ولم يرض أن يأخذ منه ولا دينارا. هي لك يا ابن أخي ابتع بها ما شئت. أمّا ما تلاها من المرّات فكثيرا ما رأيته يحمل سقاء مليئا بالحليب، ويقول لي والابتسامة على وجهه راضيا قانعا يا فلذة كبدي: ملأته لي صاحبة القطيع وقالت لعشائك وعشاء إخوته..

أقبل موسم الرّبيع فاكتنزت البهائم لوفرة الكلأ، واخضرّت الأرض وتفتّح النّوار، وأنجبت النّعاج، وامتلأت ضروعها حتّى دنت من الأرض فأصابتها الأشواك والصّلد المدبّب من الحجارة، طافحة بغذاء صغارها، وقد ازّيّنت بصوف جديدة بعد موسم الجزّ الذي مرّت عليه أشهر، وبدا الخير على وجوهها. هي تماما كالبشر، يثمر فيها الخير، وتسودّ إذا ما قلّت معيشتها، وركبتها الهموم. سأضع لأضرعها كمائم من قماش، تقيها فلا تُجرح وتعزلها عن صغارها. ساعدني في إلباسها، أمسك برقبتها وأشعرها بالأمان حتّى تُسلم لك.

تعود مساء إلى معاقلها، وفي أعين الرّعاة فرحة بالعودة إلى بيوتهم وأهاليهم كبيرة بعد هذا السّعي الذي قد يدوم أكثر من ليلة، وفي زوّادتهم بعض من الكَباث ممّا جمعوه لأمّهاتهم وإخوانهم الصّغار... ومحمّد يخبّأ لبركة ولإخوته من أبناء عمّه الشّيء الكثير منه، فقد عثر على شجرة آراك مليئة في الصّباح الباكر قبل أن يستفيق الآخرون، فهو يحبّ أن يرتشف من صمت البريّة قبل أن يضجّ بالرّائحين والغادين. قرّب حبّة كباث من شفتيه، وقضم منها قضمة لشدّ ما استطعمها، لذيذة... ثمّ أسرع بقطف الحبّات المتبقيّة النّاضجة، وترك الغضّ منها ليوم آخر.

وحينما كان يستعدّ للتّعريج بقطعان الماشيّة إلى الماء باغته نداء الرّاعي الذي لم ينتبه الفتى أنّه تخلّف عنه.

- يبدو أنّه حانت ولادتها، كلّ الإشارات تقول ذلك...

-...

-فقد انعزلت عن الجماعة، ولم يدخل اليوم جوفها عشب، ورأيتها أكثر من مرّة تهيّئ بقائمتها الأماميّة مكانا لوضعها. انظر إلى صغارها يبركون غير بعيد عنها وينظرون، كأنّما يعرفون أنّ أخا لهم سيولد. هي تناديهم ليجتمعوا حولها في هذه اللّحظات الصّعبة، والآن أولى قطرات الحليب تسيل وتنزل تباعا.

تعصّرت النّعجة في اللّحظات الأولى، وبين الحين والآخر تنزل رأسها كلّما اشتدّ عليها الوجع، ثمّ تلتفت إلى صغارها بنظرات رقيقة، كأنّما تُطمئنهم عليها. هي تتعصّر الآن أكثر فالألم يزداد أكثر ويبلغ مداه، ها قد بدأ الطّلق وبدأت تخرج السّوائل.

حتّى الكلب اقترب من صغارها وانضمّ إليهم يرقب ولادتها.. ويؤنسها، إنّها عسرة، ساعة أخرى، ساعتان ولم يحل مولودها، نهضتْ ثمّ جلست ثانيّة وتمسّحت بالأرض من شدّة الألم.

انقبض الفتى ولم يعرف ما يفعله وهو يمسّد على ظهور صغارها وينكمش معهم. اقترب الرّاعي منها. أخشى أن يختنق الصّغير، سأحاول أن أريحها من وجعها. جذب رأس الصّغير الذي خرج جزء منه للتوّ خشية اختناقه، وراح يدفعه ويساعدها. لقد نجح، تمكّن من إنقاذها وصغيرها، خرج الرّأس كلّه والقائمتان الأماميّتان. زالت لحظة الخطر. نهضتْ وقد أشرفت على الموت بعد أن طال بها المخاض، استلّ الحَمَل وهلّ ما بقي من الجسد.

غلب الفتى الذّهول وهو يرى غشاء المخاط الذي كان يغلّفه، أسرع صاحبه بمسح المادّة اللّزجة عن منخريه وفمه حتّى يتنفّس وتدبّ فيه

الحياة. شهق الحمَل ثانية، كان الرّاعي هو أوّل من فتح عينيه الجميلتين عليه، مسح ثانية جبهته وختم عليها بقبلة ترحيب.

- سعاله على ضعفه دليل على أنّه بخير، ها هو يتنفّس. اقتربْ والمسه!

وما إن أفاقت أمّه من وجعها حتّى شمّته، ثمّ لعقت وجهه وأذنيه ورقبته ثمّ قوائمه، هي الآن تتعرّف عليه. ألم أقل لك إنّ الشّياه مثل البشر...

ها هو الخروف الثّاني يهلّ... تبدو متعبة جدّا، لكنّها حملت نفسها لتلعقه، ونسيت آلامها حين رأته بخير. اطمأنّت على الصّغيرين، ونبح الكلب بعد أن تمّت الولادة، وثغا بقيّة البهم لنجاة والدتهم وما أنجبته، واستلقت أخيرا النّعجة لتستعيد أنفاسها.

وبعد برهة قرّبهما منها ليرضعا اللِّبأ، فهو أوّل شربة سحريّة أموميّة تشحنهما بالقوّة طيلة حياتهما.

- يبدو الحمَل الأوّل مشاغبا، تُعرَف الأشياء ببداياتها... اترك لأخيك نصيبه.

أمسك رأسه وجسده، وأدناه من أمّه ليلقمه ضرعها.

عادت إلى لعقه، ثمّ وضعت رأسها أمامهما ولحق بهما بقيّة الحملان وناموا. غلب الحليب بطن الصّغير وقدرته على الجذب فسال من فمه، في صوت الأمّ الذي تغيّر حنانٌ وهي تحضنهما وسرور، سرورها يُرى رأي العين.

- ألم أقل لك إنّ الأغنام والبشر يتشابهون... سأسمّي الأوّل ربيعا والآخر بديعا.

ضحكا ضحكة سمعها من كان بالوادي، بهمتان نضرتان كنوّارتين تفتّحتا للتّوّ في البريّة، قوائمهما ضعيفة لا تقوى على الوقوف والمسير هذه المسافة الطّويلة. بسط رداءه لهما وحملهما، وديعان وفي عيونهما ضعف وحاجة أَحبّها، سيُسرّ المالك بهما. عادا بالقطعان إلى البلدة حيث يقفان عند عتبة كلّ بيت فتدخل الخراف، هي تعرف بيوتها ومعاقلها وأهلها كما تعرف جلدها وصغارها.

-4-

نفخ الرّاعي الذي قضى سنوات من حياته بين الخراف في قصبة النّاي، مطواعة بين يديه. لهذه القصبة ولشفتيه فعل عجيب، فما إن ينفث فيها نفَسه حتّى تَصدر منها أنغام مطربة، وتجتمع الأغنام خلفه تأكل العشب، والتيس يتقدّمها، له قدرة غريبة على قيادة الجماعة. قال الرّاعي وعيناه محدّقتان إلى الجبل الذي لا يبعد كثيرا بعد أن أمسك عن العزف:

من الأغنام والماعز من لها استعداد للقيادة، ومنها من جُبلت على أن تكون تابعة منقادة، وكلّ راع منّا يميّز الصنفين في أغنامه. أترى تلك العنزة أعلى التلّة، نَفور مذ عرفتها، تخرج عن القطيع، لا تنقاد بل تقود، فيها شيء كبير من حب قيادة أقرانها، وعلينا نحن الرّعاة أن نعطف على الضّعيف ونحسن قيادة النّافر ونقرّب بين هذا وذاك، ونؤلّف بين عناصر القطيع كلّهم.

ظلّ الفتى صامتا أمام حديث الرّاعي، وفي مساء اليوم الذي يبيته في الدّار يعيده على بركة... بهيّا وضيئا إذا ما تكلّم، وقورا هادئا كالصّحراء رغم صغر سنّه إذا ما صمت، كأنّما سكبت عليه البريّة سكينتها وصبرها ومعارفها وبهاءها أيضا.

تبعته الأغنام كما يتبع الصّغار أمّهاتهم:

- الأغنام تسير خلف ربّها، ولكنّ مسيرها في الحقيقة هو مسير الكلإ والماء، وكذلك الإنسان، أمّا الحكمة فهي مطلب أمثالنا ممّن لا يغنيهم كلأ ولا ماء.

هبّت من الشّرق رياح قويّة باردة، فسحب الغنم تحت الجبل بأن حرّك أصابعه وعزف على النّاي فتبعته، كأنّما تحبّ عزفه وتعشق صمته، فقد جُزّت أثوابها للتوّ بعد أن قدم تجّار الصّوف فعاينوها على أجسادها. تغيّر شكلها، وصارت أجمل وأنظف وأكثر رشاقة، لكنّها صارت لا تحتمل أيّ طارئ برد.

-هاك شاي الشّيح لتدفئ نفسك، واترك الغنم ترعى فهي تعرف الوادي شبرا شبرا وصخرة صخرة، وعشبة عشبة...

كانت الخراف تستيقظ مع استيقاظه، وتمطّ رقبتها وقوائمها مع تثاؤبه وتشبيكه ليديه أم تراه هو من كان يعرف مواقيتها، أم أنّهما على موعد، موعدهما الشّمس. وتجلس للقيلولة مع جلوسه، وتتوقّف عن الرّعي عند الغروب، وتجتمع غير بعيد عنه تلوك العشب وتستمع لعزف نايه. كانا على وفاق غريب لا يحدث حتّى مع البشر.

في شعبة أجياد، نظر الرّاعي إلى صفحة الماء الصّافي قبل أن تكدّرها الأغنام، وإذا بغنمته تأتي إليه وتشمّ ثيابه، فيمسّد على ظهرها. هي كذلك لا تشرب إلاّ من الماء الصافي، وما إن انحنت فلامست الماء حتّى سبقها صغارها يكرعون بقوائمهم، أمّا الكلب فنبح وهو يرى صورته في الماء ويحاول أن يصرع هذا الشّبيه.

- سمعت البارحة حركة غريبة في الجوار، ثمّ لمحت رجلا اختفى في لمح البصر، واليوم تمكّنت من إبصاره والتّعرّف عليه. شفتان غليظتان، وأنف دقيق وسحنة سوداء، وقدمان حافيّتان، يشرب من الشّعبة وما إن رآني حتّى اختفى بسرعة البرق.

- من يكون يا ترى؟

- يبدو من أغربة العرب ممّن خرجوا عن قبائلهم وآثروا الحياة في شعاب مكّة... تعال أحدّثك عنهم، أعرف أنّك حديث السنّ ولم تسمع بهم.

شمس الغروب في المرعى مع قصصه ملهمة تذكّره بغروب شمس بني سعد في البادية، وشمس يثرب، المدينة الخضراء ببساتينها وحصونها، طالما استوقفه منظر الغروب ولون الشّفق، الغروب مع لعب الحملان والجداء وركضهم الرّشيق، وكلّ ما في البريّة، القبّرة، والحدأة، والثّعالب، واليرابيع... يداويه. كان صمت البريّة يمسح جرح يتمه، ويفتح عينيه أمام حياة أخرى بعيدا عن حضن والديه، بين هذه الخراف التي صارت جزءا من حياته، يحبّها وتحبّه، واشتياقه لعمّه وأبناء عمّه وزوجه فاطمة التي تعامله معاملة أبنائها، وبركة حاضنته يملأ قلبه حنانا ورقّة.

منظر الحملان مجتمعة إلى النّعجة الأمّ التي وَلدت حديثا يجبر كسره، يداوي جرحه الأوّل والثّاني والثّالث، وصورة الحليب الذي يسيل من فم الحمَلين الحديثي الولادة يذكّره بأمّه السّعدية التي لم تفطمه إلاّ بعد حولين كاملين، وفي نفْسه سؤالان اثنان عن أمّه آمنة تطفح لهما عيناه بالدّمع لأنّه لا يقدر على أن يستعلم منها، هل أرضعته، وهل كان الحليب يخرج من فمه مثلما يحدث لهذا الحمَل عندما يشبع وتغلبه وفرته؟

لكنّه سيسأل بركة عندما يعود وستجيبه عن كلّ صغيرة وكبيرة، يا لبركة التي لولاها لما عرف الكثير عن أمّه ووالده. نظر إلى النّعجة ثانية، كم يغبط هذه الحملان الشّقيّة!

***

مراعي العرفج على امتداد البصر تزداد رطوبتها في الرّبيع ليلا، ثمرتها الصّفراء تحبّها الغنم والإبل معا. أَتَرى كم هي محظوظة هذه السّنة؟ يقرب اللّيل من الخروج بطيئا من هزيعه الأوّل، ونجوم سماء شعبة أجياد تبرق، صافية ومحمّلة بحكايا الرّعاة والحِملان، لا يعكّر صفوها شيء... سوى غيمة وحيدة تغشّتها، واسترعت اهتمام صاحبه الرّاعي ككلّ ليلة مقمرة يتتبّع فيها النّجوم.

صمت البريّة اللّيلة لا يلتفت له الفتى... موحش وممل لا يقطعه سوى صوت النّار وهي تأكل النّبات اليابس وجذوع الشّجر، وصوت ماء يغلي على أثافي إبريق اسودّ ليعدّ شاي الشّيح، والرّاعي يتأمّل ضوء القمر، وتحت إزاره خنجر يخفيه خشية اللّصوص وقطّاع الطّرق، حيث رأى الأسبوع الماضي على حواف الشّعبة رجلا يظنّه منهم، ممّن يعيشون في أطراف مكّة، ويقتاتون من غاراتهم على القوافل، يتوقّع هجومهم في أيّ ليلة وهو يدسّ عقده ويحصي غنمه.

أمّا الفتى اللّيلة بعد أن قبض الأجرة الزهيدة، فلا يكاد يهدأ في مكان، يضيق بالجوّ الخانق، ولا تكفيه بعض نسمات كانت تلطّف المكان الذي يحبسه الجبلان، غير راغب في قضاء اللّيلة كلّها يسمع عزف

نايه، وأحاديث حكمته، تكفيه كلّ هذه الخراف ليقضي بقربها السّاعات المتبقيّة وفرحُه بعقده المتلألئ.

في فم محمّد شيء يريد أن يقوله، يُقبل ثمّ يدبر، يهمّ بأن يتجاسر ثمّ يُحجم. ما ظَنُّه به سوى محبّ لا يرفض له طلبا، وهو الذي مذ عرفه يُسِرّ له بكثير من تفاصيل حياته، ويكتمها عن غيره، ولا يبخل عليه بما علّمته البريّة والصّحراء... حتّى العقد المتلألئ الذي منحته السّيول، ووجده عالقا بين أعواد النّبات الذي ينمو على ضفاف الشّعبة والطّين، لم يُخْفه عنه كما فعل مع بقيّة الرّعاة لمّا أمِنه.

سيتجرّأ بحكم العشرة التي بينهما والودّ، ويقول طلبه، فها هو اللّيل يقترب من هزيعه الثّاني وهو لايزال يقبل ثمّ يُحجم... إلى أن بادره الرّاعي وهو يمسك بالعصا ويتّكئ على صخرة في الجوار ككلّ ليلة.

- أتريد شيئا؟ الفظ ما في جعبتك يا محمّد!

- أجل... **أبصر لي غنمي حتّى أسمر هذه اللّيلة في مكّة كما يسمر الفتيان**.

- هذا فقط ما تريد... لك ذلك، فاِمض.

انتاب مسامعه صوت غناء ودفوف ومزامير فور وصوله، فسأل أوّل من صادفه عن الصوت.

- زيجة من زيجات أثرياء مكّة.

القيان والضرب على المزاهر والرّقص والشّراب الذي بلغ دروب مكّة فكاد ينسكب على الطّرقات... كانت المزامير والدّفوف كأنّما تهدهده،

متعب من تتبّع الخراف والماعز وحراستها وانتقاء منابت الكلإ لها ومنابع الماء والسّهر لحراستها.

لزم مكانه وخدر بدأ ينتابه وهو يسمع حديثهم في العرس عن السيّد الذي يسمر كلّ ليلة في البيت المقابل. كانت عمامته مزيّنة بالياقوت الملوّن، وله خاتم يغيّره كما تغيّر النّساء من العوائل الغنيّة حليّهنّ، وكأس من ذهب يحتسي فيه نبيذه، ويختار من سوق الجواري أجملهنّ، ليعود آخر اللّيل إلى زوجته فينام بقربها فاغرا فاه كثعبان لعين، وفي الصّباح يذهب إلى دار النّدوة ليبتّ في شؤون مكّة.

كان الجميع رغم ما يروونه رائقي المزاج، بل إنّ قهقهاتهم تبلغ آخر الدّرب، حتّى الرّجل المسنّ ذو الثّياب الباليّة صاحب الشّامة التي تبلغ نصف خدّه، كانوا جميعا في انبساط لما يتجرّعونه من كؤوس.

***

- ما فعلت؟ هات، احك لي ما كان اللّيلة الماضيّة، أم تريدني أن أبصر لك غنمك، وتخفي عنّي؟

- خرجت، فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا:

فلان قد تزوج بفلانة، فلهوت بذلك الصّوت حتى غلبتني عيناي فنمت، فما أيقظني إلاّ مسّ الشّمس.

- كيف ذلك؟

جلسا أمام ضوء النّار يتحدّثان عن تفاصيل ما وقع له، والرّاعي لا يملك نفسه من الضحك:

- أبعد أن تركت لي غنمك لأحرسها غلبك النّعاس، قل غير ذلك؟

- ولكن سأعاود الخروج اللّيلة أيضا.

وما إن برزت الشّمس حتّى قدم يحمل سقاءه وزوّادته وعلى وجهه ما كان عليه صباح اليوم السّابق. ضحك الرّاعي وهو يهزأ منه:

- وليلة البارحة أيضا.

- أجل، فعلت في ليلتي الثّانية مثلما فعلت في الأولى، نمت فما أيقظني إلاّ مسّ الشمس.

صمت الرّاعي وعاد إلى هدوئه ثمّ قال وكأنّما يقرأ من كتاب:

- في ذلك خير.

-5-

اجتمع الأعمام والعمّات في البيت الكبير الذي لا يجتمعون فيه إلاّ من موسم لموسم، ولأمر جَلَلٍ يخصّ أحدهم أو أحد أبنائهم، فيتشارك آل المطلب في حلّ نزاع أو تسوية وضع، أو في الأفراح والمسرّات، يعدّون أصناف الطّعام ويسمرون معا إلى الصّباح، يتذكّرون أيّام صباهم مع والدهم عبد المطلب وأمّهم فاطمة، اللّذين صارا جثوتين من تراب أفنتها الأيّام، ولم يبق إلا نتاجهما ونتاج نتاجهما يغدو ويتحرّك وبعض من الذّكريات.

واليوم يوم مختلف... يتجهّزون للخروج إلى بُوانة، يحملون زادهم وما يلزمهم في السّفر، وما سيُذبح من إبلهم وشياههم قربانا، يحْلقون ويطوفون بها إلى اللّيل ثمّ يشدّون الرّحال إلى مكّة.

- يا عيون عمّتك، ويا رائحة توأمي عبد الله الذي كنّا معا في بطن واحدة، بطن جدّتك فاطمة رحمة الآلهة عليها وعلى موتانا جميعا، أنا لا أريد بك إلاّ خيرا، كيف تخرج عن عادة آبائنا وأجدادنا، ولا تحضر الموسم، هذه بوانة؟!

الآباء الآباء كلّ ما أتوه فرض محتوم، لا يجب أن يُعمل فيه تفكير... امض فيما ورثته من آبائك وأرح رأسك.

أمسكت بيده تحدّثه وهو منزو في غرفة جدّه خلف سريره يتذكّره، فلو كان حيّا أتراه يُكرهه على فعل شيء، أم يدعه لشأنه، لم يكن يرفض له طلبا، كم أحبّه!

- وماذا تعني بوانة؟

- صنم نعظّمه وتجلّه قريش كلّها، نحلق عنده ونذبح القرابين ونعكف عليه يوما كاملا من كلّ سنة، ولا نعود إلاّ إذا ما جنّ اللّيل، لا ينصرف عنه واحد منّا، ونقف عند واديها يلعب الصّبية وترتاح دوابنا ونستظلّ تحت نخيلها. ستعجبك الرّحلة مع أبناء أعمامك وعمّاتك، وسيكون حمزة والعبّاس حاضرين وكذا طالب وعقيل، كلّهم سيحضرون فلِمَ تتخلّف أنت وتبقى في الدّار بمفردك؟! هيّا لا تتردّد.

صمت ولم يقل شيئا ورأسه إلى الأرض وعلى وجهه عبوس وانزعاج.

- احمل نفسك هذه المرّة وستعتاد على عادات قومك، هذا عيد من أعياد قريش، ألا تقيم وزنا لعمّك لقد غضب غضبا شديدا عندما سمع من طالب أنّك لا ترغب في الخروج. قم لأجله وسترى ما يسُرّك، ألا تهمّك سعادة عمّك وكلّ أعمامك وعمّاتك، ألا نعني لك شيئا؟

-أتعلمين يا عمّة إنّي لا أطيق النّظر إلى هبل وبقية آلهة الكعبة.

- لا تقل ذلك يا ولدي وإلاّ حلّت بك لعنتها، ستغيّر رأيك عندما ترى بوانة، فهي مختلفة، سترى.

-...

لا أحد وقف إلى جانبه، سيذعن هذه المرّة ولن يجدي انزواؤه في الحجرة ولا جلوسه على الأرض خلف سرير جدّه، سيستسلم وسيرى إن كانوا يرضون بتنازله ولا يطالبونه بشيء آخر، فهو يكره ما يفعلونه في مواسم مكّة.

اضطرّ للإذعان بعد أن لم يبق واحد من عمّاته وأعمامه إلاّ وغضب منه وعاتبه. بُوانة... هذا ما ينقص حتّى تكتمل المجموعة هبل واللاّت

والعزّى وإساف ونائلة... وعلى الصفا مجاور الرّيح، وعلى المروة مطعم الطّير، ومناة إلهة المنايا ومخبآت القدر.

كم يمقتها في قرارة نفسه، لا تسمع ولا ترى ولا تنفع حتّى نفسها، فلِمَ كلّ تلك القرابين والاحتفال بحجارة صمّاء؟ كان الأجدر أن تُقدَّم تلك الذّبائح والعطايا لفقراء المدينة وعبيدها الذين لا يجدون كسرة ليأكلوها.

لا يذكر يوما حنى جسده لها، أو دعاها مع ما أصابه من كرب ويتم، أو تمسّح بها كما يفعل الجميع.

-ماذا سيقول عنّا القوم وباقي القبائل، ابن من أبنائي من آل عبد المطّلب من نسل هاشم لا يقيم وزنا لصنم من أصنامنا، والمعمورة كلّها تحجّ إلينا؟

علا الصّوت فوصل إلى الفتى وهو في غرفة جدّه، كان أبو طالب يمسك برأسه الذي بلغ به الصّداع مبلغا احمرّ له وجهه، فأجلسه على البساط في أشدّ الانفعال، وهو ما هو عليه من رباطة الجأش والوقار الذي تعرفه به زوجه، وباقي أخواته وإخوته.

- اهدأ يا أبا طالب، لا يزال ابن اخيك صغيرا، وسينهج نهج آبائنا، لا تخش شيئا، إنّه فتى عاقل وأنت من ربّيته.

خرجت أمّ حكيم من غرفة أبيها بعد أن أقنعته، وإن شاركتها بقيّة عمّاته، فما زالوا يكثرون عليه حتّى صمت، وقرّبته من أبي طالب مزهوّة بصنيعها.

- ها هو محمّد أمامك وسيرافقنا.

قبّلته عمّته أمّ حكيم بين عينيه قبلة الرضا، وابتسم عمّه حتّى بدت نواجذه:

- هذا الفتى أعلم أنّه لا يعصي لي أمرا، ولن يذهب تعبي عليه سدى. أتريد أن تحلق عنده؟ سأرافقك لأعلّمك ما يجب فعله مع بوانة.

رافقهم لإسكاتهم وهو كاره، وليتخلّص من نظراتهم ولومهم له. أيّ آباء أو أجداد الذين يكلّمون حجرا ويطرحون أمانيهم عليه، ويتجشّمون عناء السّفر إليه! وثنهم العظيم هبل لو كان ينفع أحدا لنفع نفسه ودفع عن يمناه الأذى أو أعادها إلى حالها ولم تُجبر بالذّهب، آلهة تسقط على رأسها كلّ ليلة بفعل الرّياح ولا تقوى على حمل نفسها حتّى تثبّت قوائمها لا يجدر أن تُعبد.

تبِعهم حتّى يكفّوا عنه رحمة بهم، وللغضب الذي كادت أوداج عمّه تفرقع له، وتنزف دما، فأبو طالب يخشى ولا يختلف عنه عمّه الزّبير ولا بقيّة أعمامه ممّا يقوله عنهم المكيّون وهم سادة قريش، وحماة البيت العتيق، ولا يقدر على فتى من فتيان بيته، يثور على عاداتهم ومواسمهم، لو تخلّف فستحكي مكّة كلّها غدا ما فعله.

مكّة كلّها هناك، في بوانة، صغيرها وكبيرها، رجالها ونساؤها، سادتها وعبيدها، أغنياؤها وفقراؤها، حتّى مرضاهم شدّوا الرّحال إليها يتمسّحون بها ويبذلون أغلى ما لديهم لتشفيّهم وتذهب أسقامهم. على النُّصب ذبحوا القرابين، ولون الدّم لون ولائهم وبذلهم أغلى ما يملكون، يسيل فترضى الآلهة وتقرّ وتبارك حياتهم وتجارتهم وزيجاتهم ومستقبل أولادهم.

ترك الفتى عمّه جالسا يهيّئ نفسه ليحلق وغاب عنهم زمنا، لكنّه لم يلبث أن عاد يلهث ويرتجف.

-ماذا أصابك بنيّ، أيّ وجه قدمت به؟!

-كأنّما تخطّفتك الجنّ!

-أرجئ الحلق فيما بعد، ما بك يا محمّد؟

هرع أبو طالب إليه، وأسرعت نحوه عمّته أمّ حكيم فهي من أقنعته بالذّهاب، ضمّته إليها وهو لا يزال يرتجف.

- إنّي أخشى أن يكون بي لَمَمٌ.

- اهدأ يا بنيّ، وحقّ السّماء ليس بك شيء، ما رأينا بين الفتيان أرجح منك عقلا، ماذا حدث لك لتقول هذا الكلام؟ احكِ لعمّتك يا نور عيني ولا تخش شيئا.

تقطّعت أنفاسه وهو يحاول أن يجيبها، حتّى لم يعد قادرا على الكلام. اهدأ يا بنيّ وتمهّل، ليس عليك أن تتحدّث الآن. وجهه باهت وأنفاسه لازالت تتقطّع ولا يقوى على كلمة واحدة دون تعثّر.

-على مهلك يا نور عمّتك... على مهلك. اهدأ واستلق على ركبتي قليلا وستكون بخير، اتركوا ابني ولا تكلّموه.

***

- الآن أخبرْ عمّك ماذا حدث حتّى عدت مرعوبا.

- إنّي كلّما دنوتُ من صنم منها، تمثّل لي رجل أبيض طويل يصيح بي: ما وراءك يا محمّد لا تمسّه.

- رجل أبيض طويل! أين هو، أرأيته من قبل؟

- لا...

تفقّد أبو طالب والزّبير بنفسيهما المكان جيّدا وتفرّسا في زوّار بوانة الذين كانوا يتمسّحون به ويستغيثون، وأشعة الشّمس كأنّما على رؤوسهم، ثمّ نادى حمزة وولدَيه وطلب منهم أن يتفقّدوا في الجوار ويبحثوا عنه ويحضروه.

لم تسفر ساعات البحث عن شيء، فعادوا أدراجهم والفتى فزِع وصورة الرّجل الغريب تطارد خياله، وعمّاته حوله يهدئنّ روعه.

وما إن وصلوا مكّة حتّى انزوى في حجرته خائفا مضطربا، ولكنّ بركة لم تتركه وشأنه، حضنته وهي تخشى عليه أن يكون ما به مسّ من الجنّ، ثمّ قدمت إليه عمّته لتهدئه، وهي تلوم نفسها في قرارتها. وعندما نام الأولاد وسكن البيت إلاّ ممّن كان في حجرة محمّد دخل أبو طالب.

- لن أطلب منك الموسم القادم، ولا في أيّ موسم آخر أن تخرج معنا على أن لا تعود إلى ما أنت فيه. اهدأ يا محمّد... أين ملامحك الباسمة وهدوؤك الذي نعرفه؟

قبيل طلوع الشّمس فقط بعد أن انفضّ الأعمام والعمّات إلى بيوتهم، عاد أبو طالب ليتفقّده وهو يتنهّد تنهيدة طويلة ويلوم نفسه:

- سامحني يا ابن أخي!

أذهبَ عنه الفزع؟!

- لقد نام وهدأ...

قضت أمّ حكيم اللّيل كلّه بقربه ولم تغادر وإلى جانبها بركة، باتا يؤنسانه، وهو يروي لهما فزعا عن الرّجل الأبيض الطّويل الذي كان يحدّثه ويخيفه من الصّنم.

- أنا من أقنعته بالخروج...

كان كفرخ مبتلّ في أسبوعه الأوّل سقط للتوّ من العشّ في يوم ممطر وبارد، كان يرتعش، ضممته إليّ بكل قوّتي. سامحني يا بنيّ، أعدك أن لا أطلب منك مشاركتنا لموسم بوانة ثانيّة، ولا أيّ موسم آخر.

-أرأيتماه يا حمزة، وأنت يا عقيل؟ ألم تكونا معه؟ أعاد أبو طالب السّؤال عليهما في الصّباح مستغربا.

- لا يا أبتي، لم يره أحدنا، كنّا نلعب ونطوف، وما من رجل بهذه الصّفات كان بيننا.

لم بالذّات هذا الغلام يحدث له كلّ هذا؟

صمت يفكّر ثمّ قال:

- كلّنا كنّا هناك، أنا وأعمامك وعمّاتك وفاطمة، من يحْلِقُ ومن يطوف ومن يتمسّح ويدعو، ولم نلمح شيئا.

لم يستعد هدوءه إلاّ في اليوم الموالي، فذهب الذّعر الذي تركه في نفسه الرّجل الأبيض الطّويل الذي بدا له وحده ولم يره أحدهم. ألم يكن من البشر، شبحا مثلا، أو جانّا أم خُيِّل له؟

عندما عاد الفتى وأخذ القطيع إلى البريّة، والتقى الرّاعي وحدّثه عمّا وقع له في بوانة قال:

-مكّة تحكمها الحجارة والتّجارة، يسوقها تيوس كلّ منهم يرغب في أن يقود القطيع إلى ما لا يعرفه حتّى هو، شرط أن يملأ جيوبه وخزائنه، ولا يخالف الآباء والأجداد ولو كانوا حمقى ومجانين.

صمت هنيهة ثمّ حدّثه وهو يتفرّس ملامحه كأنّما يراه للمرّة الأولى:

-صف لي ذلك الرّجل الذي تراءى لك، ولا تترك صغيرة ولا كبيرة.

-6-

هلّ الموعد من كلّ سنة لرحلة الشّام، والتّحضيرات على قدمٍ وساقٍ، التّجار يجمعون سلعهم ويكدّسونها في الشّوالات وسلل الخوص بعد أن يزنوها ويقدّر كلّ واحد منهم ثمن ما يدفعه من المكوس لقاء ما يحمله عند بوابة بصرى، والنّساء يحضّرن مؤونة الطّريق من الأقِط والسَّويق والبلح، والخفراء يجمعون مستلزمات الحماية ولا يَأمنون حتّى الأشهر الحرم فهذه لوازم التّجارة، ويذكّر رئيسهم بقوانين القافلة وما تستوجبه رحلة الصّحراء... حتّى السّقاؤون منشغلون بملء أوعيتهم من ماء زمزم...

وفاطمة بنت أسد ككلّ نساء المرتحلين تكاد تنتهي من إعداد حبّات الأقط برائحة ثمر الآراك كما يحبّه عبد مناف، عجنتها كرة إلى جنب الأخرى واليوم ستجفّ كليّا لتضعها بمساعدة بركة في مزاود الطّعام.

وبينما أبو طالب يتجهّز للخروج وقف محمّد عند ناقته وأمسك بطرف ثوبه:

- إلى من تكلني يا عمّ، فلا أب لي ولا أمّ؟

بكى الفتى وبكى عبد المطّلب

- أخشى عليك حرّ الهاجرة في الصّحراء وما تخبّئه الطّريق ووعثاء السّفر وطول الرّحلة، وأنت لاتزال فتى طريّ العود.

-سأتحمّل... أريد أن أرى بصرى الشّام.

لم يطل تفكيره ونادى بركة:

- جهّزيه ليخرج معنا، لا أقدر على أن أتركه خلفي بعد ما قاله.

جمعت الجارية حاجيات سفره وهي تبكي وتقول:

- اعتنِ بنفسك يا محمّد سأشتاق إليك يا ولدي.

سألتها فاطمة منكرة:

- لماذا تبكين يا بركة، سيمرّ الوقت بسرعة؟

- أبكي لأنّه كبر وسيخرج مع عمّه للتّجارة، أبكي فرحة آمنة لو تراه وهو فتى وسيم.

-كلّها أيّام وستجدين القافلة تطوف بالكعبة تشكر الآلهة على العودة والرّبح الوفير.

***

- ما ألذّ هذا الكعك وما أصفى هذا الزّيت وأطيبه!

- هديّة راهب استضافنا في بصرى.

- راهب؟!

- أجل راهب يدعى بحيرا، التقيناه عند مرورنا بقرية صغيرة تدعى الكفو، تبعد عن بصرى بضعة أميال. أدخلنا صومعته وأعدّ لنا أطايب الطّعام.

أنصتت فاطمة لأبي طالب بشغف كعادتها كلّما عاد إليها من السّفر، ورمقته سعيدة وهو إلى جانبها ومع أولادها سالما معافى، مع هديّة يحسن انتقاءها لها، وكثير من الحكايات عن التّجارة ومن يقابلهم وما يعلّمه السّفر.

-لو تعلمين ماذا أنبأني عن محمّد؟ إنّ في كلامه عجبا.

- محمّد بن أخيك؟!

- أجل محمّد بن أخي الفتى اليتيم.

تنهّد تنهيدة طويلة كلّما ذُكر يتم الفتى، ثمّ ابتسم ابتسامة رضا:

-هذا الفتى أدهشني طيلة رحلتنا، لم يكن يرضى أن يتناول زاده حتّى يشرك فيه أحد الخفراء أو السّقائين. كان يترك سادة قريش ليعينهم على إنزال البضائع ويخدم نفسه بنفسه، ألأنّه يتيم، علّمه اليتم أن يعتني بنفسه ويشعر بالآخرين، حتّى بعيره ما إن يضع بلحة في فمه حتّى يناوله علفها، وقبل أن يستريح يزيح عنه حمله. ما أحنّه وأرأفه ابن أخي! لو ترين بعيره وهو ينحني عليه برأسه!

وطيلة الطّريق لم يرفث! لم يخرج من فمه ما يشين، لا سباب ولا نميمة ولا آذى أحدا، ما أعجبني من صمته. كم يحسن الاستماعَ هذا الفتى، وما أحبّ الغروب إلى قلبه!

-محمّد ما من أترابه من يعادله عقلا وأدبا، ولكنّك لم تخبرني ماذا قال راهب بصرى.

- أتكتمين السرّ، فأنا أخشى عليه من يهود.

- يهود! وما دخل يهود في ابن أخيك؟ تكلّم أقلقتني!

-تعالي سأقصّ عليك ما حدث بعيدا عن الأولاد، ففي كلامه عجب على أن تكتميه.

***

تمدّد محمّد على فراشه قبل النّوم يستريح من تعب رحلة الشّام، دنت منه بركة تطمئنّ على حاله وتسأله عن تجربته الأولى في السّفر.
اشتقت إليك يا ولدي، استرح فجسمك هزيل ومتعب. كانت الرّحلة شاقة عليك وأنت لم تأكل كما يجب، أعرف قلّة طعامك وحياءك.
حدّثها إلى وقت متأخّر عن سفره وعن الأماكن التي مرّ بها في الصّحراء، وما رآه ومن كلّم إلى أن وصلوا إلى بصرى حيث أُعدّت لهم مائدة عظيمة من كلّ ما لم يخطر على بال من أصناف الطّعام.
- أهل بصرى يشتهرون بأكلهم الطيّب، وخيرات أراضيهم.
- قابلْنا رجلا قال عمّي هو راهب نصراني، كان يلبس الصّليب، يدعى بحيرا، يعتكف في صومعته، أكرمنا بطعام طيّب. كنت عند البضاعة أحرسها مع الخفراء، ولم أتقدّم معهم إلى تلك المأدبة، ولكنّ عمّي جاء وألحّ عليّ بالحضور تلبيّة لرغبة هذا الرّاهب.
- راهب كريم!
- أمره عجيب يا بركة. ما إن رآني حتّى احتضنني وهو لا يعرفني، وكان ينظر إليّ ويطيل، ويتفرّسني بعينيه وكلّ جوارحه في فرح، ولمّا انتهينا من طعامنا وتفرّق القوم سألني عن أشياء متفرّقة كنومي وهيأتي وأمور أخرى تخصّني.
أهذه الحمرة في عينيك ملازمة لك؟ نعم. هي لا تفارقه عقّب عمّي، وكلّما أجبته بنعم زادت عيناه سرورا، وكاد يطير فرحا وطرح سؤالا آخر، أو تفحّصني حتّى أنّه كشف عن ظهري ورأى شامتي التي بين كتفيّ. أمره عجب، ثمّ أخذ عمّي فانفرد به وحدّثه ولم أر إلاّ علامات

الدّهشة ترتسم على وجه عمّي حينا والابتسام والرضا حينا آخر، ومنذ ذلك الحين وكأنّ أمرا قد تغيّر فيه. تغيّرت نظراته إليّ، صار لا يفارقني ويخشى عليّ أكثر من ذي قبل، عيناه كانتا تقولان شيئا لم أعرفه، أخبرني أنّه لولا المشقّة لعاد أدراجه من خشيته عليّ. لا أدري ممّ؟! كانا ينظران إليّ نظرة غريبة، ثمّ يتحدّثان ولم أع شيئا ممّا قالاه عدا قوله:

- إن كان حقّا ما تقوله، فهو في حصن من ربّ السّماء.

وطيلة الطّريق وعمّي بين الابتسامة التي لم تفارق شفتيه والقلق الذي يتقطّب له حاجباه حتّى يسودّ وجهه.

- نم يا بنيّ، فتى مثلك، أمين وصادق، لا بدّ أنّ السّماء ترعاه.

غادرت بركة الحجرة ومشت في فناء الدّار لتحضر ماء لتشرب وتملأ الجرّة إذا ما احتاجا الماء ليلا، وأثناء مرورها بغرفة فاطمة وصل سمعها كلام أبي طالب واضحا من كوّة الحجرة وسط صمت اللّيل بعد أن غرق كلّ الأولاد في نوم عميق:

-نبيّ هذا زمانه، لا ينبغي أن يكون له أب أو أمّ، قلت: وما النبيّ؟ قال: الذي يأتيه خبر السّماء فيُنبّئ أهل الأرض به.

-هو ابن أخي مات والده وهو في بطن أمّه، وماتت أمّه وهو ابن ستّ سنوات، صاح هذا هو، كلّ علامات النّبوّة ماثلة فيه. بقي أمر أحبّ أن أستيقنه. وما هو؟ خاتم النبوّة. كشف عن كتفي محمّد ولمّا رأى تلك الشّامة لو ترين شدّة ذهوله يا فاطمة وفرحته حتّى دمعت عيناه... وقبّله في موضعها.

- ولكن كيف عرفه الرّاهب من بعيد يا أبا طالب، أليس أمرا محيّرا؟!
- الغيمة التي كانت تظلّه من بين القوم، قال هي لا تظلّ إلاّ نبيّا هذا زمانه.

عضّت بركة على شفتيها ووضعت يدها على فمها خشية أن يصدر منها صوت يسمعه سيّدا البيت. هي الغيمة التي حدّثتنا عنها حليمة السّعديّة عندما روت لنا عن بركة محمّد سنة القحط.

أسرعت بركة في جنح اللّيل إلى غرفتها تغمرها دهشة وفرح شديدان، وضعت الجرّة ونسيت أن تشرب الماء وما خرجت لأجله. أخذت تذهب وتجيء في الغرفة ثمّ توقّفت خشية أن توقظه بعد أن رأت محمّدا يتقلّب في فراشه. أين أخفي هذه الفرحة، صدري لا يسعها ولا هذا الرّأس؟ أتراه هذا الخبر صحيحا، لا أحتمله بمفردي؟! يـــاه، كانت سيّدتي آمنة محقّة!

تذكّرتْ حلمها والهاتف الذي كان يأتيها مردّدا: حملت بسيّد هذه الأمّة. لو كانت معي الآن سيّدتي آمنة! الفرحة لا تسعني، لا أقوى على النّوم. مسّدت على شعره ورسمت قبلة على جبهته. لترعاك السّماء يا بنيّ، ولتهنأ بك آمنة وسيّدي عبد الله في قبرهما. لم يعيشا ليرياك! لكنّي أدعو الآلهة، إن كان ما قاله الرّاهب صحيحا، أن أُدركك.

مقام المرض

أخذ القسّ الضّرير ورقة يدعك بأصابعه شعره الذي يقع على كتفيه وقوعا طفيفا، بعد أن نزع العمامة. أجعدٌ في مثل شيبة لحيته التي لم يبق منها ولا شعرة سوداء منذ سنوات طويلة، ووجهه الذي يغزوه التّعب ينتهي بارتعاشة كبرٍ تجتمع في ذقنه الذي يميل إلى الاستدارة في نحول بدأ يظهر عليه في الآونة الأخيرة، ويعلوه جبين عريض ترتسم عليه تجاعيد العمر غائرة وصريحة. ألقى بجذعه وكلّ أطرافه على السّرير، مسترخيا في إنهاك، بما يفرضه عليه السنّ المتقدّم، فقط عيناه رغم ظلامهما حملتا بريقا محيّرا كأنّما هما في عزّ شبابهما.

رداؤه إلى لون الرّماد أميل، وعلى صدره الصّليبُ المرصّع الذي لم ينزعه منذ تعميده، ولا حتّى عند النّوم أو الاستحمام، وبالقرب منه خوان وضع عليه الخادم إبريقا طويل العنق مخصّصا للماء، جُلب للتّو من زمزم، وكوبا من شراب الحلبة الذي يعينه على استجماع قواه. وهو كباقي ميسوري الحال من أهل هذه البلدة يفضّلون منقوع الزّبيب الطّائفيّ، أجود الأنواع، باردا في مثل هذه الأيّام الحارّة، ينعش الخاطر، ويمدّ الجسد ببعض القوّة، يهدونه لزوّارهم وأحبابهم، ولا ترى أيّام الموسم إلاّ جفانا ودنانا يضعها سقاة الحجيج.

في الغرفة المجاورة ينام سيّدي لا يفصلنا سوى حائط، وفي انتظار أمر منه أدفن رأسي بين الكتب، أنتقي له ما أقرؤه عليه اليوم، وأجمع ما قاله أفلاطون عن النّفس والكون وما ردّ عليه أفلوطين...

ولا يغيب عن رأسي ذاك الصّباح الذي جاءت فيه السيّدة خديجة... بال سيّدي منشغل بأمر الملَك وما كلّم به محمّدا، حتّى أنّ كتاب التّاسوعات الذي شغُف بقراءتي عليه حتّى يشرح لي مغاليقه ونتدارسه معا للمرّة الثّانية لم نعد إليه ولا أعرف مكانه، لم يذكره لي ثانيّة. وضعتُ ضفيرة ورق النّخيل بين دفّتيه في الصّفحة التي توقفنا عندها قبل أيّام فقط حين قال: سنكمل ما بدأناه غدا، كعهده كلّما أراد أن ينهي لقاءنا.

كانت عيناه تتلألآن حتّى تكاد تسقط منهما دمعة: أنت يا خانوم في أوّل سلّم الحياة وأنا في آخره أزحف نحو النّهاية، وأتعثّر بين الحين والآخر بمرض أو حتّى تعب السّنين. أنت كالنّحلة بين صفحات الكتب، وأنا لم أعد أقدر، أقتات من ذلك الرّحيق الذي جمعته سنوات عمري.

أنت تنهل من الحياة من غير ارتواء، وأنا أحسوها على مهل وآن لي أن أرتاح قليلا، لولا ما يكدّر صفوي من خشيتي على محمّد.

أخشى عليه من قومه، ومن يهود، ما جاء أحد بمثل ما سيجيء به إلاّ عُودي، ليتني أستطيع أن أؤازره.

سنوات شباب القسّ ورقة انقضت بين تيه مع صديقه وبين كتبه باحثا عن ملجأ ونجاة وراحة، حتّى مكّة لم يعد يعبأ باجتماعات ساداتها، وانطفاء بصره زاد من عزلته عنهم، ولم يعد له كبير اتّصال بهم إلاّ ما يسمعه من أخبار، ينقلها إليه خدمه وغلمانه، أو ما يسمعه بنفسه من جولته اللّيليّة في البلدة.

صار بيتُه محرابه الذي يقضي يومه فيه، بين ما يتلوه ممّا يحفظه من الإنجيل وصلاته، وما يحبّ أن يستقبل به يومه من إنصاته لأصوات الرّعاة والمارّة من نافذته وهمْس النّسوة يحملن جرارهنّ، وصراخ مجنونة بني أسد التي لا يُقبل يوم دون أن تطرق بابه عند طلوع الضّوء الأول، تستعلم عن ابنتها وتأخذ حظّها من الطّعام.

وحين ينقضي الصّباح أقرأ عليه ما وصله من رسائل، وأكتب له الرّدود عليها، فلا يبقى له سوى أن يختمها بختمه، ثمّ نتمّ تدارس الكتاب الذي بدأناه، ونتطارح أفكاره فلا نشعر بانقضاء الوقت حتّى المساء.

- نمتُ وكتاب التّاسوعات على صدري. كنت أعيد قراءته في ذهني وقلبي، حلّقت مع أغوسطين في ملكوت لا حدّ له.

- بحثت عنه فلم أجده، هذا فعلا ما فكّرتُ فيه، أنّي تركته هنا في الغرفة في مكان ما.

- منذ اللّيلة الماضيّة وهو بين يديّ... وبينما لا أقدر الآن على القراءة أكتفي بشمّ رائحة الكتاب. لكلّ كتاب رائحة تستفزّني، وتذكّرني برحلة ضياعي ويقيني.

همهم ورفع بصره إلى سقف الغرفة:

- كم أرغب في أن أتمّ ما نقلته من الإنجيل إلى العربيّة، ما إن شرعت في ذلك حتى انطفأ بصري.

- اطلعتُ يا سيّدي على كتاب الصّلاة، نقل لطيف راقَ لي، وكلّي شوق لأكون مدادك عندما تشرع في نقل طفولة يسوع. لي الشّرف يا سيّدي

أن أكون عونا لك، سيكون كثير من المسيحيّين مدينين لك بهذا العمل الجليل الذي سيخلّده التّاريخ حتما.

- لنترك هذا الشّرف لشخص آخر غيري. أعتقد أنّ نقل الإنجيل إلى العربيّة سينال شرفه شخص آخر، أعتقد أنّه لم يئن أوانه، ولا أدري إن كانت تضمّه هذه الأرض العطشى أم أرض أخرى؟ سكت قليلا ثمّ أضاف: يشغلني الآن أمر محمّد.

على يمين الدّكّة الخشبيّة حيث اعتدتُ أن أدوّن ما يشرحه لي القسّ وخلف الطّاولة المستطيلة التي تعلوها أوراق البرديّ وتنتظم فوقها محبرة نحاسيّة عليها حفر دقيق لامرأة برأس أفعى، خزانةُ كتبٍ جمعتْ أندرها وأكثرها تحريما.

رسائل من لفافات أدم لقساوسة ورهبان، وأخرى من عظام الكتف، ويقف بجانبها صليب خشبيّ متقن الصّنع نقش عليه كلام بالآراميّة حملته وتأمّلته برهة" من أراد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني ". وفي أسفله" ومن لم يحمل صليبه ويتبعني فليس أهلا لي".

أشياء تحمل نفَسَه ولهثه في أكثر من بلاد... ورسائلُ توصيّةٍ، وبعض من شعره الباكي والحكيم.

- أتسمح لي يا سيّدي بالاطّلاع عليها وإعادة ترتيبها؟

- أنت بصري يا خانوم وصوتي، ألم أقل لك؟! ولك كلّ ميراثي من هذه الكتب التي أفنيت معها عمري...

- العمر الطّويل... ما هذا يا سيّدي؟ "هجّاها بلكنة الأعاجم في قراءة العربيّة: "مُنية الخائف في طلب الصحائف"

- أوراق سلّمها لي دانيار عندما أعلمني بخبر مقتل زيد بخطّ يده، جمع فيها مشاهداته عن الأمكنة التي زارها والأديرة التي سافر إليها. نظام الدّير وقوانينه وعادات الرّهبان والقساوسة وأخلاقهم، وصلواتهم.. هي رسالة مقسّمة إلى أربع رحلات هي مشاهداته بين نصيبين وعموريّة والموصل والبلقاء، حتّى النّقاشات التي كانت تدور بينه وبين الرّهبان والقساوسة مدوّنة هنا.

- أكان خائفا؟

- كان يشغله هاجس جعله ينزف حتّى آخر يوم له كما أتصوّر حتّى قبل أن يطعنه قطّاع الطّرق. كان يخشى أنّ عمّه الخطّاب يرسل شبابه لتعقّبه ليُعيدوه مقيّدا ليسجنه في بيته أو حتّى ليقتله. يستطيع أن يفعل ذلك، لأنّه أعلن استهزاءه بآلهتهم أمام الملإ وفي موسم من مواسم مكّة حين تعجّ بالزوّار.

- هل تسمح لي يا سيّدي بشرف الاطّلاع عليها؟

- ألم أقل لك أنت بمثابة ولدي؟!

- ما هذا يا سيّدي؟

- اقرأ عليّ لأعلم ما هو، فأنت تعلم بحال عينيّ.

قرأ شعرا يبكي فيه صاحبه:

- تلك مرثيّات في زيد بن عمرو، الأخ الذي لم تلده أمّي.

- وهذا:

هل أتى ابنتي عثمان أنّ أباهما... حانت منيّته بجنب المرصد

- ذاك في بكاء عثمان بن الحويرث. كُتب عليّ أن أعيش ويطول عمري لأرثي أصحابي.

***

كان يمشي بجانبي الكتف إلى جانب الكتف، ويمنحني شرف التّماس بذراعه اليمنى بعد أن زال في السّنتين الأخيرتين ما بيننا من نظرة متعالية من سيّد لعبده، أو نظرة ذلّة أو دونية من مملوك لمالكه، وحظيت بقرب لم يحظ به عبد قبلي فيما أعلم بعدما عاينه سيّدي من معرفتي باليونانيّة واللاّتينيّة، ولمناقشاتنا التي لا تنتهي في بعض اللّيالي إلاّ مع الصّباح، حتّى صرتُ تلميذا له. علاقتنا كعلاقة مُريد بشيخه.

اجتزنا الدّرب على مهل، شيخ يستند إلى عصا الآراك في أحد دروب مكّة ليلا، التي لازالت ملتهبة رغم أنّ الغروب مضى عليه ساعات كثيرة، وشابّ في مقتبل العمر يبطئ خطاه ليتلاءما.

شرد بذهنه وسَهَم، ولم أملك أن أقطع عليه صمته، عدا صوت خفيف للعصا عندما تقع على الطّريق وترسم في مسالكه الكثيرة أثرا طفيفا لا يطول أن يزول من أثر المارّين، ثمّ يتناهى إلى أسماعنا حديث عن الدّنانير والدّراهم، والقوافل الذّاهبة والقادمة، التي أقلعت والتي لم تقلع، وتحت أيّ خفارة كانت أو ستكون، وبضائع الشّام واليمن، وسوق الماشيّة والعاهرات من الرّقيق الأبيض أو الأسود، والسّيوف

البُصريّة والرّماح، ومذاق جعة الشّعير، وما جلبته السّيّول الأخيرة وما أفسدته، وحبوب حوران، وسكّرها... وزيتها... أحاديث طويلة لا تنتهي يخوض فيها النّاس ويلِجّون وتعلو أصواتهم، وهو ساهم طيلة الدّرب، إلى أن فاجأتنا عند المنعطف قهقهات مخمورة وأغانٍ بذيئة، عدّلتُ هندامي، واستدرتُ بوجهي عن سيّدي وحككتُ قفاي. قطع سيّدي هذا الحرج، وقطع معه صمتنا:

- هل من جديد منذ صباح الغار؟

-.... لا أدري يا سيّدي!

أتريد أن أستعلم الأمر؟

لم يجبني أيضا، عاد إلى شروده، ولم أقو على إعادة السّؤال عليه.

واصلنا اجتياز الدّرب إلى أن وصلنا إلى إساف ونائلة، هناك ثابتْ إليه نفسه. لمسهما، رجل وامرأة فَجَرا في جوف الكعبة فمُسخا، لذا وضعا هنا ليتعظ النّاس بهما، ولمّا طال الزّمن صار النّاس يتعبّدون بهما.

ضحك سيّدي ضحكة لم أرها على وجهه منذ فترة، وبَدونا كأنّما نحن هنا لوحدهما في كلّ ذاك الضّجيج، شيخ ضرير وشابّ فلورنسيّ يتبعه على درب من دروب مكّة.

- هذه يا خانوم ساعة الكشف عندي، فساعة اللّيل تستوي عند فاقد للبصر مع أيّ ساعة من ساعات النّهار، وأحبّ أن أسمع أخبار هذه القرية ليلا، فاللّيل كاشف للأسرار لمنصتٍ مثلي.

كثيرة هي الخمارات التي تظلّ مفتوحة إلى آخر اللّيل في هذه البلدة، منتشرة في أحياء قريبة أو بعيدة على مرأى من البيت العتيق. الميسر والقيان وخمور بصرى هي أكثر ما يطلب، بينما تظلّ البيوت مغلقة على بؤسها، بيوت الأسياد الذين ترتفع أصواتهم، وصرخة قويّة ما تفتأ تهمد، ولا تسمع إلاّ أنّات من خلف الأبواب.

بلدة النّبذ... أصرّ على أن أسمّيها، وهذه السّاعة المتأخرة شبيهة بساعة هروبي مع زيد... أراها بأمّ قلبي تخفي نبذا أشدّ لفتاها الهاشميّ الذي سينقذها من حجريّتها وعبوديّتها وهمومها، فالسيّد اليسوع نُبذ أيضا وعُودي وصُلب...

وموسى الكليم

وإبراهيم...

جرْح المسيح ماثل فينا، مصلوبون في هذه الحياة، صلبه يتجدّد عند كلّ مسيحيّ.

تأمّل صمت البلدة الحجريّة، كأنّما تبوح له بأسرارها ليلا وتشتكي. لماذا ذكرتُ زيدا من بين كلّ الذين ماتوا لأجل هذه البلدة ومن أبنائها الذين جُلدوا وماتوا عطشى ومن بناتها اللاّتي وُئدن... ألأنّه صديقي ورفيق دربي، أكيد أنّه ليس الوحيد. تساءلت أتستحق أن يموت لأجلها ليعود إليها بالنّهج، أتستحق كلّ اغترابه وحياته ودمه الذي أُريق، أتستحقّ أم أنّها لاهية ما من أمل في أن تتغيّر، راكنة إلى عادات الآباء والأجداد؟

تنهّد تنهيدة طويلة:

أتراها ستذكره يوما، وتعترف له بالجميل، لأجل ما أراد من كسر الأغلال ليعيش أهلها وأبناؤها في غير ما عاشه. أتراه مازال في ذاكرتها، أم أنّها نسته كما نست السّابقين؟ لقد ارتضى الهجرة وترك رغد العيش حتّى يكون حرّا، ولم يقبل أن يُحجر عليه، إلى أن دُفن وحيدا في الطّريق في ممرّ القوافل، لفظته هذه البلدة الحجريّة في حياته ومماته.

ناضل من أجل حرية ما يعبد، ولمّا أُوذي رحل ليبحث عن الطّريق الصّحيح ليكون حرّا. طريق الحرية هو طريق الاغتراب، وهو ما أوصله إلى الموت وحيدا مطعونا.

سكت... وإنّي اليوم أخشى على محمّد.

أريد أن ألقى خديجة لأسألها إن عاوده جبريل وماذا قال له بعد أن أمره بالقراءة، هل من أمر آخر؟

- انتظرني يا سيّدي سأستطلع الأمر بنفسي حتّى لا يشعر بنا أحد في هذا اللّيل وتعلم قريش.

غبت فترة ولمّا عدتُ وجدته لم يتزحزح من مكانه، وما إن اقتربت وسمع صوتي حتّى أمسك بطرف ثوبي بلهفة. هل من أخبار؟ محمّد قلق وحزين. لم يا خانوم؟ لم يعد إليه كاتم السرّ، عاد إلى الجبل لكنّه لم يسمع الصّوت الذي ناداه وأمره بالقراءة.

وجم القسّ وأخذ في تفكير طويل، اتّكأ قرب مجلس عبد المطلب، وجال في ذهنه بدايات اتّصال المسيح بالسّماء، وراح يقلّب الأمر على

أوجهه، ويذكر بداية الوحي عند المسيح وموسى والتّهيئة الإلهيّة لهما، ثمّ هدأ وابتسم.

وبينما هو يخطو خطواته الأخيرة في الطّواف بالبيت العتيق التفت إلى صوت الرّبابة الحزين وهتافات الجمع الذي يلتفّ حولها، فعَبَر بيتُ شعر إلى مسمعه:

ولي دونكُم أهلُونَ سِيدٌ عملَّسُ   وأرقطُ زهلولٌ وعرفاءُ جيألُ

وأنصت برهة لقصص الغول والجنّ التي كانت تروى في جمع آخر.

- صوّب سيفُ بن ذي يزن نباله على جيش الأحباش وهو يتوعّد أن يصيب ملكهم فلا تقوم لهم قائمة قبل المعركة. وفعلا أصاب رأس الملك مسروق ودمّرت معنويات جيشه وانتصر سيف واتجه مع القائد وَهْرز إلى مدينة صنعاء، لامست راياتهما سور مدخل المدينة بل عَلَتْها. قال: راياتنا لا تنكّس سنهدم السّور وهدّمه حقّا، وفعلا استعاد سيف بن ذي يزن مُلْك اليمن.

- أهو سيف ابن الملك اليمني والجارية قمرية التي أرادت أن تقتله ورمته بالصحراء فرضع من غزالة وخطفته أمّ عاقصة الجنية فأرضعته وربّته إلى أن كبر وعلم أنّه ابن ملك واستطاع أن يستردّ اليمن ويطرد الأحباش.

همهم القسّ وبصره إلى السّماء ثمّ اتكأ على حافة أحد الدّكاكين وهو يلهث:

- لنعد يكفي هذه اللّيلة....

شعر بالتّعب فجأة، ولم يعد بمقدوره قطع حتّى تلك المسافة الصّغيرة من بيته إلى الكعبة بعد أن كان يجوب الصّحراء.

***

ارتشف شراب السَّويق السّاخن، وما إن سرى في معدته حتّى انعكس على عينيه اللّتين أشرقتا، وعلى سحنته التي علتها صفرة وبهوتٌ مخيف في الأيّام الأخيرة، عاد إليه نور وجهه بعد أن شعر بالدّفء، ارتفع بظهره قليلا بعد أن أعانه كاتبه واضعا الوسادة خلفه. أتمّ صلاته دون أن يتحرّك من فراشه، وراح يلتفت يمينا وشمالا كأنّما ينظر إلى ما يقابله من أثاث بعيني قلبه، ثمّ عاد إلى كتاب التّاسوعات حيث تلمّس ضفيرة ورق النّخيل التي كانت في الصّفحة التي في أعلاها التّاسوع الخامس لأفلوطين" النّفس التي لا تضاء بضوئه تظل بغير رؤية".

ابتسم وهو يروي لي عن أوّل لقاء له مع الكتاب فتدفّق كنهر جار، وهو يمسك بالصّليب الذي على صدره، وينظر إليه ويكلّمه كمن يُشهده... ولمّا أتمّ انتهزتُ الفرصة فغبتُ قليلا ثمّ أتيته بشيء ملفوف في قطعة قماش أبيض، كشفت عنه ثمّ وضعته بين يديه:

- هذه هدية لك سيّدي، قضيت أيّاما طويلة أحضّرها لك.

- ما هذا؟

- هذه أيقونة العذراء.

تحسّس الحجر الصّلب الذي بين يديه، ناعم وجيّد الصّقل.

- نسخة مصغّرة من تمثال السيّدة العذراء والسيّد المسيح الذي في جوف الكعبة.

صمت وانكمش وجهه وضغط على عينيه كأنّما يكابد شيئا، ثمّ سقطت منهما دمعة.

- قصدت إسعادك سيّدي.

- لا عليك يا خانوم تعايشت مع انطفاء بصري، وقد وهبني الربّ البصيرة... الضّرير هو ضرير الروح، ولكنّي وددت لو رأيت للمرّة الأخيرة طهر العذراء وطمأنينتها وهي تنظر إلى ولدها.

ما أجمل طمأنينتها، استثنائيّة!جسم صقيل، ناعم من حجر أملس. ضرب بأصابعه ليعرف مادته. يبدو جيّد الصّقل.

- من مروة بيضاء. حرفة والدي المتوفى... رأيت حبّك لتمثال السيّدة العذراء في جوف الكعبة فأردت أن أسعدك.

تلمّسها بكلتا يديه بعد أن أفلت عصا الآراك، وهو يدعو:

- ليحفظك الربّ.

مرّرها بين كتفيه وجبهته راسما الصّليب ثمّ وضعها قرب سريره.

بدا على وجهه تعب وحزن.

- لا أعتقد أنّي سأستطيع الخروج للطّواف اللّيالي اللاّحقة. بدت لي العودة إلى الدّار طويلة وشاقّة، بجسدي ضعف وفي رأسي صداع لا يُحتمل، لا أرغب إلاّ في أن أتمدّد على الفراش.

-سأدعو عروة الحكيم يا سيّدي.

- لم يعد لذلك حاجة. لقد تأخّر الوقت، دع ذلك للصّباح، أريد أن أخلد إلى النّوم.

أعانه على أن يستلقي على سريره، ثمّ سحب على كامل جسده غطاء رقيقا وهو يحدّثه:

- كان يومك مرهقا يا سيّدي....

راحت أنفاسه تتقطّع وهو يتلو ما يحفظه من الإنجيل، ويذكر محمّدا إلى أن نام، فبدا كطفل غير ملتفت إلى هذا العالم.

وما إن تسرّب ضوء الصّباح من شقوق الباب حتّى سمع طرقا خفيفا.

- عروة الحكيم بالباب يا سيّدي، هل أسمح له بالدّخول؟

لم أغادر غرفته بعد أن استأذنتُ زوجته في البقاء إلى جانبه إلى وقت متأخّر من اللّيل متكئا على الدّكّة الخشبيّة.

- يا بنيّ، إذا مرضت فلا تتهاون، بل صَلِّ إلى الربّ فهو يشفيك، هكذا أوصى يشوع في سِفْره.

أذكر قبل سنوات، كيف حاولتَ معالجة انطفاء عينيّ، لكنّك فشلت، غلبك الدّهر.

- سيّدي لا تتعب نفسك بالحديث.

- لديّ كلّ الوقت لأرتاح، لعلّ القبر يكون منيرا بعد أن أظلمت عيناي.

جهّز له عروة شراب الثّوم الطارد للسّموم، وخلط خلطة أعشاب مهدئة نقعها في الماء المغليّ وسقاه جرعتين، ووضع الباقي في قنينة،

وأوصى بأخرى عند الغداء وثالثة قبل النّوم لألم المفاصل، والقسّ الضرير يكرّر دون توقّف ملحّا:

- لا تشغل بالك بمداواتي.

ولمّا انصرف الحكيم قال لي:

- تعايشت مع عماي وانطفاء بصري، عندما ينطفئ البصر يهبك الربّ البصيرة. والآن هذا الألم في الرّأس وكلّ مفصل من مفاصلي والوهن الذي أشعر به. أستطيع أن أصبر على هذا الألم، ولكنّ ألم الرّوح لا يُحتمل، أخشى على محمّد.

ليتني فيها جذع أخبو فيها وأضع

تنهّد بعمق:

- لو أستطيع أن أؤازره...

- اعذرني يا سيّدي لي اقتراح وأمنية إن سمحت لي.

-تفضّل يا خانوم.

- لم لا تبعث إلى أصدقائك من الرّهبان والقساوسة، ممّن تثق بهم لتُعْلمهم ببعث محمّد المخلّص، فيسوع قد بشر به، أكيد أنّهم سيؤيّدونه ويؤمنون به.

- فعلا، كيف لم يخطر ببالي هذا الأمر؟!

من تراني أرسل له ويستحقّ ثقتي؟

- اسمح لي يا سيّدي أن أقترح عليك.

- تكلّم يا خانوم، أنت تعلم أنّك بمثابة ابني.

- ألم تقل أنّ صديقا لك في نصيبين يظهر التّثليث ويضمر خلافه.

- أجل صديقي توما البطريرك بكنيسة نصيبين.

- لم لا ترسل رسالة له تخبره ببعث أحمد، هو يعلم أن أوانه قد حان، وسيلقى دعمه ودعم كثير من رهبان الكنيسة، وتعرف علاقاته ببقيّة الأديرة وتُوصيه أن ينتبه من يهود فهم يريدون إيذاءه.. وأرى إن سمح سيّدي أن تبعث برسالة أخرى لراهب البلقاء تُعلمه بأنّ المنتظر قد بُعث.

قرأت في "مُنية الخائف" مشاهدات صديقك زيد بن عمرو بن نفيل عنه عندما لقيه في ميفعة. كان متعطّشا للمخلّص، وما لفت انتباهي فيما دوّنه تأثيره الملفت على كثير من النّاس الذين يزورون صومعته ويسألونه سكينة الرّوح، ولا تنسى مكانه من مرور القوافل.

- أترى ذلك...؟

- نعم.

- كيف لم يخطر ببالي هذا الأمر؟!

- أتعلم يا سيّدي أنّي كتبت ما قصصته عليّ، لم أنم هذا الأسبوع إلاّ بضع سويعات، حفر كلامك في عقلي وصدري، وعندما خلوت في غرفتي لم أستطع النّوم إلاّ بعد أن نقلت قصّة الفتى، ثمّ بيّضتها اللّيالي الماضيّة.

-أحقّا ما قلته يا خانوم، أحقّا فعلت؟!

تغيّرت ملامح وجهه، سقطت دمعة من عينيه، بكى، مسحها وفرك عينيه.

- نقلت ما رويته لك عن محمّد.. لن أرغب في أكثر من ذلك. حلمت أن أؤازره، وأن أكون شابّا، لكنّك ستفعل ذلك عوضا عنّي، فأنت ابني الذي لم أُرزقه.

- أقترح عليك سيّدي قبل ذلك أن ترفق الرّسالتين بما أكتبه عن حياته، وأن تتمّ عليّ بقيّة سيرته لأشفعهما بها.

- كيف لم أفكّر في ذلك!

- لكن بعد أن ترتاح اليوم

- أترى ذلك يا خانوم؟

- أكيد أنّ الرّسالتين ستغيّران الكثير، لكنّك تبدو الآن متعبا، لا ترهق نفسك يا سيّدي.

أتركك لتستريح.

وما إن أطلّت شمس مكّة على الجبال والوهاد حتّى كان ورقة متهيّأ ليتمّ ما بدأه، جالسا بالقرب من الطّاولة وهو يمسك بعصا الآراك.

فتح عينيه المظلمتين ورفع بصره إلى السّماء كأنّما يرى شيئا لا يراه غيره، بعد أن شرب شرابا مهدّئا وصفه له عروة الحكيم، اعتدل بعده مزاجه وسكنت أوجاعه التي جرّها عليه الكبر، وراح يتحدّث عن فتى مكّة دون أن يتوقّف. كانت المحبّة تملأ عينيه، ويشع لها وجهه.

كان كلّما تعب من جلوسه، نهض لعلّ ألم مفاصله يتوقّف، بدا اليوم كأنّما ضُخّ فيه نفَس جديد، مشى في الغرفة من أقصاها إلى أقصاها حتّى يتوقّف دبيب النّمل في قدميه، ثمّ عاد إلى الجلوس واتّكأ

على وسادة الوبر، وأفسح للكلمات طريقا لم تتوقّف حتّى ساعة متأخّرة.

كنت أراها تنساب من شفتيه كلحن عذب خالد إلى أن أغمض عينيه في شبه تمتمة لا أدري إن كان فحواها كما سمعت أم كنت واهما:

- عندما نحكي عمّن نحب لا نشعر بالوقت، ونعطي كلّ ما فينا دون مقابل.

***

المسار الخامس: رُزقتُ حبّها

-1-

حُباشة... الأرض السّوداء العامرة بالبرود الموشّاة، والمخطّط والمسهّم، والمعاجر اليمنيّة، والرّقيق... الكثير من الرّقيق، حباشة أرض الملح الذي يُذكر به أهل بارق. كلّ فلاحي وتجّار قرى وبوادي بارق تجتمع هنا ثلاثة أيّام ثمّ ينفضّ السّوق، شهر رجب الأصمّ الذي لا يُسمع فيه صوت السّيوف، آمن وهادئ، ولكنّه رغم ذلك شهر بارد، صعب حتّى على سير الدّواب، التي تمتنع عن التّقدّم فتُدفع من خلف. الدّواب ضامرة البطون، متيبّسة قوائمها، حتّى الوديان والعروق تكاد تجفّ.

أواسط الشّتاء... الرّياح باردة، والنّباتات تتطاير بفعل ما تثيره من غبار يمنع القافلة من الرّؤية، النّوق والجياد منهكة لا بدّ من أن نستريح هنا عند نبع الماء، جلس أرضا ليأكل شيئا بعد أن أراحها من حمولتها. يبدو أنّ المطر سيهلّ، وأن الفرج سيحلّ بعد أن جمدت السّماء الشّهرين الماضيّين، يكاد يدخل الموسم الأخير من الشّتاء ولم تسقط ولا قطرة واحدة.

على حواف الوديان حشائش تقاوم، تبدو صفراء يابسة لقلّة المطر، الدّواب لم تشبع بما فيه الكفاية، والماء شحيح حتّى في هذا المكان، يخشون عليها أن تنفق.

أخيرا أوّل القطرات... التفت إلى السّماء، رفع رأسه، تبلّلت شفتاه، لعقها بلسانه. أيّ بهجة يتركها رذاذ المطر في نفس من يجوب الصّحراء، أيّ شيء يشبه المطر؟! فجر الرّبيع على الأبواب وعطاياه

تتساقط من سماء منعشة بعد انحباس أشهر، أيّ عشق للمطر يكنّه البدويّ في شغاف القلب؟! رفعوا رؤوسهم إليه ليتغلغل فيهم، ويحتفر في الذّاكرة. كم يعرّينا المطر، ويكشف ضآلتنا أمامه! أيّ رجل صحراء ليس ضعيفا أمام المطر! لو يبلغ العظم... لو يمتدّ بنا الطّريق في الصّحراء بحضوره لما مانعوا، غريب هذا الشّعور بالبهجة والأمان في حضرة المطر.

سوق حباشة أكبر أسواق تهامة جهة اليمن حيث يجتمع بساحتها باعة الملح، وعدد غفير من الأجناس، ميدانها عامر بأنواع الثّياب، وأصوات الشّعراء التي تعلو بالفخر، حتّى فداء الأسرى وطلب الثّأر يتمّ في حلبتها.. وتعرض فيها من قرى وبوادي بارق أجود محاصيلهم، الحبوب والعسل والسّمن، وخمر هجر والعراق، وصلت الآن باكرا الحمير والبغال حاملة أحجار الملح الثّقيلة لتقايضها ببعض الحبوب.

من هناك مرّت قوافل كثيرة، ترى كم قافلة عبرت ذاك الطّريق في رحلة الشّتاء إلى اليمن لشراء الأثاث والأمتعة والرّقيق؟ ومحمّد أحد العابرين من هناك، كغيره من شباب قريش المشتغلين بالتّجارة، فهي مورد رزقهم وفرصة رؤيتهم لقبائل أخرى واحتكاكهم بأشخاص خارج مكّة. ولكنّه في الحقيقة يا عمّتي ليس كغيره، مختلف هذا الشابّ.

أحقّا يا حكيم!

رأيته برفقة الرّجل الذي استأجرته يا عمّة يختاران أجود الأمتعة بالجَنَد التي تغري سيّدات قريش لتزيين مخادعهنّ وغرف الاستقبال،

فتزيدهنّ وجاهة وتباهيا بين نظرائهنّ أو من دونهنّ غنى، ثمّ رأيتهما يعودان بعد أن أتمّا الأيّام الثلاثة وأنهيا شراءهما إلى مكّة محمّلين.

- ماذا رأيت منه أيضا يا حكيم؟ حدّثني.

***

وقفت بركة تنفخ في الشّعير وتطيّره حتّى تنزع شوائبه دون أن تسقط شيئا فخبرة سنوات الجارية تظهر في أعمال كهذه، ثمّ أخذت منه قدر صاع وأعادت القليل الذي تبقّى، وتربّعت على الأرض أمام القصعة، وراحت تسكب عليه الماء شيئا فشيئا، ولمّا اجتمع بين يديها حتى صار عجينا متماسكا دعكته قليلا وجمعته، ثمّ شرعت في خبزه في سرعة كبيرة وسعادة وهي تحدّث سيّدتها وابتسامتها تملأ وجهها ذا الملامح الحبشيّة:

- كأنّ الشّمس تجري في وجه محمّد، يا لشبابه الهادئ.

كان وجه بركة مضاء بالفرح اللاّمحدود، عيناها تسعدان له، لا تشعر بتعب عندما يتعلّق الأمر بأداء عمل لأجل محمّد. اطلبْ وتدلّلْ... يا عيني وشمسي وقمري، يا بهجتي سأبذل كلّ مهجتي لأجلك، اطلب ولا تتردّد.... أنت الوطن والسّكن، أنت من أحيا لأجله. رغم أنّ عينيها كانتا دمعتين من دخان الحطب وهي تشعل النّار، عندما نحبّ أحدا نرى بعينيه، ولا نرى عيوبه، ولكنّ محمّدا مختلف ليس كبقيّة أقرانه ولا أولاد عمّه، رقيق كغيمة، وصاف كقطرة ماء، وإذا ما حان

الجدّ رجل يَحارُ في سداد رأيه الشّيوخ. وضعت الكسرة لتنضج على النّار دون أن تتوقّف عن حديثها عنه إلى فاطمة زوجة عمّه:

- أراه دائم الصّمت وإذا ما أكثرت عليه بثرثرتي نظر إليّ وابتسم. شمسٌ وجهه... طالما قلت له فقط اتركني يا ولدي أنظر إليك.

- أعرف ذلك يا بركة فقد نشأ في بيتي، ولكنّك تحبين الحديث عنه ولا تملّين من مدحه وتعداد خصاله.

دخل طالب وسمعها تهيم به كعادتها، وتفخر بتربيتها له، وبما صار عليه، فهي من تكفّلت به بعد موت أمّه ثمّ جدّه، وكثيرا ما نيّمته في حضنها إلى أن صار رجلا، فجلس ينتظر قطعة من خبز الشّعير ليستوي فيلتهم منها جزءا ويحمل الباقي إلى محمّد الذي يحضّر نفسه ليخرج لرحلة الشّام مع القافلة في عير الأرملة التّاجرة التي تكاد تبلغ عيرها عير قريش كلّها...

- وإذا مشينا معه فإنّا نجهد أنفسنا، وإنّه غير مكترث.

كأنّما اهتزت بركة طربا وهي تدعو له:

- لتبارك السّماء ابني... منذ صغره وهو يشبّ شبابا لا يشبّه الغلمان في مثل سنّه، ويصحو مشرق الوجه. ألم أقل لك إنّ الشّمس تجري في وجهه حقّا.

دخل أبو طالب فشاركهم في الحديث وقد أعجبه اجتماعهم على النّار:

- إنّ مكّة كلّها لا تدعوه إلاّ الأمين، أمين في رعيه، وفي تجارته. شريكه السّائب بن السّائب شهد بأمانته وصدقه، وكذلك قال ابني محمّد

عن السّائب إنّه لا يماري ولا يداري... جمعتهم أيّام حلوة في الأسواق، والسّفرُ خير محكّ لمعرفة معادن البشر.

... كأنّ رعي الغنم جعله فتى مختلفا، تغيّر منذ أن التحق بأجياد، كأنّما أكسبه يومه مع الغنم سكينة وألبسه وقارا، ولم يعد الغلام الصّغير الذي كانه قبل سنوات... واشتغاله بالتّجارة جعله يخالط أقواما كثُرا، ويتعلّم منهم. يعرف الصّادق والكاذب، المحتال وصافي السّريرة، عرّفته التّجارة بمعادن النّاس من نظراتهم وسيماهم بعد أن خرج من مكّة وعرف النّاس وخالطهم.

- منذ أن كان في الثّامنة يعرف حال عمّه وكثرة عيالنا، فيأبى أن يكون عالة على أحد، أراد أن يشتغل ويكسب قوته بعرقه. أتذكر يا عبد مناف يوم سألك أن تسمح له بالخروج إلى المرعى؟

- وكيف لا أذكر يا بنت أسد الفتى اليتيم الذي صار اليوم شابّا تاجرا، أرسلته خديجة بتجارة صغيرة إلى اليمن تختبر بها مهارته بعد أن سمعت عن أخلاقه وصدقه ونزاهته، وبعد ما ذكره لها ابن أخيها حكيم بن حزام بخير، ذاك الرّجل اللّبيب النّبيل حين اشترى منه بزّا من سوق حباشة. منذ ذلك الحين زادت ثقتها به، وهي اليوم ترسله بمالها وتجارتها كلّها إلى الشّام.

دخل محمّد بعد أن تأهّب للخروج ولم يبق إلاّ الشّيء القليل ليتفقّده فسأله طالب:

- ماذا أعطتك بنت خويلد على تجارتك لها في سوق حباشة، ستّة أيّام ذهابا وأخرى إيّابا وشراء لما ترغب فيه من أجود الثّياب ومتاع البيت بسعر لم تكن لتحلم به؟

- **آجرتُ نفسي من خديجة سفرتين بقلوصين.**

- لخديجة إبل نجيبات وخير كثير، أكاد أقول المراعي كلّها لها، هنيئا لك.

- **ما رأيت من صاحبة لأجير خيرا من خديجة ما كنّا نرجع أنا وصاحبي إلاّ وجدنا عندها تحفة من طعام تخبّئه لنا.**

- ما أكرمها من امرأة، سيّدة نساء قريش.

وجهه فجر ربيع، فيه شيء من إشراق الزّهريّين ووسامة بني عبد مناف وفخامتهم، ولكنّه أكثر نورانيّة وصفاء وإدهاشا.

- جاءني حكيم وحدثني عن ابن أخي، رأى منه مالم يره من شيوخ قريش وأرجحهم عقلا، قال لقد ربحت عمّتي على يديه ربحا عظيما لم يبلغه أجير لها قبل اليوم. علت رقبتي في مجلس شيوخ قريش لهذا الخبر والله يا فاطمة، فهو تاجر من نسل تاجر، وشعرت بفخري بابن أخي ورفعت هامتي ككلّ مرّة يُذكر فيها هذا الصّبيّ!

- ألا زلت تراه صبيّا يا أبا طالب، ها هو أمامك شابّ قويّ في الخامسة والعشرين، وتقول صبيّ، سيخرج بمفرده دونك إلى الشّام!

- ومع ذلك سأوصي الرّكب به، فأنا أخشى عليه من مشاقّ الطّريق وما يمكن أن يحمله، ويؤرّقني هاجس موت أكثر من فرد من عائلتنا عند خروج القوافل، آخرهم أخي عبد الله.

- ما تصوّرت أنّ محمّدا يوفّق في تجارته لخديجة كلّ هذا التّوفيق.

- إنّ ابن أخي مبارك. يوم حدّثتكَ عن فاقتنا وعن السّنين المجدبة التي ألّمت بنا، وليس لنا مال ولا تجارة بعد أن لم أعد أقوى عليها، ونصحت لك أن تأتي خديجة فتكلّمها لعلّها ترسلك كما اعتادت أن تبعث رجالا في عيراتها ليتجروا لها في مالها مقابل أجر تضربه لهم، وستسرع إليك وتفضّلك على غيرك لما بلغها من طهارتك وصدقك وأمانتك.

أتذكر يومها ما قلته لي؟ هزّ محمّد رأسه بالإيجاب:

- **قلت: فلعلّها ترسل إليّ في ذلك.**

- ولكن خشيتي كانت كبيرة أن تُولّي غيرك.

وافترقنا، وما هي إلاّ أيام حتّى بعثت السيّدة خديجة إليك تطلبك لتجارتها وتجزل لك العطاء بعد أن بلغتها أمانتك وكرم أخلاقك، وأبليت بلاء حسنا في سوق حباشة، أتعلمين يا فاطمة ما قالته يومها له الكريمةُ ابنة الأكرمين؟ كانت سخيّة معه قالت:

-... **و أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلا من قومك.**

أسرعتَ إليّ تبشّرني بطلبها، فلم أشعر بقدميّ إلاّ وهما يحملاني إلى البيت العتيق، طفت شاكرا.

إنّه لرزق ساقته الآلهة إليك.

أذكر إشراقة وجهك بعد الفاقة التي ألّمت بنا، وهاك اليوم تستعدّ لتخرج في قافلة الشّام تستأمنك على مالها وتجارتها.

أسرعت بركة وهي تحمل ما كانت تحضّره وتمتلئ عيناها بالدّموع:

- أتممت... هذه زوّادة طعامك، لعلّها تعينك على الطّريق، اعتن بنفسك يا ولدي.

عاد الأهل إلى منازلهم بعد أن ودّعوا الخارجين في القافلة التي طافت بالكعبة تنال بركتها قبل الخروج ككلّ موسم، وعمّ الهدوء مرّة أخرى.

- ألا تزالين متسمّرة في مكانك يا بركة؟

- أجل يا سيّدتي، أفكّر في محمّد، أين يا ترى تكون العير؟

- الآن خرجوا! ماذا دهاك، كيف ستصبرين على غيابه؟!

- كنتُ في صباه أنهض باكرا مع صوت الدّيَكة أتملّى من إشراق وجهه وهو نائم، وعندما يستيقظ يجدني قربه، أساعده في أن يتجهّز، ثمّ أصحبه إلى عتبة الدّار وأتبعه بعيني وهو يدقّ البيوت بيتا بيتا لتخرج الشّياه فيصحبها للمرعى، والآن كبر وصار شابّا يسافر إلى الشّام ويغيب عنّي كلّ هذه المدّة.

غابت بركة في غطائها وقد تغيّر صوتها.

- لا تقولي إنّك تبكين، ما أغزر دموعك! عليك أن تفرحي لا أن تبكي يا بركة.

-2-

رجولة أنضجها السّفر على مهل، وتحمّل المسؤوليّة والبيع والشّراء، والتّفتح على غير أمّ القرى، على أجناس كُثُرٍ مختلفين عنه بقدر اختلاف سِحنهم، سفرة أو سفرتين إلى حُباشة وواحدة بعد سفره مع عمّه إلى الشّام وأسواقها المكتظة بكلّ شيء، عَرقٌ ورائحة روثٍ وصهيلُ أفراسٍ وجعجعة إبل، ووجوه متعبة وغريبة، وأكوام بشريّة حول بخور وتوابل هنديّة تتضوّع رائحتها الحادّة كلّما وزنَ لأحدهم أو عاينَ تاجرٌ البضاعة.

سوق بصرى سوق الخمور والسّيوف المشرفيّة التي يعتني بتدقيق صناعتها حدّادون مهرة على مشارف الشّام، مدينة تجمع بين ضدّين، تمدّ المحاربين بالسّيوف واللاّهين بالخمر المعتّقة. السّوق فسيفساء من مُرتاديها، الأسمرُ والأبيض والأحمر والأصفر والأسود... النّزيه والغشّاش والكريم واللّئيم، فسيفساء من الألوان والألسنة والرّوائح والرّغبات والمطامع... باعوا واشتروا فيما يزيد عن عشرين يوما من ذي الحجة، أطول إقامة لهم في الأسواق بعيدا عن مكّة، لكنّ الأمر يستحقّ العناء، فقد عادت الإبل مثقلة بالبضائع، وغلام السيّدة خديجة لا يصدّق الربح الذي جَنوه من هذا السّفر.

يعرف ميسرةُ، موضعُ ثقة السيّدة وعينُها على الأُجراء، كلَّ شبر من الطّريق الشّماليّ كما يعرف جسده الأسود تماما، يدرك حيث تسيل المياه الباردة ومنابع الغدران، وأين تشحّ، وأين ينبت السّدر والسُّماق، ومضارب الكمأة الحمراء والسّوداء التي يأكلونها إذا ما نضب

طعامهم، ويعلم أين يبدأ طريق الحرير وأين ينتهي، وحدود طريق البخور، وأين تُستبدل الإبل بنوق أقوى، ومتى الاستراحة ومتى الإقلاع، يحفظها عن ظهر غيب، ذاك منذ سنوات وهو يخدم سيّدته بحبّ وتفانٍ.

تبدو المَهريتان اللّتان تصحبانه على غير ما يرام منذ يومين، قال له حادي إبل السيّدة وهو ينتقيهما له قبل ثلاث سنوات لأجل مثل هذه الأسفار هما مهريتان وحشيتان من نسل إبل الجنّ. هذا ما يشيع عن هذه السّلالة التي سرعتها سرعة البرق، ولا يدركها التّعب وتخفي في ظهرها ثروة من الماء، فلا تعطش ولا تجوع، وهذا ما اعتقده ميسرة بما خبره عن قدرتهما على التّحمّل طيلة هذه المدّة. وقال شيخ بني أسد هي من بلاد حوش، بلاد الجنّ من وراء رمل يبرين، ويزعم أنّ زواج السّلالتين نتجت عنه النّجائب المهريّة التي ينتمي إليها الأصهب والبيضاء.

ولكنّ ما أصابهما البارحة جعله يفكّر في كلام شيخ بني أسد، باله مشغول عليهما، قدّم للأصهب ما يأكله ولكنّه لم يتحرّك وتمدّد إلى جانب المهريّة البيضاء التي لم تفارقه أبدا. يبدو له لون جلده متغيّرا... دفعهما ليقفا، ويعلم أنّهما سارا إكراما لخاطره وهما الآن غير قادرين على مواصلة الطّريق، بدأ وبر المهريّة يتساقط في أسفل قائمتها، صار يدفعهما من خلف ويراقب قلّة طعامهما إلى أن انقطعا تماما، فمنذ البارحة لم يدخل جوفهما مضغة عشب. ماذا سأفعل دونهما؟! فلولا هذه الإبل لما استطعنا أن نمتطي ظهر الصّحراء.

انتظَروا هذه المرّة حلول الظلام لينطلقوا، فالسّير ليلا بمعيّة النّجوم في أشدّ أيّام السّنة التهابا يسهّل الأمر، سيعبرون المنطقة في نسيم اللّيل. يعرف ميسرة هذه المفاوز جيّدا، وسيبلغون إن ساروا على هذا النّحو وحافظوا على هذه الوتيرة أكثر من منتصف الطريق بعد أن خرجوا من البوابة وتمّت لهم الصّفقة، وملأوا الجيوب بالنّقود وظهور الإبل ببضاعة جديدة تساوي ذهبا في مكّة.

تفقّدهما بعد الاستراحة، وجه البيضاء شاحب وإلى جانبها الأصهب كشبح كأنّما انتشرت العدوى بينهما أو كأنّما هما في جسد واحد، لم يحتمل أن يرى أحدهما الآخر على هذه الحال، البيضاء هي من خارت قواها أوّلا ثمّ لحقها الأصهب. يكادان ينفقان بعد مرور بضع ساعات من انطلاق رحلتنا، لن أستطيع أن أكون مع الموكب. تخلّف معهما دون أن يخبر محمّدا وهو يخشى أن يفقدهما.

***

تذكّر الشّاب القرشيّ في رحلته الثّانية إلى الشّام أوّل انبهاره بأسواقها وصخبها الذي يختلف عن مكّة، وشدّة نظامها والجنود الرّومان الذين كانوا يقفون عند كلّ مدخل يراقبون من يدخل ويخرج، ويجمعون الجباية، وحديث الرّاهب ووليمته ومختلف أطباق بصرى التي لم يتناول مثلها.

قابل هذه المرّة راهبا آخر يدعى نسطورا، أكثرَ من السّؤال عن أشياء تخصّه، ثمّ راح يوشوش إلى ميسرة الذي صار يرمقه منذ تلك اللّحظة

بطريقة مختلفة عمّا كان عليه قبلا طيلة طريق العودة، كأنّه يلتقيه للمرّة الأولى.

استعاد في طريق عودتهم أسئلة الرّاهب ونظراته، ولم ينتبه لغياب غلام السّيّدة خديجة. نظر خلفه فلم يجد له أثرا، وبينما هو في حيرته إذ جاءه صوت عن يمينه:

- تبحث عن ميسرة... رأيته يتخلّف مع بعيريه.

رئيس الخفراء الذي يقوم على المقدّمة يلحظ كلّ شيء، ولا تغيب عن عينيه شاردة ولا واردة، وما إن التفت محمّد حتّى وجد الغلام قادما إليه يلهث، وعلى وجهه الذي أحرقته الشّمس الملتهبة قلق وخوف شديدان.

- البعيران تعبا ولم يستطيعا إكمال السّير، أخشى أن لا نقدر على إتمام الرّحلة مع الرّكب.

انطلق محمّد معه إلى حيث تركهما، كانا منبطحين على الأرض، يرفعان رقبتيهما بين الحين والآخر كمن يتوسّلان أن يفعل لهما شيء وإلاّ سينفقان، سيلقيان حتفهما إذا طال بهما هذا الحال. نزل عن دابته واقترب منهما وراح يمسّد على أخفافهما، ويحدّثهما فزاد أنينهما كأنّما يشكوان له. أتراه تثقَّبَ خفّهما فأصيبا في أظلافهما؟ لا لا الخفّ على ما يرام.. لعلّ العلّة داخليّة.

مسّد على رأسهما وناولهما بلحتين وشربة ماء في خفّه، وما هو إلاّ وقت قصير حتّى عادت إليهما عافيتهما. ساعدهما ميسرة على النّهوض فمشيا ببطء كأنّما يمشيان للمرّة الأولى، لم يصدّق ميسرة، رقص

فرحا ولم يدر كيف يشكره، ولم ينته اليوم حتّى التحقا بالعير وسُمع رغاؤهما.

كان ميسرة طيلة الطّريق يحدّق بمحمّد، ثمّ دنا منه وعلى وجهه الكثير من الكلام والحيرة:

- أوصتني مولاتي أن ألتزم بأوامرك... صمت ثمّ تابع:

- أنا أحبّك يا سيّدي، لم تعاملني هكذا على غير ما اعتدت من الأسياد؟ لم لا تأنف من النّوم بقربي وتقسم معي طعامك، وأنت من أشراف القوم؟! وما رأيته منك عجب، إنّك لمبارك!

ابتسم محمّد ولم يقل شيئا.

-أودّ يا سيّدي أن أسألك شيئا وأُحلّفُك بمن تحبّ أن تجيبني وتزيل حيرة العبد الذي أمامك. لِم رفضت ما طلبه منك ذاك الرّجل الذي اختلفت معه في السّلعة يومها في سوق بصرى حين قال لك احلف باللاّت والعزّى؟

ابتسم في هدوء وهو يرمقه:

- ما حلفتُ بهما قطّ.

وجد في كلامه غرابة، أتراه من الأحناف الذين يسمع عنهم، لا يسجدون للآلهة ولا يأكلون ما يذبح على الأنصاب؟!

طافت أسئلة كثيرة بفكره طيلة الطّريق، وهو يرقب محمّدا وما يصنع معه وأعاد كلام نسطورا في ذهنه مرّات ومرّات وقلّبه على ما علمه من أمر محمّد، والغمامة التي كانت تظلّه وقت الهاجرة وهو على بعيره.

يوم صيفيّ آخر حارّ، حتّى الجِمال لا تطيقه، وهذا الشّوق لمكّة يكبر، حتّى هذا الطّريق إليها كأنّما يستطيل، الشّمس هنا تتحكّم في المزاج، تلفح وتجعل الوجوه مقطّبة، واجمة، تبحث عن ظلّ ولو تحت حَجر صغير أو صبّارة.

تبدو الصّحراء أثناء السّفر كيوم واحد طويل لا تعاقب للّيل والنّهار فيه، معبّإٍ بالانتظار وطافح به، نهاراتها متشابهة لولا ما تتركه في النّفس من تأمّل، النّباتات اليابسة والصّبارات التي مازالت تقاوم، روث الدّواب، خطى المارّين... كلّها تنطق بالتّيه، وبادية السّعديّة بغنمها وهوائها العليل وخيراتها وأولادها الذين هم إخوته تحضُره وتطفئ ظمأ الطّريق. ما الذي جاء بها إلى الذاكرة الآن؟ أهو الشّوق للأحبة وللماء ولمصيف المكيّين بعد هذا اليوم الحارّ، أم سفرته الثّانية إلى الشّام وحيدا دون عمّه الذي كان حانيا ورؤوفا كأب تماما، أتراه يشبه أباه؟ طالما لحقه هذا السّؤال.

اللّيل وحده يملك مفاتيح تعريتك، يذكّي حنين التذكّر لديك، ويهتف لك كم أنت صغير وضئيل في هذا العالم المترامي، وحدك أيّها المرتحل في هذه الحياة التي تشقى لأجلها؟ إلى أين تمضي؟

ثمّ ماذا؟

ارتطم الرّاهب بحذق في عينيه، وحدّة بصر في شكلتهما، وسأل ميسرة خفية عنه:

- أهذه الحمرة ملازمة لعينيه؟

ما دخله في حمرته هو الآخر، وما حكاية الرّهبان معه، أتراها ظاهرةً إلى هذه الدّرجة، هو ينساها ولا يعبأ بها؟ طالما غبطته عمّته أروى على الشُّكلة التي ببياض عينيه، وقالت تزيده جمالا، وتظهره للآخرين رقيقا ومرهفا، وطالما تغامز حولها أبناء عمّه وعمّاته، وأسكتتهم فاطمة زوج عمّه وهي تبدي إعجابها بها.

- هل له أب وأم؟

اليتم ينخر فيه من البدايات، من دار إلى دار، يلملم شتاته، ويغلق باب أبويه لينتقل إلى بيت جدّه، بيت العائلة الكبيرة، ثمّ إلى بيت فرع من فروعها، بيت عمّه. أشياؤه الصّغيرة وأشياء أمّه مكدّسة، مزمومة كلّها في صندوق العائلة الذي ورثه، يجرّه مع بركة كلّما غيّر سكناه، وأغلق الباب الذي كان مفتوحا له ولم يلتفت وراءه. لولا بركة وفاطمة زوج عمّه لا يدري كم كان سينخر فيه اليتم؟!

اليتم مفجع رغم كلّ من تكفّل به... مفجع وقاس، ولا يدري ما كان سيحلّ به لولا تلك الأحضان التي تفتحت له على مصراعيها.

يشعر في هذا اللّيل بوحدته، قرص قدميه برد مفزع، ومع ذلك في القلب مكان لدفء غريب ينكمش عليه ولا يتركه يتفلّت منه... أتراه كلام الرّاهب الذي قابله هذه المرّة يستحضره ويذكّره براهب سفرته الأولى ووشوشاته لميسرة جعلته يفكّر فيما قاله، أم أنّ الوصول صار وشيكا بعد انتظار طال.

-3-

عندما يندسّ الطّفل الذي كُنْتَهُ داخل ذكرى، ويتشبّث بحلم من غيمة ومطر، ولا يجد عصفورَ صباه، تولد أمنية كبيرة تسكن تلك النّجمة باتّساع الصّحراء وشراستها.

كلّ شيء هنا يعرفه، الوادي وحجارته والعوم الذي أحسنه في هذه المدينة، وزوارق الورق، ودار أخواله والأُطم التي استهوته في صباه... وكلّ شيء لا يعرفه دونها، سيّدة المكان والزمان... آمنة، حتّى النّخلة التي استلقى تحتها وهو مبلّل بفرح طفوليّ يحبّ أن يدّخره ويعبّئه في آخر يوم لهما في يثرب، قبل أيّام معدودات من فجيعته فيها.

كلّ الأماكن يعرفها ولا يعرفها دونها، اكتست بغربة فظيعة، كأنّما هي مفتاحه إلى كلّ شيء، ممرّه السريّ. لا تحبّ بكُلّك، اترك دائما مسافة للهزيمة وللفراق وللخيبة، وأخرى لتسند نفسك وتستطيع أن تقف مرّة أخرى، لتستعيد ذاتك...

ولكن سيكبر حلم هنا، نجمة بإسمها، وسيغرس فيها كلّ أمانيها، كلّ الأماني التي كانت تبثّها فيه وهي تهدهده قبل النّوم، عن مكان أخضر يتّسع للجميع، عن أطفال وعصافير دون خوف، عن سيّد سيكونه هو لهذه الأمّة كما كانت تحكيه له عمّا يراودها في أحلامها ويقظتها.

كلّ شيء هنا يعرفه، بعيني طفل في سنّ السّادسة، مرّ على ذلك تسع عشرة سنة، طفل لا يهمّه غير اللّعب والتّراشق بالماء. ولا شيء يعرفه دونها، الغربة تنخره رغم حضور أخواله وأبنائهم من أترابه من الشّباب، وهو يدخل المدينة، وهو يحتضن يديها ويتذوّق البلح الذي

تضعه في فمه بعد أن تنزع نواته خشية أن يكون جائعا أو متعبا من السّفر ليتقوّى بدنه الصّغير. أنفاس آمنة يحسّها على وجهه ورقبته وتردّدُ صوتها لا يغادر أذنيه... ها محمّد، تعبتَ؟ يهزّ رأسه إيجابا، لنتوقف هنا. ها محمّد، جعت، ناكل؟ يهزّ رأسه نفيا. بل جائع مَرَّ وقت طويل على آخر مرّة أكلت فيها، هات الطّعام يا بركة..

عيناها الذّابلتان قبل أن تغمضهما للأبد تذبحانه، نظرتها الأخيرة في الفلاة وهو الصّبيّ الذي لم يفهم ما يحدث، ولا ما يجب فعله في مثل هذه المواقف. تسبقه دمعتان تنفلتان منه، تذكّرانه بالدّمع الحارق الذي ذرفه يومها، يدها الرّقيقة لا تزال تمسّد شعره الكثّ، وشفتاها ترسمان قبلة على خدّه، رائحتها، عطرها يشمّه، كأنّما لكلّ فقد رائحة، كما لكلّ حبّ عطره الخاصّ. رائحتها غير رائحة جدّه الذي تعلّق به كثيرا والذي لم يعش معه بعد وفاة والدته سوى سنتين، رائحة بخور الكعبة والزّبيب الطّائفيّ وهو ينقعه بيديه في أحواض الأدم لزوّار البيت.

ذهب محمّد إلى الشّام باع واشترى وعاد بخير كثير، وهي في تلك الحفرة لا تصلها أخباره، يذكر عينيها وهي تحدّثه عن أبيه وأخوال أبيه، تريد أن تغرس فيه حبّه وهي لا تعرف أنّها بعد أيّام لاحقة به. صار له في كلّ أرض جزء... في يثرب، في الأبواء، في اليمن أعمامه، في غزة جدّ أبيه. عندما تدفن في كلّ أرض جزءا منك، ومن عائلتك تصير كلّ الأرض أرضك، تحنّ إليها وتنجذب نحوها دون أن تشعر، جاذبية الفرع للأصل، واللّحم للتراب.

ستستريح القافلة هنا هذه اللّيلة قبل أن تواصل رحلتها. المدينة جميلة وساحرة، تبدو فردوسا بعد جفاف الصّحراء، ولكنّ يتمه الذي طفا فجأة وقبرَ أبيه الذي يرقد غير بعيد، وذكرى أمّه كانت تجعله يستقبل المدينة هشّا ومرتبكا، وفي نفسه شيء من الانكسار، رغم التّرحاب بعد الرّحلة الطّويلة، واللّسان اليثربيّ لسان أخوال أبيه الذي يشعر بانتمائه له، والذي لا يختلف كثيرا عن لسان المكّيين، كلّها لا يوليها كبير اهتمامه مع صوت أمّه الذي يكبر ويكبر ويصير نجمة تضيء سماء يثرب، وتدفئ ليله المتعب.

حتّى العصفور يناديه من فوق الأُطم، ويسأله عن أمّه، عن الطّفل الذي كان يطيّره عندما كان في عمر السّادسة، ويرجوه أن يخبئه، فلم يعد له متّسع، أين تراها أنيسة الجارية؟ هل كبرت وصارت شابّة، أم حلّ بها مكروه؟

حتّى أنتَ لم تعد الطّفل الذي طيّرني ولعب معي منذ قرابة العقدين.

أيّها الطّائر لم تعد أمّي هنا، ولم أعد ذاك الطّفل الذي كُنته.

عمّ صوتٌ سماءها، شُدّ عليك الجرح وامض... ولكنّه لم يبق له أكثر الوجوه رقّة ودفئا، لمن سيحكي عن كبواته وعمّا حققه... شدّ عليك الجرح وامض...

سترى ما يرضيك وينتشلك مثلما وجدت من كفلك وأنت صغير، وجبر انكسارك.

محمّد... اسمك قدرُك، فلتكن سماؤك الرّضا... فلتكن سماؤك الرّضا.

أهو الأبيض الذي حدّثه في موسم بوانة وكلّما اقترب من صنم؟

كانت يثرب التي تودّع السّماء آخر النّهار غاضبة ومشحونة، حتّى في كآبتها ساحرة وفاتنة، كما لم تكن من قبل...

***

خرقت أفكارَه أصواتُ الكؤوس المترعة، وضحكات الحاسين للشّراب، وقهقهات المنتشين بما حقّقوه من ربح. مسح الطّويل منهم ذو الأنف الحادّ شفتيه ورفع صوته في المجلس كأنّما يلقي عليهم خطبة:

- إنّ ما تدرّ علينا تجارة الماء ثروة لا تنضب، يجب أن نبقي

مراكز الماء تحت سيطرتنا، لو نستطيع أن نضمّها كلّها فلا يشرب أحد أو يسقي زرعه إلاّ بإذننا وبعد أن يدفع لكانت الثّروة كجبل أحد.

- يجب أن نحكم قبضتنا على سوق السّلاح أيضا، ونحدد السّعر الذي نريد، هكذا تكون المدينة كلّها تحت أيدينا.

هزّوا رؤوسهم وقهقهوا حتّى بلغت أصواتهم آخر المجلس، وهم يشربون مع العائدين نخب الرّبح الذي يحملونه إلى مكّة.

نأى الشابّ القرشيّ عنهم، شعر باختلافه، واختفى في صمته. كان صوت الرّبابة يلمّ شرودهم وشعثهم، وزع الشّعر الابتسامات على الحاضرين الملتفين حول الرّبابة. الشّعر وطن، وحده القادر في اتّساع الصّحراء أن لا يشعر المرء بالغربة، يزوّدهم بكثير من الدّفء قبل

ملاقاة الأهل، ويقرّب الدّار والأحباب. لا زال شعر مطرود الخزاعي يملأ مجالس القوم حيثما ارتحلوا:

ألا أيّها الرّجل المُحوِّل رحله   هلاّ نزلت بآل عبد مناف

الآخذون العهد من آفاقهم   والرّاحلون برحلة الإيلاف

تورّدت وجناتهم وصفت وهم يتحلّقون حول النّار، وصوت الرّبابة يسقي الشّعر في صدورهم ويعهده بلحنها الذي تحنّ إليه حتّى العجماوات من الإبل والدّواب. انتماؤهم إلى الشّعر يفوق انتماءهم إلى أيّ قبيلة من القبائل، القصيد هو ما يحملونه معهم حيثما حلّوا، يلملم غربتهم، ويسمعهم صوتهم فيطربون، ويجعلهم يشمّون أخبيتهم حتّى في زحام رطانة الشّام، وقسوة جنود الرومان، ومحمّد وإن كفر بما يقولونه عن تلك الحجارة التي يعبدونها وحديثهم معها وسجودهم لها، لم يكن ليكفر بالشّعر. الشّعر وطن يمكن أن نحمله إلى أيّ مكان، وإن لم يكن يأتيه شيطان كما يدّعون ليلقّنه، رغم أنّه من نسل شاعر ككثير من العرب، لكنّه يتذوّقه كأيّ عربيّ في هذه الصّحراء. روت له بركة حين جمع عبد المطلب بناته وهو على فراش الموت وطلب منهنّ أن يرثينه قبل طلوع روحه. كان الشّعر قادرا على أن يسكن ألمه ويمتصّ حدّة الموت وألم الفراق إذا كان لا بدّ من الموت... الشّعر وطن في هذا القبح.

اقترب ميسرة من رجل مكيّ يضع رحاله الآن وينزع خوصه، جاء المدينة ليبتاع تمرا. جلس وسأله بلهفة:

- كيف هي مكّة؟

- هادئة كعادتها، وعامرة بأهلها.

هل مازالت مكّة المقدّسة بهدوئها وصخبها تهب لكلّ من يرتادها الحبّ والدّعاء وراحة القلب، وتضنّ به على أهلها؟ هذه الفاتنة في هدوء، المستعصية المتناقضة، المستحيلة، تشرع أحضانها للوافدين، وتقبض بقبضة من نار وحديد على أبنائها الجيّاع العراة التّائهين. مكّة مهوى الأفئدة ومقتلها ولوعة المشتاق، مكّة الحجّ، مكّة القربات، مكّة الغواية... مكّة التي يحدث في طرقاتها الخلفيّة ما لا يُرضي الآلهة. أيّة آلهة، وأيّ ربّ يرضى لرعاياه ذاك الظّلم والاستعباد ويهنأ بتطاير دم الذّبائح وأكوام العطايا وتوسّلات الصّبايا والأرامل وهنّ يتركن أمانيهنّ عنده بعد أن يدفعن موقنين بالاستجابة.

مكّة مهوى كلّ القبائل، كلّ الأجساد تدور حولها، يتركون كلّ الأماكن ليتعرّوا هنا، ليتجرّدوا من أخطائهم، ليستأنفوا حياتهم بعد أن يتطهّروا، دوائر بشريّة لا تتوقّف... هبل، لبيك لبيك لا شريك لك إلاّ شريك تملكه وما ملك.

بكّة التي بكّت الجبابرة ولم ترض بأن يهدم بيت الربّ، قطعت أيديهم وأوقفت أطماعهم، أمّ القرى التي يسكنها الملائكة والشّياطين، المتخمون والجيّاع، السّادة والعبيد، مقتنو السّجاد المزخرف الفارسي ومفترشو العراء، القرية التي يُسمع فيها صوتان صوت التّلبيات وما يليها من صوت الباعة وصوت السّياط.

ما يُروى قليل وما يخبّئه العبيد كثير لا تحمله الجبال ممّا يفعله سادتهم، الأسرار والانتهاكات لا يتصوّرها عقل، لكنّها تحدث هنا أمام البيت العتيق، وعلى مرمى من الآلهة.

مكّة التي يأتيها الزّائر فيطوف بالبيت العتيق ويتمسّح بإساف ونائلة ولا يجد في ذلك حرجا، المدينة المستحيلة، أرض التّناقضات التي تجعلك تهيم بها مع كلّ إشراقة شمس، ولا تستطيع أن تتخلّص من أسرها، تملؤك بخدر لا تقدر أن تبرأ منه. كلّ المدن لا تشبهها، وحدها لها كلّ القلب، وفي غيرها بعيدا عنها تتسلّل إليك الغربة من الرّمال والحصى ورطانات المتحدّثين، والغرباء الذي تلتقيهم، وأسوار المعابد والقصور، تشتاق إلى بيوتها الطينيّة المعجونة بكدّ أولادها وعرقهم ودمائهم.

شرد في مكّة وفيما سيلقاه من السيّدة خديجة، صاحبة التّجارة والمال حتّى نام إلى الصّباح.

في رحلة العودة عيون الاشتياق تكبر مع كلّ اقتراب، تزداد اتّساعا لترى الأحبّة، والقلب يزداد اضطرابه ليرتاح ويستقرّ، الصّحراء مثل أمّ تغطّينا بشمسها.

-4-

في البدء كانت العتبة مضاءة، والبيت يتّسع حتّى شمل بعض دروب مكّة التي تتّصل به، ثمّ كلّ ما جاورها، وهي في أبهى زينتها، حتّى حليّها التي لم تعد تلبسها كسابق عهدها كانت كلّها تزيّن جيدها ويديها، سعيدة كما لم تكن من قبل، الشّمس والقمر مكتملا بدرا في بيتي... كيف اجتمعا؟! مبهر منظرهما معا في ساحة الدّار. حاولتْ أن تقترب لكنّ الضّياء كان عظيما خفضت له بصرها... ما أجمل داري، أهذه داري! كلّ السّجاد الفاخر بزخارفه البديعة والمصابيح المنثورة في كلّ زاوية من البيت لم تكن تسعدها مثل هذا الحلم.

أفاقت خديجة من نومها تبتسم وبقيت في فراشها تستعيد هذا الحلم المدهش والغريب الذي أيقظ الحياة في داخلها وجعلها تشعر بما لم تشعر به منذ سنوات بعد ترمّلها، أتراه قلقها على تجارتها التي توشك أن تعود وقد مرّ عليها ما يقارب الثّلاثة أشهر حتّى الآن؟

يوم جميل على ما يبدو. تحاشت أشعّة الشّمس الذي كانت تدخل مخدعها وتمنعها من فتح عينيها، فركتهما وإذا بابنها قرب السّرير المزيّن بشرائط حريريّة ملوّنة يترجّاها:

- أأستطيع أن أخرج للّعب أمام الكعبة.

- مازال الوقت مبكّرا، سأرافقك بعد قليل، هذا الحلم يستدعي طوافا ودعاء.

- أيّ حلم يا أمّي؟

- سأحكيه لك في طريقنا.

ساعدتها نفيسة في تمشيط شعرها، ثمّ أعادت المرآة إلى مكانها وهي تسمع ما ترويه لها هذا الصّباح.

- حلم جميل يا سيّدي، استبشري خيرا.

عبرت بهو البيت ونفيسة تتبعها لتساعدها في ارتداء لحافها، وقبل أن تخرجَ أمرت إماءَها أن يجهّزوا البيت ويعطّروه كما يليق بالسيّدة التّاجرة ويحضرن الطّعام للضّيوف، فغدا سيكون لها مجلس مع زوجات وجهاء مكّة وبناتهم وسيّدات البلدة، يزرنها في العليّة لتبادل الحديث ورؤية البضاعة من توابل وحليّ وعطور وأقمشة تنفق عليها النّساء المال الكثير وتتباهى بها، وهنّ الآن يتشوّقن لبضاعة الشّام.

-أهلا هالة، جئت في الوقت المناسب سترافقينني.

تكاد تكون ساحة البيت العتيق فارغة من الملبّين في هذا الصّباح عدا بعض النّسوة المكيّات اللّواتي ينتهزن فرصة فراغها لتدعو كلّ واحدة بحاجتها قبل ضوضاء الأجانب وهي تستنجد بثوب البيت. تذكّرتْ والحلم الجميل يطوف برأسها ما عانته بعد موت زوجها، الحِمل الثّقيل في تربية ولديها، فهي رغم غناها ليست سعيدة. فكّرت في ابنتها التي ستصير يوما عروسا ولا تجد أبا يزفّها، زواجها الأوّل، ووالدها المتوفّى وفرحته وهي عروس في هودجها مع أصوات التّصفيق والغناء، وكيف جهّزها، ومخدعها الأوّل، وأوّل صرخة لابنتها عندما قدمت إلى الدّنيا، أمومتها الأولى، لأوّل مرّة تضمّ صغيرتها بقماطها السّماويّ. لقد صارت أمّا في سنّ مبكّر، ثمّ أرملة في ريعان شبابها مع ثروة خلّفها لها، ترقرق الدّمع في عينيها دموع أسى على عتيق الذي لم

يعش ليشاركها الحِمل، ثمّ زواجها الثّاني... لم تتصوّر أنّ السّعادة ستدخل قلبها ثانية وستزهر حياتها بعد أن رُزقت ابنها هندا، ولكنّها لم تلبث أن عادت إلى وحدتها ثانية وانكسارها مرّة أخرى بموت زوجها الثّاني...

فكّرت في أن تشتغل بالتّجارة، كلّ من في هذه البقعة من الأرض يشتغل بالتّجارة، إمّا أن تكون راعيّا أو تاجرا.

كان ثملا عندما كلّمته في الموضوع، ضرب الجرار وحطّمها على الجدار، وانكسر الإبريق الغالي الثّمن وتناثر أشلاء. اختبأت في خوفها، وهي تعانق ولدَيها، سأكون تاجرة طال الزمان أو قصر.

صار إدمان والدها الخمر يخيفها منه وعليه، ما يفعله ليلا ينساه في الصّباح، الوعود التي يقطعها، الأموال التي ينفقها على لياليه تكاد تبلغ ثروة، باتت تخشى على ولديها من طيشه الذي يبلغ مداه ليلا، حين يغيب العقل كلّ شيء يصير مباحا وممكنا.

عندما أوصله ليلتها ابن جدعان إلى عتبة الدّار، ترنّح، شعرت بالقرف.

- ألا زلت مستيقظة يا خديجة؟!

- أجل يا أبي.

ككلّ ليلة برطم بكلام لم تفهمه وزفر، لا تحبّ هذه الصّداقة والمصلحة التي تجمعهما، تشمئزّ منها، ولا تفهم ابن جدعان، هذا الرّجل الغريب، كريم فوق العادة، لا تكاد تنقطع جفنته من ساحة الحرم، يغيث الملهوف ويطعم الجائع، ولكنّه يبيع أبناء البغاء ويتاجر

في الصّغار منهم.. يروّضهنّ ويصنعهنّ على يديه. أتخيّل مصير من ترفض، أكيد تقتل وترمى في شعاب مكّة.

كم مرّة رأته يتأمّل البضاعة الجديدة القادمة من حباشة، أجساد سوداء دون أسماء، مجرّد أرقام يعلو فوقها رنين النّقود ويغطّي على صراخهنّ ورجائهنّ الذي لا يُلتفت إليه، ووجوههنّ السّوداء من أثر التّعذيب. الأمر مقزّز يشعرها بالغثيان، بضاعة من الرّقيق الأبيض بما يحمله من جمال وإجادة للعزف والغناء، وأخرى من الرّقيق الأسود الحبشيّ القويّ المكتنز والبراق القادر على تحمّل كلّ ما يطلب منه أفواجا أفواجا، سلاسل بشريّة طويلة، كلّها لابن جدعان.

إنّه قانون هذه الحياة، الضّعيف يدفع الثّمن والقويّ له أن يستفيد من ضعفه ما استطاع. يشتري من سوق النّخاسة العبيد ويفتح لهم دارا، عشّا للتفريخ... ثمّ يبيع ما ينتج عن علاقاتهم، المال هو قانونه الوحيد، لا مكان للضّعيف فيه حتّى طبيعة الصّحراء والبادية تأبى الضّعف وتنتصر للقويّ، وبين ليلة وضحاها لا تذكرها هذه القرية من عرق هؤلاء ودمائهم صار الجميع يدعوه "حاسي الذّهب"، كثر ماله وصار ذكره على كلّ لسان رغم أنّه في داره عُقد حلف الفضول وردّت الحقوق للمضطهدين وحمى الضّعفاء، غريب هذا الرّجل، لا أفهمه.

كان عليّ أن أجد طريقة لأحفظ مال أولادي. لن أسافر يا أبي كالرّجال ولن أقطع الصّحراء، سأسهم برأس المال، وسأرسل أجراء

يتاجرون لي فيه وسأنمّي ما ادّخرته من مال الأولاد، كلّ ما أريده أن يكبر ولداي في مأمن وسأكون سعيدة بسعادتهما.

شعرت الأرملة الثّريّة بوحدتها رغم الحظّ الذي حالفها في تجارتها حتّى صار كلّ المكّيين يناديها بالأرملة التّاجرة. لطالما بكت أمّي حظّي في الرّجال، وتمنت أن يكبر ولدي ويريحني. رحمتك الآلهة يا والدي أرادني أن أتزوّج ثالثة، وهاهنّ نساء أخريات يبعن قنينات العطر، وها هي أيضا أختي هالة تبيع الأدم.

أتمّت الأشواط السّبعة ودعت أن تبارك الآلهة تجارتها وتصل سالمة،

جعلها الحلم منذ الصّباح تقلّب السّنوات الماضيّة، لا تدري لم تشعر بدفقة جديدة في حياتها، أسلمت أمرها لربّ الكعبة، أليس للكعبة ربّ يحميها، ألم يقل ذلك عبد المطلب سيّد قريش عام الفيل، ولي أيضا ربّ يحميني.

تعالى صوت يهوديّ وهي تلح بالدّعاء وجماعة من نساء قريش يمسكن بأثواب الكعبة. كان يحمل كتابا ويسند جذعه على عصا ويظهر عليه العلم بالكتب والتنسّك. لمْ تلتفت إليه، اقترب من إساف وصاح:

- يوشك أن يُبعث نبيّ آخر الزّمان يا نساء مكّة.

ماذا يقول هذا العجوز اليهوديّ؟ أعاد بأعلى صوته:

- يوشك أن يبعث نبيٌّ آخر هذا الزمان، فمن استطاعت أن تكون له فراشا فلتفعل.

- قبّحتك الآلهة من رجل خرف! أتقول هذا لحرائر قريش، سنذكرك عند سادتك وسترى ما يحلّ بك.

جمعن حصيّات بالقرب من الكعبة ورمينه بها حتّى غاب بعيدا عن جمعهنّ وهو يحكّ رأسه بعد أن أصابته إحداهنّ، وقد تغيّرت سحنته خوفا من وعيدهنّ. إنّه يتمتم يا سيّدتي ويشخص ببصره إلى السّماء كمن يدعو عليهنّ. مسكين هذا العجوز، لقد آذينه.

تمسّحت هالة بتمثال إساف قبل أن يغادرا المكان بعد أن سألته حاجتها. لا أعتقد أنّ له نفعا. تململت خديجة وهي تمسك بيد ابنها، وتتبّعتا بعينيهما اليهوديّ الذي فرّ من النّسوة ووراءه زوبعة غبار وهو يُطلق لعناته.

- لبّيك هبل لبّيك.

- اشف ولدي العليل هبل.

***

وضعت الماشطة لها الكحل، ثمّ أخرجت من الصّندوق النّحاسيّ المطرّز أقراط اللّؤلؤ التي تحبّ أن تتزيّن بها في مثل هذه المناسبة وخلخالها الذي لا تملك مثله إلاّ القليل من المكيّات.

- اليوم موعدك مع نساء قريش في العليّة، ستكونين أجملهنّ وأكثرهنّ أناقة يا سيّدتي.

- لا تنسين تعطير المكان بالبخور.

في المساء نزلت من العليّة ونفيسة تتبعها تشيّع إلى الباب جمع النّساء اللّواتي كنّ في مجلسها واشترين منها العطر والتّوابل وأجمل القماش.

- متّى ستصل القافلة؟ ستكون لنا جلسة أخرى قريبا عندما تحلّ.

- نتوق لبضاعة الشّام.

- لن تتجاوز اللّيلة أو غدا على أكثر تقدير.

أعاد غلمانها إلى المخزن البضاعة ورتّبوها، قنينات العطر والحلي والخلاخل التي تحبها النّساء والكندر والورس والقماش.

-5-

توقّفت القافلة على بعد أميال من مكّة، في مرّ الظهران في واد ذي شجر ونخيل بين ديارهم وعسفان، كاد التّعب يبلغ العظم والعطش يمتصّ كلّ حيويتهم وقدرتهم على السّير، توقّفوا ليرتاحوا وليملؤوا قربهم عند آخر موقف، ولتشرب الدّواب. راح ميسرة يتفقّد البعيرين، تمسّحا به حتّى ظنّ أنّهما لن يتوقّفا، كانا في أحسن حال، ما تصوّر أنّهما سينجوان، راقب أخفاف البيضاء وقد بلغ السّرور منه مبلغا.

- خرجت في تجارة سيّدتي خديجة أربعين سفرة فما ربحنا كمثل ربحنا هذه السّنة. أنت مبارك يا محمّد، خروجك معنا مبارك، ستسعد سيّدتي وستجزل لك العطاء.

دخلت القافلة مكّة ساعة الظّهيرة والسيّدة في عليّة بيتها تنتظرها. أسرعي يا نفيسة، عاد الرّجال.

- بَشِّرْ يا ميسرة!

- الخير والبركة يا مولاتي، ما ربحنا يا سيّدتي منذ تجارتنا لك إلى الشّام ما ربحناه هذه المرّة على وجه محمّد!

وإنّي رأيت في ملازمتي له عجبا!

- عجبا؟! ماذا تعني، حدّثني يا ميسرة بالتّفصيل ولا تدعْ شيئا.

- ما إن وصلنا الشّام حتّى باع محمّد أحمال العير كلّها، واشترى أجود بضائع أسواقهم، القماش الأنطاكيّ والبخور وتوابل الهند...

- سأعطيه ضعف ما كنت أعطي غيره.

دعك من ذلك وحدّثني عمّا رأيت منه.

حدّقتْ بعينيه السّوداوين النّاتئتين في وجهه المتعب وهو يكلّمها:

- رأيت منه عجبا، صدوق أمين، لا يأكل حتّى يقتسم معي طعامه. ولا يحلف باللاّت والعزّى.

- لا يحلف بهما! وبماذا يحلف إذن؟ حدّثني عن كلّ صغيرة وكبيرة، أفصح يا ميسرة.

كانت السيّدة تزداد دهشة وهو يروي لها تفاصيل ملازمته له، تكبر حدقتا عينيها كلّما استرسل في حديثه وتبتسم، قصّة الغمامة والرّاهب نسطورا والبعيرين، راحت عيناه ولسانه يرويان تعلّقه بهذا الشّاب الذي لم يعرفه إلاّ هذه الفترة الوجيزة.

- هذه الأشهر الثّلاثة أكسبتك كلّ هذا التعلّق بمحمّد!

- السّفر كاشف يا سيّدتي، طيِّبةٌ نفسُه، لطيف معشره.

- إنّ أمره لعجب حقّا.

-6-

خرجت من التّجربتين مهزومة مكسورة الخاطر، رغم ما يبدو عليها من قوّة ورباطة جأش في جمال يتدفّق، جمال حازم ينصرف عن تفاهات نساء مكّة وثرثرتهنّ ممّن لا شغل لهنّ إلاّ التبختر في الدّمقس والطّيلسان الفارسيّ ومراقبة الأخريات. خرجت بولدين هالة فتاة أدركت سنّ الزّواج ولم تجد أبا يقف أمام خاطبيها، وهند غلام لم يشبّ عن الطّوق، هما نور عينيها، وقرّرت أن لا تعود إلى الزّواج، فقد أخذت بحظها منه مرّتين، ويكفيها ما آلت إليه حياتها. عزمت أن تحبس نفسها على تربيتهما وعلى القيام بتجارتها بنفسها، لأنّ أحدا لم يكن يستحقّ، كلّهم يطلبون مالها، فما بالك إذا ما اجتمع إليه الحسن، الأرملة الثريّة الجميلة... الجمال الثريّ مربك لكثير من الرّجال. أرملة ذات حسن وجاذبيّة ومال كثير، كثر خطّابها الطّامعون، وحتّى غير الطّامعين، لم تكن ترى أنّ منهم رجلا يستحقّ أن ترتبط به ليكون في مقام أب ولديها.

زيجتان اثنتان آلَتا إلى كلّ هذا الانكسار والفراغ والحزن وأنت تملكين ما تملكين... كلّ ما تحلم به امرأة، الحسن الأخّاذ في اتّزان، والمال والجاه والخدم، وهذا البيت الجميل الذي يملؤه ولداك اللّذان خرجت بهما من هاتين الزّيجتين. لم كلّ هذا الشّرود؟ كلّ الخدم والعبيد والمجوهرات والسّجاد الفاخر والموائد التي تمتلئ بمختلف صنوف الطعام لا يعني شيئا.

ألا ترين نفسك في المرآة أم أخذتك أمور التّجارة والمضاربة والأجراء؟ وأنت من أنت امرأة تاجرة تبعث العير إلى أقاصي الدّنيا، تارة إلى اليمن وما جاورها وتارة إلى الشّام، الحرير والذّهب ملك بنانك وكلّ تجّار قريش وأسيادها يرغبون في أن يشاركوكِ تجارتك وحياتك وهم رهن إشارتك، ولا يَدْعونك إلاّ سيّدة قريش الطّاهرة. رجاحة عقل وجمال، وقلّة هنّ النّساء اللّواتي جمعن بين الخصلتين، بُذلت لك كلّ الأموال لترضي دون طائل، تردّين بالرّفض منذ سنوات، وترضين بالوحدة وتشغلين الوقت والقلب بالتّجارة. ألم يحن الأوان لترتاحي يا سيّدتي وتُسلمي أمرك لرجل تثقين به؟ ولكن لا أحد يملأ العقل والقلب بعد زوجي الأوّل عتيق الذي رحل باكرا وتركني بمفردي، حتّى زواجي الثّاني لم يدم طويلا وخرجت من الزّيجتين بولدين وغصّة في الصّدر، أتعلمين يا نفيسة ما حدّثني به ميسرة عن محمّد؟!

أسرّتْ لخادمتها المقرّبة نفيسة بنت منية بإعجابها بهذا الشّاب الذي تضاعف ربحها لما أشرف على تجارتها، ولم ينتهز الفرصة ليأخذ منه شيئا إلاّ قدر أجره.

أهذا سبب شرودك؟ أراك معجبة به يا سيّدتي، منذ فترة لم أرك بهذا الحماس لأحدهم رغم أنّه تقدّم لخطبتك الكثيرون من أسياد مكّة. إنّهم بين طامع في مالي جشع، وغير كفء لا يليق بي ولا يصلح أن يكون زوجا لي، احتالي لتعرفي رأيه فيّ. أنا أكفيك ذلك يا مولاتي.

لم تعبأ السيّدة في سعيها إليه بكلام المكيّين من بني أسد أو بني هاشم أو غيرهما، فهي بعد هذا العمر وتلك الزّيجتين لا يهمّها رأيهم

ولا ما يقولونه من أنّها تسعى للزّواج من شاب يصغرها، شاب فقير، وإن كان شرف نسبه وما يروى عنه من شيم يفحم كلّ من سيتكلّم، وكلّ ما ستثرثر به النّسوة.

زوجات وجهاء مكّة سيلُكْن كثيرا حين يسمعن بالأمر. لا يهمّني وإن اضطررتُ إلى أن أوقف مجلسي لهنّ في العليّة وسأرضى بالخسائر. احذري أن تسمع النّسوة قبل أن يتمّ الأمر. لا تخشي يا سيّدتي سأكفيك ذلك.

كانت جسورة بما يكفي لتضرب كلّ ذلك عرض الحائط، كلام كلّ المكّيين وتتزوّج شابّا يصغرها... وفقيرا، أخلاقه ونسبه تكفيها، ترفعه بين شباب وشيوخ مكّة، جسورة بما يكفي لأن تطلب أن تتزوّجه وترسل من يطلب ودّه ويجسّ نبضه، وبنت منية خير رسول لهذه المهمّة، وخير كاتم لسرّها. لن ينقضي النّهار حتّى يكون الخبر بين يديك.

خرجت نفيسة إلى دار أبي طالب لتقابل محمّدا وانتهزت فرصة انفراده، ولمّا سنح لها ذلك سألته دون مقدّمات:

- ما يمنعك أن تتزوّج؟

كان السّؤال مباغتا وغريبا.

- ما بيدي ما أتزوّج به.

- وإن وجدت من يكفيك ذلك، ودُعيت إلى الجمال والنّسب والجاه والمال؟

ازدادت حيرته... ماذا تريد هذه المرأة؟ ومن أرسلها؟

- **فمن هي؟**

- خديجة بنت خويلد.

السيّدة خديجة؟! أحقيقة ما يسمع أم حلم؟! استسلم لاقتراحها وراح يسأل:

- **وكيف لي بذلك؟**

- اترك ذلك لي.

خرجت مسرعة لتخبرها بما دار بينهما ثم عادت إليه ليتفقا على اليوم الذي يحضر فيه أهله وأرسلت خديجة إلى عمّها لتخبره بأنّ أعمام محمّد سيحضرون لخطبتها منه.

عن اليمين جلس وكيل العروس عمّها عمرو وإلى جانبه ابن عمّها ورقة بن نوفل، وعن الشّمال أهل محمّد يتصدّر المجلس وكيله أبو طالب الذي وقف خاطبا:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضيء* معد وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا، وحرما آمنا، وجعلنا الحكّام على النّاس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به، وإن كان في المال قلا فإنّ المال ظلّ زائل، وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد.

---

* - ضئضئ: أصل

توارت خديجة عندما سمعت هذا الكلام، فجذبتها نفيسة وهي توشوش لها: أكلّ هذا حياء بعد زواجين، ستسمعين كلام عمّك عمرو، تعالي حتى لا يفوتنا منه شيء.

- هو الفحل الذي لا يُقدع * أنفُه.

أهذا كلّ كلامك يا عمّاه؟ ماذا عنّي، أطال عمّه في ذكر نسبه وشرفه وعلو شأنه وأوجزت في الردّ ولم تقل عنّي شيئا.

- ما بك يا خديجة أنسيت عادة العرب في خطبتها، يطيل الخاطب ويوجز المجيب.

أسمعت أبا طالب قال صداقك ما آجله وعاجله اثنتا عشرة أوقيّة ذهبا ونشا *. رضيتُ.

وقف بعد خطبة أبي طالب ورقة بن نوفل ابن عمها لنسبه منها ولعلمه ومكانته بين قومه وخطب فقال:

الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، و أنتم أهل ذلك كلّه لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم ولا شرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم، وشرفكم، فاشهدوا يا معشر قريش بأني قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله.

- تكلّم يا عمرو، ردّ يا عمرو فأنت عمّها.

- **أحببت أن يشركك عمّها.**

---

* - يُقدع: يُضرب

* - نشا: نصف أوقية، والأوقية أربعون درهما.

ابتسم عمرو ورفع صوته:

- اشهدوا يا معاشر قريش أنّي قد أنكحت محمّد بن عبد الله خديجة بنت خويلد.

- قد شهدنا.

- أتسمعين يا سيّدتي تعالي لتشهدي بداية حياتك الجديدة... لم هذا الحزن؟

قالت خديجة لمنية وقد تغيّرت ملامحها فجأة: تمنيت لو كان أبي حيّا فيشهد هذا الزواج.

اجتمع وجهاء مكّة لإتمام العقد بعد أن تمّت الخطبة وتراضت الأسرتان، أولم محمّد فذبح جزورا وأطعم النّاس وتعالى صوت الدّفوف والضّرب على المزاهر والرّقص.

أخرجت خديجة منظرتها الجلديّة المزخرفة بالودع والمطرزة على شكل ضفيرة بذنب الجمل وسوّت زينتها على أكمل صورة في المرآة، والماشطة لا تتوانى في حسن تجهيزها.

تأمّلت فاطمة بنت أسد زوجها أبا طالب وهي تحدّث بركة:

- لم أره بهذه الفرحة وهذا الوجه منذ زمن.

نظر إليها وإلى محمّد وهمس:

- هذه أوّل وليمة أولمها محمّد، ذهب عنه الكرب ودفع عنه الغمّ، ألا ترين سعادته في عينيه.

- وهل تخفى على أحد؟

زَفُّوا الضحى للكوكب فالتقيا في موكب

ودار عرس لم يدُرْ نظيره في العرب
زَفُّوا الضحى للكوكب
اهتزت الدنيا له وصفقت من طرب
وعمّت الأفراح في مشرقها والمغرب
زَفُّوا الضحى للكوكب

-7-

كان الحبّ يتفتّح بين يديها دافئا ونديّا كمروج خضر ساعة السّحر قبيل فجر ربيع، هل كانت ستتكشّف لها حياة كهذه لولا أنّها لم تلتقه ولم يلتقها؟ كان يانعا ودافئا وسخيّا. هل هذا ما كان ينقص هذا البيت الذي يرتع في الثّراء الفاحش، رجل يملأ حياتها بعد انكسار وحزن؟
اكتشف ما بنفسه من حبّ... أرض عذراء لم تطرقها امرأة قبلها، بكلّ ما للحبّ الأوّل في القلب من عفوية واندفاع، يفسح له المكان ليعرش كما يشاء، على مهله، فالعمر كلّه له، بحلوه ومرّه، وكثيرا ما سألت نفسها:

أهذا حقيقة؟ أهذه السّعادة حقيقة؟ خالجها شعور مريع هربت منه ولم ترد أن ينغصّ عليها. تخشى أن تفطن من هذا الحلم البهيّ وتجد نفسها وحيدة وولديها مرّة أخرى، تحاول أن تداري يتمها مرّتين مرّة بموت والدها وأخرى بموت زوجها، كم كان الفقد عميقا في قلبها، سوف لن تقدر على كسر ثالث، ما لها ولهذا الخاطر.

بدخوله حياتها تغيّر كلّ شيء... حمل عنها الكثير، لم تعد تفكّر فيمن يقوم على تجارتها، ولا على ولديها، بوجوده عرفت أنّ الأمان ليس في المال الكثير، ولا البيت الواسع ولا الأثاث الفخم ولا كثرة العبيد والإماء، بل في رجل يشغل القلب كلّه، يحتويها ولا يجعلها تحتاج شيئا، يقف إلى جانبها ولا يطمع في مالها.

محمّد مختلف، ليس كعتيق ولا كأبي هالة زوجها السّابقين، حتّى لَأنّه مثلها ينفر من تلك الحجارة التي لا تضرّ ولا تنفع. أخبرها أنّه لم

يسجد لصنم قط، ولا يوافق كثيرا ممّا يأتيه المكيّون في مواسمهم من ذبح للأنصاب والأزلام، وضرب للقداح، وصدح بهبل.

ملأت خديجة البيت بلمسات أنوثتها التي عادت لتتفتّق فجأة ثالثة بعد أن ذوت، وهو بعد أن ظلّ سنوات مرتحلا من بيت إلى بيت، يجمع مزوده وينقل صندوق أشيائه إلى أن لزم بيت عمّه، تذوّق من يديها طعم أن يكون مستقرّا في بيته، آمنا وسعيدا. هذا القلب الذي آن له أن يسعد ويبتهج وتتوقّف أحزانه. تذوّق على مهل أن تكون له امرأة تحبّه ويحبّها، تعيش لأجله... رغم أنّها تزوّجت قبله مرّتين، طالما وشوش بذلك الرّجال والنّساء...

- **رُزقت حبّها.**

الحبّ رزق لا يتعلّق بالعمر ولا بالمكان، ولا بالغنى أو الفقر، بل بما ينال القلب من احتلال جميل. رسا أخيرا بين يديها، أيمكن أن تكون الحياة بهذه الحلاوة والطّمأنينة والسّكون الذي وجده عند خديجة، رغم أنّها تفوقه سنّا، ولها تجربتان من الزّواج، وهو الشّاب الذي لم يعرف امرأة قبلها.

الحبّ رزق كباقي الأرزاق من المال والبيت والولد والصّحة والرضا... كانت عبارته تزيدها وهجا كنجمة.

مرّ عام بكلّ هذه السّرعة، عامان... ثلاث، لم أعد أعدّ، كأنّما أيّام فقط مضت على عقد قراننا، كلام عمّك أبي طالب أسمعه من غرفتي وردُّ عمّي عمرو يجلجل في أذني:

- هو الفحل الذي لا يُقدع أنفه.

يا لعمّي عمرو يومها... توقّفت عن الكلام لتتّخذ وضعه وهي تضحك بملء شدقيها، وتحاكيه بصوته وهيأته تماما.

فرحتْ بكرم القدر، فقد بدت أخيرا بوادر حملها على كبر سنّها، وجُبر خاطرها بعد أن خشيت أن تشمت بها صبايا قريش وعجائزها وشيوخها، ومن رفضت الزّواج بهم على ثرائهم العريض ونسبهم، عادت إليها ثقتها بأنوثتها وقدرتها المتجدّدة على أن تكون أمّا.

ستتمكّن أخيرا من أن تهب محمّدا فرحة الولد الذي من صلبه بعد أن فاق ما تصوّرت وما رسمته في ذهنها من حبّه وحنانه على ربيبيه. فرحت لأجله أكثر من نفسها، فهي سبق لها أن أنجبت من غيره، أمّا هو فهذه فرحته الأولى، وكلّها أشهر وسيرى ابنه الأوّل، من صلبه، فلذة كبده.

- أنا حُبلى...

ألقتها إليه في صباح باسم متورّد... حُبلى بك، بحياة جديدة أهبها لك ولأجلك. أن أكون حبلى، أن أزيد رباطي بك، رباطنا، الميثاق الذي يؤلّف بيننا، قد وُهبنا ميثاقا آخر لن نفترق بعده أبدا مهما حدث. هاهو يتخلّق ويتولّد، بهذا الذي يكون في أحشائي، وسيصير لأجلك ولأجلي ولأجلنا معا. سأتألّم لأجلك، وأشعر بالغثيان والوجع والسّأم والدّوار والمرض وكثير من المنغّصات لأجلك، وأرضى بتكوّر جسمي لأجلك ولأجل صغيرنا.

حبلى بالفرحِ... بعد خمس سنوات انتظار، أخيرا حبلى بالحلم الأخضر، ونجمةٌ هناك في سمائهما تهمس لها: سيكون لكِ منه ولد ونسل، فلا تقلقي...

ولكنّ يتمه يطلّ من عالم الخيبات، يطفو دائما وينغّص فرحته، ويُرديها ناقصة وهزيلة دوما في الأسبوع الأخير وهو يترقّب. من سيفرح معه أكثر منهما، لو كانت أمّه حيّة وأبوه وجدّه وجدّته بميلاد حفيدهم؟ لم يبق لك أكثر الوجوه رقّة ودفءاً، لمن سيحكي عن فرحته؟

أعلمته القابلة وهي تغادر مخدعهما والعرق يتصبّب على جبهتها أنّ المولود أنثى.

أسرع ليراها فتلاقت أعينهما الظمأى على تلك الصّغيرة التي تتحرّك في اللّفافة، وهي تحمل صورتهما معا. أمسك بيدها الطريّة وقبّلها:

- ماذا سنسمّيها؟

- زينب

- سنسمّيها زينب.

***

لقد ملأت البيت بالصّغار رغم مشاق الحمل، وما يجرّه من تبعات، حبّا لمحمّد الذي كان حنونا على هند وهالة كأب لهما. ملأتُه لأجلك بفلذات الأكباد، فليس لك أخ ولا أخت ولا أمّ ولا أبّ، لأروي عطش السّنوات العجاف التي مرّرت بها. ذابت أصابعها في يده، ابتسمت وهي

تربت على حملها الذي استدار حتّى أوشك أن ينفجر من ثوبها، سيخرج إلى الحياة قريبا. خديجة امرأة ذات حسن ولكنّ الحمل يليق بها... زادها تورّدا وجمالا. سنراه بعد أن انتظرناه تسعة أشهر كاملة وهو في هذا الخبء الحصين.

- أتراه سيكون مولودا ذكرا أم أنثى؟

- ماذا الأنثى الرابعة... أخشى عليها من هذه القرية، في بلدة لا صوت للأنثى فيها. حياتها قصيرة، ساعات من ظلمة البطن إلى ظلمة الوأد، تتحمّل الصّغيرات بمفردهنّ هذا القبح خشية عار أو فقر أو مرض.

- هذا لن يحدث وهي ابنة محمّد وخديجة؟!

- لا أحبّ أن تولد أنثى على مكانة زينب ورقيّة وأمّ كلثوم في قلبي.

- **إنّهنّ المؤنسات الغاليات.**

- أحقّا تراهنّ كذلك؟

ابتسم وربت على بطنها الذي كان يتلقّى الرّكلات، وذابت أصابعها في دفء يديه. لم يعد يهمّها كلام نسوة قريش ولا كلّ الثّرثارين، لم تعد تعبأ لمكّة كلّها حتّى لو أنجبت قبيلة من الإناث.

***

صمتت خديجة في شيء من الحزن لأنّها لم تستطع أن تحمل له فرحة ابنه الذّكر الذي يتوق إليه حتما في قرارة نفسه، وإن لم يصرّح لها برغبته، وجمت وهي تلتفت إلى النّاحية الأخرى من مخدعها بعد

أن أعلمتها القابلة أنّها أنثى، ورأت محمّدا يدخل. لم تنظر إليه، كانت منكسرة، قالت بصوت تكاد تنزّ منه الدّموع:

- لم أتمكّن من إسعادك بولد ذكر يحمل اسمك.

قال بهدوء امتصّ انكسارها:

- ألم أقل لك يا خديجة إنّهنّ المؤنسات الغاليات!

حمل الصّغيرة التي كان في إشراقة وجهها الأبيض المشرب بحمرة كلّ البراءة والجمال، وقبّلها بين عينيها، وفي رأسها الغضّ ويديها وقدميها.

- ستكون أمّ أبيها، أليس كذلك يا عليّ؟ تعال أريك الصّغيرة.

ثمّ وضعها في حجر خديجة وكتفه إلى كتفها، ثمّ ألصق وجهه بوجهها وهما يطلاّن على الصّغيرة ككنز مخبوء، حتّى زالت تلك السّحابة التي غشيتها، فابتسم لمّا تبيّن له سرورها.

- لشدّ ما تشبهكَ، إنّها جميلة!

- سنسمّيها فاطمة.

- فاطمة اسم يليق بها، فاطمة بنت محمّد، ابنة أبيها.

- وبنت خديجة أيضا!

- انظر إلى وجهها الزّهري، أكيد أنّها ورثته عن أمّك آمنة الصّغيرة.

- فاطمة الزهراء.

- سيدعونك أبا البنات.

- **وَلَوْ... هنّ المؤنسات الغاليات.**

هنّ واحته التي يستظلّ عندها كلّما عاد من عمله، يحملهنّ على كتفيه ويتصابى لهنّ ولو كان متعبا، ملمسهنّ الناعم ونظراتهنّ البريئة تنسيه حجرية هذه البلدة وصخب السوق.

في المساء قدم عمّه أبو طالب مفتخرا بما يدور في دار النّدوة وفي الأسواق من فعل ابن أخيه محمّد.

- لم يخطر ببال أحد من سادة مكّة وشيوخها أن يضعوه في ثوب ويحمل كلّ واحد منهم بطرف، ترك أفواه الصّغار والكبار مشدوهة لحنكته وسداد رأيه. إنّه ابن أخي وأشهد!

قال إنّه سمع نداء يأمره أن يستر عورته حين كان يحمل الحجارة رافعا إزاره من أجياد لبناء الكعبة. أذكر في موسم بوانة عندما عاد مرتجفا وقال إنّه سمع صوتا ينبعث من الوثن، أرعبه، ومنذ ذلك العهد لم ندعه لهذا الموسم، إنّ أمره غريب.

قال للمتخاصمين حول من يضع الحجر الأسود إيتوني بثوب ثمّ فرشه على الأرض، وأخذ حجر الرّكن فوضعه فيه، ودعا كلّ قبيلة لتأخذ بناحية منه، ثمّ رفعوه كرجل واحد ووضعوه في مكانه، وكلّهم على وجوههم السّرور. قال أبو أميّة: إنّ هذا الغلام فعل ما عجز عنه الشّيوخ، سيكون له شأن، وإنّه سيجمع النّاس يوما على كلمة واحدة. حكّ ذقنه ثمّ أردف: إنّ هذا الغلام يدهشني، سررتُ أن كان أوّل الدّاخلين علينا، بعد أن أعدّ بنو عبد الدّار جفنة كلّها دم، وتعاقدوا وبني عديّ على الموت.

وها هو يعود إلى بيته بعد أن فرغ من أمر الحجر الأسود، فاستقبلته القابلة ببشرى مولد فتاة فاتنة.

- تبدين محظوظة يا صغيرتي، فقريش كانت على حافّة حرب لا يعلم متّى ستتوقّف وما ستخلّفه لولا والدك.

***

وُلد لسيّدي غلام... ولد لسيّدي غلام. نهض محمّد من مكانه على صوت القابلة. غلام... البشارة يا سيّدي. حملته لحمة طريّة، ما أدهش أن تلتقي لأوّل مرّة جزءا منك مصغّرا في هيئة ولد من صلبك. اجتمعت البنات زينب ورقيّة وأمّ كلثوم والصّغيرة فاطمة يصفن أخاهنّ مندهشات وهنّ يتطلعن حول سرير أمّهنّ، ثمّ وهنّ يتبعن القابلة كسلسلة واحدة حين أخذته لتغيّر ثيابه. قلِق محمّد على خديجة كثيرا فقد كانت متعبة وحملها صعبا في مثل سنّها.

- ستتعافى بعد أيّام، فردَتْ القابلة عليها الغطاء، دعوها ترتاح بعد أن ترضع القاسم.

مثل حملان صغيرة هم، مبتهجون، مشاكسون، يكبرون بسرعة وتزداد حلاوتهم ومعها شقاوتهم جنبا إلى جنب، يتعاركون لأجل حبّة بلح ولأجل قشّة، أو حتّى حجارة أو أيّ شيء، ولكلّ شيء، ثمّ ينامون كيفما اتفق على السّجاد وحتّى على الأرض بعد أن يغلبهم النّعاس، فيحملهم إلى فراشهم وهو يُقبّلهم القبلة تلو الأخرى. أشْ... لا توقظهم. يحبّ أن يلاعبهم حتّى وإن عاد منهكا من تجارته.

أسلمت خديجة له الأمر بعد أن احتاجها الأولاد، ولم تعد بحاجة إلى أُجراء ليذهبوا بتجارتها إلى اليمن أو الشّام. صار مسيّر أمرها وأراحها من كلّ ذلك، من الخوف من جشع الأجراء وطمعهم في امرأة بمفردها، صار أمينا على مالها، ولم تعد بحاجة إلى ميسرة الذي كانت توصيه بأن يراقبهم وأن لا يغمض له جفن.

بعض الأشخاص لا يحتاجون زمنا طويلا ليتوغّلوا بداخلنا، ولنسلم لهم كلّ القلب، يكفي لقاء واحد أو لقاءان، ما كان ليخطر ببالها أن يحمل لها كلّ هذه السعادة، وهي تبعث به يشتغل أجيرا على مالها لأوّل مرّة، ولا عندما أعطته قلوصا أو قلوصين ثمنا لعرقه وأمانته، ما ظنّت أنّه سيمنحها كلّ هذا الرضا. بعض الأشخاص نشعر أننا التقينا بهم منذ سنين رغم أننا التقينا بهم للتوّ... مرّ كلّ ذلك بسرعة.

***

لِم نفقد أحبّتنا هكذا بغتة على حين غرّة عندما نشعر أنّنا في مأمن، وفي فورة انشغالنا عنهم، عمّن نحبّ بالتّفاهات اليوميّة؟ من يأخذ بأيدينا نحو الفرح والحياة ثانية؟ ألنشعر بالمهزومين والحزانى والثّكالى والفاقدين فقدا تلو الآخر، الذين انطفأت مصابيحهم ولم يجدوا غير الظّلام... ألنختبر النّفس هل بإمكانها أن تصمد وتحيا دونهم؟ ألندرك أنّ الحياة حتّى دونهم وبعدهم تستحقّ أن نحياها؟

نُبش الجرح ثانية... لم لا تتقادم الأحزان، تتجدّد وتعود تنزف، كأنّ الحياة كلّها حزن متجدّد تتخلّله لحظات فرح قصيرة. بدت الأحزان

طازجة يانعة السّواد، لماذا تطفو على السّطح بعد أن نظنّ أننا نجحنا في توريّتها للأبد، وتنزف من العمق عندما نصاب بجرح آخر كأنّما نحرنا للتوّ. بدا يتمه غضّا ومتوهّجا كأنّما السّاعة مولده، يهال على آمنة التّراب وبركة تجذبه وتحضنه ثمّ على جدّه وعمُّه يمسح دموعه، والآن يُهال على القـــــاسم. يا لأب وأمّ وروح أبيك وأمّك يا قاسم، يا فلذة الكبد.

- درّت لبينة ولدي القاسم، يا قلب أمّك...

لم هذا الصباح بهذا اللّون دونه، كان سيكون فارسا قويّا ووسيما كأبيه بعد أن صار يركب على النّجيبة ويمتطي الفرس، أتراها الأحزان ابتعلته لأنّه قد لا يكون سعيدا عندما يكبر، ولن يعيش راضيا؟ لَم يقسم له القدر نصيبه من هذه الحياة وهو من سمّيته القاسم.

محمّد اسمك... واسمك قدرك، فلتكن سماؤك الرضا.

- تُرى لم ترك لي القدر بناتي وذهب بابني بعد طول انتظار في بلدة لا صوت للأنثى فيها. سيَكُنَّ بعد طول عمرٍ نسلي، كلّ نسلي...

- أكيد أنّه في مكان أجمل، امسحي دموعك يا أختي.

- فلذة كبدي يا هالة، ما تفتأ درّتي تذكّرني بالقاسم، تضغط عليّ لأرضعه، لكنّي لا أجده، فورة الحليب تؤلمني على ألمي مرّتين.

ومع ذلك يا أختي وإن حرمت القاسم ولدي فإنّي حظيت بمحمّد.

كلّ السّلوى هو محمد في حزن اللّيالي، كلّ المواساة... لم يتركني لحظة، مسح على قلبي، ورتق ما انفتق منه. لعلّنا نفقد بعضا منّا لنعرف قيمة بعضنا الآخر الذي قد نكون انشغلنا عنه ببعض

الأشياء، بالحمل والولادة والسّهر على الأولاد وضجّتهم، كان رقيقا كما عهدته.

في حلكة حزني كان قريبا كجلدي، كرمشة عين حتّى بعد أن يعود خائرا من عمله وضجّة السّوق، وفي شكلة عينيه يسألني أن أتماسك لأجلنا. نحن بحاجة إليك، أنا وبناتك... أدركَتِ الحنان عندما يكون حارّا ومطلقا وكاملا... في محمّد.

استدارت إليه في فراشها وهي تمسك دمعها وتبتسم ابتسامة عريضة لم يرها على وجهها منذ فترة:

- حلمت بالقاسم بعد أن بكيت احتقان درّتي.

- القاسم!

-... في ثياب بيض في روضة نورانية لم أر مثلها. قال لي لا تبكي يا أمّي، فأنا سعيد هنا، ولي من يرضعني.

بكى محمّد حتّى ابتل وجهه ونشج... مدّت يديها إليه، مسحت دمعه وشبكت أصابعها بأصابعه، وضغطت بكلّ قوّتها وقهرها وحزن الأيّام التي تخطف منها في كلّ مرّة فرحتها، حينها أدركت أنّ قلبه ينفطر مثلها أو أكثر، لكنّه يداري... ربّما لأجلها ولأجل البنات. قرّرت في تلك اللّحظة أن لن تبكي مرّة أخرى... على الأقلّ لن تفعل ذلك أمامه.

محمّد مختلف كحلم ناشز من حجريّة هذه البلدة وبلادتها، رقيق كغيمة وصاف كالحليب الأبيض. كان أبا للقاسم وأبا حتّى لخديجة الخمسينيّة، نظرت إليه وابتسمت ابتسامة القانع العارف الذي أدرك

لِمَ وضع القدر محمّدا في طريقها وليس غيره، ما كان ليمسح هذه الجراح، ولا يوقف هذا النّزيف غيره.

أنا الجرح وهو الضّمادة، أنا الحزن وهو فرحي، هو الأب وأنا على كبر سنّي الولد، أنا الدّمع وهو الجفن.. يسيل حزني خيطا أحمر، يسارع ليمسحه ويغرس من حولي نخيلا باتّساع الصّحراء، وطول السّماء.

كانت عيناه تسألاني أن أتماسك... نحن بحاجة إليكِ أنا وبناتك.

- أتسمع إنّه طرق في الباب.

- عمّتي أنا حكيم، ألم تعرفي صوتي؟

- ادخل يا قلب عمّتك

من هذا الطّفل الذي معك؟

- قال اسمه زيد اشتريته من سوق النخاسة أهبه لك يا عمّتي.

- نحن بحاجة إلى هذا الولد.

أرى أنّه يعجبك يا محمّد، سأهبك إيّاه، ترى ما قصة هذا الغلام الصّغير؟ سأعتقه يا خديجة وأربّيه كابن لي.

***

هذه الفرحة الأولى التي دخلت البيت بعد وفاة ولدهما القاسم ثمّ عبد الله بزواج زينب من ابن خالتها.

في ليلة زفافها وقبل خروجها من بيت أبويها خلعت خديجة قلادة ثمينة كانت تتزيّن بها، لها في قلبها شأن، عقد نفيس من حجر كريم

مرصّع بالجواهر، وألبستها إيّاها ثمّ قبّلتها على جبينها والدّموع تملأ مآقيها.

- ما أحلاها على جيدك يا ابنتي.

- تبدين رائعة يا أختي...

أضافت هذه القلادة حسنا أخّاذا على عنق زينب.

- ستهديني مثلها يا أمّي في عرسي.

- سنرى حين يحين عرسك...

وفعلا خلا البيت في وقت أقصر ممّا تصوّرا من رقيّة وأمّ كلثوم اللّتين زفّتا لبيت واحد، ورغم أنّه ابن عمّ محمّد إلاّ أنّ خديجة قلقة من نسب صهرهما، قلبها غير مطمئنّ، فنسيبتها أمّ جميل زوج عبد العزّى حادّة الطباع، تخشى على ابنتيها من قسوتها، كما تبدو لها متحكّمة وتحبّ السيطرة وتتدخّل في كلّ صغيرة وكبيرة.

خلا لفاطمة الصّغيرة قلب أبيها بعد زواج رقيّة وأمّ كلثوم مرّة واحدة.

- صار والدي في الآونة الأخيرة يأنس إلى الخلوة والوحدة في غرفته التي اتخذها محرابا. قد جهّزتها أمّي لهذا الشّأن وجعلتها منصرفة عن باقي البيت حتّى يجد راحته وينأى عن الضّجيج، وتنهانا عن إزعاجه إذا ما دخل إليها. طالما سألتْ فاطمة نفسها أَلِعزلته علاقة بحزنه على زواج أخواتي، أنا كذلك أشعر بالوحدة دونهنّ؟

سأطلّ عليه أريد أن أعرف ماذا يفعل؟ إنّه صامت وشاخص بصره إلى قطعة السّماء التي تبدو من كوّة الغرفة. ها هي أمّي قادمة لتناديه لتناول الطّعام، ستراني، سأختبئ.

مقام الوصية

عاد عروة الحكيم إلى زيارة القسّ ورقة بن نوفل ثانيّة، تحسّس نبض قلبه، وراقب شريان يده اليسرى، ثمّ جلس إلى جانب سريره يمسّد مفاصل رجليه ويديه بمرهم الحرمل الذي صنعه بنفسه ويدلّكها.

- لا تنشغل بمداواتي، قلت لك هذا الكلام أكثر من مرّة، صادقا. أريد أن أجمعك بكاتبي فقد كنت مع عبد الله بن عبد المطلب قبل وفاته في مرضه الأخير ورافقته في رحلته، أريدك أن تروي له تفاصيل الرّحلة وما حدث وما رأيت منه، لا تترك صغيرة ولا كبيرة. يريد أن يسألك عن بعض التّفاصيل.

- عبد الله... لم الآن بعد أكثر من أربعين سنة؟

- سيأخذك غلامي إلى الكاتب وهو من سيشرح لك..

انقطعت إلى كتابة ما رواه لي عروة الحكيم اللّيلة الماضية، فلم أر أحدا اليوم كلّه ولم أتحدّث إلى الخدم الذين تعوّدت أن أجالسهم ولم أسمر ليلا، حتّى طعامي تناولته على عجل ثمّ أسرعت إلى أوراقي. تفقّدت فقط فرسي الأمهق الذي وهبني إيّاه سيّدي ورقة في اصطبل البهائم، أحبّ أن أطعمه وأرقب حوافره وأطمئنّ على صحته ولياقته، قال لي سيكون رفيقك في مهمّتك.

طرقتُ الباب ولما سمعت إذن سيّدي بعيدا وضعيفا كأنّما يسكن قمقما، أسرعت بالدّخول.

- أين كنت يا خانوم اليوم؟

- خرجت للحديث إلى بركة ألم تقل لي هي من حضنت محمّدا وربّته. كما لقيت عمّه أبا طالب وأبناءه.

- إنسان بغير عينين، إنسان يحيط به الظّلام والمجهول من كلّ جانب، ولكنّي أحاول أن أقاوم لأملأ حياتي بالنّور، وأنير للآخرين الذين يحتاجون مساعدتي. ما أرويه لك محاولة منّي أنا عبد الربّ، الضّعيف الفاني أن أؤازر محمّدا لأنّي أشعر أنّي لن أكون موجودا عندما يخرجه قومه، أريد أن أفرش له الطّريق، أعلم أنّ آيات الإنجيل تبشّر به، وهذا يعلمه أهل الكتب من المسيحيّين وحتّى اليهود. الكتب تتحدّث عن علامات نبوّته، لكنّ العلامات لا تكفي، الخاتم، أكله الهديّة ورفضه الصّدقة وغيرها... أكثرها شكليّ لا يغني عن القرب منه، ومعرفته أكثر. هم لا يعرفونه كما أعرفه، رأيته يكبر أمامي السّنة تلو السّنة.

- حدّثني عروة الحكيم عن مرض عبد الله وحنينه إلى مكّة وضعفه في آخر لحظاته قبل أن يُقبر ويترك بذرته في أحشاء بنت وهب، وسمعت عن والدته السيّدة آمنة من بركة التي آنستْها في وحدتها وخدمتْها وعرفتْ كثيرا من تفاصيل حياتها.

- أريدهم أن يعرفوا عنه كلّ شيء، كلّ شاردة وواردة في حياته، والداه، أمّه التي كانت تأكل القدّيد وتغزل الصّوف ككلّ نساء مكّة وأبوه التّاجر الهاشميّ الذي اعتركته الحياة فمات ساعيا لجلب رزقه، يتمه، صبره على الألم، ما أعدّته السّماء له، الامتحانات التي عبرها حتّى اصطفاه الربّ.

أريد أن أريهم رقّته وصفاءه فهو كقطرة مطر، خوفه وقلقه وأسئلته وحيرته، أبوّته الجريحة، حبّه لبناته.

أنا شخص ضعيف كما ترى، مدادك بصري وقوّتي، ولا أستطيع إلاّ بك أن أوصل صوتي.

أوصى عروة الحكيم بعدما عاد للاطمئنان عليه مرّة أخرى في الأسبوع ذاته بشراب مقوٍ له:

- منقوع الزّبيب وملعقة من العسل مقوّيان.

همس في أذن أخيه صفوان الذي كان حاضرا وهو يصحبه إلى خارج الدّار: لا جدوى من العقاقير هي مجرّد مقوّيات، دعه يرتاح، فلا يرهق نفسه حتّى بالكلام.

لكنّه يستكثر الرّاحة على نفسه.

- ليس الحين حين الصّمت، أريد أن أفرغ ما في جعبتي التي كنت أُعبّيها لمثل هذا الوقت منذ سنوات عديدة. أريد أن أتحدّث عنه إلى آخر يوم في حياتي، لا أرغب في أن أرحل دون أن أُطلع عليه الآخرين من خراف الربّ الضّعاف.

بعد انصراف أخيه قرع حائط غرفته المشترك مع غرفتي، جمعت أوراقي وقلمي وحضرت للتوّ. نعم سيّدي. افتح لي الإنجيل واتْلُ. هذه عادته كلّ صباح إلى أن يشير لي بيده أن أكفّ.

- كم يهدّني عدم إتمامي لما شرعت فيه من نقل بعض من الإنجيل إلى العربية، لم يسعفني بصري لأعوام أخرى للعطاء ولا صحّتي، لو يمتدّ بي العمر.

- ستشفى يا سيّدي وسنتمّ معا نقله.

- لا أريد الآن سوى أن أتمّ سيرته، سيرة أحمد وتصل الرّسالة لمن سيؤازره، أتراني أحيا لهذه السّاعة.

- طول العمر لك سيّدي!

أخذ نفسه بألوان من الشّدّة حتّى يتمّ ما عزم عليه من حكي حياته وكلّ ما يعرف عن محمّد. نوم قليل وبكور شبه دائم وقلّة أكل وفترات استراحة وجيزة يغمض فيها عينيه ثمّ ما يفتأ أن يكون على أتمّ الاستعداد، حتّى شراب الزّنجبيل أو شراب الحلبة مهدئ ألم ظهره ومفاصله يتجرّعه كلّ حين لأجل أن يعينه على أن يبقى يقظا.

- حضّرت لك منقوع الزّبيب لعلّه يقوّيك محلى بملعقة عسل.

لكنّ صحته ساءت أكثر فأكثر، ولم يستجب لنصائح عروة الحكيم وليس في فمه إلاّ كلمة واحدة: لا راحة قبل إتمام الرّسالة.

- إنّه منتصف اللّيل يا سيّدي.

- يكفي هذه اللّيلة.

سوّيت الغطاء على قدميه، ثمّ عدّلته ليستوعب أعلى كتفه، ملأت المحبرة النّحاسيّة استعدادا للغدّ، ثمّ أطفأت السّراج وأبقيت على الشّمعدان الطينيّ، وتركته لينام ويستريح، فقد كان يومه منهكا.

***

محبرة نحاسيّة وجلود مدبوغة ممّا يستعمل للكتابة، وبرديّات ملفوفة وصلته هديّة من صديقه الرّاهب الاسكندريّ حيث نبات البرديّ ينمو على ضفاف النّيل.

غرفة كتب القسّ قريبة من غرفة نومي، يضع فيها طاولة ودكّة من خشب، اعتاد أن يكتب فيها وينقل ما يقرأ إلى العربيّة، وإلى اليمين خزانة متوسّطة الحجم حيث ترقد كتب نادرة لكلّ منها قصّة معه. جلست بقربه لأسمعه جيّدا كلّما وهن صوته وخفت إذا ما تعب من السّهر والمرض، مع حصير مبسوط على الأرض وقنديل وباب يفتح على دهليز يصل إلى خلف الدّار، حيث غرفة نوم بقية الخدم والغلمان.

كان ورقة يحبّ أن يكتب كلّ شيء بنفسه، هو من أمضى جزءا من حياته بين الكتب، يجد سعادته بينها، ويذكر كيف كان يتصفّحها ويدوّن ملاحظاته أسفلها وتعليقاته، أمّا الآن فيملي أفكاره وتأمّلاته عليّ.

- لن أرتاح حتى أتمّ الرّسالة.

ليتني فيها جذع أخبو فيها وأضع

رغم تعبه ومرضه إلاّ أنّه يتمّ حكاية تفاصيل قصّة فتى مكّة.

- أنت مثل ولدي الذي لم أُعقّب.

جلس على الدكّة الخشبيّة برهة، ولمّا عاوده الألم خطا خطوات ثقيلة وضعيفة في الغرفة ثمّ عاد إلى فراشه، اتّكأ ثمّ استدار يمينا ثمّ يسارا، أحضر له مولى من مواليه شراب الحلبة لعلّ الألم يخفّ قليلا. ما من جدوى عضّ على ألمه.

- لنعد إلى ما كنّا نقول، معي كلّ الوقت لأرتاح.

- تفضّل يا سيّدي.

راح يتدفّق إلى ساعة متأخّرة من اللّيل وضوء الشّمعدان الطينيّ ينعكس على وجهه الذي كانت كلّ جارحة فيه مندفعة لتتمّ ما بدأه رغم الألم. اتّكأ على الوسادة لمّا تعب من وضعيّة الجلوس، واستدار يمنة، ثمّ راح يستفيض وعيناه المظلمتان تتلألآن، وأنا أُنصت إليه وأتشرّب كلامه كإسفنجة، وأرى ألمه وهو يكابر، ولمّا شعرتُ بفرط إرهاقه، سألته وعيناي ترجوانه:

- هل نتوقّف يا سيّدي؟

- أخشى أن لا يكفي العمر.

- أمدّ الربّ في عمرك سيّدي... ارتح واترك للربّ أمر التّدبير.

أعنته على التمدّد على فراشه، رفع يديه وهو يتمتم بدعاء لم أفهمه، ثمّ أطفأتُ السّراج وتركت نور الشّمعدان الخافت الذي ينير جنبات سريره وإن لم يكن ينفعه في شيء، ولكنّه لأجل أن أطمئنّ عليه في ساعات اللّيل. تركت الطّاولة على حالها حتّى لا أوقظه، عبَرت الدّهليز الضّيّق الذي يوصل إلى غرفة المعيشة التي بجانبها غرفة الغلمان والعبيد وأنا أمسك بالقنديل الصّغير. تناولت شيئا أسدّ به جوعي، ثمّ عُدتُ لأستقرّ في غرفتي، وضعت القنديل على الطّاولة وشرعت من فوري في ملء اللّفافة التي انتصفت بكلمات القسّ. حُفر كلامه في ذاكرتي كنقش على الحجر.

قرأت السّطر الأخير وأعدت قراءته، ثمّ انصرفت إلى تبييض ما كتبته في الجلسة الأخيرة ما تبقّى من اللّيل، وقُبيل السَّحر أطفأت القنديل وآويت إلى فراشي لأرتاح قليلا.

وما إن طلع الصّباح حتّى استيقظت على دقّ خفيف بعصاه على جدار الغرفة. وجدت القسّ على أهبة الاستعداد لمواصلة ما بدأناه كأنّه لم ينم، وإن اشتكى من بعض آلام الرّأس، فحضّر له الغلام شراب الزنجبيل ليهدّئه.

- أنت تُلزم نفسك بكثير من الشدّة يا مولاي، ارتح في فراشك لا يزال الوقت مبكّرا.

- قلت لك يا خانوم معي كلّ الوقت لأرتاح، فلا تشغل بالك.

ائذن لي يا سيّدي أن أقرأ عليك ما بيّضته آخر اللّيلة الماضية.

- تفضّل يا خانوم، كلّي آذان صاغية.

سكن اللّيل كأنّما لا أحد غيرنا في هذه البلدة وحتّى فيما جاورها بل في الكون كلّه، أنا وسيّدي، وهذه اللّفائف، والكلمات التي تخرج من فمه كبلسم شاف. خصّص سيّدي اللّيل ليتمّ الحكاية، هدوؤه يضيء ذاكرته التي بدأ ينتابها بعض النّسيان، نسيان التّفاصيل ويصفو ذهنه ويروق مزاجه الذي كدّره كبر السنّ والمرض، فيصير بصفاء قلب طفل لم يكدّره شيء، ونشاط شابّ في مقتبل العمر، أمّا الصّباحات فلأقرأ عليه ما بيّضته.

لفائف البرديّ مصفوفة بعناية على الطّاولة المستطيلة التي تنتظم عليها المحبرة النّحاسيّة، ويتوسّطها الشّمعدان الطّينيّ الذي على شكل صليب.

أوقدتُ فتيلة الشّمعدان، وصببت الزّيت في السّراج الذي أعلى الغرفة مسندا إلى المسمار المعقوف، فازداد نورها وتبدّدت الوحشة

التي كانت قبل قليل تخيّم على المكان، وراح القسّ أثناء الاستراحة القصيرة التي تناول فيها قدرا زهيدا من الطّعام يسأل عن أحوال مواليه وغلمانه، وعن أحوال بني أسد ومكّة التي لم يخرج إليها منذ أسبوع بعدما شعر به من وعكة.

- مكّة تهمّ بأن تنفجر، وإن بدت رتيبة وهادئة، صدقت يا سيّدي فيما أخبرتني عنه.

لم يحرّك ساكنا وهو يسمع أخبار البلد، وفي لحظة إشراق هَمْهم ورفع عينيه اللّتين كانتا تشعّان رغم انطفائهما إلى السّماء وغاص في ذاكرته.

***

أصوات مكتومة كانت حول سرير القسّ الضّرير تقترب منه ثمّ تعود إلى الوراء ثمّ تقترب ثانية، وزوجه لا تقدر على إخفاء بكائها وجزعها عليه بعد أن ساءت حالته.

- صفوان أخي اقترب، وأنت يا قتيلة هذه كَفّي اقرئي ما فيها...

دنت منه وأمسكت بيده التي بسطها على السّرير دون حراك بعد أن لم يعد قادرا على حملها لتُبصر له. بدا بين عينيه رفيقُه زيد وهو يبتسم كأنّما يغبطه على ما هو عليه، على ما أدركه! الآن أحسّ في هذه اللّحظة قبل أن ينطفئ أنّه يستطيع أن يرتاح هو أيضا، وأنّ رحلته في كثير من البلاد لم تكن سُدى، أغمض عينيه مبتسما، أنهى مهمّته إلى آخر لحظة في حياته.

قال بصوت ثابت، يحمل الكثير من اليقين رغم مرضه وآلامه:

- الموت يا قتيلة أعلم أنّ هذا ما ترينه في كفّي...

حوضٌ هنالك مورود بلا كذب لا بدّ من ورده يوما كما وردوا

أنا لا أخشى الموت، أخشى أن أنطفئ قبل أن أتمّ الرّسالة، وأخشى أن لا تنفّذ وصيتي.

- اطمئن يا سيّدي أعدك أنّي سأوصلها بنفسي ولو كلّفني ذلك حياتي.

عاوده الألم، آلام الرّأس والمفاصل والذاكرة، ونسي بعض التّفاصيل.

- أدعو بركة لترمّم الثّغرات، فللسنّ حكمه واذهب إلى خديجة.

أتراني أستطيع أن أقنع صديقي توما بنصيبين بحبّ محمّد؟

عندما اشتدّ عليه المرض ولم يعد قادرا على الخروج ولا حتّى النّهوض من فراشه استأذنتُ زوجه في أن ألازمه، نمتُ على الدكّة الخشبيّة العريضة التي أدنيتها من سريره حتّى أسمعه جيّدا بعد أن وهن صوته، وحين يسكن أنينه ويغمض عينيه أعود إلى الأوراق لأكتب باللاّتينية التي أجيدها ما تسنّى لي ثمّ أنسّق وأراجع، والقلب كلّه معه وقَلِقٌ عليه، لولا رغبته في إتمام ما بدأناه معا. عزمت اللّيلة أن لا يغمض لي جفن حتّى أسعد سيّدي وأكتب ما قصّه عليّ منذ الصّباح وأراجع ما كتبته اللّيلتين الأخيرتين لأقرأه عليه غدا صباحا كما تعوّدنا.

غمست القلم في المحبرة النّحاسيّة، وانتظرته ليتشرّب جيّدا، وأخذت لفافة من لفائف البرديّ المرتّبة على الطّاولة وملأتها بكلام سيّدي القسّ. راحت الأفكار تتدفّق وكلام بركة وعروة الحكيم وكلّ من قابلته وحكى لي عن محمّد لا يغيب عن بالي.

تأمّلتُ بحزن وجهه الذي أرقبه منذ أيّام وقد اكتسى ببياض مخيف حتّى لفّه بكامله اليوم، وهو السّاعة يتوغّل فيه أكثر من أيّ وقت مضى، حتّى شراب الحلبة ومنقوع الزّبيب الذي كان يريحه ويمدّه ببعض القوّة لم يدخل جوفه قطرة منه منذ البارحة، شفتاه مزمومتان تماما. كان الخادم البارحة يجرّعه إيّاه على مضض رشفة برشفة وهو يسيل على ذقنه وثيابه.

لم يعد يقوى حتّى على أن يستدير أو ينهض، يشدّه الفراش إليه بقوّة، التصق ظهره به، رغم أنّه لم يكن يستسلم للنّوم في يوم من

الأيّام بهذا القدر. أشار إليّ أن أُيَمّنه جهة النّافذة المفتوحة إحدى مصراعيها على الخارج حيث تصله وهو فوق سريره أصوات الرّعيان كلّ سحر، وثغاء قطعان الماشية وجعجعة الإبل ورُغاؤها، بعد أن لم يعد يقوى على التّقلّب يمينا ولا يسارا. لم يبق إلاّ لسانه يتحرّك بصوت واهن ولا يجد السّامع صوت القسّ الذي كان يهزّ البيت، ويجعل الغلمان والعبيد يهرعون إليه لتلبيّة أوامره، ولا ذلك النّفَس الطّويل في مناقشاته معي وبسطه للمعارف التي في الكتب حين نجتمع حولها.

- سأستدعي عروة الحكيم يا سيّدي، لست بخير هذا اليوم.

- لا داعي لذلك. لم يبق على راحتي إلاّ القليل، حينها سيرتاح القلب والجسد.

-ناولني يا بنيّ أيقونة العذراء وابنها قاعدا التي صنعتها لي. أريد أن أنال بركتها، وأمرّر يدي على روحها الحانيّة لعلّي أفنى في طمأنينتها وطهرها.

أطال في تمتمته ثمّ كفّ، فهدأتْ رجفة لحيته الكثّة التي لم يعد يُرى من وجهه غيرها بعدما أصابه من هزال إثر انقطاعه عن الطّعام، هي الآن رتيبة مرتخيّة كأنّما مثبتة ووادعة.

- أتريد أن تقول شيئا يا سيّدي؟

استجمع أنفاسه التي تقطّعت بمشقّة:

- لقد قلت كلّ شيء... أريد أن ألقاه منصتا وأن تتحرّر هذه الرّوح.

لأوّل مرّة أشعر باضطراب وشكّ جعل صوتي هو الآخر يخرج واهنا:

-كلّ العمر لك سيّدي.

بكت قتيلة التي جاءت على وجه السّرعة حين أُعلمت بسوء حالته وانقطاعه عن الأكل، وهي تمسك بيده، وانحنى صفوان على رأسه يقبّلها، وعيناه غاصّتان بالدّموع، وجلست زوجه عند قدميه منهارة.

استجمع قواه مرّة أخرى، وهمس لأخته وقد ارتسمت على شفتيه اليابستين ابتسامة ضعيفة:

- ماذا ترين يا قتيلة؟

أجهشت بالبكاء، وحُبست الكلمات في حلقها، تنهّد فرحا تنهيدة طويلة كمن يتنفّس الصّعداء وعيناه إلى السّقف كأنّما يرى شيئا:

- هذا زيد بن عمرو بن نفيل يرتع في ثياب بيض من حرير... ويدعوني لألحقه.

ارتفع صوت زوجه بالبكاء وفاضت عينا قتيلة رغم أنّها ضغطت بباطن كفّها بكلّ ما أوتيت من جهد على شفتيها المرتعشتين وقد تبلّلتا.

***

حشد كبير من البنات اليافعات والنّساء، ما يقارب المئة ولعلّه أزيد، يردن رؤية القسّ المتوفّى وتوديعه والدّعاء له، تتقدّمهنّ سيّدة جريئة، عيناها كلّها أسف وحزن، كأنّما خسرت للتوّ أبا وليس كأيّ أب، بمئات الرّجال، سندا رحل اليوم عنها وترك الظّهر عاريا. بدا أنّ كلّ ذلك الحشد كأنّما يعنيه القسّ كفرد عزيز من أسرته، كأبّ، يدعونه أبانا، أبو البنات.

بيدها طفلة كأنّها القمر، بمثل جرأتها ولكن بصورة مصغّرة، تكاد تفلت منها لتدخل إلى مكان الجنازة حيث يودّعه أهله وخلاّنه وكثير من القساوسة والرّهبان، مكيّون وغير مكيّين من قبائل شتّى، سُمح لهم بالدّخول جميعهم إلى فناء الدّار الواسعة، وبقي العامّة من النّاس ينتظرون دورهم. كانت المرأة الجريئة رغم حزنها منشغلة بأمر ترتيب صفوف حشد البنات حتّى يدخلن عليه خمسة خمسة قبل ميعاد الدّفن.

- موؤودات بني عدي، وبني أسد ألسن هنّ المتجمهرات على باب داره، أو ما يفترض أنّهنّ موؤودات وقد أنقذهنّ صديقه زيد بن عمرو بدار بناها لهنّ خصيصا، ثمّ تكفّل بهنّ ورقة بن نوفل بعد أن تاه صديقه في الصّحراء ولم يعد.

بقي بيت القسّ أيّاما وأسابيع يستقبل المعزّين، والقدّاس مقاما على روحه.

حفّ قبره إكليل من فتيات دون العاشرة، وعمّ البكاء والدعوات مقبرة الحجون التي يرقد فيها كثير من وجهاء مكّة، إلى اليسار قليلا قبر قصيّ وغير بعيد قبر عبد المطلب. أصرّت كلّ فتيات الدّار أن يزرن قبره هذا الصّباح، جلبة من بنات ما بين الثّالثة والرّابعة أردن معرفة أين يرقد الأب ورقة، ولِم لم يحضر منذ مدّة إليهنّ جالبا الحلوى والهدايا.

- لم يعد في هذا العالم يا ابنتي. أمسكت بيد الصّغيرة وقدّمت لها زهرة بريّة لتضعها على قبره.

***

كانت مجنونة بني أسد تقول في وقت صحوها دُرَرا، صحوها الذي عادة ما يكون لفترات متقطّعة من اليوم يصفو فيه ذهنها وتبرق عيناها، ويستقيم لسانها. سمعتها بنفسي تحدّث الحارس، يجب أن نتطهّر تماما حتى نُقبل عنده، وتقبل تضحيتنا، أن نغتسل قبل ملاقاته.

أخبرني غلام سيّدي ورقة بعد رجوعنا من الدّفن أنّ هذه المجنونة طرقت الباب ككلّ صباح وسألت عن القسّ ولمّا أخبرها بوفاته تقلّص وجهها، بكت، نفشت شعرها، بصقت وتمتمت بكلام لم يفهمه، ثمّ سألت عنّي أيضا وقالت للحارس أنّها ستنتظرني عند الوادي لأمر ضروريّ لم تكشف عنه. انشغلت بما تلا دفن سيّدي من العزاء وبعض الترتيبات.

- هل التقيت المجنونة، ماذا أرادت منك؟

هوى سؤال أحد الخدم على رأسي كالصّخر، فقد أوصاني سيّدي بها. المجنونة، نسيتها لم أذهب إلى لقائها وخطر خاطر سوء ببالي، وضعتُ ما كان بيدي من أغراض في غرفتي وأوصدت الباب، وجريت نحو الوادي. ليس الآن أَجِّلِ الأمر، لن أتأخّر. عليّ أن ألحق المجنونة. سألت عنها في الطّريق لعلّ أحدا رآها، أتراها كلّ هذه المدّة في الوادي منذ قدومها صباحا، لا يُعقل. سألت من مررت بهم، لم يرها أحد، هل من المعقول أن تنتظرني هناك حتّى الآن، معرفتي بها تقول أنّها لا تقرّ في مكان واحد.

لا أدري لم أشعر بالقلق والخوف عليها، وأتصوّر أنّه أصابها مكروه، ما هو الأمر الضروريّ الذي تحتاجني لأجله؟!

أخذت أقصرَ الطّرق إلى الوادي، أخيرا وصلت، ليست هنا، المجنونة فعلتها بي ثانية، الوادي خالٍ، بل أنا المجنون الموعد صباحا. عدتُ أدراجي وأنا ألهث، أعتقد أنّه ما من أمر ضروريّ لتحدّثني به، ما هو إلاّ ضرب من ضروب جنونها.

في اليوم الموالي استفقت على صراخ وعويل أوقع قلبي منّي، ماذا هناك؟ العويل واللّطم قادم من الوادي حيث تذهب النّسوة كلّ صباح لملء الجرار، خرق أذنيّ رغم أصوات التّلبيات. طرق غلام سيّدي الباب عليّ بقوّة، المجنونة وجدت غريقة. موت آخر، لم تبرد فجيعتي في سيّدي القسّ، وقفتُ كجذع شجرة قديم جافٍ من فراشي.. ولمع في رأسي كلامها الأخير وهي تثبّت عينيها في الأرض: يجب أن نتطهّر قبل أن نلقاه، ضربت رأسي بكفّيّ.

تلبّسني الوجع وأنا أسرع إلى المكان، جمعٌ من النّسوة والرّعيان يلتفون حولها بعد أن غطوا جسدها ولم يظهر منه إلاّ وجهها الذي لن أنساه، أصفر هزيلا وعيناها مفتوحتان في احمرار تعاتبني. وجدها أوّل راعٍ عثر عليها وهو يخرج قطيعه غارقة في الوادي رغم أنّه ليس عميقا، ماتت في هدوء وهي تغتسل. عندما يزورنا الموت لا يحبّ أن يتعب نفسه، يمكث في الجوار في العتبة ليأخذ معه أكثر من شخص قبل أن ينصرف لمكان آخر. قال الرّاعي وجدها شبه عاريّة، مكبوبة الوجه

إلى أسفل القعر والماء يغمرها، حاولوا إنقاذها لكنّ الوقت كان قد تأخّر.
كان بإمكاني أن أمنع غرقها، بماذا شعرتْ عندما انتظرتني عند الوادي وخذلتها... لا أدري لِم أشعر بالذّنب تجاه موتها. المرأة كائن مرهف حسّاس جدّا، لم تحتمل أن لا تجد ورقة، كان الوحيد بين الرّجال الذي مسح على قلبها.
سميّة... كان اسمها، حملها أخوها بين يديه، جلس عند طرف الوادي ووضعها في حجره. للمرّة الأولى أعرف اسمها رغم أنّها كانت كلّ صباح تقتات من يد القسّ كسرة شعير وبلحات، وعندما اشتدّ به المرض في أيّامه الأخيرة كثيرا ما أطعمتها بنفسي، كانت ضعيفة فلم تحتمل.
هذيتُ أمام أوراقي غير مصدّق أنّ الأب الذي احتواني وعلّمني ولم ينظر إليّ نظرة السّيّد لعبده مات ولم يعد هنا، وأنّ مجنونة بني أسد تلته، وماتت بهذه الطريقة. كنت أشعر أنّه ممتدّ فيها، ولا أعلم السبب. المرأة التي كنت أدسّ في فمها الطّعام في الأسبوع الذي اشتدّ فيه مرض القسّ غرقت عمدا في الوادي بعد أن سألت عنّي.
ركبت الحصان الذي أهداني سيّدي، جريت لساعات وعدت عند حلول الظّلام. أحتاج إلى حضن ما، أبكي عليه.. ينسيني هذه الأحزان والفقد.
عرجت على مخمرة اليهوديّ وطلبت قدحا بحجم الخيبات، شعرت بالدّوار وسط ضحكات القيان وتمايل أجسادهنّ اللّدنة.

قريش كلّها هنا، أيّ وجه لك يا مكّة هو الوجه الحقيقيّ؟ أهو وجه المجنونة التي غرقت، أم هؤلاء الأسياد الذين جاؤوا هنا ليتخفّفوا من أعباء تجارتهم ومسؤولياتهم، أم وجه القيّان اللاّتي يسقينهم؟ أم وجه سيّدي الغائب بمرضه وآلامه أم وجه محمّد القلق الحزين على غياب الملَك؟

***

بعد يومين من استقبال المعزّين قرّرتُ الرّحيل وتوديع الدّار التي صارت باهتة ومظلمة بعد سيّدي ورقة. حسب لكلّ شيء حسابه، كم كان متفانيا، طلب منّي أن لا أقضي الوقت في البكاء على ضريحه، خرجت كلماته من غرفته كما لو كان حيّا، نظر إليّ بحزم من على فراشه كما تعوّدت في أيّامه الأخيرة:

- لا وقت للأحزان.

جمعتُ لوازم السّفر وأخذت أهمّ الأغراض، نزعت الصّليب الخشبي الكبير الذي ورثته عن والدي والذي كان معلّقا على الباب منذ قدمت، وأيقونة العذراء أمام سريري، ثمّ سرّجت حصان ورقة الذي أهداني إيّاه واستأذنت أخاه صفوان للخروج. ودّعت غرفته والمكان الذي اعتدت أن أجلس فيه مع سيّدي، ودّعت سائس الخيل وراعي قطعان الماشية والغلمان الذين كثيرا ما شاركوني طعامهم وإن كنت محظوظا أكثر منهم بما نلته من ملازمة لسيّدي، كان طيّبا معي. عندما

سألته: أتسمح لي أن أناديك أبي؟ تلمّس رأسي وعانقني، قلت لك: أنت ابني الذي لم أُرزقه.

كان متفانيّا في إتمام الرّسالة رغم ما مرّ به. قفزت كلماته دافئة مبتلة بلون فرح طفوليّ عندما يطلّ بغتة على عجوز ما بعد المئة وهو يمسك يومها بلفافات البرديّ:

- أهذه الرّسالة التي تريد أن تبعثها؟ هذا كتاب. مُدّ يدك أكثر. قرّبْتُها إليه. اِلمسْ كثافة الرقوق التي ملأتها، وورق البرديّ الذي أتممته، وأرسلت في طلب المزيد باسمك حتّى يبعثوا لك أجوده، أوصيت القوافل القادمة من الاسكندرية التي تلتقي قوافلنا في غزّة حتّى يحضروا المزيد بعد أن اشتريت كلّ البضاعة من السّوق.

دوّنتُ كلّ شيء علمته وتحرّيتُه عن محمّد، القليل لا يغني. بي نهم شديد لمعرفة كلّ شيء عنه.

قفور الدّار من سيّدي يذكّي في نفسي كلّ شيء عنه. تعجّل يومها رغم عدم قدرته حتّى على التّحرّك وقال لي:

- ليس هناك من وقت، الوقت ليس في صالحنا!

يحتاج الكتاب أن يشفع برسالة، سأملي عليك فلتكتب:

- إلى العزيز توما بطريرك النّصارى بكنيسة نصيبين:

" اخترتك أنت لأروي لك الحكاية، وأفرغ ما في الصّدر. إنّا أهل الكتب والعلوم ملآى صدورنا، بل مثقلة...

مثقلة بالانتظار وبالأمل، والرّغبة في حياة جديدة حتّى بعد هذا العمر، لعلّها لمن يأتي بعدنا.

عزيزي توما... بطريرك النصارى قد اخترتك أنت لأُشفى، ولتساعدني على التّغلّب على عماي وسنيني الكثيرة المتعبة ومرضي. وددت لو كنتُ جَذَعا، ولكنّها إرادة الربّ.

أبعث إليك هذه الرسالة مشفوعة بكتاب تمنّيت لأجله فقط أن يطول عمري لأتمّه فتطّلع عليه كاملا.

الآن يمكنني أن أهنأ وأرتاح...

صديقك المخلص ورقة بن نوفل

طويت الرّسالة وقد اغرورقت الدّنيا في عينيّ، ووضعتها في مزودي إلى جانب الكتاب وإنجيل أبي وخرجت، وصوت القسّ الضّرير يتعالى في سكون السّحر بعد أن كان يهمس في أذنيّ:

لا أستطيع أمام ذلك النّور وبما حباه به الربّ أن أصمت وأختصر، أشعر أنّ كلماتي تسيل كماء رقراق، وتنساب العبارات بلا انقطاع لتروي سيرته، وددت لو بقيتُ العمر كلّه على هذا الفراش أتحدّث عنه حتّى مع ما بي من آلام.

كان الشّمعدان الطّينيّ الذي اتّخذ شكل الصّليب يضفي على صفحة وجهه الذي يرفعه إلى السّقف مع تقدّمه في السنّ وقارا مخصوصا، فبدا كقدّيس نورانيّ يملي على مريديه تعاليمه. غطستُ القلم في المحبرة الملأى بحبر ممتاز مقتنى خصّيصا من الشّام، وجزء من تركيزي قد انصرف لتأمّل حركات وجهه، وهو يرتشف شراب الحلبة الدافئ بأناة، ثمّ يضع القدح بعد أن أعنته على أن يتكئ على الوسادة، وينظر مجدّدا إلى السّقف.

لم أرد أن أقطع عليه صمته وتأمّله رغم أنّي كنت على أتمّ الاستعداد لنبدأ. وفي لحظة التفت ناحيتي وسعل سعالا طال قليلا حتّى خشيت عليه، ولمّا استقرّت أنفاسه سألني:

- هل نبدأ يا خانوم؟

- أنا رهن بنانك سيّدي.

رسمتُ بخطّ لاتيني أسود وأنا أستمع إليه وهو في كامل وعيه رغم شدّة مرضه وضعفه:

السّنة العاشرة بعد المئة السّادسة من ميلاد المسيح، سيدي يسوع... ثمّ راحت الكلمات تتدفّق بصفاء روحانيّ عمّ وجه القسّ لم أدرك حينها أنّها آخر ليلة لي معه.

***

المسار السادس: الملَك

-1-

عند مدخل الغرفة الصّغيرة الموارب بابها ألصقت فاطمة جبهتها لترى ما الذي ينصرف إليه والدها في المدّة الأخيرة ويشغله عنها. لا تجده حيث يُفرش السّجاد المزخرف ولا حيث الأثاث البراق بعد أن تمسح الغرفة بعينيها، إلاّ في زاوية صغيرة يسافر منها في أعماق الصّمت بوجهه النورانيّ، ولا يكاد يسمع شيئا مع انشغال فكره.

تراجعت على أطراف أصابعها حتّى لا ينتبه لها إلى أن اصطدمت بشيء من أثاث البيت. أمّها توصيها دوما أن تحترم محرابه ولا تلفت انتباهه حتّى يخرج بملء إرادته. مرّت بالبهو محمّلة بأسئلتها وحيرتها إلى غرفة والديها لتطرح ما عندها على خديجة. طلبت منها مرّة أخرى وأكّدت أن لا تقاطع عزلته ولا تحدّثه إلاّ بعد أن يغادر زاويته المظلمة إلاّ من الضوء الذي يتسرّب من الكوّة المشرعة على الدّرب المحاذي للشّارع.

انفرج الباب الموارب كليّا وخرج إليها، جرت نحوه فحملها على كتفيه وقبّلها وهشّ لها، وتبدّدت كلّ مخاوفها وأسئلتها الصّغيرة. لم تكن تفهم صمته ولا لم تطلب منها والدتها ألاّ تزعجه، فهو لم ينهرها قطّ ولم يغضب منها حتّى في المرّة الوحيدة التي قاطعت فيها عزلته، أشار إليها بيده مبتسما أن تعالي، أجلسها في حجره ومسّد شعرها، وأخذ يدها فقبّلها وشرع في أحاديثه وحكاياه التي تعشقها. أنت أمّ أبيك. ابتسمت، كبرت دهشتها وهي تنصت له وكبر معها بؤبؤ عينيها.

تركته خديجة حتّى انصرف وسحبتها من يدها برفق رغم تقطيبة حاجبيها التي كانت تعلو وجهها، وراحت تطلب منها أن تتركه حتّى يخرج بمفرده وبإمكانها أن تلعب في البهو أو في مخدعها أو في غرفة البنات أو حتّى بإمكانها أن تصحبها إلى مخزن السّلع والمؤونة. أنا لم أدخل إليه يا أمّي هو من خرج بمفرده. رأيتك عند الباب الموارب تطيلين الوقوف وأكيد انتبه لك والدك.

لا تفهم الصّغيرة صمته، يبدو وكأنّه يتفكّر في شيء ما، ولا تستوعب طلب والدتها، وتحنّ إلى أخواتها، فبعد زواجهنّ خلا البيت من مرحهنّ، آه ما تفعله البنات بالبيت، هنّ زهرته وبهجته. صار الصّمت طويلا وثقيلا عليها لا تطيقه، وهي تريد أن تلعب وتصرخ وتقفز وتضحك. ولا ترى أباها يشارك القرشيّين لهوهم وسمرهم بعد أن يعود من السّوق، لعلّه لأجل ذلك اختار تلك الغرفة التي تبعد عن الغرف جميعا حتّى تكون أهدأ.

منذ البارحة وإلى ساعة متأخّرة تنشغل أمّي بأمر ما يخصّ أبي، أظنّه الشّهر الذي يتركنا فيه ليرتقي إلى أعلى مكّة.

- كيف خطرت بباله هذه الفكرة يا أمّي؟

- قال ابن عمّي ورقة إنّ زيدا بن عمرو بن نفيل اختلى فيه طويلا، وكذلك جدّك عبد المطلب، هو ملجأ السّائلين والمتأمّلين.

- السّائلين والمتأمّلين، فيم يتأمّل أبي وعن ماذا يسأل؟

- أرجئي أسئلتك لوقت آخر وساعديني لأحضّر له زوّادته ليصعد إلى الغار ككلّ سنة.

- لم يا أمّي؟ أنا اشتاق إليه.

- سنزوره ونتفقّده، أعدك.

رافقته خديجة إلى أعلى الجبل، ووقفت إلى جانبه في الغار تنظر من ذاك العلوّ ثمّ تحدّق في عينيه:

-ما أجمل مكّة من هذا المكان؟ ستكون هنا وستمتّع ناظريك بها، وتعتكف طيلة هذا الشّهر، يجمع المكان بين الخلوة والإطلالة على الكعبة. هذا زادك حضّرته لك بنفسي وساعدتني فاطمة، وسأرسل إليك ميسرة ليتفقّدك أو عليّا أو حتّى زيدا بين الحين والآخر، لا تطل غيابك عنّا...

ابتسم وودّعها ملوّحا بذراعه بعد أن نزل معها إلى أسفل الجبل وعيناه تتبعها إلى أن توارت. الغار بارد ومظلم، وضيّق لا يزيد عرضه عن ذراع وثلاثة أرباع الذّراع.

***

فرحت فاطمة بقدوم زينب وأمّ كلثوم ورقيّة وراحت تنطّ وتدور حولهنّ، تجلس في حجر زينب ثمّ في حجر أم كلثوم لتستقرّ في حجر رقيّة. ألاّ تتوقّفين عن الحركة لقد تعبت يا أُخيّة. لم تخرج إلى ساحات الحرم اليوم للّعب، كلّ ما فعلتْهُ هو الجلوس إليكنّ، ألا ترين الشّوق في عينها. ونحن أشدّ شوقا إليها يا أمّي، ولكن لم هذا الفرط في الحركة؟! بقدر الشّوق بقدر حركتها. ضحكن، أمّا هي فقد اندسّت وسطهنّ وهنّ يتحدّثن عن عوالم أسرهنّ الجديدة.

- قالت أمّي إنّ أبي يرى نورا ويسمع صوتا وإذا ما تلفّت لم يجد شيئا، ولا يرى رؤيا إلاّ جاءت كفلق الصّبح. سمعته يقصّ عليها الرّؤيا نفسها التي تتكرّر، وهي تقول له: أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلاّ خيرا.

- صار يحبّ الخلوة يا رقيّة...

- منذ عهدت أبي وهو لا يخالط قريشا ويعتزل أوثانهم.

- لكنّه في الآونة الأخيرة زاد من خلوته، ولم يعد يكتفي بغرفته في الدّار، لعلّه يريد مكانا أبعد عن الضّوضاء.

- هل بأبي شيء؟ ماذا حلّ به في المدّة الأخيرة، أخشى عليه!

- كفّي يا فاطمة عن الحركة والدّوران، رأسي يؤلمني، ليس به شيء، يبدو أبي كمن يفكّر في أمر ولا يريد أن يشغله شيء.

- جئت اليوم لزيارته، ولكن يبدو أنّه لن ينزل اللّيلة أيضا من الغار. رأيت أمّي تحضّر له المؤونة بنفسها وترسلها مع أخويّ زيد وعلي. لقد اشتقت إليه، سأعود مرّة أخرى لأراه.

-2-

كثيرا ما وافاها عند سفح الجبل وهي صاعدة إليه في الغار، عندما يبصرها من بعيد مع زوّادتها وقربة الماء يسرع إليها فيحملها عنها، يخشى عليها من تعب الطّريق فيلقاها في المنتصف، ويبيتان ليلتهما في شِعْب قريب من الجبل.

- صدق ظنّي، لم يبق لك شيء لتأكله، يدك مبسوطة كما أعرفك. هذه ثيّاب نظيفة، أعددتُ لك حساء ليقوّيك ويعينك في عزلتك. البنات في أشدّ الاشتياق، رغبت فاطمة في أن تصحبني اليوم لتراك ولكنّي قلت لها ليس هذه المرّة، بصعوبة تخلّصتُ من قبضة يديها على ثوبي وتركتها مع أختها زينب.. جاءت زينب ورقيّة وأمّ كلثوم إلى الدّار البارحة على أمل أن يروك، عدن إلى بيوتهنّ ولم يبتن اللّيلة، قلن سنبيت عندما ينزل أبي، ينقلن سلامهنّ الحارّ إليك.. فلذتا كبدي رقيّة وأمّ كلثوم تجدان صلفا من تلك العجوز. اشتاقت البنات إليك يا محمّد، البيت خال من دونك لولا جلبة فاطمة... هي أكثر من يفتقدك.

قسم قطعة الكسرة وناولها إيّاها وتناوبا على قدح اللبّن، أكلا وهما يتأمّلان علوّ الجبل من حولهما.

كَفّا عن الكلام أوان الغروب وأنصتا للجبال، يتأمّلان أعالي مكّة ومنخفضاتها من هذا العلوّ. الغروب ساحر وحضن الجبال دافئ حتّى للشّمس، واحمرار الشّفق آسر وهو يحيط بالبلدة التي تستعدّ للنّوم، لوحده يستحقّ هذه العزلة. دوران لا يتوقّف حول الكعبة،

يكثر أحيانا وقد يقلّ. أيّ قبول وجاذبيّة يملكه هذا البيت منذ آلاف السّنين؟ لكنّك مع ذلك تركته إلى هذا المكان النّائي لتتفرّج عليه من بعيد. معك حق، ملفت وفاتن من هذا العلوّ، يحتاج المرء بين الحين والآخر أن يكون وحيدا ليتأمّل ويسكت كلّ الأصوات ليسمع صوت ذاته.

أعاد السّؤال عن بناته وأزواجهنّ بعينين مشتاقتين. وددْنَ كلُّهنّ لو يقدمن لرؤيتك، زينب ورقيّة وأمّ كلثوم يحترمن عزلتك ولا يردن أن يقاطعنها، وينتظرن عودتك باشتياق على أحرّ من الجمر، أمّا فاطمة حبيبتي فهي التي لا تصبر على فراقك، الصّغيرة لا تستوعب لم تتركنا وتعيش في غار بمفردك. حتّى بركة... رقيقة القلب تلك الحبشيّة، تسأل عنك حتّى بعد أن أعتقتها وزوّجتها. تشتاق إليك وتبكي... **إنّها أمّي بعد أمّي.**

لم ينزل إلى بيته هذه المرّة منذ قرابة الواحد والعشرين ليلة، سيتمّ الشّهر ككلّ رمضان يصفو له جوّ الغار ليتأمّل، يطلّ منه على مكّة كلّها يملأ صدره بهوائها، ويراها من هذا العلوّ ساحرة وهادئة. لا يسمع ضجيج الحشود التي تزورها إلاّ خافتا وواهيا، ويرى الملبّين حول الكعبة في حركة لا تتوقّف، بتلابيبها يتوسّل كلّ سائل عن ولد أو زوج أو مال أو صحّة أو أيّ شيء. مكّة المبتدأ والمآل... مكّة ذاتها التي تُتعبه ويقلقه شأنها وشأن أهله من المكيّين وحتّى غير المكيّين، يراهم عراة يطرحون ثيابهم التي أذنبوا فيها يطوفون في دورة لا تنتهي ولا تنتهي معها حيرتهم.

أحضرتْ له هذه المرّة مع الحساء خبزا وزيتا ليأتدم، وحبّات سَويق وكثيرا من دفء قلبها. هي تريده إلى جانبها، لكنّها تتفهّم، تفهمه منذ أن اختار هذا الغار، غار حراء وآوى إلى الجبل، منذ أن صار يرى الضّوء ويسمع ذلك الصّوت... ألا زلت تسمعه ولا ترى شيئا؟!

يتردّد الصوت كلّما خرج لحاجته وابتعد حتّى ترك البيوت خلفه، وأفضى إلى شعاب مكّة وبطون أوديتها حيث يتأمّل وينفر ممّا يفعله قومه.

في فراغ الشّعاب وهدوئها يسمعه ولا يعرف ما هو. لا يمرّ بحجر ولا شجر إلاّ كلّمه، يتلفّت يمينا وشمالا فزعا، ينظر إلى الخلف، يعود ويستدير ليرى أمامه فلا يجد شيئا، ولا يدرك مصدره. لو سمعته مرّة أو مرّتين لقلت إنّك واهم... لكنّ الأمر تكرّر مرارا.

تشغله هذه الأصوات... من يتحدّث إليه، كيف يسمع الصّوت ولا يرى من أين يصدر؟ وماذا يريد منه؟ أهي الجنّ والعفاريت؟!يا لرأسه الذي لا يستوعب كلّ ما يحدث له ولا يستطيع أن يحدّث به أحدا لولا خديجة... أسئلة كثيرة تقضّ مضجعه، ثمّ ماذا؟ حتّى الرّؤيا التي تراوده منذ مدّة ولا يجد لها تفسيرا تلحّ عليه.

- ما أنا بقارئ، ما أنا بقارئ.

استيقظ مذعورا، تتصاعد أنفاسه بمشقّة.

- أهي الرؤيا ذاتها؟

- أجل...

- اقرأ ثانية وثالثة، وأنت لا تحسن أن تقرأ أو أن تكتب... أمر غريب.

- **أخشى على نفسي...**

- لا تخش شيئا، أنا إلى جانبك، حاول أن تنام ثانية، مجرّد حلم.

-3-

ربتت على كتفه وهدّأته حتّى عاد إلى نومه، ثمّ راحت تحدّق في الخيوط الأولى للفجر في هذه الشّعبة أسفل الجبل حتّى أغمضت عينيها هي الأخرى. ستغادر قبل أن يشتدّ الحرّ، فاطمة بانتظارها.

كلّما حلم بهذه الرّؤيا إلاّ ونهض فزعا وهو يمسك بصدره، الأصوات التي يسمعها في بطون أودية مكّة وإذا ما ابتعد عن الديّار والرّؤيا كلُّها تدور في رأسه ليل نهار، فلم يعدّ شيء أحبّ إليه من هذا المكان.

كأنّما وُجد هذا الغار النّائي لأجله ولأجل من يبحثون عن طريقهم... ليس زيد أوّلهم ولا آخرهم. النبذ مؤلم وقاس عندما يكون من أقرب الأقربين لك، لكنّ محمّدا اختار طريقه بنفسه وآثر هذا الغار ليجد إجابة لأسئلته وحيرته وخديجة تتفهّم، تحضّر له الطّعام بنفسها وترسله مع عليّ، ابن عمّه أبي طالب الذي لم يتجاوز العشر سنين. صار في كنفه منذ عام الجدب الذي ألمّ بمكّة تلك السّنة ففرّقت عنه ولَدَيه، أخذ يومها عمّه العباس ابنه جعفر وأخذ محمّد عليّا. احترق قلب أبي طالب لفاقته التي اضطرّته ليقتسم أبناءه، ومع ذلك ابتسم لأنّ محمّدا كبر وسيرعى ولده بعد أن رعاه هو وحضنه في يتمه بعد وفاة جدّه... وبكت يومها فاطمة حتّى احمرّت عيناها وهي تسمع جواب زوجها على طلب محمّد وعمّه العبّاس الذي كان غنيّا وموسرا وهو يحبس دمعه: اتركا لي عقيلا وطالبا واصنعا ما شئتما. ها هو اليوم قد كبر يصعد الجبل ويحمل له الزّوادة ثمّ يعود إلى خديجة ليطمئنها عليه.

وقد ترسل إليه زيدا، زيد الذي ربّته كابن لها منذ أن كان عمره ثمانية أعوام، اشتراه حكيم بن حزام ابن أخيها من سوق حباشة ووهبه لعمته التي وهبته لمحمّد فأعتقه. تبيّن فيما بعد أنّ الغلام كان تائها وأنّ أباه هو حارثة بن شراحيل وأمّه سعدى خرجت به لزيارة أهلها فأغاروا على قبيلتها. حاولت أن تهرب به فانزوت في مكان وحاول ابنها اللّحاق بها لكنّ المغيرين رأوه، فحملوه مع من حملوا من نساء وغلمان وماشية. لم تره أمه بعد أن انصرفوا، بحثت ونادت عليه بكلّ ما أوتيت من قوة، لكن لا أثر له، وعادت إلى ديار زوجها يكاد يغشى عليها، وبيع في سوق النخاسة وهكذا وصل خديجة. ولمّا علم والده بمكانه جاء مع عمّ الغلام طالبا فداءه، لكنّ محمّدا قدّم له اقتراحا آخر.

- أَدعوه وأُخيّره فإن اختاركما فذاك، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختارعلى من اختارني أحدا.

ناداه وسأله: **من هذان؟** هذا أبي حارثة بن شراحيل وهذا عمّي كعب بن شراحيل. الغلام لم يكن تائها كان يعلم من هو ولم يخبرهم بنسبه وقومه.

- قد خيّرتك إن شئت ذهبت معهما، وإن شئت أقمت معي.

قراره واضح منذ أن نطق باسم والده وعمّه.

- بل أقيم معك.

لم يتردّد كان جاهزا ولم يفكّر في دموع سعدى ولا حارثة وجزعهما عليه، ماذا أعطاه محمّد حتّى نسي السّنوات الثّمانيّة في كنفهما؟

- أتختار العبوديّة على الحريّة وعلى أبيك وأمّك وبلدك وقومك؟

- إنّي قد رأيت من هذا الرّجل شيئا، وما أنا بالذي أفارقه أبدا.

أخذ محمّد بيده وقام به إلى الملإ من قريش فقال: **اشهدوا أنّ هذا ابني، وارثا وموروثا.**

عانقه الغلام، وبكى والده وبكت خديجة بكاء سرور وذكرى موت ولديها القاسم وعبد الله تطفو وهي تسمع زوجها يقول ابني. قلت هذا يوم وهبني إيّاه حكيم نحن بحاجة إلى هذا الولد. عاد والده إلى دياره وقد طابت نفسه، ومنذ تلك السّاعة لا يسمّى إلاّ زيد بن محمّد.

وكثيرا ما ترافقا، زيد وعليّ، إلى الغار ليطمئنا عليه ويزوّدانه بالمؤونة.

اطمأنت عليه خديجة هذه المرّة بنفسها، ورتّبت له كلّ ما يحتاجه في عزلته، أحضرت له غطاء آخر، فالغار مظلم وبارد في هذا الوقت من السّنة. هو لا يطلب شيئا، لكنّها تخشى عليه التّعب والمرض والعقارب وهوام الأرض، ولا يهنأ قلبها أن تنام في الفراش الوثير والبيت الدّافئ، وينام هو على الأرض بين صخرتين معترضتين في التقائهما وُلد هذا المكان الموحش الذي لا يزيد عن أربعة أذرع، لكنّ الوحشة قلبيّة والأنس قلبيّ أيضا... وأنسه كان كبيرا يستوعب الغار والجبل بأسره.

لم تتوقّف عن التّفكير في كلامه وفيما يراه حتّى بعد أن تركته وعادت إلى البيت، وهي تستحضر علامات وجهه التي تقول الكثير. هو خائف، مرتاب ممّا يحدث له في الأشهر الأخيرة، لعلّها ستّة أشهر بالتّمام. لا يغيب كلامه ولا ملامح وجهه عن تفكيرها، طالما تردّد وتردّد: **إنّي إذا خلوتُ وحدي سمعتُ نداء خلفي: يا محمّد، يا محمّد، فانطلق هاربا في الأرض. وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر.** لم تزد

يومها على أن طمأنته وهدّأت روعه، وإن كان قلبها لا يقلّ ارتجافا عنه...

لا يمرّ بحجر ولا شجر إلاّ سمع صوتا يحيّيه ويسلّم عليه. السّلام عليك يا رسول الله. يلتفت خلفه وينظر أمامه، وعن يمينه وشماله، فلا يرى شيئا. إنّ هذا الحجر والشّجر يعرفه، أتراها الجنّ والعفاريت؟! لم ير له شفة أو لسانا أو هيئة، ولا أحد يختبئ وراءه، كأنّما في الشّجر روحا وفي الحجر مهجة تشتاق وتحنّ، وتسلّم وتسجد.

ظلّ ذاك الحجر يناديه ويسلّم عليه كلّما مرّ، كأنّما يرقب مروره بقلبه.

- " أنت رسول الله"

لا أحد في الجوار.

من أيّ طينة هو هذا الحجر؟ من أنطقه؟

هذا الحجر يختلف عن بقيّة أحجار هذه القرية التي استوطنت الكعبة، الحجر يسلّم عليه ثانية وثالثة ورابعة كلّما مرّ مع كلّ إطلالة شمس، ومع كلّ غروب، إذا ما مرّ بقربه تبلغ به الدّهشة فيقف هنيهة ليستطلع المكان بعد أن كان يملؤه الخوف لأن يسرّع خطاه ليخبر زوجه خديجة. لا بدّ أنّ الشّجر الذي يسلّم عليه من صنو الشّجرة التي أظلّته في طريقه إلى سوق بصرى والشّام في سفرتيه الاثنتين.

- شجر وحجر يسلّم عليّ يا خديجة.

- الشّجر والحجر يكلّمانك؟!

عاد أدراجه ذاك الصباح الأوّل مرعوبا فزعا، أهو واهم، أبه جِنّة؟

أهو الأبيض الذي يحدّثه كلّما اقترب من صنم، أم تراه يتخيّل؟!

يشغل خديجة كلّ ما يحدث معه... الحجر والشّجر الذي يسلّم عليه، وذلك الحلم الذي يراوده. ما يفتأ يقصّه عليها، كرّره حتّى حفظته. **أجلسني على بساط كهيئة الدُرنوك***، **فيه الياقوت واللّؤلؤ، وهو يحمل نمطا من ديباج فيه كتاب، في وعاء كالسّفط***.

- وقال لي: اقرأ.

- وأنت لا تقرأ؟!

وعاد وغتّني وقال اقرأ ثلاثا **فهببت من نومي كأنّما كُتب في قلبي كتاب**.. تذكّرتْ كلامه وحيرته لهذه الرّؤيا التي تشغل باله وبالها في الآونة الأخيرة، كان فزعا وأنفاسه تتقطّع، يا لها من رؤيا تشقّ عليه.

بعد أن ودّع محمّد خديجة وعاد إلى الغار اقترب رجل ممّن يعيشون في شعاب مكّة وحوافها من زاوية يستطيع فيها أن يرى وجهه وما يفعل وحدّث راعي الغنم:

- ماذا تراه يفعل؟

- إنّه يتحنّث.

- ماذا... يتحنّث؟!

- ينقطع عن أهله وعن النّاس ليتأمّل. يتأمّل السّماء والنّجوم ويناجي ربّه اللّيالي الطوال.

---

* - الدرنوك: المنديل المُخمل أو البساط الشبيه بفروة البعير.

* - السفط: وعَاء تضع فيه النّساء الطّيب ونحوه.

- ينقطع في هذا الغار المظلم الموحش لأجل أن يتأمّل. أهذا يُعقل؟!
ومن ربّه؟ ترك في الأسفل عند الكعبة هبل وإساف ونائلة وغيرها من الأصنام التي تقطع كلّ القبائل المسافات والصّحاري لأجلها ليعبد ربّا لا يراه.

- دعك من ذلك، أنا لا أعرف، لكنّ ما يفعله يروق لي. أراقبه منذ أن اقتسم معي طعامه المرّة الماضية.

- انتبهت له بعد أن جرني إلى الجبل جديٌ مشاغب خرج عن القطيع فرأيته في السّفح يحيط به جماعة من عابري السّبيل يطعمهم طعامه ولا يبقي على شيء له، ثمّ رأيته صاعدا إلى الغار فأحببت أن أتبعه.

- ألا ينام؟

- أراه ينام في موضعه إلى وقت متأخّر من اللّيل.

- لشدّ ما تنفذ حركات وسكنات هذا الرّجل إلى قلبي، رغم أنّي لا أفهم ما يصنع إلاّ أنّه يروق لي.

- رأيته يفعل ذلك قبل سنتين في مثل هذا الشّهر، وهذه السّنة الثّالثة التي أحبّ أن أترك فيها أغنامي أسفل الجبل وأراقب ما يفعل هذا المتحنّث.

يتأهّب الغار لوداع الشّمس حتّى يخلو له وجه محمّد متأمّلا مصغيّا لما حوله ويعود الرّاعيان من حيث أتيا.

-4-

ما فتئ يتلفّت منحدرا من الجبل تاركا غار حراء خلفه وقشعريرة تسري في كامل جسده بدأته من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، كانت اللّيلة صعبة عليه، ما رآه ما كان ليخطر على باله. الرّعدة تمنعه من الإسراع، ودّ لو تدثّر بكلّ أغطية المعمورة، لو بقي في الغار حتّى يشعر بالتّحسّن، لكنّه ما كان ليقدر، فقد كان الملك مهيبا وهو يملأ آفاق السّماء.

بقي ينظر إليه لا يتقدّم ولا يتأخّر إلى أن انصرف، ما رآه وما حدث له يفوق تصوّر البشر، لا يستطيع بعدما رأى وسمع أن يبقى ساكنا ويظلّ في المكان لحظة واحدة، في الغار الذي كان خلوته المفضّلة أيّاما وليالي كثيرة، وترك لأجله أهله ومكّة كلّها. سرى والظّلام لا يزال يغطّي مكّة وما حولها وكلّ جسده يرتعد وأسنانه تصطكّ ويداه ترتجفان.

لو انتظر ليأخذ أنفاسه عند شعبة من الشّعب، لكنّه مرعوب من الملك، هذا الخوف يكاد يُجهز عليه، لا يستطيع أن يأخذ أنفاسه وينزل الجبل على مهل ليقصد بيته. السّلام عليك يا رسول الله. انتفض مذعورا، شجر وحجر يخرّ ساجدا. السّلام عليك يا رسول الله. ما هذا، أيّ صباح هذا الصّباح؟ زاد ارتعاده وحاول أن يُسرع أكثر. كم يبدو البيت بعيدا!

شعاب مكّة ووديانها تخيفه وهذا الصّوت الذي لا يعرف مصدره. أيّ ملك صاف قدميه بين السّماء والأرض تجلّى له في الغار؟! دنا منه،

وضع يده على صدره. لا تخف أنا جبريل وأنت رسول الله... أيّ رهبة تركها في قلبه، ما أضخمه، كان صافّا قدميه بين السّماء والأرض!

رفع رأسه إلى السّماء، أتراه لا يزال يراه ويراقبه؟ لقد اختفى، ولكنّه رغم انصرافه إلاّ أنّ كلامه وصوت هذا الذي يسلّم عليه يدوّي في رأسه، وترتجف له كلّ جارحة من جوارحه. مرّ على البيوت النّائمة المطمئنّة، أسرعَ لكنّه تعثّر وكاد يسقط، واصل سيره، البرد يزيده ارتعادا، وأثر غتّ الملَك له لا يزال يشعر به على صدره.

السّلام عليك يا رسول الله. الشّجر والحجر ساجدون، أهناك من يقف خلفها ويكلّمه؟ إنّها تتحرّك، تنحني وتسجد وهو يمرّ أمامها ورعدته تزداد. لا أحد خلفها تأكّد، لا أفواه لها ولا أعين، ودّ لمرّة واحدة أن يرى من يتكلّم إليه ولِم هو دون غيره؟ وماذا يريد منه؟

رشح عرقا، عيناه جزعتان ونبض قلبه يرتفع وينخفض بقوّة، ارتجف، التفت، لم يعد في السّماء أحد. سرّع خطاه منحدرا من الجبل يقصد بيته. لهث، وقف قليلا ليلتقط أنفاسه ثمّ واصل سيره. أيّ ليلة هذه وأيّ صباح؟! إنّها كفلق الصّبح، تراءى له الملك كفلق الصّبح ليلة الكشف.

التفت للمرّة الأخيرة إلى سماء مكّة وسماء الجبل، لا شيء لم يعد يرى شيئا، الظّلام يغطّي البيوت، وضوء رقيق بدأ يتكشّف.

أخيرا لمست يداه المرتعشتان باب بيته، تنفّس بعمق، طرقه طرقة أولى وثانية... وثالثة.

لا حركة في البيت، هم نيام عدا الخدم ممّن بدؤوا ينطلقون في أشغالهم ويتجهّزون لأعمال النّهار.

- لم يتمّ سيّدي الشّهر كعادته كلّ سنة، عاد باكرا، أتراه نضب منه الماء والطّعام؟ لا أعتقد أنّ سيّدتي لم تحسب لذلك حسابا؟! فكم تحرص على راحته وتطلب منّا عدم إزعاجه وتركه لخلوته، وتُزوّدُه بكلّ ما ينقصه حتّى وإن لم يطلب.

- لعلّه أطعمه لعابري السّبيل المارّين بالقرب من هذا الطّريق ورجع ليتزوّد! ما دخلنا يا امرأة نحن مجرّد عبيد وخدم وهذا بيته يأتي إليه ساعة شاء، هيّا نبدأ أشغالنا.

- يبدو فزعا، على غير عادته، إنّ جسده كلّه يرتجف، ألا ترى يا رجل ما أرى؟!

- إنّه يدخل مقصورته... إنّ في الأمر أمرا، أتراه مريض؟!

- حقا إنّه يبدو غريبا، وعلى غير ما يرام!

ما إن رأته خديجة حتّى فزعت.

- أرسلت في طلبك فلم أجدك، رجعوا إليّ بعد أن بلغوا كلّ شعاب مكّة دون خبر عنك!... ما بك؟!

محمّد يرتعد:

- زمّلوني، زمّلوني.

- يا جارية لا تقفي هكذا، آتيني بالغطاء، أسرعي...

جلست بقربه تطمئنه، ما زالت كلّ فرائصه ترتعد، غطاء آخر أسرعي! مسحت وجهه وأمسكت بيده لعلّ الرّعدة تتركه وشأنه. لا تقلق، أنت بخير، ستكون على ما يرام.

بعد أن سرى في جسده الدّفء، وعاد إليه لون سحنته، وهدأ تماما، لم تستطع أن تؤجّل سؤالها أكثر:

- ما بك يا محمّد؟ أبك شيء؟

- ملَك أتاني من السّماء.

- ملك؟

- وما أدراك؟ صِفه لي

- قال لي أنا جبريل وأنت رسول الله. **أرأيت الذي كنت أرى في المنام، والصّوت الذي كنت أسمع في اليقظة وأُهال منه فإنّه جبريل قد استعلن لي وكلّمني و أقر أني كلاما فزعتُ منه.**

- أيّ كلام هذا الذي أفزعك؟! ماذا أقرأك أخبرني؟

- قال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني حتّى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثّانيّة حتّى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني، فقال: اقرأ. فقلتُ: ما أنا بقارئ، فغطّني الثالثة حتّى بلغ منّي الجهد، ثمّ أرسلني فقال: " اقرأ باسم ربّك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربّك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم".

ثمّ قال لي: لا تخف يا محمّد إنّك رسول الله و انصرف

- إنّها الرّؤيا التي طالما راودتك... قد تجلّت كفلق الصّبح.

- فرجعت لا أمرّ على شجر ولا حجر إلاّ هو ساجد.

كأنّما بها روح ولها أفواه وعيون تراه وتعرف ما حدث في غار حراء.

السّلام عليك يا رسول الله... السّلام عليك يا رسول الله. كاد رأسه ينفجر، وقلبه يتوقّف من شدّة الرّعب.

- لقد خشيتُ على نفسي.

- كلاّ والله ما يخزيك الله أبدا، إنّك لتصل الرّحم، وتحمل الكَلّ وتكسب المعدوم، وتُقري الضّيف، وتعين على نوائب الدّهر.

مع كلماتها عادت إليه أنفاسه وبدأت تتبخّر كلّ مخاوفه. اطمأنّ، وسكن وكلماتها تتردّد: كلاّ والله ما يخزيك أبدا... وذكر أمّه وما حكته له من الرّؤيا التي راودتها أثناء حملها وكثيرا ما ردّدتها مربيّته بركة من صباه إلى شبابه: لقد حملتُ بسيّد هذه الأمّة. اعتقدَ أنّها مجرّد رؤيا راودتها بعد أن صارت وحيدة عند موت والده تأنس إليها. وطاف حتّى قول بركة بذهنه: أرادتك أمّك سيّدا عظيما.

استيقظت فاطمة للتوّ بعد أن سمعت جلبة غير معتادة في البيت:

- والدي عاد، ألم تقولي إنّه سيكمل الشّهر ككلّ سنة.

- إنّ والدك متعب، اتركيه لينام. سأخرج ولن أطيل الغياب، لا توقظيه اتركيه ليستريح.

التفت في ثيابها، وهي تفكّر فيما حكاه لها، وفيما وقع، ولم تخرجْ إلاّ بعد أن هدأ وأصرّت عليه حتّى طعم وشرب ثمّ غفا أخيرا، متّجهة إلى دار ابن عمّها ورقة بن نوفل ليشرح لها ما حدث لعلمه بكتب الأوّلين.

مقام الرّحيل

أردتُ قبل أن أحمل الرّسالة في جراب الجلد وأرحل أن أرى محمّدا من بعيد وأستمدّ القوّة منه قبل أن أغادر، أتزوّد من محيّاه، قبل أن أنطلق إلى البلقاء ونصيبين ومن ثمّة إلى ميناء غزّة لأركب البحر، إلى مهمّتي الكبرى التي أدعو الربّ أن يوفقني فيها.

الغار مظلم وبارد، والقلب منفتح على جرحه وعطشه. حفْر على الصّخور، لمن يا ترى هذه الآثار؟ أكيد أنّها للأوّلين من الفارّين من عشائرهم، ممّن نبذتهم قريش. تحسّستها بأطراف أصابعي، رجل على ناقته، رماح، سيوف، أوان فخاريّة لأناس غُفْل.

غار حراء ملاذ المنهكين من الحياة، الوقفة التي يجب أن يلجأ إليها كلّ امرىء بعد فترة من حياته ليطرح ما بَلي من جلده ويكون إنسانا جديدا. أردتُ أن أبيت ليلة في هذا الغار الذي طالما حدّثني عنه سيّدي ورقة، أن ألمسه وأشمّ رائحته، وأعيش ليلة من ليالي الذين مرّوا من هنا، أن أرى أين وقف زيد وحفر وجه صفية بسكّينه، وأين ناجى محمّد ربّه وكلّمه الملك لأوّل مرّة وغتّه غتّا أرجفه.

مكّة من هذا العلوّ تبدو مختلفة هادئة إلى حدّ الرّتابة المريبة، والنّجوم تظهر أكثر صفاء، أستطيع أن أراها وأستأنس بها.

أعدتُ قراءة ما بيّضته اللّيلة الأخيرة قبل وفاة سيّدي ورقة، وأضفت بعض التّفاصيل والأحداث فبعد أن اشتدّ عليه المرض انشغلت، ولم أتمكّن من التّقدّم في الكتابة وبقيت كلماته تدور في ذهني كلّ هذه الأيّام وتلحّ لتخرج. اغرورقت عيناي حتّى لم أستطع الرّؤية وأنا أتذكّر كم تكبّد من مشقّة لأن يتمّ رواية سيرته، مسحتهما

بظهر كفّي وعدتُ إلى القراءة ثانيّة ثمّ وضعت القلم في المحبرة وشرعت في ملء اللّفافة التي كانت بيدي. أشعر به بقربي وبكلماته تخرج نورانيّة تحدّثني، وبألمه آخر أيّام حياته وشدّته على نفسه لنتمّ الكتاب.

- أطمعُ في كرمك سيّدي.

- تحدّث يا خانوم...

- أحلم أن أنقل هذه اللّفافات إلى أهلي في مدينة فلورنسا، إخواني وأبناء عمومتي. أتسمح لي يا سيّدي.

بكى القسّ الضّرير ثمّ رفع يديه إلى السّماء وغاب في دعاء طويل تصوّرت أنّه نسيني، إلى أن تنفّس نفسا عميقا:

-ما كنت لأتمنّى أكثر من ذلك، أنا أثق بك، افعل ما تراه مناسبا. أنت حرّ ما إن تنجز مهمّتك، لم يعد لأحد السّلطة عليك سوى الربّ.

بكيت في حجره وشممت لوهلة رائحة أبي وشعرت بملمس يديه على رأسي. كم كان سيّدي فرحا بفكرتي رغم آلامه ومرضه، أن آخذ الكتاب وأرحل به ليتعرّف على محمّد أبناء جلدتي وأهلي.

أطفأتُ السّراج الذي كان ينير لي عتمة الغار قرابة منتصف اللّيل، ثمّ توسّدت مزودي قبل أن أشدّ الرّحال لمهمّة لا أدري كم تدوم وإلى ما تنتهي. طاف بذهني السّنوات التي صحبتُ فيها سيّدي القسّ منذ أن انطفأت عيناه، وصوته الضّعيف القادم من غرفته:

- صرت يا خانوم بصري وقلمي الذي أكتب به.

وعدته أن أحفظ وصيّته وهو يغمض عينيه، عليّ أن أوصل الرّسالة ثمّ أرحل إلى موطني. مؤكّد أنّ بطريرك نصيبين سيتصفّح كتاب أحمد بلهفة، أنا على يقين، وسينطفئ ظمؤه وسيرتوي. وراهب البلقاء كم تحمّس سيّدي ورقة لأن أحمل له البشرى، فلو كان زيد بن عمرو حيّا لفعلها.

استعصى عليّ النّوم بعد أن اصطخبت في رأسي وفؤادي الكثير من الأشياء: صورة الملَك الذي كلّم محمّدا في هذا المكان الموحش، كيف تراءى له وحدّثه، أيّ هلع أصابه، وانحداره مرتجفا إلى زوجه السيّدة خديجة، مازال الغار طازجا بخوفه ونفَسه وهيبة الملَك، وتلبّستني حالة شبيهة بحالته وشعرت برجفة غريبة. أخرجت من الجراب إنجيل أبي، الإنجيل الذي أنقذته أمّي من الحرق ليلتها، لعلّي أجلب بعض راحة البال وأدفئ الرّوح وأطرد قلقي لأنام قليلا.

صباحات طفولتي واحدة وأنا ألعب بالطّين وأدقّ بالإزميل والمطرقة على الحجر ووالدي يرتّل ما يقرأه من هذا الإنجيل المغلّف بقطعة كتّان فصّلها على مقاسه ليُودعها فيه، ويخفيه كلّ صباح في شقّ من شقوق الدّار، هذا ما أنقذه من الحرق.

صوت أختي الكبرى يعلو في هذا الخلاء وهي تناديني لأُعينها ووالدتي على حمل ما صنعتاه بالطّين: بيتريوس بيتريوس... امتلأت العربة بالمجسّمات، حذار أن تكسر واحدا وإلاّ...

من أنا؟ ولم تركت موطني؟

البوح صادم... اسمي بيتريوس الفلورنسيّ حفَرَ والدي اسمي في حرز من جلد ألبسُه في رقبتي إلى الآن صنعه لي خصيصا، ولكن أُطلق عليّ اسم جبر في بصرى الشّام عندما كنت سائس خيل ثمّ ساقيّا في مخمرة، وسمّاني سيّدي الاسكندريّ خانوم عندما رأى نبض الحياة في ما أصنعه من الطّين والحجر. منذ ذلك الحين أحتفظُ بمجسّم لوالدي منحنيّا يحمل على ظهره حجرا من الرّخام، وهذا الشّمعدان على شكل صليب.

اسم والدي ماثيو، وهو في لغتنا يعني هبة اللّه. سمّاه والده به بعد أن رُزقَه بعد سنوات يأس كاد ينقطع فيها نسله، جراء مرض كان يصيب كلّ من يولد له فيفتك به في حوله الأوّل، ويفطر قلب جدّتي. وتُدعى أمّي هيلين، وهي في لغتنا المرأة الجميلة الصّبورة، عندما بدأتُ أدرك لم أجد من جمالها شيئا، لم يبق منه إلاّ القليل. أنا الابن الأصغر بعد ثلاث بنات وأخ يكبرنا، إلاّ ما تبقّى من عينيها الخضراوين، وشفتيها المصبوغتين بلحاء شجرة الجوز وأوراقها في المواسم والأفراح التي كانت تبدو فيها مختلفة وهي تشدّ خاصرتها وترقص على طريقة الفلورنسيّات، وشعرها الذي كان كالبحر إذا ما فكّت ما تشدّه به انهمر وتدفّق وأذهلني، وغمر جزءا من وجهي وهي تضعني في حجرها.

سمّياني بيتروس وهي في لغتنا الصّخر القويّ، فقد كان أبي نحّاتا يجلب الحجارة والرّخام الأبيض من جبال كرارا على عربة يجرّها حصان اشتراه لهذه الغاية بعد أن يقطع مسافات طويلة... ولكنّ أمّي تناديني بيتر. أثبتت الأيّام أنّ اسمي صورة منّي، صدق من قال إنّ

للاسم نصيبا من صاحبه، ولكنّ صفة الصّخر انصرفت إلى قلبي وأحاسيسي والتصقت بها من هول ما حدث لعائلتي.

أرادت أمّي أن أكون كاهنا، ورغب أبي في أن يعلّمني حرفته، حرفة النّحت، وصنع أيقونات المسيح وأمّنا العذراء، لم أكن أحبّ الرّهبنة ولا الكهنوت، وكانت حياتي دون معنى تتجاذبها الرّغبتان إلى أن التقيت مونيكا الفتاة التي همتُ بها وأنا أغدو إلى السّوق مع أمّي لأبيع قطع الطّين ومنحوتات أبي.

كانت امرأة لفَظَها الحُلم، فريدة ووحيدة ومذهلة، أراها كلّ أسبوع متربّعة أمام بسطة الخضر. رغبت أن تكون زوجتي إلى الأبد ووعدتها أن أريحها من غوغاء السّوق ونزق المارّة، لكنّ الجنديّ الذي تحرّش بها هو من فرّق بيننا.

رغم الهدايا التي كان يهبها أبي للكنيسة إلاّ أنّها لم تنقذ بيتنا من الحرق في حملات التّطهير، أيقونات العذراء التي كان ينحتها، ويهديها التي لم تُبَع منها كلّ أسبوع بعد قدّاس الآحاد، يرجو من الأب جورج أن يدعو له أن تبارك العذراء تجارته وأولاده. معظم بيوت حيّ الخزافين كانت من القشّ، وما هي إلاّ بضع ساعات حتّى تحوّل الحيّ بأكمله إلى محرقة كبرى جماعيّة.

فلورنسا مدينة احتراقي وألمي وفي غزّة بيعي، وفي بصرى وجدتُ في المهور والأفراس التي أحببتها عائلتي التي حُرمت منها عندما اشتغلت سائس خيل، ومن تاجر إلى تاجر يزايدون على بيع لحمي. أنا من الرّقيق الأبيض الغالي الثّمن، يتوافد عليه التجّار العرب لما يتّسم به

من جمال وحسن ولما يجيده من أعمال وحرف على خلاف الرّقيق الأسود الحبشيّ، من الرّوميين من صقليّة ومالطا وأجناس أخرى كثيرة كان يحملها المركب يومها مكدّسة يزكم أنفي رائحة عرقها. رقيق يقرأ ويكتب ويعرف معاني التّوراة والإنجيل، ويعرف الآراميّة واليونانيّة واللاّتينيّة وحتّى العربيّة أيضا وإن ينطقها بلكنة، ولكنّها لكنة جدّ محبّبة عند أهل هذه البقعة... ويجيد ما لا يجيده البدو والعرب الأجلاف من صناعات.

إلى أن انتقلت إلى كنيسة الإسكندريّة حيث تفتحت عيناي، هناك تعلّمت الكثير واستقرّت روحي وعدت إلى صناعة أمّي وقت الفراغ وحننت إليها. لمّا صنعت هذا المجسّم الذي أحمله لأبي وأكلّمه كلّما ضاقت بي الدّنيا، وأيقونةً للعذراء سمّاني سيّدي خانوم وقال لي يومها:

- أتدري ما خانوم أيّها الفتى الفلورنسيّ؟

صمتت وأنا أرفع حاجبي وأُعلي شفتي السّفلى.

- هو عند الفراعنة من يهب الحياة للمنحوتات، الإله الذي يخلق من طمي النّيل على عجلة الفخّار... ثمّ يهب مخلوقاته الحياة.

أعدتُ أبي بتمثال صنعته له بيديّ غير الماهرتين وبموهبة موروثة من جانبين، ولمّا أتممته صرت أحدّثه كلّ مساء عندما ينام الجميع.

بعد وفاة والدي اضطرّت أمّي لأن تعلّمني حرفة للزّمن الصّعب وإن تمسّكت برغبتها في ذهابي إلى الكنيسة.

- انظر إليّ، وتعلّم.

لكنّي كنت أحبّ أن أتعلّم القراءة والكتابة.

كانت والدتي تقول لي وهي منكبة على عجن الطّين بقدميها ويديها المتشقّقتين:

- تعلّم هذه الحرفة لعلّك تصنع شيئا ذا قيمة يخرجنا ممّا نحن فيه من هوان، شيئا يَذْكرك ويذكرنا بخير عند كبير الكهنة في الكنيسة، لعلّه يجزل لك العطاء أو يقربك منه، فيضمن لك عملا ينقذك ممّا نحن فيه، فلا تكون مثل والدك.

- لا تتحدّثي هكذا عن والدي، لقد تفانى في أن يقدّم لنا كلّ ما يستطيع. كانت يداه لا تجفّان من الطّين والتّراب الذي يجلبه لك، كنت أكره أن تتحدّث عنه أمّي بهذه الطّريقة.

- انتهى وتركني وحيدة لأربيك وأخواتك البنات.

انظر إليّ وتعلّم، أو لعلّك ترث من أبيك خفّته وبراعته في النّحت، ألا ترى كيف أنّ جميع الكنائس في المنطقة كانت تطلب ما يصنعه من أيقونات العذراء. لا أحد يضاهي عمله وإتقانه، والدك يحسّ بعمله، يداه من ذهب، وإن لم تفيداه في شيء، حتّى رجال الكنيسة لم يحفظوا لنا ماء الوجه. سكتتْ وبكت بحرقة...

مسحتْ دمعها كأنّما أدركت أنّها لا يجب أن تريني ضعفها. عاد إليها صوتها بعد أخرجته قويّا: اجلب لي الماء لأخلط الطّين ودعنا من هذا الكلام الذي لا طائل منه، عليّ أن أتركه يختمر إلى الصّباح ثمّ أشكّله. كان كلّ جذعها مائلا على حصير تفرش عليه كميّة كبيرة من الصلصال، وهي تكلّمني ولا تنظر إليّ، تنقّيه من الشّوائب كالحصى

والرّمال وما يمكن أن يعلق به. لا رمال ولا حصى حتّى يكون جيّدا. كانت تكرّر لتلقنني حرفة للزّمن الصّعب وكنتُ غير ملتفت لما تقول.

بعد أن لبّيتُ طلبها وشرعتْ في صبّ الماء بيديها المتشقّقتين اعتدل مزاجها وصار رائقا. قرّبتني منها، نظرت في عينيّ نظرة لم أفهمها حينها. تعالى يا بنيّ اقترب... أتَرى كلّما خلطت العجين بحبّ كان ناعما ولم يتشقّق، ارفس معي بقدميك القويّتين ليختلط ويتجانس. ردّدت هذا الكلام مرّتين. في الصّباح أخذتْ قطعة منه من وعاء التّخمير، ضربتها على حجر جعلته خصّيصا لهذا الغرض، ثمّ دعكتها بين أصابعها وبطن كفّها وأرتني. أترى نعومته، لقد استوى الآن.

جلستْ بعدها إلى حصير قديم وصمتت بعد أن طلبت منّي أن أراقبها. صنعت جرّة ممّا يوضع فيها النّبيذ أو السّمن أو ما شابه، أنهت عنقها برشاقة.. تركت الآنية لتجفّ يوما كاملا ثمّ أخذت حجارة من حجارة الوادي لترطيبها ثمّ دهنَتْها بدهن ملوّن لتسدّ مساماتها حتّى لا تتسرّب منها السّوائل بعد أن نقشتها بنقوش دقيقة، أوراق وأزهار ورؤوس بطّ ثمّ فخّرتها في اليوم الموالي بالنّار. صنعت لي بما تبقى من طين كانزة نقود على شكل بطّة أيضا، وضعتُ فيها دينارين بعد أن بعنا كلّ بضاعتنا في السّوق. أوّل دينارين أكسبهما من عرق جبيني، لي وحدي.

هذا الغار يعيدني إلى ذاكرتي وأحزاني.

قفزت كلمات القسّ ورقة بعد مجموعة نقاشات دارت بيننا في سنتي الأولى معه كضمادة على قلبي:

-لست كاتبا عاديّا يا خانوم، أو أناديك جبرا، أو بيتر. قلت ذلك من أوّل يوم رأيتك فيه، أقصد سمعتك فيه في مناقشة دارت بيننا حول إيمان أوغسطينيوس التاهستي.

-لذلك أمرتَ لي بغرفة خاصة مجهّزة بكلّ أشكال الرّاحة التي لا يطمح أن يحظى بها كاتب متواضع مثلي. منضدة واطئة من الخشب الجيّد، ومحبرة نحاسيّة ولفائف بردي كثيرة، وسمحت لي بالاطّلاع على كتبك النّفيسة، وشرّفتني بأن جعلت الغرفة متاخمة لغرفتك.

-لكنّي لم أعلم حينها إجادتك لصنع الأيقونات المسيحيّة ممّا يشيع في بلادك وبلاد الشّام إلاّ عندما أخبرني غلامي بما رآه منك من محاكاة تمثال ابنة عمران وابنها، ذاك الموجود في جوف الكعبة، نسخة طبق الأصل لكنّها مصغّرة، الهديّة التي أهديتني.

- تلك حرفة مقيتة مميتة ورثتها عن والدي.

- لم تقول مقيتة وأنت تؤدّيها بهذا الجمال والإتقان، يداك من ذهب يا خانوم؟! ومميتة أيضا... أمرك عجيب؟!

***

كرارا المدينة التي طمرت أبي تحت ترابها، هو من صنع بحجارتها أيقونات المسيح، لا أنسى عصر ذلك اليوم الذي كاد يقلع فيه باب بيتها من شدّة الطرق.

تفاجأت بوقوف صديق والدي على العتبة، يرفض الدّخول مرتعشا والدّموع تنزّ من عينيه، رأيت يومها لأوّل مرّة رجلا يبكي.

- ماثيوس مات... سقطت عليه حجارة الجبل.

كان باكيا ومغبرا كأنّما مُرّغ للتوّ في التّراب ودفن ثمّ خرج كالشّبح، كان يمكن أن يكون مكانه، جلس أرضا وروى لنا عن مكوثهما يوما كاملا بحثا عن حجارة جيّدة ملائمة للأيقونات والمجسّمات. خرّ عليه سقف الكهف أثناء الحفر بينما كنت في الجوار أحضر طعامنا. مات والدي جائعا وكُتب لصديقه عمر جديد... مضى يومان من البحث الدّؤوب حتّى تمكّنوا من استخراج جثّته.

لم تسمح لي أمّي برؤيته رغم أنّي بكيت كثيرا ولم أعرف السّبب. سمعت فيما بعد أنّ رأسه تهشّمت وكسرت ساقاه. أذكر في سائر الأيّام وجهه المغبر وقدميه المتورّمتين حتّى أنّه لا يقوى على الخروج للسّوق، فتأخذ أمّي منحوتاته مع أشكالها الطينيّة لتبيعها بنفسها وتصحبني معها.

غارت شقوق يديها واتّسعت بعد هذه الحادثة، ولم تعد تصنع لي كما في الماضي دمى للّعب، وتقول ليس لي وقت لذلك. الحجارة والمنحوتات هي من قتل والدي، لو كان لأيقونات المسيح والعذراء جدوى لحرسته.

توالت علينا المصائب بعد وفاته، أحرق بيتنا فلم يعد لنا مأوى في حريق مهول إثر حملة شنّتها الكنيسة على المارقين في القرية والذين كانت تسمّيهم المهرطقين. كانت ألسنة اللّهب تتلوّى كأفعوان يكبر يأكل الأخضر واليابس، رأيته بأمّ عيني يقفز من بيت إلى آخر. أوصدت أذنيّ من شدّة صراخ الأطفال والنّساء، شعرتُ بالاختناق وشُلّتْ أيّ قدرة

لي على التّفكير، حتّى الوادي بعيد يحتاج جهدا جبّارا لجلب الماء، لو كان أبي حيّا!

ما عسانا نفعل؟! كانت النّار كشيطان لعين جشع يقفز، ولا يكتفي بوجبة واحدة ولا وجبتين، يترك الرّعب خلفه ويمضي لما جاء لأجله، ولن يكفّ حتّى يبتلع الجميع.

في المساء بدأت النّيران تخمد بعد أن لم تجد ما تأكله. كان وجه أمّي يومها أحمر تحت اللّهب، احمرار اليأس والموت، مخنوقا معصورا كأنّ ذلك الأفعوان لم يترك لها ولا قطرة ماء فيه، تُعانقني وأخواتي وتحمل في يديها بعض الثيّاب وما استطاعت أن تخطفه من ألسنة اللّهب، وعيناها تقولان لو كان والدكم حيّا لمّا تجرّأ علينا ذاك الشّيطان ولافتكّ منه الكثير، ثمّ تمتزج دموعها بابتسامة شاحبة وهي تجمّعنا سالمين.

آوانا عمّي في غرفة صغيرة لا تصلح حتّى للبهائم، زوّج أخواتي الثّلاث لأوّل من طلبهنّ بعدما حدث لنا، أمّا أنا فقد فررت بعد أن قتلت جنديّا تحرّش بمونيكا.

راقبته واستغليت فرصة انفراده وضربته حتّى الموت، لم أكن أنوي قتله لكن هذا ما حدث، فقد كانت ضربات الرّأس بإزميل والدي قاضية. فررت بجلدي بعد أن شاع خبر مقتله وحكم عليّ بالإعدام وظللت متخفيّا إلى أن تمّ أسري.

في فترة هروبي واختبائي من الجنود عادوا إلى عائلتي وعنّفوا أمّي ولم أستطع أن أدفع عنها أذاهم، بكيت ليلتها وضربت رأسي على الأرض حتّى شُجّ ولا زلت أحمل تلك النّدبة التي تذكّرني بعجزي.

بدأت عبوديتي عبر البحر، أسرني الدّوار والغثيان ورائحة أجساد العبيد قبلي، رائحة عرقهم وفضلاتهم وهوانهم وحيونتهم التي كانت هذه بدايتها. اشتراني تاجر روميّ، واصطحبني إلى الشّام وهناك تعلمت العربيّة، ثمّ باعني لتاجر نجراني مونوفيزي يؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح ثمّ لمصريّ ألحقني بسيّدي راهب الإسكندريّة الذي سمّاني خانوم وله أكبر فضل في تعليمي وما أحمله من معارف، وهو من لقّنني الطّريقة النّسطوريّة... إلى أن أهداني إلى القسّ الضّرير ورقة بن نوفل، قسّ بني أسد.

نعمتُ بالاستقرار في السّنوات التي صرت فيها كاتبا لراهب الإسكندريّة ثمّ للقسّ ورقة بن نوفل، وانصرفت إلى القراءة بعد أن أدّيتُ مهنا أخرى كثيرة.... أتيت على كلّ كتبهما النّفيسة والنّادرة بعد أن فتحا أمامي مكتبتيهما ولم يبخلا عليّ بشيء.

تذكّرتُ عبوديّتي التي كانت بذوق البحر وملوحته، وكيف انتقلت عبره من مدينة إلى أخرى، أنا ابن الطّين والحجر، ابن المحرقة الكبرى بفلورنسا، ورهين فضل سيّدي راهب كنيسة الإسكندريّة، أنا الفلورنسيّ المونوفيزيّ النّسطوريّ الأبيونيّ، تجاذبتني حيوات كثيرة. والآن ليس لي من همّ إلاّ العودة بهذه اللّفافات إلى أبناء عمومتي بعد

أن تعبت من الفرار، أحدّثهم عن هذا القرشيّ المخَلِّص الذي عانى مثلي يتيما وفقيرا وراعي غنم بعدما سمعت عنه من مولاي ورقة.

صنعت أخيرا مجسّما لأبي بعد سنوات من وفاته حين انطفأ غلّي على تلك الحجارة التي طمرته. عزمت قبلها أن لا أعود إلى حرفته المقيتة، لكنّي لم أشعر حتّى حملت الإزميل والمطرقة ونقشت وجهه وتعبه على حجر مصريّ، وصنعت له تمثالا كنت أضعه في كفّ يدي وأشتغل عليه إلى أن أنجزته، وركّبتُ عليه رخاما أبيض هو آخر ما حمله أبي من جبال كرارا، وجدته مع أغراضه، ثمّ بدأت أحدّثه في وحدتي، وأحكي له عمّا أفعل وأشكو إليه. استعدت أبي وهو يحمل حجارة على ظهره في مثل حجمه، بدا كنملة ضعيفة تحمل أضعاف وزنها.

في النّهار أعمل على الحجارة أو الطّين، أصوّر مريم وابنها المسيح، وفي اللّيل أقرأ وأكتب. ازدادت شهيّتي، كنت كلّما قرأت رغبت في أن أبتلع المزيد. كان والدي يحسن تجسيد تمثال العذراء، والمسيح المصلوب، فكثير من كنائس فلورنسا تتزيّن بها وبأيقونات أخرى تحكي حوادث الكتاب المقدّس وحياة المسيح، المسيح المصلوب وعذاب الإنسان المتجدّد والخلاص..

رأيت في بلادي فلورنسا وما جاورها صور المسيح وأيقونات العذراء مزيّنة ومتقنة الصّنع، على غير ما رأيته في بلاد العرب التي طفتُ بكثير من حواضرها وبواديها وبعد أن استقريت كاتبا لسيّدي ورقة وأثناء

إيصالي لرسائله لأصدقائه من الرّهبان والقساوسة لم أر ما رأيته في مكّة من أمر تلك الحجارة، ألأنّها محجّة العرب؟!

لم أجد بين هذه القبائل غير صخرة ضخمة مربّعة بلا ملامح سمعتهم ينادونها اللاّت، ويقولون لأنّ يهوديّا كان يلتّ السّويق تحتها، وبساحل جدّة صنما يقال له سعد وهو صخرة طويلة مطموسة الملامح، وذا الخَلَصة مروة بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التّاج بين مكّة واليمن، حتّى إساف ونائلة اللّذان بصورة رجل وامرأة.

عدا الصّنم الموجود في جوف الكعبة المصنوع من العقيق الأحمر، صاحب اليد المكسورة التي جبّرت بواحدة من ذهب، الذي يدعى هُبل فيه شيء من الإتقان، وكذا تمثال السيّدة العذراء وابنها قاعدا في حجرها. أحبّ هذه الأيقونة، أمومتها صارخة، جلبت معي النّسخة المقلّدة منها التي صنعتها خصّيصا لسيّدي ورقة، فالشّخص الوحيد الذي يقدّرها حقّ قدرها غادر هذا العالم. أشعر بأنفاسها وعينيها في اطمئنانهما تريان السيّد المسيح، محقّ سيّدي القسّ هي أمّ استثنائيّة بكلّ المقاييس.

ورأيت الرّجل المكيّ يحمل أربعة أحجار إذا ما أراد سفرا، نظر إليها فانتقى أحسنها فجعله إلهه، واستنجى بواحد وجعل الاثنين المتبقيين لأثافي قدره. تماثيلهم غير تماثيلنا، نحن نشتغل على تجويدها حتّى تبدو بصورة تليق بالآلهة، ولها أسماء غريبة هبل واللاّت والعزّى ومناة، ومكانة لا يحظى بها حتّى البشر، ولأجلها تعقد الصّفقات وإليها تشدّ الرّحال.

لمّا وصلت مكّة دهشت من عدد التّماثيل التي يتعبّد بها المكيّون ومن يزور البيت، وأشكالها الصمّاء. حاكوا خوفهم وجهلهم وكلّ عوراتهم في هذه الحجارة، مجاور الرّيح ومطعم الطّير ومخبآت القدر... أذكرُ أبي الذي كان يحفر ما يريده النّاس على وجه المسيح والسيّدة العذراء، وكنت أسأله:

- أهذا وجههما الحقيقيّ؟

فيضحك منّي ويقول مستهزئا:

- لا أدري فأنا لم أرهما، ولكن هكذا تريد الكنيسة. هذا رزقنا، فلا تناقش يا ولدي، وإلاّ أصابك ما أصاب أخاك...

قُتل أخي الذي يشبه أمّي في جمالها وأبي في قوّته واتّهم بالهرطقة بعد نظمه لقصيدة في حبّ السّيد يسوع بعد أن عرضها في الأسواق والحانات والمنتزهات العموميّة، لرأي أبداه حول السيّد المسيح وصل مسامع نيافة البابا، نقلته عيونه الذين يغمرون المكان. صدق أفلوطين شيخ اليونان "إن الجنس البشريّ يقف في منتصف الطّريق بين الآلهة والوحوش".

بكيت أخي رغم كلّ هذه المدّة التي مرّت إلاّ أنّ الجرح ما يزال ينزف، نُهبت منه الحياة وهو فتى يافع مفعمٌ شعرا.

هربت من مدينتي، من أمراضها وأحقادها وصراعاتها، ومن ذاكرتي إلى أن وقعت في أسر جماعة من اللّصوص. عندما تكثر الاغتيالات والأحقاد يوجد دائما من يصطاد في المياه العكرة، أليس كذلك أبي،

طالما حذّرتني من ذلك؟ إلى أن وصلتُ إلى يد سيّدي الاسكندري وتعرف باقي القصة.

- أنت مثل ابني الذي لم أرزقه.

هذا ما قاله لي سيّدي ورقة عندما رويت له حكاية مقتي لحرفتك يا والدي.

لا تغضب منّي، أعلم أنّها الحرفة التي أطعمتنا خبزا، سأغطّيك فبرد الغار شديد، وأدعك تنام وأعود لأتوكّأ على مزودي لأرتاح أيضا، ينتظرني سفر طويل.

***

أصنع بالجصّ منحوتة لأبي وأخرى لأمّي وأحدّثهما. أصنع أمّي جميلة وأصنع لنا فراشا وثيرا وأتخيّل لها جواريَ وخدما وحشما وامرأة تطبخ لنا ألذّ المأكولات ومختلف صنوف الحلوى، وأخرى تليّن يديها ورجليها المتشقّقتين من كثرة الاشتغال بالطين. مع طلوع الفجر تتحرّك المنحوتات وتبدأ حياتها وأخفي كلّ الطين من بيتنا الذي لم يعد بيتنا وأدوات النّحت، بل أحرق البيت بما فيه بعد أن أصنع بيتا جميلا بلا أكوام طين مخمّرة منذ ليلتين ولا حجارة ولا مطرقة ولا إزميل، ولا جارة تأكل الطّين عندما تكون في أشهر حملها الأولى، تشتهيه وتطلبه من أمّي وليس لنا في البيت غيره.

صنعت في طفولتي ديكا ودجاجة وبطّة، وعندما كبرت قليلا صرت أتدرّب على تمثال يسوع على غفلة من أبي الذي ينهاني عن العبث

بوجه الاله، وبوجه القدّيسة مريم، وأنا أسرق منه الحجارة ومن أمّي بعض الطّين، ثمّ أخرج على حين غرّة تمثالا صنعته لوالدي وليسوع وللعذراء، معبّقا برائحة أمّي.

كلّ تماثيلي المشوّهة والنّاقصة والتّامة ومحاولاتي تتحرّك، دجاجة وديك طفولتي، وبطّتها أيضا... حتّى أيقونة العذراء والمسيح وقد فُكّ صليبه وشُفيّ من جراحه.

اِلتأمتْ يدا والدتي المتشقّقتان وصارتا ناعمتين. والدي يجني الكثير من المال، يبيع الحصان الذي كان ينقل عليه الرّخام ويشتري لنا ثيابا جديدة، ومونيكا جسد ممشوق وشعر أشقر هائج.

لأوّل مرّة أصنع مجسّما صغيرا لأمّي أتخلّص فيه من هواجسي، حاجباها، فتحتا أنفها أسوّيهما بالإزميل والمطرقة، أذناها وشعرها الذي صارت تحكم ربطه قبل أن تنطلق في عجن الطّين بقدميها.

رأيت تماثيلي الأولى تتحرّك، فركت عينيّ، تمثال أبي صار يافعا كما كنت أراه في صغري، المطرقة بيده وحجر أبيض ممتاز لمنحوتاته. تمثال أمّي دبّت فيه الحياة تُدلّك برجليها التّراب والصّلصال وتحضّره ليوم غد، تخمّره، ألم نقل حياة بلا طين؟! وددت لحظة لو صنعت مجسّما لمونيكا لكانت هنا أيضا ولتحرّكت لأحدّثها وأعتذر عن هروبي. حتّى تماثيل والدي هنا، كلّ تماثيله للعذراء وللسيّد المسيح مصلوبا، أراه يفكّ القيد ولا أصدّق، ينزع المسمار عن يديه وقدميه. كلّ طين أمّي أيضا هنا، تتحرّك، تسير، تقوم، تشتغل، تجلس، تضع أمّي يدها

على وجهي تمسح عرقي، صارت ناعمة، اختفت تشقّقاتها. أودّ أن أعانقها بشدّة إلى آخر العمر وأشمّ رائحتها.

نفض أبي عنه حجارته، رأسه سليم لم يتهشّم كما أخبرنا صديقه في الجبل وكذا ساقاه سليمتان، لعلّها ضربة شمس تلقّيتها. تمثال والدي يقترب منّي. غفوتُ، شعرت بيد مونيكا على وجهي، بخصلات شعرها تلامسه، الظّلام مطبق وكاتم وأنا أشعر بالبرد وحبل الإعدام يلتفّ حول عنقي.

صوت أبي يدقّ الحجر، يكسره ويسحبه من الجبل وينزله من العربة ويعود به إلى البيت ثمّ يبدأ بالاشتغال عليه، يداه مرهفتان، تتحسّسان النّتوءات ومواطن البروز والنّحول والاستدارة وتحفلان بالتّفاصيل. أذكر اللاّت الصّخرة المربعة وأبتسم، ترى من شكّلها وكم قضى من وقت؟

ومن بين كلّ المنحوتات خرجت امرأة شمطاء سوداء مجرّدة من ثيابها وأخذت تخمش وجهها، ناشرة الشّعر. الويل، الويل. من هي هذه المرأة التي تولول؟ لا أعرفها! نادت بأعلى صوتها وهي تشدّ شعرها: أنا نائلة التي تنحر عندي قريش ذبائحها يئستْ أن أُعبد في مكّة بعد اليوم.

أهذا تمثال نائلة موضع زمزم بجانب إساف الذي تنحر عندهما قريش ذبائحها ويمسح بالدّم رؤوسهما، أقول أين رأيت هذا الوجه؟

شعرتُ بمونيكا تقترب منّي مع الفجر، وتشدّ على يدي وتسألني بعيون معاتبة لم تركتها وابنها في بطنها وغادرت. ابني؟ إن كان لي ابن أريد أن يعرف محمّدا، أن احكي له عنه.

كان شعاع الشّمس الذي تسرّب من انفراج بين الصّخرتين يمسّ وجهي. أخذت مزودي الذي يحوي برديات أحمد والإنجيل الذي ورثته عن والدي ووقفت من هذا العلوّ أودّع مكّة والبيت العتيق، مكّة التي ضمّتني كلّ هذه السّنوات قبل أن أنطلق على الفرس الذي أهداني سيّدي.

***

اللّيلة الثّانية بنزل التّيبر

حجبَ الظّلام خارج غرفة النّزل المطلّ على نهر التيبر عن فرامينو الرّؤية، فقط قناديل الزّيت التي ثبّتها الصّيّادون في زوارقهم وناقلو البضائع والمنقّبون عن الأشياء الثّمينة كانت تكسر الظّلمة وتجعله يبصر بعض الشّيء، وهو يسمع صوت ارتطام الماء بالمجاديف يبدّد السّكون.

بدا النّهر عند عتبة شرفته زيتيّا داكنا بعد أن انقشعت الظّلمة، وحلّت محلها سحب كثيفة من الضّباب، حتما لن يخلو منها في الأيّام المقبلة صباح من صباحات هذا الشّهر البارد.

ولكن ما إن تسرّبت أشعّة الشّمس حتّى بدأ الضّباب يتلاشى تدريجيّا، ورسمت لونا ذهبيّا على امتداد النّهر، على جهته الشّرقيّة، وصعدت إلى الكاتدرائيّة حيث يرقد بسلام القدّيس بطرس. وأطلت على شرفة الرّاهب، فسرى دفء لطيف في كامل جسده وهو يستمع إلى غناء ودندنة الصّيّادين وزقزقة العصافير التي يجذبها النّهر إليه، فتجتمع حول ما يقدّمه لها الزوّار والمتنزّهون.

فرك عينيه اللّتين تعبتا من فرط القراءة، لم يتوقف عنها منذ ليلة البارحة. لو علم صديقه بما حدث حتما سيردّد على مسمعه دون أن يسأم ما حذّره منه قبل أن يقدم على فعلته: ستصاب بلعنة أبديّة لن تبرأ منها. هكذا يشاع عمّن يسرق مخطوطا، لعنة أبدية ستلازمك وكلّ نسلك، فما بالك بمن سرق مخطوطين؟! إنجيلا محرّما وكتاب أحمد الذي جعله يدخل أعماق هذا الرّجل الذي اختارته السّماء من بين كلّ رجال زمانه.

الصّمت يطبق على المكان، مع رائحة الأخشاب التي تنقلها الزّوارق ورائحة الحبوب التي في الأكياس بعد أن تبتلّ بماء النهر. أشجار السّرو دائمة الخضرة التي تنمو في المنطقة والتي يصنع من خشبها الأثاث والتّوابيت جعلته أكثر نضارة وحيوية، وأدخلت بهجة إلى الزوّار والمتنزّهين الذين يجلسون على ضفتيه.

تململ قليلا وهو ينظر إلى الشّرفة وانتابه بعض الانزعاج من الطحلب الأخضر في إحدى زواياها ورائحة الرّطوبة التي أصابته بالعطاس المتواصل في هذا النّزل القديم. لكنّه سرعان ما انقشع عندما ألقى بكلّه على المقعد الخشبيّ المريح وأخذ يراقب الرّائح والغادي وهو يجمع ذراعيه ويحكّهما ببطن كفّيه متلقيّا برد الصّباح الأوّل، ويفرك بين الحين والآخر عينيه من قلّة النّوم.

ودّ لو يغطس في ماء النّهر لتتطهّر روحه، سيأخذ الكتابين وسيختفي عن الأعين، ويعيش في سلام وسينقلهما على مهله إلى لسان قومه. لاتينيّة كتاب أحمد صعبة لن يفهمها سوى الخاصّة ممّن قضوا جزءا من حياتهم بين الكتب. كتب برسم أنيق:

Il Libro di Ahmad

يبدو أنّ الكاتب الفلورنسيّ فعل كلّ ما في وسعه ليصل هذا الكتاب إلى أهله وأبناء عمومته.

سيمثل فرامينو أمام ديوان التّحقيق وسيُتّهم بالهرطقة وفساد المعتقد، وستقام عليه المحرقة التي لا يظنّ أنّ نارها ستخمد. ستُقصّ

أذنه ثمّ أنفه ثمّ أصابعه ثمّ يحرق وتنثر بقاياه في النّهر، كم يحمل النّهر من أرواح؟

Le ultime notizie sono un buon segno *

انشرحت روحه بغتة وانكشفت الغمّة عن فؤاده وطرحت كلّ مخاوفه والمثل الإيطاليّ يخطر بباله.

لم يترك مكانه حتّى أتى على اِلتهام جزء هامّ من الكتاب. كلّ هذا النّور لا يجب أن يُحجب، سأشرع فور استقراري في نقله إلى لسان قومي. أكيد أن القسّ الضّرير وكاتبه سيكونان سعيدين ومرتاحين في قبرهما بعد كلّ هذه السّنوات من أنّ كتاب أحمد سيجد من يقرؤه، وسيكون متاحا للجميع.

خطّ بحروف إيطاليّة بديعة كلماته الأولى وهو يُسلم قلبه لأحمد ويشعر بكلمات ورقة وزيد وخانوم تعلو في الغرفة.

تأمّل أيقونة العذراء التي وجدها مع الكتابين والمسيح الطّفل الذي يقعد في حجرها، ولفت انتباهه الشّبه الكبير بينها وبين بِييتا المنتحِبة، منحوتة مايكل أنجلو رغم اختلاف النّظرتين والمقامين. شدّه الوجه الملائكيّ للعذراء، حملت الأولى يسوع الطّفل والثّانية يسوع الشّاب المصلوب، ومع ذلك بدت في منحوتة أنجلو أصغر من ابنها بصباها الأبديّ الذي لا يفسده تعاقب السّنين.

لم يعد يخشى أن تصيبه لعنة المخطوط المسروق التي يشاع أنّها لعنة رهيبة وأبديّة، بل شعر أنّه سيغيّر حياته.

---

* - انقطاع الأخبار دليل خير.

طرق خفيف على الباب، سوّى فرامينو جلسته بعد أن أخفى الكتابين تحت السّرير، ثمّ نهض مفتعلا هيئة من يستفيق للتوّ من نومه وهو يهمّ بفتح باب غرفته.

- اعذرني سيّدي على هذا السّؤال، هل ستبقى معنا ليلة أخرى؟

أخرج كيس نقوده وناوله ما قيمة مبيت ليلتين أخريين حتّى يكفّ عنه وإن نوى الخروج فجر الغد، فأخذ في عدّ القطع النّقدية بانتشاء.

- أراك سيّدي لم تبرح الغرفة منذ وصلت لعلّك تشتكي من شيء، هل يمكن أن أساعدك؟

- أشعر بوعكة وأفضّل أن أستريح في غرفتي.

- هل أستطيع أن أقدّم لك شيئا؟

- لا لا، أنا بخير الآن، أنا أتعافى.. فقط أرغب في المزيد من الرّاحة والهدوء، لا تشغل بالك بي.

فقط أودّ أن أسألك.

- في الخدمة سيّدي الرّاهب.

انتبه بقلق للمرّة الأولى التي يخاطبه فيها بالرّاهب، نسي ثوبه الكهنوتي. تظاهر كأنّ شيئا لم يكن وسأله:

- سمعت آخر اللّيل أصواتا غريبة في النّهر ورأيت زورقا يحمل شيئا غريبا ثم صوتا يشبه بكاء أحدهم أو هذا ما تصوّرته.

- إنّ أهل الرّأس المقطوع مساء أمس استلموا جثّة فقيدهم من زوارق ناقلي البضائع الذين صاروا يتتبّعون مجرى النّهر وينتشلون الجثة

عند السّاعة الأولى من رميها قبل أن يجرفها النّهر وتلتهمها الأسماك أو تتعفّن ويبيعونها لأهلها في سريّة تامّة.

- حقّا، يا للهول...

تملّكه خوف شديد، بلع إثره ريقه. مرّر أصابعه بين كتفيه وصدره على شكل صليب.

السّحابة السّوداء التي غطّت سماء نهر التيبر وما قاله مالك النُّزل جعلاه ينكفئ إلى الغرفة ويغلق باب الشّرفة، ويستمع إلى هواجسه التي كان يقطعها بين الحين والآخر صوت احتراق الخشب في الموقد، وما هو إلاّ وقت قصير حتّى تحوّلت المدينة إلى اللّون الرّماديّ الباهت بعد تقلّب الجوّ وهطول المطر الذي دام ساعات دون توقّف.

انحنى شجر السّرو لأوّل نسيم هبّ بعد أن أثقل المطر أوراقه، وأطلّ عليه من زجاج الشّرفة. دفعته رطوبة الغرفة ليقترب من الموقد أكثر.. اصطكّت أسنانه فالثيّاب التي أحضرها ليست كافيّة بعد أن برُد الجوّ بصفة محسوسة. نزع البطانيّة القديمة التي كانت تغطّي السّرير والتحف بها على الأريكة المتواضعة قبالة الموقد، ومع شعوره بالدّفء أخذته إغفاءة قصيرة استفاق إثرها فزعا.

رأى نفسه مشنوقا على الجسر وجثّته بعد أن تدلّت سقطت سقوطا حرّا في النّهر، تمنّى لو تلتقطها الذّئبة لوبا وتبعث فيها الحياة كما بعثتها في الأخوين. سمع عواءها قويّا وحزينا... أعاده نقر طائر النّورس إلى جوّ الغرفة. نقر نقرتين أخريين، أدهشه وجهه وهو يطلّ عليه من نافذة الشّرفة، حتما هو جائع.

وعلى إثره نهض ليفتّت له ما تبقى من وجبته السّابقة، ثمّ خرج إلى الشّرفة ليراقب حركة الزّوارق بعد أن أغفى هذه الإغفاءة القصيرة التي أرعبته. مياه النّهر بعد اكتنازها تسري بنعومة بعد أن صفا الجوّ، شعر بقدميه تبلّلان بمياهه والذّئبة لوبا تعوي، صوتها لم يسكت في داخله منذ قدم إلى هذا النّزل وسكن الغرفة.

خرجت الطّيور بعد توقّف المطر من أعشاشها، ثمّ انخفضت لتدخلها تحت جسر سانت أنجلو في فراغات الحائط الدّاخليّ لأقواسه السّبع، عائدة بطعام صغارها. وماهي إلاّ دقائق حتّى خرجت ثانيّة لتقف على تمثالي القديسين بطرس وبولس تنفض ريشها وتتشمّس. المنظر بديع بعد هذا الصّفاء لولا ما يكدّره.

عند منتصف اللّيل... ارتسمت حروفه الأنيقة بعناية وصوت احتراق الخشب في الموقد يضفي جوّا حميميّا مع الصّمت المطبق عدا تقليب الورق:

سنة 1575 من ميلاد المسيح... دوّن ملاحظاته ثمّ اتّكأ في سريره ليتمّ قراءة الصّفحات الأخيرة...

قرأ البرديّة الأخيرة وهو يستشعر عظمة ما تحت عينيه، ويتساءل عن الحكمة الإلهيّة التي جعلت هذا الكتاب يقع بين يديه بينما كان يبحث عن كتاب آخر. سمع كلام القسّ الضّرير وأمانيه وأنينه قبل أن ينطفئ. أريد أن يقرأه الجميع، وأن يصل هذا الكتاب إلى أكبر قدر ممكن من البشر، أن يقرأ ما حرص عليه القسّ إلى آخر يوم له، وهو يعاني المرض والظلمة، وما احتمله كاتبه الفلورنسيّ وافتداه بحياته

رغم أنّ الإعدام كان ينتظره، أكيد أنّهما سيكونان سعيدين ومرتاحين في قبرهما.

أريد أن يعرف العالم كلّ شيء عن محمّد، هذه أمنية القسّ، ويعلموا أنّه إنسان مثلنا، بل عانى كثيرا من يتمه وفقره، ضعيف مثلنا إلى الربّ وإلى الحبّ وإلى من يربت على كتفيه، لذا يشعر بأحزان المنهكين، والذين ظلمتهم الحياة. يعمل بساعديه ولا يتأفّف، رعى الغنم، تاجَر، بنى بيته، ساعد أهله، خاط ثيابه... له آلام مثل آلامنا وأفراح كأفراحنا.

كان هدير نهر التيبر قويّا في صمت السّاعات الأخيرة من اللّيل، سمعه كلّما نهض ليطلّ من الشّرفة بعد أن تيبّست قدماه من فرط ملازمة مكانه عند القراءة، نهر هادر بصرخة الأجساد الأخيرة المشنوقة والرّؤوس المقطوعة قبل أن تسقط فيه من أعلى جسر سانت أنجلو. دبّت رعشة شديدة في أطرافه وهو يذكر صوت منفّذ الإعدام ببوقه:

-ننفذ هذا المساء حكم البابا في حقّ...

غسله ماء النّهر من كلّ ما يمكن أن يعلق به، بعدها عمّ صفاء غريب المكان، حتّى الذئبة لوبا يعتقد أنّها انتظرت الجثّة لتحتضنها وتباركها كما احتضنت يوما التّوأمين بعد أن جرفهما التّيّار. سمع عواءها الذي لا يكفّ كأنّما تحتفل بخلاص تلك الأرواح، أو تعترض على ظلم البابا، لا يدري. سمع آخر هذه اللّيلة أيضا وشوشات رجال في الجوار، فتح

عينيه بكاملهما وسط الظّلام شبه المطبق، فبدا له ضوء خافت في الجهة الشّرقيّة، لكنّه لم يستطع أن يبصر ما يحدث.

الرّطوبة شديدة والبرد قارس، عاد فرامينو إلى الغرفة واقترب من الموقد ليتدفأ، وبعد أن سرت الحرارة في يديه عاد إلى حيث توقّف من كتاب أحمد: في السّنة العاشرة بعد المئة السّادسة من ميلاد المسيح..

حاجز ضبابيّ كثيف تلبّس النّهر بعد أن زال الظّلام، وانبعثت بشدّة رائحة الرّطوبة من أسفل الماء فدخلت أنفه وأشعرته بالرّغبة في العطاس. قضوا وقتا طويلا في انتشال الجثّة، ولكن قبل أن ينكشف الضّوء كان القارب قد نفذ بجلده واختفى وسط الضّباب، ولم تبق إلاّ رغوةٌ وفقاعاتٌ بيضاء تركها خلفه.

منظر النّهر فجرا مسالم رغم كلّ شيء.. كان هدوؤه يريحه ويمسح على قلبه قلقه وخوفه... ومع شعاع الشّمس الأوّل بدأت تنبت المدينة وتعلو وقوقة العصافير وظهرت قلعة سانت أنجلو شامخة، وكاتدرائية القدّيس بطرس تبعد عنها قليلا. صوت طيور نهر التيبر تدعوه لأن يمتّع ناظريه بطلوع الشّمس وكيف فرشت أشعّتها على المكان ويترك الغرفة الباردة، ينضمّ إليها طائر النّورس بنقره المتوازن على زجاج نافذته باحثا عن فتات الخبز.

ما أجمل هذا اليوم، خفض رأسه وتنفّس بعمق بعد أن لمح جنديين من جنود البابا يتحدّثان:

- سرت أخبار عن اختفاء الرّاهب فرامينو من كنيسة البابا منذ يومين.

- أتعرفه، هل رأيته من قبل؟

- لا لا أعرفه.

دقّت أجراس كتدرائيّة القدّيس بطرس، السّاعة الثّانية عشر ظهرا، منتصف النّهار، والملاك الحارس أعلاها ثابتا ينظر حوله.

تقدّم فرامينو الذي كان خلفهما بعد أن اطمأنّ، وحمد الربّ أنّه انتبه لثوبه الكهنوتي وغيّره، وذاب في الزّحام كما يذوب الملح في الماء ولم يُعرف له طريق منذ تلك السّاعة.

تمّت

بحمد الله

أعمال منشورة سابقاً





